

قيام رافضة المزابطين

صفحة مشرقة من تاريخ المغرب
في العصور الوسطى

تأليف
الدكتور حسن أحمد محمود



دار الفكر العربي

قيام دولة المرابطين

صفحة مشرقة من تاريخ المغرب

فى العصور الوسطى

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

شبكة كتب الشيعة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر

ت: ٢٦٢٨٦٨٤



shiabooks.net

رابط يديلى < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صفحة

مقدمة

الباب الأول : بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام الدولة

- ٧
 - ١٧
 - ١٩
 - ١٩
 - ٢٢
 - ٢٩
 - ٣٣
 - ٣٦
 - ٣٧
 - ٣٨
 - ٤١
 - ٥٧
 - ٧٠
 - ٨٠
 - ٨٢
 - ٩١
 - ٩٣
 - ٩٥
 - ١٠٣
 - ١٠٦
 - ١١٠
 - ١١٤
 - ١٢٤
 - ١٢٨
 - ١٣٦
 - ١٤٠
- ١ - بلاد المغرب يثبات ثلاث
 - ٢ - ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها في تاريخه
 - ٣ - جغرافية المغرب الأقصى
 - ٤ - الحياة القبلية في المغرب الأقصى
 - ٥ - شعوب البتر والبرانس
 - ٦ - قبائل البتر ومضاربهم
 - ٧ - المصامدة
 - ٨ - قبائل البرانس ومضاربهم
 - ٩ - قبائل المثلثين مؤسسة الدولة
 - ١٠ - دور المثلثين في تاريخ الإسلام
 - ١١ - ظهور الزناتيين في المغرب الأقصى
 - ١٢ اضطراب الأحوال الاقتصادية
 - ١٣ - انتصار المالكية على الشيعة
- ## الباب الثاني: توحيد صنهاجة - الدور الصحراوي
- ١ - إخفاق الحلف الصنهاجي الثاني
 - ٢ - اختيار عبدالله بن ياسين
 - ٣ - التعريف بعبد الله بن ياسين
 - ٤ - عبدالله بن ياسين في ديار لمتونة
 - ٥ - انتهاء الدور السلبي من رسالة عبدالله
 - ٦ - حركات المراقبة في بلاد المغرب
 - ٧ - حياة المرابطين في رباط السنغال
 - ٨ - خروج المرابطين من رباط السنغال
 - ٩ - سياسة عبدالله في تحقيق أهدافه
 - ١٠ - أسس دعوة عبدالله

١٦١

الباب الثالث : الدور المغربي

١٦٣

١ - أهمية الدور المغربي في تاريخ المرابطين

١٦٤

٢ - أسباب فتح المغرب

١٦٥

٣ - العوامل التي تحكمت في زحف المرابطين إلى المغرب

١٦٧

٤ - تاريخ بدء تدفق المرابطين

١٦٨

٥ - النزاع بين البرانس والبتري

١٨٠

٦ - تعاليم ابن ياسين وأثرها في فتح المغرب

١٨٤

٧ - العامل الاقتصادي وزثره في فتح المغرب

١٨٧

٨ - العامل الجغرافي وأثره في فتح المغرب

١٩٠

٩ - ظهور يوسف بن تاشفين

١٩٩

الباب الرابع: الدور الأندلسي

٢٠١

١ - انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد

٢٠٤

٢ - الدوافع التي أذكت رغبة المرابطين في الجهاد

٢٢٧

٣ - استدعاء المرابطين للجهاد في الأندلس

٢٣٣

٤ - الدور الأول من أدوار الجهاد في الأندلس: فكرة الجبهة المتحدة

٢٥٧

٥ - الدور الثاني من أدوار الجهاد في الأندلس: التدخل المباشر

٢٦٦

٦ - الجهاد في شرق الأندلس: يوسف والقمبياطور

٢٧٩

٧ - أثر معركة الجهاد في تأكيد قيام الدولة

٢٨٣

الباب الخامس : نتائج قيام دولة المرابطين

٢٨٥

١ - أثر قيام الدولة في الأوضاع السياسية

٢٩٥

٢ - أثر قيام الدولة في نظم الحكم

٣٢٨

٣ - أثر قيام الدولة في النظم الحربية

٣٤٩

٤ - أثر قيام الدولة في الحياة الاقتصادية

٣٦٠

٥ - أثر قيام الدولة في الحياة الاجتماعية

٣٧٠

٦ - أثر قيام الدولة في حضارة المغرب والأندلس

٣٩٥

ملاحق

٤٠٩

مراجع الكتاب

٤٢٣

كشاف

مقدمة المؤلف

لعب المغرب فى تاريخ الإسلام دوراً رائعاً، فقد أصبح بنوه بعد أن أسلموا، وحسن إسلامهم، من أشد جند الإسلام إخلاصاً، وأوفرهم تحمساً لخدمة هذا الدين، ورفع لوائه، والدفاع عنه، فقد فتحوا الأندلس، وبسطوا ظل الإسلام حتى كاد يتخطى جبال البرانس، وناوشوا الفرنجة فى البر والبحر، ووقفوا لهم بالمرصاد، و زادوا عن حياض الإسلام بقدر ماوسعهم من قوة، وتآلق نجم أبطاله وأنجاده فى سماء الجهاد، حتى اقترنت أسماؤهم بأسماء السلف الصالح، صدق فى الجهاد وإخلاص للعقيدة، وقد أسهمت مدارس المغرب والأندلس فى بناء صرح الحضارة الإسلامية وأصبحت مدارس القيروان، وقرطبة، وفاس ينبع متفجرة بالثقافة الإسلامية.

وبرغم ذلك كله، لم تظفر الدراسات المغربية من الباحثين العرب بما تستحقه من عناية واهتمام، وخلا الميدان أمام الفرنسيين، فبعثوا تراث المغرب، وأرخوا لشعوبه، وكشفوا النقاب عن جوانب من حضارته، ونشروا كثيراً من المخطوطات التى ظلت دهرًا طويلاً حبيسة فى مكتبات المغرب الأقصى.

ومن حسن الحظ، أن مصر أخذت فى السنوات الأخيرة تقدر ما للدراسات المغربية الأندلسية من أهمية وخطر، وبدأت تقدر الدور الذى لعبه المغاربة فى تاريخ الحضارة الإسلامية. وكانت كلية الآداب بجامعة القاهرة سباقة فى هذا المضمار، إذ وجهت بعض طلاب قسم التاريخ هذه الوجهة، وشجعتهم على ارتياد هذا الميدان ومحاولة كشف النقاب عن هذا التراث المجيد، وبلغ الاهتمام بالدراسات المغربية الأندلسية مداه فى السنوات الأخيرة.

وقد كنت أحد من اتجهوا هذه الوجهة، وفرغوا لدراسة تاريخ المغرب وحضارته، فأعددت بحثاً عام ١٩٤٨ موضوعه «تاريخ بنى زيرى وسياستهم الداخلية» وقد رأيت إتماماً للفائدة، أن أنصرف إلى الدراسات المغربية، لأنها تعد بحق ناحية من نواحي التاريخ الإسلامى، كانت وما تزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث، لبيان الحقائق الغامضة فى تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامى الذى قام بدور هام فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

وإذا كنت فى بحثى السابق قد أرخت لقبيلة صنهاجة الشمال، الضاربة فى الجزائر وتونس، والتي أسست دولة بنى زيرى، وكانت ساعد الفاطميين الأيمن فى نضالهم من أجل السيادة على المغرب، فقد رأيت أن أوجه عنايتى فى هذا البحث إلى فرع آخر من هذا الشعب العظيم، الذى ينزل فى صحراء المغرب، وتمتد دياره حتى تصاقب نهري السنغال والنيجر، وبذلك أكون قد أسهمت فى الإحاطة بتاريخ شعب صنهاجة، الذى لعب دوراً ممتازاً فى تاريخ المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى.

وقد أثرت أن أؤرخ لدولة المرابطين، التى أقامت صرحها قبيلة صنهاجة الجنوب، والتي لعبت فى التاريخ الإسلامى دوراً رائعاً، ونشرت الإسلام فى ربوع السودان الغربى، وبثت الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية، ثم توسعت صوب الشمال، فاقترحت ميدان المغرب والأندلس، وشاركت فى معركة الجهاد، فأنفذت الإسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه، وناصبت الفرنجة العداء، وجندت المجتمع كله لصعد عدوانهم، حتى روت دماء أهل المغرب بطاح الأندلس وسجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين، وفرسانهم فى سجل الخالدين، وأصبح اسم يوسف بن تاشفين فاتح الأندلس، وقاهر ألفونسو السادس والبابوية الناهضة، ومبدد خرافة الاسترداد - يقترون باسم صلاح الدين وغيره من أبطال المعارك الصليبية، وقد جاهدت دولة المرابطين الفتية فى البحر، كما جاهدت فى البر، وراحت أساطيلها تجوس خلاله، وتقف لسفن الفرنجة بالمرصاد، وتنازعهم السيادة فى هذا الميدان.

ولكن هذه الدولة، رغم هذا الدور الرائع الذى لعبته فى تاريخ الإسلام، لم تلق من المؤرخين المحدثين اهتماماً يذكر، حتى إنهم أصبحوا حين يعرضون لتاريخ المغرب الإسلامى، يلمون بها إلمامة عابرة، لا تروى غلة، ولا تنقع صدى ولا تكشف عن هذا الدور الخطير، الذى قام به المرابطون فى تاريخ الحضارة الإسلامية، وإنما هى أخبار مبشرة فى ثنايا هذه الكتب، ولم يفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين - فيما نعلم - ببحث تاريخ هذه الدولة فى كتاب واحد، ولعل هؤلاء المؤرخين لم يدركوا ما لهذه الدولة من أهمية وخطر فى تاريخ الحضارة الإسلامية، وما خلفوه من تراث مجيد تليد، يستحق منا العناية بتقصي أخبارهم، وتدوين تاريخهم، بطريقة علمية حديثة مبنية على النقد والتحليل والإدلاء بأراء شخصية تفيد العلم فائدة محققة، وتلقى ضوءاً براقاً على ماتركته من آثار تستحق العناية.

لا ننكر أن تاريخ المرابطين في الأندلس لقى من عناية المؤرخين نصيباً غير قليل، فقد ألف المستشرق يوسف أشباخ كتاباً عن تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ محمد عبدالله عنان، ولكن مؤلف هذا الكتاب لم يعتمد على وثائق هامة في تاريخ الأندلس، مثل كتاب الذخيرة، أو كتاب التبيان للأمير عبدالله، كما عقد دوزي في كتابه *Histoire des Musulmans d'Espagne* فصلاً عن المرابطين، على أنه قد ظهرت في هذا الموضوع وثائق جديدة، مثل كتاب التبيان، وغيره أوجبت أن يعاد النظر في آرائه وأقواله، أما بروفنسال فلم يتعرض في الكتاب الذي ألفه في تاريخ الأندلس للمرابطين، إذ وقف عند سقوط الخلافة، على حين نجد أن قدبرة في كتابه *Decadencia et dis-* paracion de los Aimeravides الأندلس، ثم سقوطها، ولكن تاريخ المرابطين في المغرب والسودان، ظل ميداناً لم يطرقه أحد من المؤرخين، وأصبحت الخطوات الأولى التي سبقت ازدهار الدولة واتساعها تكاد تكون مجهولة إلى حد ما ^(١).

وقد نلتبس للمؤرخين المحدثين بعض العذر في إعراضهم عن الإفاضة في تاريخ المرابطين، والتوسع في توضيح الدور الذي قاموا به، وذلك بسبب قلة المادة التاريخية، التي يمكن الاعتماد عليها في أمثال هذه الدراسات، فقد ضاعت مراجع معاصرة في غاية الأهمية، مثل كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي، وكتاب تاريخ سبتة للقاضي عياض، كما لانسى أن الموحدين أعداء المرابطين الألداء عملوا بقدر الطاقة على الإساءة إليهم، فمحووا آثارهم، وشوهوا تاريخهم، ورموهم بكل نقیصة، واتهموهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين،

(١) ظهرت بعض المقالات المتفرقة مثل

E.Lavust: L'habitation chez les transhumants du maroc centrale, Hesperis, 1934, t XYIII

M. Delafosse: Chronique du Fauts Senegaalais, Revue du Monde Musulmane, tome, 25, 1913.

Ismail Hamet : La civilisation arabe en Afrique Centrale, Revue du Monde Musulmane, avril, 1911, tome XIY.

Basset : Melanges Afriqanns et Orientaux

Dela Chappelle : Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hesperis annee 1930 tome Xi.

Doutte : Notes sur l' Islam Maghribin

Basset : Mission au Senegal

لذلك أصبح الكتاب الذين عاشوا في عصر الموحدين يخشون أن يتعرضوا لبحث تاريخ المرابطين في إسهاب، خشية أن يثيروا غضب الموحدين، فعمد كثيرون منهم إلى تجرييح المرابطين، وتشويه سمعتهم والإساءة إليهم، ولولا أن بعض المؤرخين المتأخرين عثروا على مراجع معاصرة للمرابطين كانت موجودة في عصرهم، وأفادوا منها، ونقلوا عنها ما طاب لهم، لما استطعنا أن نعثر في تاريخ المرابطين على مادة يمكن الاعتماد عليها في تدوين تاريخهم.

وبرغم ذلك كله، أقدمت على دراسة موضوع قيام الدولة المرابطية، وكان إقبالي على هذا الموضوع، لا يخلو من مغامرة، وكنت أخشى أن تصرفني قلة المادة عن محاولة كشف النقاب عن تاريخ قيام هذه الدولة.

ولكني مضيت في سبيل البحث قدما، واستطعت أن أعثر على مادة تاريخية مهدت لى السبيل، واستطعت أن أسهم بنصيب متواضع في تدوين تاريخ قيام هذه الدولة، وترسم الآثار التي تركتها في حضارة المغرب والأندلس.

وقد ظفرت ببيغيتي، ووجدت طلبتي في وثائق معاصرة بالغة الخطورة في تاريخ هذه الفترة، مثل كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ولم يزل الشطر الأكبر من هذا الديوان العظيم مخطوطاً لم ينشر بعد، كان ابن بسام معاصراً للمرابطين، وشهد ذلك الصراع المرير الذي نشب بين الإسلام والنصرانية في بلاد الأندلس، وأورد طائفة من الرسائل على جانب عظيم من الأهمية والخطر أعانتني على التأريخ لحركة جهاد المرابطين في الأندلس، كما كشف كتاب الذخيرة النقاب عن أثر المرابطين في تاريخ الحضارة الإسلامية في هذه البلاد.

ومن هذه الوثائق أيضاً، كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض اليعصبى، وهو مخطوط لم ينشر بعد، وقد عاصر عياض دولة المرابطين، وولى القضاء في عهدهم، ولمس مقدار ما بذلوه من جهد، وقد أرخ عياض لفقهاء مالك في المشرق والمغرب، وعرض لسيرة عبدالله بن ياسين، وهى أول ترجمة نعثر عليها لذلك الرجل، الذى كان له الفضل الأول في قيام الدولة.

ومن هذه الوثائق أيضاً كتاب التبيان للأمير عبدالله بن بلكين، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة، وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة وحصن

ليط، وسجل حوادث الجهاد البارزة تسجيلاً يدعو إلى الإعجاب حقاً كما كشف النقاب عن سياسة يوسف في بلاد الأندلس، وقد نشره بروفنسيال مع تعليق وترجمة بمجلة الأندلس^(١).

ومن هذه الوثائق الهامة نذكر كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري، وكان معاصراً للأدوار الأولى من قيام هذه الدولة، وأرخ للمرابطين في صحراء المغرب والسودان، قبل أن يتدفقوا إلى المغرب والأندلس، كما عرض لعبد الله بن ياسين، وعرف بشعوب المثلثين تعريقاً طيباً حتى ليعتبر قوله في هذه الناحية لا يعلى عليه.

ومن هذه الوثائق كتاب مشيخة القاضي عياض، الذي يلقي ضوءاً على الحياة الثقافية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية.

وقد وجدت في كتب الطبقات، مثل كتب ابن الأبار^(٢)، وابن بشكوال^(٣)، وابن الزبير^(٤) والضبي^(٥) والسيوطي^(٦)، وأحمد بابا التمبكتي^(٧)، وابن فرحون^(٨)، وابن المؤقت المراكشي^(٩)، وابن القاضي^(١٠)، وابن خير^(١١) مادة غزيرة أعانتني على التأريخ للحركة الثقافية في بلاد المغرب والأندلس، واستعنت بها في دحض الآراء التي انتهت دوزي إليها، فيما يتعلق بالدور الذي لعبه المرابطون في تاريخ الحضارة، كما ألفت هذه الكتب ضوءاً على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، ووردت في ثنايا الترجمة للعلماء والفقهاء أخبار تتعلق بتاريخ المرابطين، على جانب عظيم من الأهمية.

وكذلك اعتمدت اعتماداً كبيراً على كتب الأدب، التي أنارت السبيل لدراسة

(١) Al Andalus : vol. III, Fasc2, Madrid. 1935 vol. VI, Fasc. I, 1941.

(٢) التكملة لكتاب الصلة

(٣) كتاب الصلة

(٤) صلة الصلة

(٥) بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس

(٦) بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة

(٧) نيل الابتهاج بتطريز الديباج

(٨) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب

(٩) السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

(١٠) جلوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس

(١١) الفهرست

الحياة الثقافية والاجتماعية، وناهيك بكتاب قلائد العقيان، وكتاب المطمح للفتح ابن خاقان، الذى كان معاصراً للمرابطين، وأرخ لأعلام الكتاب والشعراء، ووصف ألواناً من الحياة الاجتماعية فى بلاد الأندلس. كما اعتمدت على كتب مخطوطة فى تاريخ الأدب، مثل كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية^(١)، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، الجزء الحادى عشر، كما استعنت بدواوين الشعراء المعاصرين، مثل ديوان ابن حمديس الصقلى، وديوان ابن خفاجة الأندلسى، وديوان الأعمى التيطلى، ورجعت إلى ماورد من شعر المعاصرين فى كتاب الذخيرة، وكتاب الحلة السيرة لابن الأبار وفى كتاب بغية الملتبس للضبى. وقد استرعت معركة الجهاد بالأندلس انتباه المعاصرين من الكتاب والشعراء، فسجلوها فى شعرهم وترسيلهم، ومدحوا المرابطين، ووصفوا الدور الرائع الذى اضطلعوا به فى تاريخ الجهاد، حتى نشأ حول معركة الزلاقة مايمكن أن نسميه أدب الزلاقة، ناهيك بما للشعر من أهمية وخطر فى تصوير الحياة الاجتماعية، وقد حوى ديوان ابن خفاجة بوجه خاص معلومات تاريخية واجتماعية عظيمة الأثر، ومن أسف، أنى حاولت أن أقرأ ديوان ابن قرمان الذى حوى طائفة طيبة من الأزجال الأندلسية باللغة الدارجة فلم أوفق.

كذلك اعتمدت على كتب الحسبة، كرسالة ابن عبدون التجيبى^(٢) الذى عاصر استيلاء المرابطين على أشبيلية، ويعد هذا الكتاب بحق مرجعاً عظيم الفائدة فى دراسة نظم الحكم والحياة الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر، كما استعنت بكتاب السقطى فى الحسبة أيضاً^(٣).

أما كتب النقود^(٤)، وغيرها من المراجع المادية، فقد كشفت عما أحاط بقيام

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً.

(٢) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجمها وعلق عليها:

E. Levi-provençal: Un docmen sur la vie Urbaine et les corps de metiers a seville au debut du XII siecle: le traite d' ibn abdun publie avec une introduction et un glossarie J. as avril-guin 1934

(٣) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجمها وعلق عليها:

Un mapuel Hispanique de Hisa: Sur La Surveillance des corp eration et la repression des-fraudes en Espagne Musulmane Publie Par colin et Provençal.

Catalogo de Monedes Arabigo ... Moned de las Dinast

(٤)

Cat. Des Monnaies Musul. de la Bib. Nat.

Katalog der Orient. ane - Poole.

الدولة من غموض، إذ استعنا بها في تحديد كثير من التواريخ الهامة، كوفاة أبي بكر بن عمر، وتولى يوسف بن تاشفين، كما استعنت بها في دراسة نظم الحكم، حين عرضنا للألقاب، ولولاية العهد، كما استعنا بالنقود في دراسة الحياة الاقتصادية في البلاد، إذ ليس من شك في أن نقد الدولة مقياس لحالتها الاقتصادية، كلما كان سليماً متمتعاً باحترام الناس وثقتهم، دل ذلك على مقدار مانعت به الدولة من استقرار وغنى، أما أمكنة ضرب النقود، فقد كشفت لنا النقاب عن التقسيمات الإدارية، وكشفت عن مدى السلطة التي تمتع بها أمراء المرابطين، وألقت ضوءاً على ذلك النظام الإقطاعي الذي كان طابعاً مميزاً للدولة المرابطية.

أما عن النقوش^(١)، فقد استعنا بكتاب النقوش الأندلسية الذي وضعه بروفنسال، وقد استعنا ببعض هذه النقوش في تحقيق بعض التواريخ والأنساب. ولم نغفل جانب الفن، فقد اعتمدنا على أهم ماكتب في تاريخ الفن الأندلسي المغربي في عهد المرابطين، مثل كتب تراس ومارسيه، ولو أننا لم نعرض لتاريخ الفن عرض المتخصص الملئم بدقائقه، إنما ألمانا به إلمامة عابرة.

كذلك لم نغفل كتب الدين والفلسفة والفقه، فقد اعتمدنا على موطأ الإمام مالك في دراسة تعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين، ومحاولة التعرض لنظم الحكم التي وضعها المرابطون، وخصوصاً مايتعلق بالشورى، وأحكام الجزية والزكاة والخراج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم نغفل كتب الملل والنحل، مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني، وكتاب الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم، وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادي، وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وذلك للرد على مقالته الموحدون في حق المرابطين.

وقد استعنا في هذه الناحية، بما كتبه المستشرق جولد تسهير في كتاب العقيدة والشرعية، وفي مقدمته لكتاب محمد بن تومرت، المسمى بأعز ما يطلب، حيث عرض لعقائد الموحدين عرضاً طريفاً، كما اعتمدنا على بعض المواد المتفرقة بدائرة المعارف الإسلامية.

ولم نغفل أمر الجغرافية في دراسة البيئة، التي قامت فيها دولة المرابطين، ودراسة أثر هذه البيئة في توجيه الحوادث في ذلك العصر الذي نحن بصدد التأريخ

له. وقد اعتمدنا على ماكتبه الجغرافيون والرحالة المسلمون، مثل ابن حوقل^(١)، والإدريسي^(٢) وابن جبير^(٣)، والدمشقي، وابن فضل الله العمري^(٤)، والحميري^(٥)، وابن بطوطة^(٦). كما اعتمدنا على الرحالة المحدثين الذين جابوا إفريقيا في العصر الحاضر، ووصفوا بيئة المغرب وشعوبه وصفاً دقيقاً وألما بديار الطوارق أحفاد صنهاجة. اعتمدنا مثلاً على كتاب الرحالة دي فرييه حيث درس بيئة الطوارق، ووصف الحياة الاجتماعية وصفاً رائعاً، وانتهى إلى أن الطوارق المحدثين لا يكادون يختلفون عن أجدادهم في كثير أو قليل. وفي الباب الأول عقدنا موازنة بين الطوارق المحدثين والصنهاجيين القدماء، واهتدينا إلى هذه الحقيقة، وهي أن التشابه بين الشعيين عظيم.

أما المصادر التي تناولت الكلام على النظم الإسلامية، فقد اعتمدنا فيها علي مقدمة ابن خلدون اعتماداً كبيراً، إذ ليس من شك في أن ابن خلدون من أئمة العلماء، الذين عرضوا لهذه الناحية بالدراسة، قضى شطراً كبيراً من حياته في المغرب، وكان يدرك روح مواطنيه إدراكاً صادقا، فصور النظم السائدة في تلك البلاد تصويراً رائعاً، حتى إن أحكامه عن بيئة المغرب جاءت صادقة كل الصدق، ولا سيما ما كتبه عن القبائل مؤسسة الدول، والبدو المستقرين، وإبراز أثر هذه النواحي القبلية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كما رجعنا لكتاب سراج الملوك للطرطوشي، وهو فقيه أندلسي عاش في الإسكندرية، وعرض لنظم الحكم المألوفة في بلاد الأندلس، كما عاصر قيام الدولة المرابطية، وروى أنه اتصل بيوسف بن تاشفين.

ولم نغفل ما كتبه المستشرقون عما يمت لهذه الدولة من سبب بعيد أو قريب، فقد استعنا بما كتبه دوزي^(٨)، وبروفنسال^(٩)، وجورج مارسيه^(١٠)، ووليم

(١) المسالك والممالك

(٢) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس

(٣) رحلة ابن جبير

(٤) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

(٥) مسالك الأبصار

(٦) الروض المعطار في خبر الأقطار

(٧) تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(٨) Hist. des Mus: d'Espagne et Recherches

(٩) بعض المقالات Hesperis

(١٠) G.Marcais :Manuel d'Art Musul.

مرسيه^(١)، وتراس^(٢)، وجوليان^(٣)، ورينيه باسيه^(٤)، والفريد بل^(٥)، كما اعتمدنا على بعض المقالات الهامة التى كتبها أعلام المستشرقين فى الموسوعات والدوريات، مثل مجلة الأندلس، وموسوعة هسبريس^٦، والمجلة الآسيوية الملكية، والمجلة الإفريقية ومجلة الوثائق المغربية، ودائرة المعارف الإسلامية^(٦).

وقد حاولت أن ألقى ضوءاً على هذا العصر الغامض، ولا أقول إنى بلغت من الإبداع الغاية، إنما يكفى أن أقرر أنى أسهمت بنصيب فى تحقيق تاريخ قيام هذه الدولة وكشف النقاب عن الدور الذى اضطلعت به فى تاريخ الحضارة، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه السداد.

حسن أحمد محمود

(١) G.Marcis: Les Arabes en Berberie

(٢) Terrasse :Histoite du Maroc

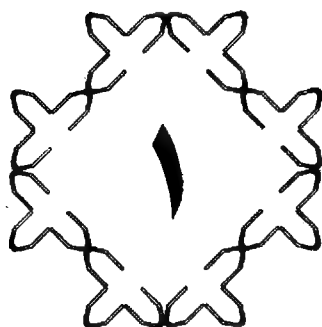
(٣) Mission au Senegai

(٤) Les Benou Ghanya

(٥) رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية فيما كتب عن

مراكش - لتونة - لظلة - أغمات - صنهاجة - السيد - قشبية - جهاد - أدرار - عبدالله بن ياسين - لثام - السوس - على بن يوسف - المرابطون - رباط - سنغال.

الباب الأول



بلاد المغرب الأقصى
قبيل قيام الدولة

١ - بلاد المغرب بينات ثلاث متباينة جغرافيا:

يطلق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على البلاد الممتدة من برقة غربا حتى المحيط الأطلسي اسم المغرب^(١)، وهو فى الحق اصطلاح جغرافى عام، يطلق على بلاد تضم بينات جغرافية متباينة بعض الشيء، وقد كان الرومان حين أخضعوا هذه البلاد لسلطانهم يشعرون بهذا التنوع الجغرافى فكان جغرافيوهم يجعلون هذه البلاد أقسامًا ثلاثة: إفريقية، ونوميديا^(٢)، وموريتانيا. ويبدو أن العرب قد شعروا بما شعر به الرومان من قبل، فلاحظوا أن بلاد المغرب تتألف من بينات ثلاث، لكل واحدة منها طابعها الخاص الذى تتميز به، وتختلف كل من حيث الموقع، وظروف البيئة، والتوجيه الجغرافى، نعم اصطلاح الجغرافيون العرب على أن يجعلوا من بلاد المغرب أقسامًا ثلاثة هى: إفريقية، والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى، وحدود إفريقية الغربية تطابق حدود إفريقية البيزنطية، على حين أن المغرب الأوسط يمتد من حدود إفريقية الغربية حتى مصب وادى ملوية^(٣)، ويمتد المغرب الأقصى من وادى ملوية حتى مدينة آسفى^(٤) على البحر المحيط.

هذه إذن هى بينات المغرب: إفريقية، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى. فكيف تم لهذه البيئة الأخيرة أن يتألق نجمها، وترجح كفتها، وتلعب فى تاريخ المغرب الإسلامى دورًا بارزًا ممتازًا.

٢ - ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها فى تاريخه:

تدفق العرب من مصر متجهين صوب المغرب، فأوغلوا فى برقة، ثم فى طرابلس، ثم تدفقوا إلى إفريقية، وأسسوا مدينة القيروان، واستطاعوا بعد جهود متواصلة، من سنة ٤٩ هـ إلى سنة ٧٨ هـ، أن يخضعوا هذه الولاية لسلطانهم،

(١) انظر ابن حوقل: المسالك، والبكري: المغرب، والإدرسي وابن خلدون العبر: ج ٦ ص ١٠٠، وانظر اسماعيل رافت: التبيان فى تخطيط البلدان، ص ٢١ ومابعدها. Andre Julien: Hiet de L'Afrique du nord' P.4

(٢) De Mas Latrie: Traites de paix de Commerce p.6.

(٣) نهر ملوية آخر المغرب الأقصى من جهة الشرق، نهر عظيم منبعه من فوطة فى جبال قبيلة رازى، ويصب فى البحر الرومى عند غساسة، انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٢

(٤) آسفى آخر مرمى تصل إليه المركب فى أقصى ساحل المغرب، وكانت تنزل به قبيلة رجراجة. انظر الإدرسي: صفة المغرب، ص ٧٤.

فاستقامت أمورها لهم^(١)، وأوغل نفوذهم فيها، وأصبحت قاعدة حربية يتوسعون منها صوب المغرب لإتمام فتحه، وأصبحت القيروان قبلة سكان المغرب جميعهم، يضربون إليها آباط الإبل، يطلبون العلم، ويشاركون فيما نعمت به إفريقية من سر ورخاء^(٢). هكذا استطاعت إفريقية - بعيد الفتح - أن تلعب الدور الأول في تاريخ المغرب، وكانت لها قوة التوجيه، وظهر تفوقها وامتيازها في صورة جليلة واضحة، بسبب مواردها المتعددة، وتراثها الجم، وموانئها المشرقة على بحر الروم، وموقعها الجغرافي الممتاز، وقربها من مصر، ووفرة تراثها الحضارى القديم^(٣).

ثم استطاع العرب أن يتموا فتح المغرب، وأوغل عقبة بن نافع الفهري في البلاد، حتى أشرف على ساحل المحيط، وهبأ العرب للمغرب نوعاً من الوحدة السياسية بزعامة القيروان، ولكن ما لبثت طبيعة البلاد أن ظهرت بوضوح وجلاء، وأخذت تهدد هذه الوحدة تهديداً خطيراً، وظهرت شخصية المغرب الأقصى ظهوراً واضحاً منذ البداية، حين تزعم حركة مقاومة الفاتحين العرب بزعامة كسيلة بن لمزم الأوربي، الذي أوقع بعقبة بن نافع، ولم ينجح العرب في بسط نفوذهم على المغرب الأقصى، إلا بعد أن استطاع موسى بن نصير يبعد نظره أن يقرب أهل البلاد من الفاتحين، وأن يحببهم في الإسلام.

ثم ظهرت أهمية المغرب الأقصى - بصورة أوضح - حين بدأ المسلمون يعبرون بحر الزقاق^(٤)، بقصد فتح الأندلس، فقد أصبح القاعدة الحربية لهذا الفتح، يمد الفاتحين بما يحتاجون إليه من مؤن وذخائر، ويؤمن ظهورهم، ويشد أزهرهم، وأصبح بربر المغرب الأقصى من أشد جنود طارق وموسى إخلاصاً لفتح بلاد الأندلس ونشر الإسلام فيها^(٥). لذلك لانكون مغالين إذا قلنا إن فتح الأندلس يرجع الفضل فيه إلى أهل المغرب الأقصى إلى حد بعيد، وإن هذا الفتح قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر، فرسخت قواعد هذا الدين،

(١) الديباغ: معالم الإيمان، ج ١ ص ٦٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١ ص ٢١٥، والإدرسي ص ١١٠.

(٣) Gautier: Les Siecles obscurs, p. 350.

Fretum Gaditanum, detroit de Gads (٤)

H. Terrasse: Hist, du Maroc, p. 84 (٥)

قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر، فرسخت قواعد هذا الدين، وبدءوا يخلصون له كل الإخلاص^(١).

وظهرت شخصية المغرب الأقصى مرة أخرى في هذه الثورة، التي أشعل نارها ميسرة المطغرى بطنجة سنة ١٢٢هـ (٧٤٠م)، حينما خرج على عمرو بن عبدالله فقتله، ثم بايع عبدالاعلى بن جريج أول الأمر، ثم دعا لنفسه بالخلافة^(٢) وهبت قبائل المغرب الأقصى كلها تؤيده، وتشد أزره، وكادت بلاد الأندلس والمغرب الأقصى تنسلخ من الخلافة الإسلامية^(٣)، بل إن جموع الخوارج غزت إفريقية، وراحت تهدد القيروان نفسها، وقد وضعت هذه الثورة حداً لنفوذ العرب في بلاد المغرب الأقصى، وبدأت منذ هذا التاريخ بوادر الحضارة الإسلامية في المغرب تنتعش بعد أن أسلم البربر، وأخذوا يتذوقون التراث العربي، يفهمونه ويحاولون أن يضيفوا إليه، أو يضيفوا عليه لوناً مغربياً^(٤).

ولم يرأب الصدع، ويحقق للمغرب نوعاً من السلام يعيش في كنفه إلا الأغلبية الذين أقروا السلام في إفريقية وفي المغرب معاً^(٥). ولكن شخصية المغرب الأقصى وضحت وضوحاً تاماً، وغدت لها قوة التوجيه في مجريات الحوادث في ظل دولة الإدارة، التي قامت على اكتاف بربر المغرب الأقصى، الذين بايعوا إدريس بن عبدالله، وآووه ونصروه وشدوا أزره، وقد وحد الإدارة البلاد تحت لواء واحد، وهيئوا لها حكومة موحدة مستقرة، وأسسوا مدينة فاس، وجعلوها حاضرة للبلاد^(٦)، كما قضوا على فتنة الخوارج، وأقروا السلام، ونشروا الإسلام^(٧)، وهيئوا للبلاد حياة مستقرة هادئة، وأخذت مدينة فاس تنشر الثقافة الإسلامية بين البربر، وتهمي لقيام حضارة مغربية إسلامية يشتد ساعدها في القرن

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠

(٣) مع ملاحظة أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السياسية أو اضطهاد البربر فحسب، بل كان من أهم أسبابها الدعوة للمذهب الخوارج ونجاح هذا المذهب في المغرب.

(٤) H. Terrasse: Hist. du Maroc, p. 109.

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٣.

(٦) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٦.

(٧) عبدالرحمن بن زيدان: الإنحاف، ج ٢ ص ٦.

الخامس الهجرى، ولانكون مغالين إذا قلنا إن الأدراسة بدءوا فى هذا الميدان ما أتمه المرابطون والموحدون من بعدهم^(١). ثم كانت نكبة إفريقية على يد عرب بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى مؤكدة لظهور المغرب الأقصى، واضطلاعه بالدور الأول فى تاريخ الإسلام فى هذا الجزء الغربى من العالم^(٢). هذه البيئة، أعنى بيئة المغرب الأقصى، هى التى تعيننا من دون بيئات المغرب، ففيها قامت دولة المرابطين، التى نحن بصدد التأريخ لقيامها، ومنها تدفقت صوب الأندلس ففتحته.

٣- جغرافية المغرب الأقصى:

وإذا كانت دراسة البيئة الجغرافية لأى قطر من الأقطار ضرورية لفهم تاريخه، فإن دراسة جغرافية المغرب أشد ضرورة وأكثر لزوما، فى فترة العصور الوسطى على الخصوص، لأن البيئة الجغرافية تؤثر فى الحياة القبلية تأثيراً عظيماً، والحياة القبلية هى عصب تاريخ المغرب الإسلامى، ذلك أن القبائل المغربية ظفرت بعد أن تم إسلامها بالمساواة المطلقة بالفاتحين، واستطاعت منذ القرن الثانى الهجرى فصاعداً أن تؤسس دولا لعبت فى تاريخ المغرب الإسلامى دوراً عظيماً، فإذا لم نستعن بالجغرافية لم نستطع أن ندرس تنقلات القبائل، وتحركاتها فوق صفحة المغرب، إذ لابد مثلاً من دراسة الطرق والمسالك التى سلكتها، ودراسة البيئات التى تأثرت بها وأثرت فيها، ولابد من التعرض للجغرافية الاجتماعية للبلاد فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة، لتفهم النزاع الدائب بين سكان السهول، الذين يحنون إلى الاستقرار، ويكلفون بتزول المدن، ويأخذون ببعض أسباب الحضارة، وبين البدو الضاربين فى الصحارى والسهول، الذين يتتبعون المراعى، ويربون الإبل والأغنام، ويغيرون إغارات منظمة على مناطق الخصب والاستقرار، بغية الظفر بخيراتها وثرواتها^(٣)، فالطمع فى الأراضى الخصبة المليئة بالخيرات، كان من

(١) Gautier (op.cit.) p.350.

(٢) الإدريسي : صفة المغرب والسودان، ص ١١٠.

و Julien :Hist. de l'Afrique, p.375.

(٣) Julien :Hist. de l'Afrique, du nord, p.6.

أقوى الأسباب التى دفعت كثيراً من القبائل إلى التوسع، والفتح، وبسط النفوذ، وإقامة الدول.

وقد فطن بعض المؤرخين الغربيين، أمثال جوتيه^(١)، وجولييان^(٢)، وتراس^(٣) لهذه الحقائق، وأولوها من اهتمامهم نصيباً موفوراً، واستطاعوا بعد أن اصطنعوا هذا المنهج الجغرافى، أن يفسروا أحداث التاريخ فى المغرب تفسيراً معقولاً، ناهيك بدراسة الموقع، وأثره فى تشكيل التاريخ لبيئة كبلاد المغرب الأقصى، يرتبط تاريخها بموقعها إلى حد كبير، فقد اتصلت اتصالاً مباشراً بقلب إفريقيا، وبحوض البحر الأبيض المتوسط، والشرق الأدنى، كما اتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق، واتصلت بغرب إفريقيا عن طريق الواحات^(٤).

لهذا كله، ساعمد إلى دراسة موقع المغرب الأقصى، وأثره فى تاريخه فى العصور الوسطى، كما سأعرض فى إيجاز لمعالم الجغرافية الطبيعية، لنستطيع على ضوء الأسس التى سنقررها أن نفهم بعض الظواهر التاريخية، التى سنعرض لها بالدراسة فى البحث.

وأهم ما يلاحظ على إقليم المغرب الأقصى، أنه يمثل ما يطلق عليه الجغرافيون اسم «منطقة أطراف» أى أنه النهاية القصوى لهذه الوحدة الجغرافية العامة المسماة بالمغرب، فلن نجد وراء هذا الإقليم إلا البحر المحيط، الذى كان يعتبر - إذ ذاك - حاجزاً منيعاً. ويعتبر المغرب الأقصى أيضاً منطقة عزلة، فالطرق الموصلة إليه لا تكاد تتجاوز ثلاثة عدا: أولها طريق بحرى عبر المضيق الذى يصله بالأندلس، ثم طريق برى آخر طويل لا يؤدي إلا إلى الجنوب الأقصى، كما يؤدي إلى صحراء السودان الغربى^(٥)، وفى الجنوب تحيط به سلسلة جبال درن، التى تعد بحق حاجزاً حسر كل التيارات الجنسية التى كان يجب أن تندفق إلى هذا الإقليم

Gautier : les siecles obscurs du maghreb (١)

Julien :Hist,de L'Afrique du Nord (٢)

Terrasse: Histoire du Maroc (٣)

H.Ter: asse: Hist du Maroc,p.10. (٤)

Terrasse:(op.cit.) p.10. (٥)

من جوف الصحراء، وتؤثر في سكانه تأثيراً كبيراً^(١). وكان من أثر ذلك كله، أن أصبح هذا الإقليم في العصور الوسطى - على الأقل - آخر أقاليم المغرب تأثراً بالهزات العنيفة^(٢). التي تحتاح إفريقية، وبالمؤثرات التي تتدفق إلى إفريقية من الشرق، سواء أكانت بشرية أم حضارية. فالغزوات القادمة من الشرق تدخل هذا الإقليم بعد إنهاك قواها، والحضارات تأتي إليه متأخرة نوعاً ما، بعد أن تكون بلاد إفريقية والمغرب الأوسط قد تشبعت منها.

فلما غزا العرب بلاد المغرب، أصبحت هذه البلاد معقل المقاومة، وكانت الغزوات العربية الموجهة إليها منهكة القوى فعلا بعد طول السفر ومشقة الطريق، ولم يستطع العرب إخضاع هذه البلاد بقوة السيف فحسب، إنما أخضعت بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام، فدخلوا فيه طوعية واختياراً، فاستكانوا للعرب ودانوا لهم بالطاعة، وفي القرن الخامس الهجري منيت إفريقية بغارات الأعراب فلم تصب بلاد المغرب الأقصى بمثل ما أصيبت به إفريقية من الدمار والخراب، بل إن عرب بنى هلال لم يدخلوا أرض المغرب الأقصى إلا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد، فنجت هذه البلاد من هذه الكارثة بحكم موقعها المتطرف.

ومما يلفت النظر، أن نهضة المغرب الأقصى في العصر الإسلامي جاءت تالية لنهضة إفريقية والمغرب الأوسط^(٣). ولم يقدر للحضارة الإسلامية أن يتألق نجمها وتنفق سوقها، إلا بعد أن أتى الهلاليون على تراث القيروان، فظهرت أهمية مدن المغرب الأقصى، كفاس وأغمات وسبتة وغيرها، وقد مكنت هذه العزلة لبعض الحركات السياسية والدينية من أن تنمو، وتشب عن الطوق، بعيدة عن أى تهديد حتى كتب لها النجاح، كحركة المرابطين التي تبلورت في صحراء المغرب الأقصى، وكحركة ابن تومرت المهدي، التي تمت وترعرعت في جبال درن، وديار المصامدة.

(١) عبدالرحمن بن زيدان : إتحاف أعلام الناس، ج ١ ص ٦٣.

(٢) Terrasse: (op.cit)p.7.

(٣) Ibid. p.7.

وقد لعبت هذه الحقائق الجغرافية دوراً عظيماً في تاريخ غرب إفريقيا والسودان الغربي، ذلك أن المؤثرات العربية الإسلامية التي جاءت مراکش كانت تصطدم بالبحر المحيط، ولا تستطيع إلا التسرب عبر هذا الساحل المنحدر نحو الجنوب، فتتدفق إلى غرب إفريقيا، ومنطقة السنغال والنيجر^(١). وعن هذا الطريق - على ما نعلم - انتشر الإسلام في السودان الغربي، ونشطت حركة التجارة مع شعوب وادي السنغال والنيجر وقلب إفريقيا، بعد أن أصبح الطريق الذي يصل بين السودان الغربي والواحات المصرية معطلاً، بسبب العواصف الرملية الهوجاء، التي اجتاحتها زمن ابن حوقل صاحب الرحلة المعروفة^(٢).

وهناك حقيقة أخرى كانت بالغة الأثر في تاريخ هذه البلاد في العصور الوسطى، وهي أن إقليم الريف يكاد يتصل اتصالاً مباشراً بشبه جزيرة أسبانيا عند مضيق جبل طارق، فأصبحت الصلات قوية بين مدن إقليم الريف ومدن الأندلس، وانتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية في بلاد إقليم الساحل، وغلبت عليها^(٣). وكانت أهمية هذا المضيق كبيرة، حتى لقد كان تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتمم بعضه بعضاً، وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين. فكانت كفة المغرب الأقصى لا تكاد ترجح حتى يسيطر ظله على بلاد الأندلس، كما حدث في عهد موسى بن نصير، وعهد يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، حين عبرت قواته المضيق لإنقاذ بلاد الأندلس مما كانت توشك أن تتردى فيه، كما حدث مثل هذا في عهد الموحدين، وفي كثير من الأحيان، كان يحدث العكس، حين تشتد شوكة أهل الأندلس، كما حدث في عهد ازدهار الخلافة الأموية، زمن الناصر والمستنصر، حين غزت قواتها هذه البلاد وبسطت نفوذها هناك.

هذا عن ساحل الريف، أما ساحل المحيط الأطلسي فهو لا يشجع على قيام موانئ ناجحة بسبب رداءة خلجانه^(٤)، وقد ظل طوال العصور الوسطى يكاد

(١) Terrasse: (op. cit) P.10.

(٢) ابن حوقل: المسالك والممالك.

(٣) Julien: Hist. de l'Afrique, p.17.

(٤) انظر ابن أبي رزم: روض القرطاس، ص ٥٦ وما بعدها، و Terrasse.p.5.

يكون مغلقاً في وجه الأساطيل، فكان بلاد المغرب الأقصى كانت محمية الظهر من ناحية الغرب، وأصبح من الميسور على الدول التي قامت فيه التفرغ للدفاع الحركات العدوانية القادمة من المغرب الأوسط. ويتصل المغرب الأقصى بالمغرب الأوسط عن طريق تازا^(١)، ذلك الطريق الذي يعتبر بحق مفتاح البلاد، إذا استطاع الغازي اجتيازه في يسر، استطاع الاستيلاء على مدينة فاس دون عناء^(٢)، ثم تدفق إلى قلب البلاد، ولكنه يمر بمنطقة رعوية ترتادها قبائل من البدو صعبة المراس^(٣)، تتحكم في هذا الطريق، وتهدد الصلة التي تربط القطرين تهديدا كبيرا.

أما من ناحية الجنوب، فإن جبال درن، التي تمتد من البحر المحيط، متجهة صوب الشرق حاجز طبيعي يمكن لقبائل المغرب الأقصى، إذا تألفت واتحدت، أن ترد عنها عدوان القبائل الضاربة إلى الجنوب. أما إذا تفرقت كلمتها، وضعف شأنها لم تستطع هذه الجبال أن تعصمها من الخطر^(٤).

أما عن طبيعة البلاد، وأثرها في توجيه تاريخها في العصور الوسطى، فأهم ما نلاحظه، أنه قد ازدوجت فيها مؤثرات البحر الأبيض المتوسط، ومؤثرات إفريقية، تمثل ذلك في كل شيء، في مناخها وحضارتها^(٥). ففي المنطقة الساحلية تسود المؤثرات الأوروبية، التي تقف عند حدود جبال الأطلس الصغرى، على حين توغل المؤثرات الإفريقية في الجنوب، متجاوزة جبال درن، ثم مخترقة الهضبة الواقعة بين سلسلتى جبال الأطلس، حتى تقف تقريبا عند سلسلة جبال الزيف، فلماذا استطاعت دولة أن تجمع بين هاتين المنطقتين، أصبحت من القوة بمكان عظيم، لأنها تجمع بين هذين المنبعين الحضاريين، فدولة الأدارسة مثلا. لم تستطع أن تتفوق تفوقا ساحقا، لأنها لم تبسط نفوذها إلا على المنطقة الأولى مستمدة

(١) موضع من أعمال بني العافية، وهي مدينة كانت تفصل بين المغربين الأوسط والأقصى وتقع على مسيرة مائة كيلو متر إلى الشمال الشرقي من مدينة فاس، (دائرة المعارف الإسلامية مادة تازا) والبكري : المغرب ص ١٣٨.

(٢) Terrasse:(op.cit.) p.7. (٢)

Gautier:(op.cit.) p.290. (٣)

Terrasse:(op.cit.)p.10 (٤)

Julien :(op.cit.) p.16. (٥)

التأييد من قبائل البربر، التي تأثرت بالحضارة الرومانية ^(١). فلما تدفق المرابطون من الجنوب، من المنطقة التي تسود فيها المؤثرات الإفريقية، واستولوا على المنطقة الشمالية ذات المؤثرات الحضارية الأندلسية، استطاعوا أن يقيموا صرح دولة قوية عزيزة الجانب جمعت هذه العناصر المختلفة.

أما الطرق والسهول، فإنها تمتد من الشرق إلى الغرب متوازية فتيسر للغزوات القادمة من الشرق أن تتسرب في البلاد بسرعة كبيرة حتى المحيط، عن طريق ذلك الوادى الشهير المسمى بوادى سبوا ^(٢)، حتى إذا تم ذلك انتقضت القبائل من مضاربها في الجبال أو الهضاب، فدهمت الغزاة، فشنت شملهم، أو على الأقل عرضتهم لخطر جسيم ^(٣)، فأصبح من الصعب التوحيد بين المغرب الأقصى وغيره من بيئات المغرب، ولو تمت الوحدة لما كتب لها أن تدوم. فالدولة الأموية لم تستطع أن تحتفظ بوحدة المغرب كله مدة طويلة، أما القبائل مؤسسة الدول الكبرى، فإنها ماتكاد تنجح في توحيد البلاد، حتى تستنزف المارك - التي تخوضها دفاعا عن تراثها، وإبقاء على كيانها - دماء أبنائها فيدهمها الضعف والانحلال، فتظل عوامل الفرقة فتقوض صرح الوحدة، وتأتى عليه.

أما الطرق المؤدية من الموانئ الساحلية إلى الجهات الداخلية، فهي قليلة تعترضها عقبات كأداء ^(٤)، فلا تستطيع أن تتم توحيد المغرب الأقصى إلا قوة متفوقة، عليها أن تحرس الطرق والمسالك الصعبة، وإلا انتقضت القبائل الجبلية المستكنة، ورفعت علم الثورة، لذلك اضطر المرابطون والموحدون من بعدهم إلى إقامة سلسلة من الحصون للسيطرة على هذه الطرق، وكبح جماح القبائل المعادية ^(٥).

وتضم بلاد المغرب الأقصى في الواقع أقاليم طبيعية مختلفة، فأقليم التل،

Idid.p.17. (١)

(٢) هو النهر الذي تقع عليه مدينة فاس

(٣) Julien : (op.cit.) p.14. Gautier: (op.cit.) p.3

Julien : (op.cit.) p.3. (٤)

Terrase: (op.cit.) p.4. (٥)

الذى يشمل سفوح الجبال الشمالية والسهول الساحلية ، تربته خصبة جداً، تخترقه نهيرات تصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وتقوم فيه زراعة ناجحة^(١)، فلا عجب إذا وجدنا هذا الإقليم فى العصور الوسطى تتألق حضارته، وتزداد ثروته، وتعم خيراته .

وقد كانت هذه البلاد، طوال العصور الوسطى، مطمح أنظار القبائل البدوية فما كادت قبائل زناتة ترحل عن المغرب الأوسط، حتى احتلت هذه البلاد، وبسطت ظلها عليها، ونعمت بما توافر لها من خير عميم، وما كاد المرابطون ينفذون من الهضبة الوسطى، حتى استولوا على ذلك الإقليم الخصب، وسخروا موارده الوفيرة لصالحهم ، وأفادوا منها فائدة جمة .

خلاصة القول، أنه لا يمكن أن تقوم حكومة مركزية ناجحة فى المغرب الأقصى، إلا إذا سيطرت على ذلك الإقليم الغنى^(٢) . أما الإقليم الذى يقع فيما وراء الأطلس، فهو إقليم رعوى، أو شبه صحراوى تنتشر به المراعى، التى تكسو الهضاب المرتفعة، وبه طائفة من الواحات الغنية، كما تنتشر به القبائل وتجنوس فيه متنقلة بين رحلة الشتاء والصيف^(٣) . فهو إقليم فقير فى موارده، سواء فى هضابه أو واحاته، لا يستطيع أن يعول إلا عدداً محدوداً، ويات من الضرورى أن تحاول هذه القبائل البدوية باستمرار أن تغير على مواطن الخصب، وقد لعبت العلاقة بين المنطقة الرعوية، والمنطقة السهلية دوراً عظيماً فى تاريخ البلاد فى العصور الوسطى .

أما مرتفعات مراكش الشمالية، التى تحف بالبحر الأبيض المتوسط وإقليم الأطلس، الذى يفصل مراكش الخارجية عن مراكش الداخلية، فقد نزلت به قبائل من البربر، شديدة المراس، تمتاز بالروح الحربية العالية^(٤)، كانت طوال العصور الوسطى فى طليعة القبائل، التى لاتفتأ تهدد البلاد بالشورات المتلاحقة . هذه

Terrase:(op.cit.)p.12 . (١)

Terrase:(op.cit.) p.12. (٢)

Ibid,p.12. (٣)

Ibid p. 13. (٤)

البيئات المتنوعة، السهلية والرعوية والجبلية، كانت ذات أثر فى حياة السكان الضارين فيها، وفى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى^(١).

٢ - الحياة القبلية فى بلاد المغرب الأقصى:

تسود الهضاب الفسيحة ظاهرة اجتماعية اقتصادية معًا، نعى بها ظاهرة البداوة^(٢). ذلك أن سكان هذه المناطق لا يستطيعون الاعتماد على موارد الإقليم النازلين فيه، فيضطرون إلى النقلة، والترحال انتجاعًا للكلا، وطلبًا للعيش الميسور الذى يتوافر فى جهات أخرى أوفر ثراء، فإذا أقبل الصيف اشتد الجفاف فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية، وجف العشب، وقل الماء، فلا يجد السكان مفرًا من شد الرحال صوب الشمال، حيث يتوافر المطر، ويطيب المرعى، وتيسر الحياة^(٣). فإذا أقبل الخريف، وأوشكت الأمطار أن تندى بطاح الهضاب بالمطر المنبت للكلا، عادت جموع المهاجرين مرة أخرى إلى ديارها لقضاء فصل الشتاء^(٤). ويقضى السكان هكذا حياتهم بين رحلتى الشتاء والصيف.

هذه ظاهرة تحدث فى كل بيئة مشابهة وفى كل عصر، ولكنها كانت أكثر انتشارا فى بيئة المغرب الأقصى فى العصور الوسطى^(٥). إذ كانت القبائل المغربية كثيرة الترحال من الشرق إلى الغرب، أو من الغرب إلى الشرق، أو من الشمال إلى الجنوب، فلم تكن القيود الحالية المفروضة على سكان هذه البلاد معروفة إذ ذاك، كما أن وسائل الإنتاج الزراعى والصناعى كانت محدودة، ليست كما هى عليه الآن من تقدم ورقى نسبيًا. أمعن القبائل الغربية فى طلب النقلة والارتحال، بعد أن شاع استخدام الإبل فى أواخر العصر الرومانى، هذه الإبل التى أحدثت بحق ثورة فى حياة المغرب، كما أحدثت انقلابا فى الحياة الاجتماعية بعيد المدى، فقد قربت المسافات البعيدة، ولم تعد مناطق الصحراء، وهضاب الاستبس صعبة

Gautier: (op.cit) p.21. (١)

G. Marcais: Les Arabes en Berberie, du Xie Xiv. s. p.39. (٢)

Ibid, p.42. (٣)

(٤) البكرى: المغرب ص ١٤٥.

F.de la Chapelle: Esq'une histoire Shara occidental, Hesperis, Anpes, 1939, Tomexi, (٥) p. 54.

العبور^(١)، لذلك لانداهش إذا وجدنا بعض القبائل فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة الآن تتوغل فى نقلتها، حتى تدرك نهري السنغال والنيجر، فإن بطونا من قبيلة زناتة أوغلت فى قلب إفريقية، حتى أدركت هذه البلاد^(٢).

وهناك فريق آخر من أهل البلاد، يتزلون فى السهول الساحلية المعتدلة المناخ الوفيرة المطر العامرة بالخصب والنماء، يجنحون إلى الاستقرار والتعلق بالأرض، ويميلون إلى الهدوء، ويتوفرون على الإنتاج الصناعى والزراعى^(٣). وفى النيات الجبلية التى تتوافر فيها الأمطار، وتصلح أرضها للزراعة تنزل طائفة من السكان تمنح أيضا إلى حياة الاستقرار والهدوء، وتعزف عن النقلة والترحال من وطن إلى وطن آخر، وقد كان هؤلاء القوم أشد سكان المغرب اتصالا بالحضارات القديمة، اتصلوا بالقرطاجنيين واللاتينيين، وبحضارات البحر الأبيض المتوسط، وهم الذين قاوموا بدو صنهاجة مؤسسى دولة المرابطين مقاومة عنيفة.

وقد اشتد الصراع بين هذين اللونين من الحياة، أو بين هذين الفريقين من السكان، فكانت القبائل البدوية لانفتا تغير على بلاد المستقرين، بقصد الاستيلاء على هذه الأرض الخصبة الوفيرة الإنتاج^(٤)، وكانت تنجح فى بعض الأحيان فى اجتياز الحواجز الطبيعية، والتطرق إلى السهول، وإخضاع أهلها، وكان ذلك النزاع بعيد الأثر فى تاريخ المغرب الأقصى^(٥)، فقد كانت القبائل المستقرة تتآلف وتتآزر أحيانا فى صد التيار المتدفق من الجنوب، وكانت تصاب بالفرقة فى بعض الأحيان، فتضعف فيتغلب عليها البدو، ويستولون على ما بيدها من أرض طيبة خصبة، كما فعل بدو الملثمين.

فى هذا المجتمع الذى يشتد التناحر فيه بين السكان، وتكثر الهجرات، وتثور الفتن، وتنتشر الإغارات، لايتعلق السكان بالأرض، على الصورة التى نجدناها فى

Gautier: IEs Sciecle Obscus, p. 183. (١)

W. D. cooly :The Negroland of the Arabs, pp. 47-48. Ch. de la Ronciere: IA decou-(٢) verte de l'Afrique au Moyen Age. i, p.81 suiv.

Gautier : les Sciecle Obscus, p. 183 (٣)

Terrasse,p24. (٤)

Julien:(op.cit.)p.16 (٥)

البيئات السهلية، ولا يدافع الناس عن وطن معين ينزلون فيه، بقدر ما يدافعون عن الأسرة والعشيرة والقبيلة. أصبحت القبيلة محور الحياة في المجتمع^(١). لا يستطيع الفرد أن يعيش فيه إلا متميلاً إليها، تشد أزره وتحميه من شر عدوان المجتمعات الأخرى^(٢)، وبقدر ما يتآزر أفرادها، ويتعاونون، ويطيعون زعيمها طاعة عمياء، ويتضنون السيف ذوداً عنها، ويجودون بأرواحهم دفاعاً عن كيانها، بقدر ما تصبح قادرة على البقاء^(٣)، ولو أنها وهنت، أو ضعفت، أو تقاعس أفرادها عن تلبية نداء الدم، تفرق شملها، وتهتمتها القبائل الأخرى القوية.

وكما أن الفرد لا يستطيع أن يحيا منفرداً عن القبيلة، كذلك القبيلة نفسها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها، فلا بد من أن تنضوي تحت لواء حلف أكبر يضم القبائل ذات الأصل الواحد، التي تدعى الانتساب إلى جد مشترك، وقد تضطر القبائل إلى ذلك دفعاً لظروف اقتصادية أو حربية^(٤)، فإذا عزت الحياة في وطن ما، ووضحت الحاجة إلى الإغارة على إقليم أوفر إنتاجاً، اضطرت القبائل إلى الدخول في حلف للتآزر، بقصد تحقيق ذلك الهدف المشترك، وقد تنمو القوة الحربية لقبيلة من القبائل، فتخضع القبائل الأخرى لنفوذها بحد السيف، وتحملها على الدخول في طاعتها، والسير في ركابها لتحقيق الغرض المنشود، وقد تكتب السيادة لقبيلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخرى، فيتم التآزر المنشود^(٥)، كما حدث لقبائل الملثمين والمصامدة.

وقد تستعين هذه القبائل بالناحية السياسية لتحقيق أهدافها، فتنتهي إلى خليفة، أو إلى أسرة عربية تشد أزرها^(٦)، فقد أيدت أحلاف قبائل البتر الدعوة الأموية، كما أيدوا الفاتحين العرب من قبل، على حين أيدت صنهاجة دعوة العلويين، ثم دعوة الإسماعيلية فيما بعد. بهذه الوسائل يخرج الحلف المنشود إلى

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١، ١٢١ و Marçais: Les Arabes p.42

(٢) Terrasse:(op.cit)p.32.

(٣) Cautier:(op.cit.)p.253,&Julienpp.21-22

(٤) Marçais :Les Arabes p.20.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص : ١٥٠.

(٦) Marçais :Les Arabes, p.20

حيز الوجود، ثم تخرج القبائل المتحالفة غارية أو مغيرة لتحقيق أهداف القوة السياسية المؤيدة لها، فينتهي أمرها - إذا أفلحت - بإقامة دولة، والتغلب على الأحلاف الأخرى، وإخضاعها لسلطانها، وتؤلف القبائل المنتصرة غالبية الجيش، وتحتكر ثمار النصر وتحوّل الأرض، وتفرض الضرائب على الشعوب المغلوبة، وتؤلف حكومة مركزية، أعنى تعيش القبيلة من الدولة وللدولة^(١).

والدولة التي تقوم نتيجة لهذه الحركات لا تستطيع أبداً أن تتحرر من الروح القبيلة، فالغالبون لا يفهمون إلا منطق القوة، يستغلون العناصر المسودة وينكلون بهم، ويظل هؤلاء يتحينون الفرص، فإذا استنفدت الفتوح قوى القبائل الحليفة، وضعف شأنها هبت القبائل المسودة من مضاربها ففضت على الدولة القديمة، وأقامت على أنقاضها دولة جديدة^(٢).

هذه الحقائق تتمثل فيما كتبه العلامة ابن خلدون في مقدمته^(٣)، وقد استقى ماوصل إليه من نتائج من واقع الحياة في بلاد المغرب، وهو يرى أن الدولة قد تؤسسها قبيلة، ثم تشب الدولة، وتزدهر، ثم تشيخ إذا ضعفت القبيلة أو تفرق شملها، ثم تسقط، وتقوم دولة أخرى تؤسسها قبيلة أخرى، وهكذا دواليك. وهو يرى أن الدول كالأشخاص، تولد، ثم تشب عن الطوق، ثم تشيخ، ثم تفنى^(٤). وقد يحدث أن يتفرق شمل الحلف، وتضرب القبائل في البلاد مهاجرة، ولكن هذه الهجرة لا تنقسم رابطة الدم أبداً^(٥)، وتظل هذه القبائل قريية رغم تباعدها، تحس إحساساً قوياً بالأصل المشترك، وقد يجتمع شملها مرة أخرى، فتتقارب، وتتحد من جديد، فتغدو أوفر، وأشد قدرة على مواصلة الكفاح.

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) Terrasse:(op.cit.)pp.25-26.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، الصفحات : ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦١.

(٥) Terrasse :(op. cit.)p.32.

٥- شعوب البتر والبرانس:

وكان الرومان والبيزنطيون من بعدهم لا يهتمون - على ما نعلم - بهذا النظام القبلي السائد في بلاد المغرب اهتماما كبيرا^(١)، إنما كانوا يطلقون على أهل البلاد اسم (Barbari)^(٢)، لأنهم لم يهتموا بهذه القبائل كثيرا، لأن نفوذهم لم يجاوز الساحل، ولم يوغل إلى الداخل، إلا في نطاق محدود، كما أنهم لم يفهموا المجتمع على أساس قبلي، إذ كانوا يقسمونه تقسيما جغرافيا، أما العرب فما كاد يتم لهم فتح المغرب، حتى فهموا الحياة فيه فهما صادقا، فهي لا تكاد تختلف عن الحياة التي كانوا يألفونها في شبه الجزيرة، كما أنهم جاوزوا النطاق الساحلي، وأوغلوا في الداخل، وخالطوا القبائل، وحرروها، بعد أن اعتنقت الإسلام، وظفرت بالمساواة.

وقد رأوا البربر طائفتين عظيمتين، أطلقوا على إحداها اسم البتر، وعلى الأخرى اسم البرانس، وأرجعوهما لجد مشترك. وذلك يشبه إلى حد كبير قسمة الشعب العربي إلى عدنان وقحطان^(٣)، وقد نقل ابن خلدون هذه النظرية في أنساب البربر عن نسابة العرب، أمثال أيوب بن زيد، ويوسف الوراق، وابن حزم، وقد التزم هذا التقسيم الكتاب العرب المتقدمون، أمثال ابن عبدالحكم^(٤) وصاحب رياض النفوس^(٥)، ومعالم الإيمان في طبقات فقهاء القيروان^(٦)، وكثيرون غيرهم، ولكن ابن خلدون فصل ذلك تفصيلا عظيما، فإنه أفرد لتاريخ البربر الجزء السادس من تاريخه، وأفاض في ذكر أنسابهم، وأنساب قبيلة زناتة، وفي ذلك يقول: «أما شعوب هذا الجليل، وبطونهم، فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان، وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معا ابنا بر، وبين

(١) Gautier: (op.cit)p.23

(٢) Julien. (op. cit.)p.2 وإسماعيل رافت التيان في تخطيط البلدان، ج ١، ص ١٦٩-١٧١.

(٣) من الغريب أن هذا التقسيم إلى بتر وبرانس ما تزال آثاره موجودة حتى اليوم، ففي بعض قرى البربر ينقسم السكان إلى مجموعتين تحسان أنهما مختلفتان. انظر Rodd: The people, of the vail, p.338.

(٤) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٠.

(٥) المالكي: رياض النفوس، ص ٣٥.

(٦) الدباغ: معالم الإيمان ج ١ ص ٦٠.

النسابين خلاف، هل هما لأب واحد؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي زيد أنهما لأب واحد، على ماحدثه عنه يوسف الوراق. قال سالم بن سليم المظماطي، وطاهر بن سرور الكومي، وكهلان بن أبي لواء، وهم نسابة البربر أن البرانس من نسل مازيغ بن كنعان، والبتري بنو بر بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب ابن أبي زيد، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق^(١).

لكن على أى أساس قسم النسابون البربر هذين القسمين، وميزوا بين طائفتين مختلفتين؟؟ هل لاحظوا اختلافا بين الفرعين فى الحياة الاجتماعية مثلا؟ الواقع أننا إذا أمعنا النظر، وجدنا أن أغلب قبائل البتر بدوية، ولكننا نجد بعض قبائل زناتة بعد أن انتقلت إلى المغرب الأقصى مثلا، قد استقرت وامتهنت الزراعة، وسكنت المدن، ونعمت بما ينعم به المستقرون، أما البرانس فقد كانت بعض قبائلهم مستقرة فعلا، مثل صنهاجة الشمال، التى كانت تنزل فى سهول الجزائر، وكذلك كتامة، ولكننا نجد فى الوقت نفسه بعض قبائل البرانس عريقة فى البداوة، مثل قبائل الملثمين، التى تضرب فى بواى المغرب . . . إذن لايمكن أن تكون الناحية الاجتماعية أساس هذا التقسيم^(٢). ألا يكون الأساس ثقافيا، مثلا تأثرت بعض القبائل ببعض مظاهر الحضارة اللاتينية، وبقيت بعضها بمعزل عنها؟ فقد ذكر صاحب الأعلام النفيسة «أن البرانس أصحاب عمارة وزرع وضرع^(٣)»، كما ذكر غيره أن البربر النازلين فى السهول، قد تأثروا بالحضارة الرومانية، على حين بقيت عوالم جمة من البربر بعيدة عن هذه التأثيرات، لكن يخيّل إلينا أن العرب لم يضعوا هذه الاعتبارات نصب أعينهم حين قسموا البربر هذا التقسيم، وخصوصا بعد أن أسلموا وجبوا ما بينهم، وبين ماضيهم القديم.

وقد لاحظ رد (Rodd^(٤))، الذى أرخ للطوارق فى العصر الحاضر، أن هذا التقسيم باق إلى اليوم، وأن فى القرية عنصرين متباغضين أبدا، أولئك بتر،

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٨٩، مفاخر البربر ص ٦٤.

(٢) Gautir : (op. cit.), pp.19-214.

(٣) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٣٥٥، والبيان المغرب، ج ٢ ص ٥٨؛ وزهر الآس ص ٦؛ وجذوة

الاقباس ص ٥؛ وابن خلدون ص ١٠٧.

(٤) Rodd : People of the vail p. 338

وهؤلاء برانس، وقد علل ذلك بأن الخلافات لا بد أن تكون جنسية، والواقع أن الخلاف بين الطائفتين عميق الجذور إلى درجة بعيدة، فقد شكل تاريخ المغرب في العصور الوسطى، وأثر في مجراه، وكانت العداوة واضحة شديدة طوال العصور الوسطى بين البتر والبرانس، جعلت كل طائفة تقف للأخرى بالمرصاد تريد أن تنتقم منها، وتربص بها الدوائر لتنتقم منها، فليس يبعد أن يكون القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون إن صنهاجة البرنسية تنسب إلى العرب، إلى حمير.

ومن ناحية أخرى نرى ابن خلدون يطلق على البتر اسم أولاد مادغيس، ويذكر أن الطائفتين تنتسبان إلى مازيغ بن كنعان^(١)، وقد لاحظ رد (Rodd)^(٢) أن كلمة مازغ تتألف من ثلاثة حروف جامدة : م - ز - غ، وأن هذه الحروف الثلاثة تنتشر انتشارا عجيبا في لغات البربر كلهم، حتى بين الطوارق، مما يدل على أن الخلاف بين البرانس، وبين أولاد مادغيس خلاف لغوي محض، وخصوصا أن الإدريسي يذكر أن «قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة»^(٣).

ويخيل إلى أن الاختلاف بين هاتين الطائفتين اختلاف جنسي ولغوي معا، كل كتلة تكون أمة قائمة بذاتها، تحس برغم تفوقها وانتشارها برابطة الدم والقرباة، أما الخلافات الاجتماعية فهي اعتبارية، إذ من الممكن أن يستقر البدو ويتبدى المستقرون.

ومهما يكن من أمر هذا التقسيم، فإنه أكثر دلالة على أحوال البلاد، وأكثر اتفاقا مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعي، وأن التزامه ينير لنا السبيل، لفهم تاريخ البربر في القرون الوسطى^(٤)، وفي هذه الفترة التي سنعرض لها بالدراسة على

(١) ابن خلدون : العبر ح ٦ ص ٦٩.

(٢) Rodd:(op. cit.) p.339.

(٣) الإدريسي : أرض المغرب ص ٥٧.

(٤) Terrase :(op.cit) p.21.

الخصوص. ذلك أن النزاع بين البرانس والبتري شكل تاريخ الإسلام في المغرب، وأثر فيه تأثيراً بعيد المدى، بل امتد أثره إلى الأندلس، واحتدم النزاع بعد سقوط الخلافة الأموية بين زناتة وبين صنهاجة، مما هدد الوحدة الإسلامية بالخطر الجسيم^(١). أما في بلاد المغرب، فقد وضع ذلك الخلاف بعيد الفتح العربي، فقد حالفت زناتة البتريّة الفاتحين منذ البداية، وحمل البرانس عبء المقاومة، فلما تم إخضاع البربر لسلطان الخلافة الإسلامية، حالف البتري بنى أمية^(٢)، ووالى الصنهاجيون البرنسيون العلويين، وتعصبوا لهم، وأيدوا إدريس بن عبد الله، حين لجأ إلى المغرب الأقصى. فلما استتب الأمر للفاطميين كان البرانس من كتامة وصنهاجة من أشد جنودهم إخلاصاً، ولذلك أمعنوا في الفتك بالزناتيين واضطهادهم، فاضطروا إلى الاعتصام بالخلافة مرة أخرى، وأصبح الصراع في المغرب الأقصى بين الأمويين والفاطميين ثم الزييريين، في الواقع، مجرد نزاع بين زناتة وصنهاجة، أو بين البتري والبرانس، وكان بلكين بن زيرو أمير صنهاجة يقول: «لا أمان عندى لبربري ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد»^(٣). وكان الكره لزناتة من بين الأسباب التي جعلت صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين، تخف إلى التدفق صوب المغرب الأقصى للنيل من ذلك العدو التقليدي.

٦. قبائل البتري ومخازيهم:

وطائفة البتري من البربر تتألف من قبائل، أهمها زناتة، وزواغة، وزواوة، ونفزة ولواتة، ومزاتة ونفوسة، ومغيلة، ومطماطة، ومطغرة، ومديونة، وصدينة، ولكل قبيلة بطون وأفخاذ لا تحصى، وهم ينزلون بهذه السلسلة من الوديان العالية أو الوطيئة الصحراوية أو الرعوية، أو شبه الرعوية، التي تمتد امتداداً متصلاً من طرابلس إلى تازا^(٤). كما يتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٩.

(٢) مفاخر البربر في القرون الوسطى، ص ٤.

(٣) المرجع السابق ص ٨.

(٤) Gautier:(op. cit.) p.195.

غدامس إلى السوس^(١) الأقصى، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية، كما توجد بطون من البتر في إقليم التل قرب طرابلس، وفي قلب سهول إفريقية، وجبال أوراس^(٢)، وتنزل قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس، وتنزل مطماطة في إقليم الجريد .

أما زناتة فتتزل عشائرها وبطونها إقليم المغرب الأوسط، حتى لقد أطلق على هذا الإقليم اسم أرض زناتة، ويتشرون في إقليم الصحراء جنوب تونس، وكذلك سفوح الأوراس والهضاب العليا، ونطاق الإستبس والمراعى، وقد أصبحوا بحكم هذه الأوطان التي نزلوا فيها من أهم قبائل البدو في المغرب، وأكثرها نفلة وترحالا^(٣)، وأهم قبائل البتر التي كان لها شأن عظيم في تاريخ المغرب في العصور الوسطى قبيلة زناتة^(٤)، التي كانت تمتاز بالروح الحربية العالية، والتفوق في القتال^(٥)، وكان رجالها دائماً من أشجع فرسان البربر، وقد لعبوا في تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبى عامر دوراً عظيماً، إذ استقدم إلى الأندلس أعداداً غفيرة منهم، قامت بدور هام في حركة الجهاد المقدس.^(٦)

V - المصامدة:

ومن أهم الأحلاف القبلية الأخرى، الضاربة في المغرب الأقصى، حلف مصمودة، وقبائله وفيرة العدد، تحتل قبائله المناطق الجبلية من المغرب الأقصى وتحتل بعض بطونها سهول الساحل الأطلسي، وكانت قبيلة غمارة تنزل بإقليم المضائق، كما كانت برغواطة تضرب ما بين بور جرج وأم ربيع^(٧)، وكانت بعض بطون من مصمودة تحتل إقليم أطلس الكبرى، وأطلس الصغرى^(٨). والمصامدة

(١) De la Chapelle: Esquisse d'une histoire du shara Occidental Hesp Année 1930 T.X.

(٢) idem

(٣) الإدريسي : أرض المغرب، ص ٨٨.

(٤) Gautier, (op. cit.) p.184.

(٥) Terrasse:(op. cit.)p.23.

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠١.

(٧) مفآخر البربر ص ٧٥.

(٨) وادى أم ربيع نهر بالمغرب الأقصى يصب في البحر المحيط، وعليه قرية يقال لها أم ربيع . انظر الإدريسي ص ٨٧ - ٧١.

زراع مستقرون، يتزلون بالمدن والقرى، ويلتصقون بالأرض، لم يشاهدوا مهاجرين طوال العصور الوسطى، تحملوا عبء هجرات القبائل الأخرى فى شجاعة وثبات^(١)، ودافعوا عن الأرض التى يحتلونها شبراً شبراً، وقد ظلت مصمودة حتى القرن الثالث الهجرى صاحبة الكلمة الأولى فى المغرب الأقصى، حتى أخذت زناتة تفر من المغرب الأوسط، وتغير على ما بيدهم من أرض جيدة، وقد ظلت فى صراع معها حتى أغارت قبائل صنهاجة أهل اللثام على ديارهم، وأخضعوهم لسلطانهم^(٢)، ولكن المصامدة يؤلفون كتلة بشرية مستقلة لها ظروفها ومقوماتها، ولا تمت لصنهاجة بسبب من قرابة أو نسب^(٣).

٨- قبائل البرانس ومخاربههم:

أما الفرع الآخر من فروع شجرة النسب البربرية فهم البرانس، الذين ينتشرون فوق صفحة المغرب من إفريقية حتى المغرب الأقصى، وتوغلت بعض قبائلهم فى غرب إفريقية حتى تدرك منحنى نهر النيجر، وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال ابن خلدون: «من أوفر قبائل البربر، وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد، وما بعده، ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم، فى جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلثان من البربر، وكان لهم فى الحروب ذكر، وفى الخروج على الأمر شأن^(٤)».

نزلت هذه القبائل فى النواحي الشمالية، والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة، كما كانت تضرب فى النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس، وفى الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر، وأوغلوا فى مراكش، ونزلوا بالجزء الشرقى من جبال أطلس الكبرى^(٥)، بل تجاوزوا ذلك النطاق الجبلى فاحتلوا ساحل المحيط الأطلسى، حتى مصب نهر السنغال، ومنحنى النيجر، وجاست بعض قبائلهم فى صحراء المغرب القريبة من مراكش.

Terasse : (op. cit) p.23. (١)

De la Chapelle : Hesperis, 1930, t.Xi, p.54. (٢)

Terasse : (op. cit) p.21. (٣)

ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢. (٤)

Gautier : (op.cit.) p.282. (٥)

إذن فالغالبية العظمى من هذا الفرع العظيم تنزل فى المناطق السهلية، التى تحف بساحل البحر، وفى المناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب، هذه المناطق التى تتوافر أمطارها، وتجد تربتها، ويصبح من الميسور زراعتها^(١)، فكانت بحكم انتشارها هذا أقرب القبائل من مناطق الحضارة الرومانية اغترفت من منهلها، وتأثرت بما نشره الرومان من حضارة زاهرة، وحالفهم ووقفت إلى جانبهم زمن الفتح، وناضلت العرب نضالاً مرّاً^(٢). وأهم قبائل البرانس، أزداجة وأورية، وعجيسة، وكثامة، وصنهاجة، وأوريغة، ولطة وهسكورة، وكزولة^(٣). وكانت الزعامة زمن الفتح لقبيلة أوربة^(٤)، ثم آلت إلى صنهاجة الشمال مؤسسة دولة بنى زيرى، ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين.

ولم تكن صنهاجة فى الواقع مجرد قبيلة، بل كانت شعباً عظيماً^(٥)، يتألف من قبائل قيل أنها بلغت السبعين عدداً^(٦)، وانتشرت فوق صفحة المغرب انتشاراً بعيد المدى^(٧)، حتى كتبت الغلبة لشعوب أخرى لعلها شعوب البتر، فأغارت على مواطنها وقسمت الكتلة الصنهاجية قسمين: قسم شرقى فى إفريقية والمغرب الأوسط، وقسم غربى فى المغرب الأقصى. كانت بطون صنهاجة فى الواقع تنتشر بإقليم الجزائر، فى ما بين المسيلة^(٨)، وتترى، وميلة، وكانت تسيطر على ذلك الطريق الموصل بين مرطانية السطيفية^(٩)، ومرطانية القيصرية^(١٠). . . كما كانت بعض بطون أخرى^(١١) تضرب فى منطقة الأطلس الوسطى من تازا إلى إقليم بنى

(١) ابن رسته: الأعلام النفيسة ص ٣٥٥ و Gautier:p.354.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٠٨.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٨٩.

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧١.

(٥) المصدر السابق ص ٧٥.

(٦) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٥٢، دائرة المعارف الإسلامية (مادة صنهاجة)، Fournel : Les Berberes, Vol.1.p.204.(G.Marcaisis

(٧) مدينة بالمغرب الأوسط على الطريق إلى تنس، (الإدريسى) ص ٨٤.

(٨) Gautier, pp.334,335 مدينة ميلة بكسر الميم من مدن المغرب الأقصى على أربع مراحل من الشرق، من قلعة بنى حماد، وبينها وبين قسنطينة ميل واحد انظر ياقوت: البلدان ج ١ ص ١١٧.

(٩) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى، Sitifienne Mauritania

(١٠) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى، Sitifienne Mauritania

(١١) Gautier:(op. cit) p.335

هلال^(١)، وتحتل منحدرات الأطلس الكبرى الجنوبية وتوغل جنوبا محتلة المناطق الواقعة على أطراف الصحراء^(٢) وتوغل في المغرب الأقصى في إقليم الريف^(٣) حتى طنجة^(٤)، كما كان بعضها^(٥) ينزل حول آزمورة^(٦) «كانت بلادهم في القبلة»^(٧) مسيرة سبعة أشهر طولا، ومسيرة أربعة أشهر عرضا، من نول لمطة في أقصى المغرب، إلى قبلة إفريقية، وقبلة القيروان من بلاد إفريقية^(٨).

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل المغربية إلى العرب^(٩)، ولا نستطيع أن نعلل ذلك إلا بأنها أرادت بعد أن تم إسلامها، أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية، حتى تستطيع المشاركة في الحياة السياسية الجديدة التي أظلت المغرب بمجيء العرب، فاصطنعت لنفسها أنسابا عربية. ويرى جوتييه^(١٠) في انتساب صنهاجة إلى حمير ظلا من تأثيرات فينيقية وفدت على المغرب في العصور القديمة، على اعتبار أن الحميريين هم فينيقيو البحر الأحمر، وأن بعض اللهجات الفينيقية ظلت باقية في البلاد إبان العصر الروماني، فليس يبعد أن تكون القبائل البرنسية قد خضعت لمؤثرات فينيقية قديمة ظلت ذكرها ماثلة لدى النسابين، فربطوا بين صنهاجة وبين الحميريين، وقد أقره فورنل^(١١)، ودي لاشابل^(١٢) وجوتييه على هذا الرأي، بل إن جوتييه يرى أن التأثيرات الفينيقية قد هيأت المغرب لاستقبال العرب، عن طريق بثها المؤثرات السامية في البلاد^(١٣). إذا صح هذا الرأي تكون

(١) Terrasse:(op. cit) p.23

Idem (٢)

(٣) مفاخر البربر ص ٦٦.

(٤) مشيخة القاضي عياض ورقة ٢٤ب.

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠.

(٦) ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة مدينة بالمغرب الأقصى ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧.

Terrasse:p.23 (٧)

(٨) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٥.

(٩) الحلال الموشية ص ٤٧ جامع تواريخ فاس ص ٢٧؛ روض القرطاس ص ٧٥؛ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٢)؛ المطرب لابن دحية ورقة ١٤٩، الخريدة ج ١ ص ١١٠، الدمشقي ص ٢٦٧، مفاخر البربر ص ٥١، السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٨ ابن خلدون ج ٦ ص ٩٤، ٩٧ و. Fournel (op. cit.) v.i,p.36

(١٠) Gautier:(op. cit.) p.116-119.

Fournel:Les Berberes. Vol.I,p.36,38. (١١)

Deye Chapelle:Hesperis, T,XI,p.49.1930 (١٢)

Gautier:(op. cit.) p.122. (١٣)

صنهاجة قد خضعت لمؤثرات سامية فينيقية ولأخرى رومانية^(١)، هيأتها لتلعب ذلك الدور الزاهر الذى اضطلعت به فى تاريخ البلاد.

وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها أن تتنوع حياتها الاجتماعية، فقد كانت بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار على النحو الذى عرضنا له، كما كانت بعض القبائل الجبلية الأخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طلباً للمرعى، وكانت بعض البطون الأخرى تحيا حياة بدوية عريقة فى صحراء المغرب^(٢).

ومن الغريب أنه رغم تفرق شعب صنهاجة على هذه الصورة، ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين أشقائه، وتجعله يتحد عند وقوع الخطر لدفعه، وقد تمكنت صنهاجة بفضل هذه الحضارة التى أصابت منها بعض الشئ، وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية، وهذه الرابطة الأسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخاً مجيداً «فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم أثيل، ورياستهم قديمة»^(٣) أسست صنهاجة الجيل الأول دولة بنى زيرى، وأسست صنهاجة الجيل الثانى دولة المرابطين.

٩ - قبائل الملتمين ومؤسسو دولة المرابطين:

أما القبائل التى تستحق أن نوليها نصيباً كبيراً من عنايتنا، فهى تلك التى أطلق عليها المؤرخون اسم قبائل الملتمين، لاتخاذها اللثام شعاراً يميزها عن سائر قبائل المغرب، فإنها فى الواقع صاحبة اليد الطولى على الدولة المرابطية، بل يرجع إليها الفضل فى نشر لواء الإسلام فى ربوع إفريقية، والسودان الغربى، لأنها ظلت بعد أن تم إسلامها قروناً طويلة تجاهد قبائل السودان، وتحملها على الإسلام حملاً. حتى توجت جهودها بالنجاح، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

نعم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك فى أقاصى الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة عاملة على إحياء الإسلام، ونشر لوائه، فتم لها ما أرادت من سؤدد، وتأسست دولة المرابطين التى انبسط ظلها من

(١) Ibid p.334.

(٢) Terrasse:(op. cit) p.22

(٣) ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ورقة ٤٩ (١).

منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الأبيض فى الشمال، بل جاوزته إلى الأندلس، على النحو الذى سنفصله فيما بعد، فمن حقها علينا أن نطيل الكلام عنها بعض الشيء، وأن نعرف بها، تمهيداً لتوضيح ذلك الدور الرائع الذى اضطلعت به فى تاريخ البشرية.

هذه القبائل وفيرة العدد، قيل أنها تجاوز السبعين عدداً، وقد ذكر المؤرخون أن من أهمها قبيلة لمطة^(١)، وترغة^(٢)، وسرته^(٣)، وجزولة^(٤)، ولتونة^(٥)، وجدالة^(٦)، وسمطة^(٧)، وإزكاغت^(٨)، وكاكدم^(٩)، وتندغ^(١٠)، ومسوفة^(١١)، وانتصر^(١٢)، وبنو نيتسر^(١٣)، وتريكة^(١٤)، ورغاوة^(١٥)، وواشان^(١٦)، وثمانة^(١٧)، وإيتوارى^(١٨)، ومداسة^(١٩)، ودكالة^(٢٠)، وهسكورة^(٢١). ولكن أهم هذه القبائل جميعها لتونة، ثم جدالة، ثم مسوفة^(٢٢). وقد كانت الرياسة فى قبائل الملثمين على العموم للتونة، التى كانت تنازع جدالة هذه الزعامة باستمرار^(٢٣) حتى كتب

(١) الدمشقى: نسخة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٣، ابن الأثير ج٩ ص ٢٥٥ الحلل الموشية ص ٧، ابن خلدون ج١ ص ١٨١، Terrasse p.213

(٢) ابن حوقل: المسالك ص ٨٧، Terrasse: (op. cit.) p.196.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٥٢.

(٤) الدمشقى ص ٢٣٩-٢٣٨.

(٥) الدمشقى ص ٢٣٨؛ وابن الأثير ج٩ ص ٢٥٥.

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١؛ وجامع تواريخ فاس ص ٢٧؛ الحلل الموشية ص ٧.

(٧) ابن حوقل ص ٧٨؛ الإدريسى ص ٥٧-٥٩.

(٨) الدمشقى ص ٢٣٧ - ٢٣٩.

(٩) المرجع السابق، نفس الصفحات.

(١٠) R. Basset: Mission au Senegal p. 447.

(١١) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٢ ص ١٧٣ ابن حوقل ص ٧٨ ابن خلدون ج ٦ ص ١١١.

(١٢) البكرى: المغرب ص ١٨٠.

(١٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١.

(١٤) نفس المرجع والصفحة.

(١٥) الإدريسى ص ٥٧ - ٥٩.

(١٦) نفس المرجع والصفحة.

(١٧) البيهقى: كتاب أخبار المهدي ص ١٠٧؛ الدمشقى ص ١٣٨ - ١٣٩، ابن المؤقت: السعادة الأبدية ص ٦٨.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية: مادة لمطة (G.S. Colin)

(١٩) الدمشقى ص ٢٣٨، GDEmom- Bel:Les Benou Ghanyap.7.,Julienp.376.

byres:MasalikElAbsarp.60.(colin). ودائرة المعارف الإسلامية: مادة لتونة.

(٢٠) الحلل الموشية ص ٦.

(٢١) ابن خلدون ج١ ص ١٨١.

(٢٢) الدمشقى ص ٢٣٨.

(٢٣) الحلل الموشية ص ٦.

لها الظفر آخر الأمر، كما كانت الرياضة في لمونة معقودة لبنى ورتنطق، الذين أنجبوا ذلك الزعيم المغربي الكبير يوسف بن تاشفين^(١).

وقد حاول جوتييه^(٢) أن يشكك في انتساب هذه القبائل كلها إلى الفرع الصنهاجي الأكبر، بحجة اختلاف البيئة، والحياة الاجتماعية. فقد تساءل عن الرابطة التي تربط بين هذه القبائل المستقرة المتحضرة النازلة بإقليم الجزائر، وبين هذه القبائل المثلثة التي تضرب في الصحراء، والواقع أنه مامن مؤرخ معاصر لهذه الحوادث، أو شبه معاصر لها، إلا وقد نسب قبائل المثلثين لصنهاجة، بل إن المراجع^(٣) التي تعرضت لهذا الأمر تكاد تؤكد هذا النسب، وتتعرف به حقيقة مؤكدة لاشية فيها ولا ريب.

بل إن مرجعاً مادياً معاصراً ينهض لتأييد مانذهب إليه، فقد ذكر بروفسال في مجموعة النقوش الأندلسية شاهد قبر لأميرة مرابطية من سنة ٤٩٦. هذا نصه «هذا قبر بدر بنت الأمير أبي المحسن علي بن تاشا . . (فين) الصنهاجي توفيت رحمها الله^(٤)» بل إن شاعراً معاصراً مثل ابن خفاجة الأندلسي مدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم، وأبا بكر بن الحاج، وأبا إسحق بن أمير المسلمين وتعرض لانتسابهم لصنهاجة والعرب.^(٥)

كما أن أميراً زيرياً هو عبدالله بن بلكين أمير غرناطة يقول في مذكراته التي نشرها ليفي بروفسال في مجلة الأندلس، حين علم بقدم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس «وطننا أن إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة^(٦)».

كما أن المؤرخ جيانجوس ترجم نصاً من كتاب الاكتفاء، جاء فيه على لسان أم

(١) ابن خلدون ج٦ ص ١٨١.

(٢) Gautier p.214.

(٣) روض القرباس ص ٧٥؛ أبو الفدا ص ١٨٣، ابن خلدون ج٦ ص ١٥٢، الحلل الموشية ص ٩، جذوة

الاعتباس ص ٣٤٢، السيوطي المغربي ص ٢ و Terrasse p.203

(٤) E-Levi- Provencal: Inscriptions Arabes c'Espagne no. 24.p.31.

(٥) ابن خفاجة ص ٢٠، ٥٥، ٨٣، ٩٢ قال :

والدين ينميهم إلى الأنصار
أعلى منار في أعز ديار

تنميهم الدنيا إلى صنهاجة
شادت يد العليا في عرصاتهم

(٦) Al-Andalus Vol.,Fase2, 1935,p.338.

عبدالله بن بلكين تحضه على لقاء يوسف بن تاشفين «اخرج لتحيى عمك يوسف»^(١).

كما أن جوتيه نفسه قد ذكر أن المرابطين لما غزوا تلمسان كانت أميرة من صنهاجة إفريقية تزور المدينة، فلما خافت على نفسها تقدمت للفاتحين، ونوهت بالقرابة القائمة بين الفرعين، فردوها إلى بلدها مكرمة^(٢)، ولعل مما يؤيد هذا الرأي ما ذكره بعض المؤرخين المحدثين^(٣) من أن هذه القبائل كانت تضرب في شمال إفريقية في بوادي المغرب وسهوله شأنها شأن أخواتها من قبائل صنهاجة، ولكنها أخذت منذ القرن الثالث الميلادي تهجر مواطنها متجهة صوب المغرب، ثم مالبت أن انحدرت نحو الجنوب، ويخيل إلينا أن السبب في ذلك يرجع كما بينا من قبل إلى أن استخدام الإبل في العصر الروماني، قد أدى إلى هذه النتيجة، فإن قبائل البتر كانت سبابة إلى استخدامهما، فأخذت تدفع قبائل صنهاجة أمامها دفعاً، فصمد بعضها، وفر البعض الآخر إلى المغرب الأقصى^(٤)، ثم استخدموا الإبل بدورهم، وبدأوا يرتادون الصحراء ويستقرون في بعض جهاتها منذ وقت بعيد، وكانت هذه القبائل في الواقع تدفع إلى الصحراء موجة في إثر موجة، لاتكاد الموجة الأولى تستقر في وطنها الجديد، حتى تغادره نحو الجنوب ليحل محلها فوج آخر^(٥)، وهكذا دواليك.

وقد أذكت الغزوات العربية تيار الهجرة، ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفاتحين إلى المغرب الأقصى، فلما أوغل الفاتحون في هذه البلاد فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء^(٦)، حتى أن موسى بن نصير لما أوغل في بلاد السوس في طلب البربر، وجد فريقاً من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن^(٧).

Gayangos Vol. II, ap c.p.xl. (١)

Gautier, p.377. (٢)

Terrasse p.211, De La Chapelle, Hesper p.49 (٣)
الموشية ص ٧ - الادريسي ص ٥٧، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢.

Gautier: (op. cit.) p.189-185. (٤)

De lachapelle, Hesperis 1930, t.XI., p.49. (٥)

De la chapelle, p.57. (٦)

ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٧. (٧)

وقد كانت ديار قبائل السودان تتخطى منحني النيجر موغلة نحو الشمال، وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة هذه القبائل الصنهاجية، فلما انتشر الإسلام في ديار صنهاجة، أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان^(١) واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس، فأخذت تدفع السود نحو الجنوب^(٢) دفعًا حتى تم لها إدراك منحني النيجر في هجرتها.

وقد بلغت هذه الحركات الذروة في القرن الخامس الهجري، وسنرى كيف أنه بعد أن تم توحيد هذه القبائل تحت لواء عبدالله بن ياسين، أخذت تتدفق إلى الشمال مرة أخرى، مساهمة في تأسيس الدولة الجديدة، وأخلت ديارها لتحتلها بعض القبائل الزناتية المغلوبة على أمرها، مثل قبيلة مغراوة، بل إن الطوارق - أحفاد صنهاجة - مازالوا حتى اليوم يعتقدون أنهم انحدروا إلى ديارهم من الشمال^(٣).

ودراسة توزيع هذه القبائل، وتحديد مواطنها، أمر لا بد منه، إذا أردنا أن نضع أسسًا صالحة لفهم تحركات هذه القبائل صوب الشمال، إبان تأسيسها لدولة المرابطين، ثم غزوها لبلاد المغرب، ثم الأندلس، واعتمادنا في هذه الدراسة على البكري الذي وصف مضارب تلك القبائل في القرن الخامس الهجري، قبل أن تتدفق صوب الشمال، ذلك التدفق الشامل المعروف، والإدريسي الذي ألم بتلك البلاد بعيد سقوط دولة المرابطين، وتفرق شمل هذه القبائل القوية، وعودتها إلى حياتها القديمة من البداوة، والتجول في الصحراء، أما ماكتبه الرحالة والمؤرخون المتأخرون فاعتمادنا عليهم ليس كبيراً.

وأهم ما نلاحظه في هذا التوزيع، أن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطنًا عامًا يمتد من غدامس^(٤) جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسي، في المناطق الصحراوية، التي تلي سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن، كما يمتد هذا الوطن العام من جبال درن في الشمال، حتى مصب نهر السنغال^(٥)، بل يمتد إلى منحني

(١) Arnold; the preaching of islam, p.317 suiv.

(٢) De: chapelle p.49.

(٣) Rodd: people of the vail p. 364.

(٤) يضم أوله أو بفتحه مدينة بالمغرب، ثم في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان بإقليم الواحات، ياقوت البلدان ج ٣ ٧٧٤.

(٥) الحلل الموشية ص ٧، جامع تواريخ فاس ص ٢٧، روض القرطاس ص ٧٥، ابن خلدون ج ١ ص ١٠٠.

النيجر أو يجاوزه بقليل، بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق بمراحل عديدة، فتصل إلى تادمكة^(١) في قلب الصحراء الكبرى^(٢).

هذا هو الوطن العام أو المجال الحيوى الذى تجوس فيه قبائل المثلثين طليقة من كل قيد. أما الأوطان الخاصة فإن لكل قبيلة مضاربها المعلومة، ومجالها الذى تجوس فيه، فقبيلة لمطة، وجزولة، تحتل المنطقة الممتدة من جبال درن، حتى وادنول^(٣) القرية من المحيط الأطلسي^(٤)، على حين تنتشر ترغة فى وادى درعة^(٥)، وقد تمتد مضاربها غربا فتجاوز مضارب هاتين القبيلتين. ويبدو أن هذه القبائل جميعها تتصل ديارها إلى مدينة سجلماسة، والمناطق القريبة منها^(٦).

أما قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وأقواها، فهي تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة، وتمتد من وادى نون على المحيط الأطلسي، حتى رأس بوجادور الحالية، وإلى الشرق من وادى نون تقع مدينة أركي^(٧) على مسيرة سبعة أيام من وادى نون، وهى حصن لمتونة^(٨) ومقلها، ويبدو أن هذه القبيلة، توغل فى الصحراء شرقا، حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة، وسجلماسة^(٩)، حتى لقد قيل إن ديارهم تمتد مسيرة شهرين طولا وعرضا، ولكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال، كما يقول البعض، ولا يبعد أن تكون بعض بطونها قد رحلت حتى أصبحت على مقربة من غانة، بدليل أن الإدريسي يذكر أن تكرور من بلاد لمتونة. مع أن تكرور هذه فى وادى النيجر^(١٠) فى الجنوب.

مهما يكن من شيء، فإن هذه القبيلة كانت تحتل موقعا ممتازا، فقد سيطرت على ذلك الطريق التجارى الهام، الذى يسير بحذاء البحر المحيط، كما كان طريق

(١) مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوما من غانة إلى الشرق - البكري ١٨١.

(٢) البكري : المغرب ص ٨١٨١، الدمشقي: نخب الدهر ص ٢٣٨ ٢٣٩.

(٣) مدينة نول آخر مدن الإسلام، وهى أول صحراء المغرب ونهرها يسمى وادى نول يصب فى البحر المحيط البكري ١٦٢.

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٤، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سوس se p.190 provencal 190

(٥) De la Chapelle: Hesp. 1930, t.Xi, p.24.- terrasse p.196.

(٦) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٧٣.

(٧) البكري : المغرب ص ١٦١، الإدريسي ص ٥٧، ٥٩ دائرة المعارف الإسلامية مادة (سوس).

(٨) البكري : المغرب ص ١٦٤.

(٩) الإدريسي: أرض المغرب ص ٣.

(١٠) Cooley: The Negrland of the Arabr, p.19.

غانة - سجلماسة قاب قوسين من ديارها، فليس بغريب أن تكتب لها السيادة على هذه القبائل جميعها. وفرة في المال ووفرة في العدد وموقع ممتاز^(١).

والى الجنوب من مضارب لتونة، تمتد صحراء تيسر، أو أرواد، فتصاقب رمالها البحر المحيط، ثم تمتد نحو الجنوب^(٢)، وتضرب قبيلة جدالة القوية جنوب ذلك النطاق، حتى مصب نهر السنغال، متخذة مدينة أوليل مركزا لها، حيث يكثر الملح الذى تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب^(٣). وهذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا، فهي من ناحية قريبة من غانة وشعب صنغانة الواقعة على الضفة اليسرى من منحى النيجر، وقريبة من أودغشت، وطريق سجلماسة، لذلك استطاعت أن تسيطر متاجرها عبر هذا الطريق، وأن تجنى من وراء ذلك مالا وفيرا^(٤)، كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل الملثمين من بلاد السودان^(٥). أما قبيلة مسوفة فتمتد مضاربها فى منطقة قاحلة مجدبة، تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب، وكانت بعض بطونها توغل شرقا حتى تصل إلى تادمكة، وكوكو^(٦)، وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة السودانية حتى زمن ابن بطوطة^(٧). كما أن ابن حوقل وهو يسبق ابن بطوطة بعدة قرون وجد هذه القبائل فى مضاربها تلك، تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب، وسجلماسة فى الشمال^(٨).

من ذلك يتبين كيف أن هذه القبائل الثلاث، قد سيطرت على هذه المساحات الشاسعة من الصحراء، وكيف تحكمت فى طرق التجارة العالمية. فكثير ماله، وازداد جاهها، ونعمت بحياة ليست جافية ولا غليظة.

وهناك ناحية أخرى يجدر بنا أن نتعرض لدراستها، ونعنى بها دراسة الشخصية الجماعية لهذه القبائل، ودراسة صفاتها ومميزاتها، التى أهلتها للظهور فى

Idem. (١)

(٢) البكرى : - المغرب ص ١٧٢ p.19 Coopey

(٣) Cooley, p.25.

(٤) Ibid. p. 25.

(٥) البكرى : المغرب ص ١٧٢.

(٦) البكرى ص ١٨١، الدمغنى ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ساحل البحر فى منطقة السنغال (البكرى ص ٢٨٣).

(٧) ابن بطوطة ج٤ ص ٣٧٨، ٤٣٠.

(٨) ابن حوقل : المسالك ص ٧٨.

ميدان الصراع القبلي في المغرب الأقصى، ودراسة الحياة الاجتماعية الداخلية لهذه القبائل الهامة، حتى نستعين بهذه الدراسة على تفهم ماغمض من أحداث تاريخ المرابطين. والمؤرخون القدماء لم يعرضوا لهذه الناحية بالتفصيل، وإن كانوا قد عرضوا لها فقد فعلوا ذلك في شيء كثير من الإيجاز، لذلك سنعمد إلى الاستعانة بما كتبه المحدثون عن شعوب المثلثين في العصر الحاضر، أو من يطلق عليهم اسم الطوارق.

قد يقال ما هي الصلة التي تربط بين المثلثين في العصور الوسطى والطوارق في العصر الحاضر؟ لكن يرد على ذلك بالقول بأن الروابط بينهما كثيرة ومتعددة، منها أن الطوارق في العصر الحاضر لا يزالون يحتلون نفس البقاع، التي كانت تحتلها شعوب المثلثين في العصور الوسطى، فهم يحتلون المناطق الممتدة من الطرف الشرقي لصحراء المغرب عند فزان^(١)، حتى منطقة المحيط الأطلسى في غرب إفريقيا^(٢). وهذه البيئة بيئة عزلة تمكن لهذه القبائل الضاربة في فيافي الصحراء أن تعيش مستقلة، بعيدة عن أية مؤثرات قد تغير من الحياة التي ألفها أجدادهم في العصور الوسطى، فقد ظلت الصحراء الكبرى على الأقل في معزل عن التيارات الأجنبية الوافدة على المغرب في العصور الحديثة، فالنفوذ التركي لم يجاوز المناطق الساحلية، ولما تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم في المغرب، بدءوا يوغلون في الصحراء، ويسجلون ما يشاهدون، ويعنون بهذه القبائل المثلثة الضاربة فيها، وقد استطاعوا بعد دراسة هذه البيئة الخاصة أن يثبتوا أن المثلثين في العصر الحاضر لا يختلفون كثيرا عنهم في العصور الوسطى. حتى إن بعض أسماء القبائل ظلت كما هي دون أن تتغير، وما زال الأحفاد يحسون بصلتهم بالأجداد.

وهناك ناحية أخرى تسند الرأي القائل بالصلة بين المثلثين القدماء، والمثلثين المحدثين، وهي أن اسم الطوارق الذي خلع على المثلثين في الوقت الحاضر مشتق من ترغة، وترغة كما قلنا قبيلة من قبائل المثلثين في العصور الوسطى، كانت تضرب في المنطقة الواقعة في وادي درعة في المغرب الأقصى. فلما تفرق حلف المرابطين بعد سقوط دولتهم، تشتت شمل القبائل وأخذت

(١) فزان يفتح أوله وتشديد ثانية وآخره نون ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس المغرب. ياقوت: البلدان ج ٣ ص ٨٩٠

(٢) Rodd: people of the vail, p.8.

تضرب في الصحراء بحثاً عن وطن تأوى إليه، كما أن دولة الزنوج في الجنوب قد توسعت صوب الشمال، وأخضعت هؤلاء البربر لسلطانها، فهاجرت قبيلة ترغة صوب الشرق، وظلت باقية حتى اليوم، وقد عم هذا الاسم حتى أصبح عاما على شعوب الملثمين كلهم، لأن القبائل في المغرب كما نعلم كانت تتداول السلطة والنفوذ، فإذا تمت السيادة لقبيلة فرضت سلطانها وأخضعت القبائل الأخرى، فقد سادت لمتونة وأسست دولة المرابطين، فلما سقطت الدولة ضعفت لمتونة وسادتها قبائل أخرى من مجموعة الملثمين، وخلفتها في زعامة صنهاجة الجنوب قبيلة ترغة، فأخضعت القبائل لصولتها، وخلعت اسمها على الشعب كله، فأصبح يعرف باسم الطوارق، لذلك نستطيع - إلى حد ما - أن نستعين ببعض ماكتبه الرحالة المحدثون عن الطوارق، أمثال دى فرييه ^(١)، وبارت ^(٢)، ورود ^(٣)، على أن نعقد مقارنة بين مارواه القدماء، وما وصفه المحدثون، علنا نوفق إلى إعطاء صورة صادقة لهذه القبائل مؤسسة دولة المرابطين.

وأهم ما يميز به رجال هذه القبائل ارتداء لثام يستر الوجه كله، فلا تبدو إلا محاجر العينين ^(٤)، فسميت القبائل قبائل الملثمين، وانفردوا بهذا دون سائر قبائل البربر، حتى غدا ذلك الاسم علما عليهم ^(٥)، ولم يشر القدماء إلى هذا التلثم، إنما المؤرخون العرب، أو الفاتحون العرب، هم الذين خلعوا عليهم ذلك الاسم لأول مرة ^(٦)، ومن الغريب أن اللثام مازال الطوارق يستعملونه حتى اليوم ^(٧)، والواقع أن بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب يتلثمون لاتقاء الحر والبرد ودفع الغبار، الذي تثيره العواصف الرملية، التي تثور في الصحراء ^(٨). ولكن اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب، اتخذ طابعاً غريباً فريداً، فهم يرتدون اللثام بالليل وبالنهارة ^(٩)، في أثناء الراحة أو العمل. بل ينامون وهم متقبون، ويأكلون وهم

H. Duveyrier: Les Touareg du nord. (١)

H Barth: travels and discoveries in north and central atrics in the years 1849-1855. (٢)

F.R.Rodd: people of the vail. (٣)

(٤) البكري : المغرب ص ١٧٠.

(٥) البكري : المغرب ص ١٧٠ ابن خلدون ص ١٨٩ ودائرة المعارف الإسلامية مادة (لثام) W.Bjorkmann.

(٦) H.Duveyrier: Les Touaregs du nord p. 290: rodd: people of the veil, p. 286.

Duveyrier p.298. (٧)

(٨) الدمشقي : نخب الدهر ص ٢٦٧؛ التويرى ج ٢ ص ١٧٩؛ ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠؛ أبو الفدا ج ٢ ص ١٨٤.

(٩) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠.

متلثمون^(١) ، ولا يعرف الرجل الرجل إذا أطاق اللثام عن وجهه «بل إن إبداء الوجه كإبداء العورة فى التأنف والحياء^(٢)». لا يعرف الشيخ من الشاب^(٣) ، ولا يعرف الرجل الرجل إلا إذا انتقب، وإذا قتل منهم رجل فى معركة وزال قناعه لم يعرف من هو إلا إذا وضع القناع على وجهه. «صار القناع ألزم من جلودهم، وهم يسمون من خالف زيهم هذا فى جميع الناس (أفواه الذبان) بلفظهم^(٤)»، وهى عادة توارثها الأبناء عن الآباء^(٥)، لم يتحولوا عنها حتى فى العصر الحاضر^(٦)، فإن أحدهم قد زار باريس فلم يشأ أن يخلع نقابه، وقد أشار النويرى^(٧) إلى مثل ذلك فقال: «كان لى صديق فى دمشق فأتيت يوما إلى زيارته فدخلت إليه وقد غسل عمامته، وسراويله مشدودة على رأسه، وقد تلثم بخلخاله» ولم يزل الطوارق المحدثون على هذه الحال، فقد ذكر رود^(٨) أن الرجل منهم «إذا أراد أن يربط لثامه، اختفى عن الأنظار، حتى عن أهله» ويعد لبس اللثام فى نظرهم مفخرة يتمدحون به، كما يتمدح العربى بسيفه، لا يعتبر الفرد مكتمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه، لذلك تحتفل الأسر عند بلوغ الأولاد سن الرشد بارتداء اللثام ويقيمون احتفالا كبيرا، هو نذير باستكمال الفرد لحقوقه المدنية، واعتباره عضوا عاملا فى المجتمع الملثم^(٩).

وقد ذهب المؤرخون والرحالة مذاهب شتى فى تفسير هذه العادة الغربية الفريدة، فقالوا إنها كانت خدعة، ينتقب الرجال فى وقت الحرب، حتى يظن العدو أنهم النساء، فإذا أدبر انقضوا عليه فأفنوه^(١٠). ويقول آخرون أن لذلك أسبابا صحية لاتقاء الغبار والحر^(١١)، ولكن لماذا لا يخلع عند الأكل، ولماذا

(١) Duveyrier p.290.

(٢) الدمشقى ص ٢٦٧.

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠.

(٤) البكرى: المغرب ص ١٧٠.

(٥) الإدريسي: أرض المغرب ص ٣٩؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٢.

(٦) Duveyrier p. 290.

(٧) النويرى ج ٢٢ ص ١٧٩.

(٨) Rodd: people of the veil p. 288.

(٩) Ibid p. 289.

(١٠) الحلل الموشية ص ٢٨، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٩، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠.

(١١) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

لا تتقرب النساء ولماذا يتامون به، وقال البعض أنه نوع من السحر، أو أنه قد اتخذ صفة العقيدة، أو أن له أسبابا سياسية ^(١). وليس من شك في أن اللثام قد اتخذ أول الأمر لاتقاء منغصات جو الصحراء، توارثه الأبناء عن الآباء، فأصبح بمضى الزمن عادة متغلغلة في النفس، سمت إلى مرتبة العقيدة.

واللثام في العصر الحاضر قطعة من قماش مصبوغ، يصنع في السودان، ويحمل إلى ديار الطوارق ^(٢)، ويبدو أنه كان هنالك نوعان من اللثم، نوع يسمى «الريط» لونه أخضر، وآخر يسمى «السامري» لونه قرمزي ^(٣)، وكان الرجال يلبسون إلى جانب ذلك المقندرات من الصوف ^(٤)، والعمائم ذات الذوائب ^(٥).

والطوارق في العصر الحاضر صنفان، صنف يرتدى اللثم السوداء، وهؤلاء غالبًا من النبلاء، وصنف يرتدون اللثم البيضاء، وهؤلاء من العبيد، ولعل هذا يفسر ما ذكره المؤرخون من أن المرابطين كان شعارهم السواد، وأن المعتصم بن صمادح أراد أن يتقرب من المرابطين، فارتدى زيهم الأسود ^(٦). وهذا موضوع سنناقشه بالتفصيل عندما نبحث نظم الحكم ونتناول الشعارات والبنود.

ومما يؤيد ما قيل من أن النبلاء كانوا يتخذون لثامًا مغايرًا للثام العبيد، أن ابن عبدون ^(٧) صاحب رسالة الحسبة قد اشترط ألا يلتثم إلا صنهاجي، أو لمتوني، أو لمطي «فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يتلثم يتلثمون على الناس ويهيئونهم ويأتون ألوانًا من الفجور كثيرة، بسبب اللثام، وأوصى ألا يتلثم الحشم، والعبيد حتى لا يحسبهم الناس نبلاء فيخدعون»، وقال «إن عبيد المرابطين إذا تلثموا وجب أن يكون ذلك بعلامة يعرفون بها مثل أن يتلثموا بخمار أو بمئزر».

ومن أغرب مامتاز به هذه القبائل، أن مكانة المرأة في المجتمع مكانة رفيعة،

(١) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

(٢) rodd: people of the veil p. 286.

(٣) ابن دحية : المطرب ورقة ٧٣ب، ديوان ابن خفاجة ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) الإدريسي : أرض المغرب ص ٣٩، مقندرات (pi.) chemises (voir) Le Glossaire Joint ala des- scription de l'Espagne, pas edresi, publiee par dozy et de goeje, leyede 1866,364. dozy: supplement aux dictionnaire arabes, II, p. 410.

(٥) عبدالرحمن بن زيدان : الإنحاف ج ١ ص ٦٨.

(٦) levi-provençal: le traite d'ibun (journal asiatique 1934 pp. 177-299) & levi-provençal: seville musulmane au debut du xii siecle: le traite d'ibm abdoum (paris 1947) pp. 61-62.

(٧) محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي : رسالة في الحسبة ص ٢١٨.

بل تعتبر ندا للرجل، وتتمتع بالمساواة التامة^(١)، وهن يقتنين أغلب الثروات^(٢)، ويتمتعن بنفوذ لاحت له، ولا يباشرن أعمالهن البيتية^(٣)، بل يقوم العبيد بأدائها^(٤)، وقد بلغ من اتساع نفوذ المرأة، أنها كانت تشترك في مجلس القبيلة، وتشارك في الأمور الهامة. ولقد لعبت زينب زوج يوسف بن تاشفين دوراً عظيماً في إدارة دفة الأمور في الدولة في حياة زوجها^(٥)، ويبدو أن أهل الأندلس لم يكونوا يألفون ذلك، فأخذوا على المرابطين إصغاءهم لرأى النساء، واعتبروا ذلك من نقائصهم، وكان من أثر هذا المركز الممتاز الذي تمتعت به المرأة أن الرجل كان ينسب إلى أمه في بعض الأحيان^(٦)، كما لم يعرف المجتمع المثلث - على مانعلم - عادة تعدد الزوجات.

وهناك أمر آخر جدير بالأنغفله، ذلك أن الرحالة الفرنسي دي فرييه^(٧)، الذي درس بيئة الطوارق دراسة وافية، لاحظ أن المجتمع الطوارقي أو القبائل الطوارقية صنفان: قبائل سائدة، وقبائل مسودة، قبائل من النبلاء، وقبائل من الأتقان (مع التحفظ في إطلاق هذا الاسم) والنبلاء يحتكرون الحياة السياسية، ويؤلفون مجالس القبيلة، ويتولون القيادة في الحروب، ويديرون دفة الحياة العامة، ويسيطرون أمور القبيلة وفق مشيئتهم، كما يحتكرون التجارة، ويهبطون للدفاع عن الشعب إذا حاق به الخطر، أما الأتقان فإن لهم وضعاً غريباً بعض الشيء، فهم لا يبيعون ولا يشترون كما يبيع العبيد أو يشترون، ولكنهم يورثون كما يورث المتاع. ولا يعتقدون كما يعتقد العبيد لأن من يعتق، لا يستطيع أن يحيا بمفرده في الصحراء، وإلا حاقت به الهلكة، فهو يرضى بهذا الوضع عن طيب خاطر، بل يفتخرون بهذا الوضع الشاذ، ولا يقلون عن النبلاء تفانياً في الدفاع عن القبيلة، وإعلاء لكلماتها، وهم يقتنون الثروات كيفما طاب لهم، وكثيرون منهم قد بذوا سادتهم في الثروة والجاه، ولكن هذه الأموال يرثها السيد بعد وفاتهم، وعبيد الأعمال اليومية يقع على عواتقهم، يرعون الماشية ويؤدون كل ماتحتاجه القبيلة من

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٨٧.

(٢) ابن حوقل : المسالك ص ٧١. Duveyrier: Les Touarergs du nord p. 339.

(٣) Rodd: people of the veil p. 168.

(٤) Duveyrier: (op. cit.) p.339.

(٥) النويري : نهاية الأرب ص ١٨٠.

(٦) النويري : نهاية الأرب ص ١٨٠ ؛ ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٨٧.

(٧) Duveyrier: (op. cit.) pp.329-338.

عمل يدوى، ويشتركون فى القتال^(١)، ويؤدون لآسيادهم نصيباً معلوماً كل عام من الإبل ونتاجها^(٢).

هذه الأوضاع التى عرض لها دى فرييه، توارثها الطوارق المحدثون عن أجدادهم القدماء، وليس من شك فى أن قبائل الملمثمين فى العصور الوسطى كانت تعرف ذلك النظام، فنحن نعرف مثلاً أن قبيلة لمتونة كانت لها الرئاسة زمن المرابطين، وكان رجالها يديرون دفة الدولة، ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية، كما كانت الرئاسة فى لمتونة فى بيت (ورتانطق)، الذى أنجب يوسف بن تاشفين. وابن خلدون^(٣) يشير إلى ظاهرة طالما تكررت فى مجتمع القبائل البربرية، وهى أن القبيلة التى كانت تكتب لها السيادة، كانت تخضع القبائل الأخرى بحد السيف، وتستبعدا استبعاداً، فتصبح القبيلة المنتصرة قبيلة السادة، والقبائل الأخرى قبائل المسودين. فلمتونة مثلاً التى سادت فى القرن الخامس الهجرى أصبحت فى المجتمع الطوارقى الحديث قبيلة مسودة^(٤)، وانتقلت السيادة فى قبيلة ترغة.

ويبدو أن ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة^(٥) أشار إلى مثل هذه الأوضاع، حينما أشار إلى الحشم والعبيد، وطلب ألا يلتثموا حتى لا يختلط الأمر على أهل أشبيلية فلا يميزون النبلاء من غيرهم، وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن تخشى القبيلة أن تتفرق كلمتها، ويعتدى عليها جيرانها، فتختار العبودية (أو التبعية) طوعاً، حتى تنجو بنفسها من الأخطار المحدقة بها، وقد أشار دى فرييه نفسه إلى أن هذا النظام قديم لم يغير إسلام الملمثمين منه شيئاً.

وتمتاز هذه القبائل مؤسسة الدولة أيضاً بما يمتاز به البدو عادة من الشجاعة الفائقة، والقدرة على تحمل المشاق ووفرة النشاط، وليس من شك فى أن البدو أكثر من المستقرين جلداً على الكفاح والمقاومة، وأشد منهم صبراً على الحروب، كما أنهم أصلح الشعوب للقيام بفتوحات على نطاق واسع، لأن حياتهم فى الغالب حياة نقلة وترحال، يستطيعون التحرك بمجموعهم فى سرعة غريبة،

(١) Duveyries : (op.cit.) pp.329-338.

(٢) Idem

(٣) ابن خلدون : العبر ج٦.

(٤) Duveyries : (op.cit.) pp.329-339.

(٥) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ٢١٨.

فينقضون على أعدائهم من المستقرين انقضاض السهم^(١)، كما أنهم لايتعلقون بوطن معروف يذبون عنه، ويدفعون عنه المعتدين، بل هم دائماً تجذبهم مواطن الخصب والاستقرار بخيراتها وحضارتها، ولعل ذلك مما دفع ابن خلدون في مقدمته إلى الإشادة بالبداوة^(٢)، حتى نسب إليها كل الفصائل، قال بأن البدو أقدم من الحضار وأن البادية أهل العمران، وأن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضار وأقرب إلى الشجاعة من غيرهم.

والمثمون في صحرائهم يعتمدون على الإبل في كل شيء، وفي كل ناحية^(٣) من حياتهم، فمنها ماكلهم وكساؤهم، وهي مطيتهم التي تقرب المسافات وتعين على سلوك الصحراء، بل استخدموا الإبل في القتال حتى برعوا في ذلك الفن «كانوا يقاتلون على النجب أكثر من الخيل^(٤)». وكانوا يقيمون صفاً من الإبل في مقدمة الجيوش يجعلون عليها ظعائنهم، فيحتمون خلف الإبل من ناحية، ويذكي منظر الحرائر من حميتهم من ناحية أخرى، فيستमितون في القتال دفاعاً عن أعراضهم^(٥)، فجمعوا بذلك بين الشجاعة الفائقة، والقوة البدنية، وحسن استخدام الإبل في القتال، وقد امتازت هذه القبائل فوق ذلك بحب الاستقلال والشعور بالعزة والأنفة، فقد عاشت في ديارها في الصحراء، لم تذق بأس الهزيمة ولم تخضع لما يخضع له المستقرون من غزو وفتح^(٦) بل كانوا في ديارهم تلك بمأمن من كل عدو، لذلك لانعجب إذا رأيناهم «يختارون الموت على الانهزام، ولم يحفظ لهم فرار من زحف^(٧)» أو على حد قول صاحب الحلل «لم تفسدهم مخالطة الأسافل^(٨)».

وإلى جانب هذه الصفات الجسمية النادرة، من طول قامه، ووفرة قوة وصلابة عود، امتازوا بصفات خلقية عالية، فقد روى دى فريبه^(٩) أن الطوارق

Ramon menendez pidal : the cid and his spain, p.11. (١)

ابن خلدون : المقدمة ص ١١٤ - ١١٩. (٢)

Deveryrier : (op. cit.) p.218. (٣)

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص ١١. (٤)

ابن خلدون : ٨ المقدمة ص ٢٥٩. (٥)

Deveryrier : (op. cit.) p.384. (٦)

الحلل الموشية ص ١١. (٧)

المرجع السابق ص ٦٧. (٨)

Deveryrier : (op. cit.) pp.382-385. (٩)

فى العصر الحاضر ىمتازون بالإخلاص الشدىء والوفاء بالوءء لءرءة الإسراف؁ وبنوع من الفروسىة غرب؁ فهم لاىستعملون الأسلحة النارىة؁ لاعتقائهم أنها أسلحة الغءر؁ كما لاىطعنون عءوهم من الخلف؁ ولاىسممون سهامهم؁ أو رماحهم؁ بل ىرثون بشجاعتهم أن تنءر إلى هذا الءرك . وإذا كان هذا هو حال الملمثىن فى العصر الحاضر؁ فكىف كانوا إءن فى القرن الخامس الهجرى وقء أءكى عبءالله بن ياسىن فى نفوسهم شعة الإخلاص للإسلام؁ وظهر نفوسهم من أءران الشر وحببهم فى الجهاد فى سبىل الله؁ والعمل على إءىاء كلمة الءىن؁ فأخلصوا فى جهاءهم؁ وءافعوا عن ءار الإسلام؁ وءءوا عءوان الفرنءة؁ بل قضء الءولة نحبها ءفاعا عن تراث الإسلام؁ لم تقعءها عن ءلك أنانىة أو إىثار لعافىة؁ أو عزوف عن تضحىة .

وهناك سؤال لاءء من أن لءىب عىه؁ قبل أن نءئم هذه الءراسة الاءتماعىة للقبائل مؤسسة الءولة؁ وهو : هل كانت هذه القبائل ءحىا حىاة بءوىة جافىة؁ لم ءءركها مؤثرات حضارىة؁ ءشع من مراكز ءءافة فى شماء إفرىقىة؁ فىنفء شعاعها إلى أعماق الصءراء؁ إلى مضارب هذه القبائل المءبءىة؟ . وهل هى مجرد قبائل ءهىم فى الصءراء؁ وءكلف بالنقلة والءرحال؁ ءون أن ىكون لها تراث حضارى معروف؟ . الوراق أنه إذا صء ماقلنا من أنها انءءرت من مواطن فى شماء إفرىقىة؁ فلاباء أن ءكون قء أصابء من الحضارات الوافءة على المغرب بنصبىب؁ قبل أن ءوغل فى الصءراء على هذا النحو؁ كما أن المؤثرات الحضارىة لاءء أن ءكون قء نفءء إىلها فى ءىارها الجءىءة؁ فقء وءء عقبه بن نافع فى بلاد السوس حضارة محلىة مءأثرة بالحضارة الفىنىقىة^(١) . كما أن قبائل صنهاءة والبرانس بالءات بزعامة كسىلة الأوربى؁ وعبءالملك بن سكرءىء الصنهاجى قء نافءء العرب؁ وءالفت الرومان؁ كما كان هؤلاء الزعماء ىءىنون بالنصرانىة^(٢)؁ فقء انءشءت النصرانىة فى المغرب الأقصى؁ كما انءشءت اليهودىة من قبل؁ بل إن اليهودىة انءشءت فى ءوات؁ وءافلء؁ وواءى ءرعة وواءى نون؁ وظلء باقىة

(١) De la chapelle: hesperis 1930,t.xi.

(٢) Gautier (op. cit.) p.242.

هناك حتى القرن الخامس الهجرى ^(١). كما أن بلدة أوليلي التى اتخذها الأدارسة حاضرة لهم، هى بلدة (volubilis) الرومانية القديمة ^(٢)، مما يدل على أن حضارات حوض البحر الأبيض تدفقت إلى المغرب الأقصى، ونفذت إلى الصحراء وتركت فى هذه القبائل آثارا يقول الرحالة أنها مازال حتى اليوم ^(٣).

وإذا لم تكن هذه القبائل على جانب من الحضارة غير قليل، فلم احتفظت حتى اليوم بالقلم المغربى القديم، وانفردت به دون سائر قبائل البربر، حتى قيل أنهم حفظة التراث البربرى القديم ^(٤)؟ لابد إذن أن هذه المؤثرات قد نفذت إلى بيئة الملثمين فتركت فيهم آثارا، كما يجب ألا يظن أن قبائل الملثمين كانت بدوية صرفة، فقد رأينا كيف أن بعضها كان يحيا حياة الاستقرار فى واحات مراكش، وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار، وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة إلا قبيلة مسوفة.

ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى هذه الثروات الضخمة، التى كانت تتحول إلى قبيلتى لمتونة، وجدالة، بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها منذ القرن العاشر الميلادى ^(٥). كانت طرق القوافل تمر بديار لمتونة، ثم جدالة، ثم تذهب إلى أودغشت، ثم إلى سجلماسة حاملة الملح، والتبر، والصمغ، ومنتجات السودان ^(٦) والرقيق ^(٧). لذلك كانت سجلماسة، وأودغشت بمثابة موانئ هذه الصحراء الكبرى ^(٨). كانت سوق سلجماسة، وأودغشت من أنفق الأسواق الصحراوية ^(٩) فإذا كانت هذه القبائل قد نعمت بلون من الرخاء المادى، ولون من ألوان الاستقرار، أفنعجب بعد ذلك إذا كانت قد اتخذت لها لونا من ألوان الحضارة، وأن حياتها لم تكن بدوية جافية، وما يؤيد ذلك أن هذه القبائل كان دورها فى تاريخ المغرب دور

De La Chapelle: Hesperis 1930, T.xl. (١)

Gautier p.28. (٢)

Rodd: people of the veil p. 275. (٣)

Terrasse p. 17, Duveyrier p. 391. (٤)

Terrasse : (op. cit.) p.23. (٥)

Cooley :The Negroland p.25. (٦)

(٧) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ص ٦.

Demombynes : Masalik el -abear p.20. (٨)

(٩) البكرى : المغرب ص ١٥٨.

بناء، ولم تكن أبدا معول هدم للحضارات القائمة. فإذا نظرنا مثلا إلى قبائل البدو من عرب بنى هلال التى غزت المغرب فى القرن الخامس الهجرى، ورأينا الخراب الذى أصاب إفريقية على يديها، حين انتهت القيروان كحاضرة سياسية، وثقافية للمغرب، وأصبحت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة، ولم تفلح قبيلة من هذه القبائل فى إقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة بنصيب، وإذا لاحظنا أيضا أن قبائل زناتة عرفت فى تاريخ المغرب بمثل هذا اللون من الحياة غير المستقرة، فلم تؤسس دولة ناجحة مستقرة حتى القرن الخامس الهجرى، بل عرفوا بالجفوة والغلظة وكراهة الاستقرار. كانت قبائل الملمثيين مؤسسة الدولة ذات طابع بدوى معروف، ولكنها كانت على النقيض من قبائل بنى هلال، وزناتة، قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة، قبائل بناء غير هدامة.

١ - دور الملمثيين فى تاريخ الإسلام حتى قيام دولة المرابطين:

بعد أن أتممنا دراسة بيئة المغرب الأقصى، وعرفنا بالقبائل مؤسسة الدولة تعريفا مفصلا، يحق لنا أن نتساءل قائلين: كيف أسلمت هذه القبائل؟، وكيف أتيج لها أن تلعب فى تاريخ غرب إفريقية دورا رائعا فى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام؟، وما هو موقفها من الأحداث التى وقعت بالمغرب الأقصى حتى بداية القرن الخامس الهجرى؟.

أقبل العرب من مصر بعد أن تم لهم فتحها إلى إفريقية غازين فاتحين. أوغلوا فى برقة، وطرابلس، ثم تدفقوا إلى إفريقية بقصد الاستيلاء عليها، ولم يقدر للعرب أن تتوطد أقدامهم فى إفريقية، إلا بعد أن استطاع عقبة بن نافع الفهري أن ينشئ مدينة القيروان، ويتخذها قاعدة حربية تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها صوب الجهات الباقية من إفريقية والمغرب، ولكن حملة عقبة الأولى لم تتمخض عن إتمام فتح إفريقية، ذلك أن طائفة البرانس كانت تتحصن فى جبال الأوراس، متخذة إياها معقلا يعصمها من غارات العرب، وبدأ الصراع يحتدم بين العرب والبرانس، وخصوصا بعد أن أيدت زناتة والبر العرب من أول الأمر بالرغم من أن أبا المهاجر دينار أوغل بجيوش أهل الشام ومصر، وإفريقية، حتى قرطاجنة^(١)،

(١) المالكي رياض النفوس ص ٢، انظر كذلك - أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٢

وهادن البربر أو هادن البرانس بقيادة كسيلة^(١) ، لأنه لم يكن فى استطاعته إذ ذاك أن يقاتل عدوين فى وقت واحد، الروم والبربر. ويبدو أن سياسة أبى المهاجر السلمية آتت أكلها، فقد انتشر الإسلام فى صنهاجة إفريقية، واشترك بعضهم فى الجيش، الذى وجهه إلى فتح الجزائر^(٢)، وقد تمكن أبو المهاجر بسياسته تلك أن يوغل حتى تلمسان^(٣) قاعدة المغرب الأوسط، ولم تستطع قوات العرب أن تجاوزها.

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع الفهري للمرة الثانية، استطاع أن يقضى على مقاومة البرانس فى المغرب الأوسط، ففرت قبائلها أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى، متهيئة لرد العدوان، فلم يجد عقبة مفرا من أن يجاوز تلمسان^(٤)، ويتدفق بقوات العرب إلى المغرب الأقصى، فكان أول فاتح عربى تطأ أقدامه هذا الإقليم.

وقد أوغل عقبة فى إقليم الساحل، حتى أدرك طنجة ولم يلق كيدا، ويبدو أن الجهود التى بذلها فى نشر الإسلام فى إقليم الريف كللت بالنجاح، فقد قال أبو المهاجر لعقبة «ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا»^(٥)، وإذا كان الإسلام قد بدأ ينتشر بين صنهاجة إفريقية فى عهد أبى المهاجر، فلا بد أن صنهاجة المغرب الأقصى الضاربة فى منطقة طنجة قد أسلمت بدورها، واتصلت بالفاتحين الجدد.

وانحدر عقبة بعد ذلك إلى إقليم السوس^(٦) الأدنى، وانقض على مصمودة الساحل، واستطاع بفضل معاونة زناتة أن يقضى على مقاومتهم، ثم مضى قدما حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى^(٧). وغزا مدينة نفيس^(٨) قرب أغمات وريكة^(٩). بل تذهب بعض الروايات إلى أنه أدرك مدينة نول على ساحل المحيط

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٤٢.

(٢) المالكي: رياض النفوس ص ٢٠.

(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٤٢.

(٤) المالكي: رياض النفوس ص ٢٣، الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٤٤.

(٥) المالكي: رياض النفوس ص ٣٦.

(٦) المالكي: رياض النفوس ص ٢٤، الدباغ : المعالم جـ ١ ص ٢٤٦.

(٧) المالكي: رياض النفوس ص ٢٦.

(٨) نفيس مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن أغمات وريكة بمقدار خمسة وثلاثين ميلا. انظر البكري ص ١٥٣.

(٩) البكري : المغرب ص ١٦٠. أغمات مدينتان سهليتان إحداهما تسمى أغمات وإيلان والأخرى أغمات وريكة وبينهما

ثمانية أميال. انظر البكري ص ١٥٣.

فى أقصى بلاد المغرب، وإذا كنا نعرف أن قبائل المثلثين كانت تنتشر من جبال درن حتى نهر السنغال، وأن لمتونة تنزل فى المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادى نون، وأن ترغة كانت تحتل وادى درعة، وأن جزولة كانت تنزل بالقرب منها، وأن بعض بطون مسوفة كان فى أحواز سجلماسة، إذا عرفنا ذلك أدركنا أن عقبة بن نافع قد أوغل فى ديار المثلثين.

ويبدو أن صنهاجة الجنوب، لم تذعن لعقبة من أول جولة، فقد قاومتها مسوفة^(١)، ولابد أن لمتونة وغيرها من القبائل، قد اشتركت فى هذا القتال دفاعا عن كيانهما، ولكن عقبة استطاع أن يدرك مدينة تارودنت^(٢)، وأن يهزم مسوفة من وراء السنوس، وأن يخضع صنهاجة اللثام لسلطات الإسلام، ولانعرف شيئا عن السياسة التى انتهجها عقبة فى ديار أهل اللثام. وكل مانعرفه أنه ابتنى مسجدا فى مدينة ماسة^(٣)، ولا يبعد أن يكون قد ترك من يعلم القوم مبادئ الإسلام، وليس بعيدا أيضا أن يكون قد أقر بعض شيوخهم على ما بأيديهم من سلطة.

ولكن بعض الروايات تذهب إلى أبعد من هذا، تذهب إلى أنه أوغل فى بلاد السودان، وفتح بلاد التكرور وغانة^(٤)، بل إن الرحالة بارت^(٥) ذكر أن بعض الروايات المحلية تقول إنه كانت بغانة فى عام ٦٠ هـ جالية إسلامية، وأنه قد ابتنى بها عدداً من المساجد، وإذا علمنا أن غانة تقع عند منحنى النيجر فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال، أدركنا كيف غلا الرواة فى تقدير حملة عقبة فى بلاد السودان، ولم يكن من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان، ومصب السنغال، ومنحنى النيجر. على كل حال نستطيع أن نقبل هذه الرواية بشئ من التحفظ، إذا عرفنا أن ديار السود كانت أكثر امتدادا نحو الشمال^(٦)، وأن قبائل المثلثين لم تكن قد أوغلت فى ساحل المحيط بعد، فليس ببعيد أن تكون مملكة غانة الزنحية قد بسطت ظلها شمالا حتى

(١) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة، تارودنت من أهم مدن السوس الأقصى على بعد أربعة أيام من درعة. الإدريسي ص ٦١.

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦.

(٤) De la chapelle: Hesperis 1930 t.xl,p.24.

(٥) Barth: Travels and discoveries in north and central africa, vol.iv,p.579.

(٦) R.Basset: Mission au senegal p. 446.

وادی نون، فیکون عقبه حین غزا وادی نون - علی مایینا - قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان.

ومهما یکن من شیء، فلإن عقبه کان أول من حمل أهل الشام علی الإسلام، وأول من ارتاد هذه الدیار النائیة من العرب، وأول من فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذین بدءوا یتدفقون إلی هذه الدیار، واتخذوا مدینة ^(١) أرقی قاعدة لهم، وبدءوا یخترقون الصحراء إلی أودغشت حاضرة مسوفة، ولعلمهم کانوا ینظمون حملات مسلحة تعاونهم صنهاجة بقصد جلب الرقیق من بلاد السودان، وحمله إلی المغرب الأقصى للاتجار فیه، نعم لقد مهد عقبه الطريق أمام خلفائه لینشروا الإسلام، حتی أدرك الإسلام أواسط إفريقية ^(٢).

ولکن عقبه ماکاد یدرك تهودة فی طریق عودته، حتی انقضت علیه جموع البرانس بقیادة کسيلة الأوروی، فأوقعت به، واستشهد عقبه ومن معه من جند المسلمین، وکادت تضیع الجهود التي أنفقها، وارتدت قبائل البربر، وزحف کسيلة إلی الشرق متجاوز المغرب الأقصى، وانقض علی إفريقية ودخل القيروان ^(٣).

و لم یستطع حسان بن النعان أن یهزم کسيلة نهائیا، إنما أقصاه عن القيروان وعن إفريقية، ولم یשא أن یجاوزها مغربا خوفا من أن یصیبه ما أصاب عقبه، ولكنه أصلح الأحوال بإفريقية، وتقرب من أهل البلاد، وعمل علی نشر الإسلام وبدأت القيروان تظهر وتعلو کلماتها، وتوطدت دعائم الإسلام فی إفريقية نهائیا ^(٤) ولم یستطع العرب أن یوغلوا فی المغرب الأقصى مرة أخرى، إلا بعد أن استطاع زهير بن قیس أن یهزم کسيلة عند ممس، وأمعن العرب فی تعقب البربر المهزومین حتی وادی ملویة، بل أوغلوا حتی طنجة ^(٥) فكان زهير بن قیس قد أخضع البرانس، وقتل کسيلة، وفتح الطريق للإسلام لیعيد الكرة فی المغرب الأقصى.

(١) آرقی من بلاد مسوفة ولمطة وهی أول مراقی الصحراء ومنها إلی سجلماسة ١٣ مرحلة ومنها إلی نول ٧ مراحل. الإدريسی ص ٦٠.

(٢) De la Chapelle; Hesperis 1930, tome xl, p. 24. (٢)
Demombyne: Masalik p.311

(٣) ابن عذارى : البیان المغرب ج١ ص ١٥.

(٤) المالکی : ریاض النفوس ص ٣٦، ابن عذارى : - البیان ج١ ص ٢٣.

(٥) المالکی : الریاض ص ٣٠، ابن عذارى : - البیان ج١ ص ١٧.

فلما استقامت الأحوال لخلفاء بنى أمية، واستطاعوا فى عهد عبد الملك بن مروان، أن يقضوا على الفتنة المفرقة لصفوف المسلمين، استأنفت الفتوح فى إفريقية، وراح موسى بن نصير يترسم خطا عقبة بن نافع، ويتم الرسالة التى كان قد بدأها، فقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى مرة أخرى، وقد سلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة، أوغل فى إقليم الريف حتى أدرك طنجة ثم انحدر إلى سبتة، ثم انحدر إلى إقليم السوس الأدنى، ثم انحدر على ساحل المحيط الأطلسى، كما فعل عقبة تماما، حتى أدرك وادى درعة، وتافللت^(١)، وراح يعمل على إخضاع القبائل التى تنكرت للإسلام عقب مصرع عقبة.

وقد نجح موسى حيث أخفق عقبة، وذلك بسبب مابذل الولاة السابقون من منافحة البرانس، ومقتل كسيلة الأوربي، وتفرق شمل القبائل التى أيدته فى نضال العرب ومقاومتهم^(٢)، فلم يلق قبائل متحدة متساندة تقف أمامه صفا واحدا، إنما وجد قبائل مبعثرة متفرقة أمكنه أن يقضى عليها، أو يخضعها، واحدة فواحدة، هذا إلى جانب أن إقليم الساحل كان قد تم إخضاعه من قبل، وانتشر الإسلام فى ربوعه وقضى على آثار المقاومة البيزنطية فيه، كما أن إفريقية كانت قد تمهد أمرها، وتم إسلامها، وأخذت قبائلها تشترك فى جند الفاتحين، وتظفر بما يظفرون به من أسلاب وغنائم.

ولكن موسى بن نصير كان أبعد نظرا من عقبة بن نافع، فلم يكن قائدا فحسب، إنما كان مصلحا وسياسيا فى نفس الوقت، فقد قرب البربر إليه وحببهم فى الحكومة الجديدة، فولاهم الأعمال، وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد^(٣)، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمّة، فبدءوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما، وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا لجنب، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفا أو رهبة، بل اقتناعا وحبّا، فأخذ يفقههم فى الدين وينشئ المساجد فى البلاد التى افتتحها، حتى لقد أنشأ مسجدا فى أغمات هيلانة^(٤) فى أقصى بلاد المغرب، وقد بدأت بذور

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧.

(٢) Gautier: (op. cit.) p.254.

(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨، ابن خلدون ج ١ ص ١١٠، نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب

الأقصى ص ١٢

الثقافة الإسلامية تثبت فى هذه البيئة الجديدة، وبدأ نبتهها يزكو، ويشب عن الطوق، وأتيح للبربر أن يجنوا ثماره الطيبة بعد وقت غير طويل، وقد نجحت سياسة موسى نجاحاً بعيد المدى، فقد أصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوعاً وبيماً، فما كاد يشرع فى فتح الأندلس حتى وجد البربر إلى جانبه، يؤيدونه، ويشندون أزره، ويشاركون المسلمين فى هذا الجهاد المقدس، فلما تم فتح هذه البلاد تدفقت جماعات البربر إليها طمعاً فى الغنى أو حباً فى الجهاد، ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نقول دون تردد أن الإسلام قد توطدت أركانه فى بلاد المغرب الأقصى، وبدأ يسطر ظله على السكان، كما أن التحالف قد تم بين العرب والبربر بعد إسلامهم.

وإذا كان موسى قد أوغل فى فتوحه، حتى بلغ وادى درعة، وبلاد السوس، فقد أوغل فى الأطراف الشمالية لمواطن المثلثين، واتصل بهم، ولعله قد ردهم إلى الإسلام بعد أن ارتدوا عنه عقب موت عقبة، ولكى يوطد للإسلام فى ربوع هذه القبائل أنشأ مسجداً فى أغمات، هذه المدينة التى ستصبح من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى، وستلعب دوراً لا يقل عن دور مدينة فاس، وإذا كان موسى قد ولى البربر على الأعمال، فهل يبعد أن يكون قد ولى بعض زعماء المثلثين أعمالاً فى ديارهم على الأقل، ويخيل إلينا أن المثلثين قد أقبلوا على الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً فى المشاركة فيما ينعم به العرب الفاتحون، فلما تهيأ المسلمون لفتح الأندلس اشتركت فرق من صنهاجة فى جيش الفاتحين، لذلك لا يسعنا إلا قبول ما يذكره المؤرخون^(١) من أن إسلام لمتونة تم فى هذا الوقت بالذات، وأنهم أخذوا منذئذ يقبلون على الإسلام شأنهم شأن القبائل الأخرى.

وقد تابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة، التى اتبعها من بث الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر، فإن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى ولى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأقصى

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٣، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٨٨.

«ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم» على حد قول ابن عبدالحكم^(١). وأمه عمر بطائفة من خيار التابعين انتشروا في البلاد يحضون الناس على الإسلام، ويصرونهم بشئون دينهم، يقيمون الحدود، ويحرمون الخمر، ويحاربون المفاسد، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا^(٢).

ولم يغفل العرب أمر التوسع الحربى أيضا، فإن عبدالله بن الحبحاب قد سير حبيب بن أبى عبيدة، فأوغل في المغرب الأقصى، حتى أدرك بلاد السوس الأقصى^(٣)، بل قيل إنه أشرف على ديار الزنوج، وقاتل مسوفة^(٤) ولاندرى لم حمل حبيب هذه الحملة الشعواء على قبائل الملثمين بالمغرب الأقصى، هل كان ذلك لارتدادهم عن الإسلام مرة أخرى؟ يخيل إلينا أن هذا الأمر لم يكن الباعث الحقيقى على هذه الغزوة، إنما أراد حبيب أن يرضى خلفاء المشرق وذوى الرأى فيه، بطلب السبى والعبيد، فقد روى المؤرخون أنه حمل من ديار الملثمين سبيًا كثيرًا^(٥)، وأنه كان يثخن فيهم ليحمل عددًا كبيرًا من الأسرى، وكانت هذه السياسة الخرقاء مما ألّب هذه القبائل وغيرها من قبائل المغرب الأقصى على عمال الخلفاء، إلى جانب سوء سياسة عمر بن عبدالله المرادى عامل طنجة^(٦)، الذى لم يحكم بين الناس بالسوية، فساعد من حيث لا يدرى على إذكاء نار الثورة.

وقد انبعثت شرارة الثورة من طنجة أول الأمر: أذكى الخوارج نارها، وحملوا لواء المقاومة، وحببوا بعض القبائل فى عقائدهم، التى تنادى بالخروج على ولى الأمر. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن بلاد المغرب الأقصى قد اكتلمت شخصيتها الإسلامية، فأخذت تشارك الشعوب الإسلامية الأخرى فيما منيت به من فرقة مذهبية، ففشت مذاهب الصفرية التى تنادى بأن الإمامة ليست

(١) ص ١٠٦ من طبعة (A. Gateau) بالفرنسية.

"ibn abd Al-hakam: conquete de l'afrique du nord et de l'espagne (texte arabe et traduction française avec une introduction et des notes).

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ١٥٤، ابن عذارى: البيان ج ١ ص ٣٤. دائرة المعارف : مادة السوس (Levi-provencal).

(٣) البيان: المغرب ج ١ ص ٣٨، دائرة المعارف الإسلامية - مادة «السوس» (E. Levi-Provencal).

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٣٨، ابن خلدون ج ١ ص ١١٠.

(٥) ابن خلدون ج ١ ص ١١٠.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣٨.

مقصورة على العرب بل يشترك المسلمون فيها على السواء، حتى أن جمهور الثوار قد بايعوا ميسرة السقاء المطغرى^(١) بالخلافة في مدينة طنجة.

وعمت الثورة بلاد السوس الأدنى أول الأمر، ولكن ما لبثت أن عمت سائر جهات المغرب الأقصى، ويخيل إلينا أن قبائل المثلثين التي كانت حانقة على ما اقترفه حبيب بن أبي عبيدة، قد أيدت جمهرة الثوار، ولم تستطع الخلافة الأموية أن تحسم هذا الداء العضال، الذي أخذ يستشري يوماً بعد يوم، فإن جند الأندلس لم يستطيعوا العبور إلى العدو المغربية للمشاركة في إخماد الفتنة، كما أن الجهود التي بذلها خالد بن حامد الفهمي، وكلثوم بن عياض بآت بالإخفاق، وامتد لهب الثورة إلى إفريقية، واشترك فيها البرانس بزعامة عبد الملك بن سكرديد، وسقطت القيروان، وعمت الفرقة، وكاد سلطان العرب في المغرب أن يقضى عليه قضاء مبرما.

وعلى الرغم من أن حنظلة بن صفوان قد استطاع أن يسترد القيروان^(٢)، ويؤمن إفريقية، ويقر السكينة والهدوء في ربوعها، إلا أنه لم يستطع أن يرد الوحدة إلى ربوع المغرب، فقد وضحت شخصية المغرب الأقصى وضوحاً تاماً، وخرج عن طاعة القيروان، وبدأ يقرر مصيره بنفسه، وبعد أن اختفى نفوذ العرب من المغرب الأقصى أو كاد، أخذ البربر يعتمدون على أنفسهم في حل مشاكلهم حسب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الدينية.

فقامت في بلاد المغرب دويلات مستقلة، تبسط كل نفوذها على منطقة معينة محاولة أن تقر السكينة في ربوعها، وأن تؤمن أهلها، حتى يستطيعوا أن يعيشوا في سلام وطمأنينة^(٣)، فأقامت صنهاجة إمارة باجة^(٤)، وأقامت هواره صرح دولة بطرابلس^(٥)، واستقلت نفوسة بمدينة قابس، واستولى بنو واسول على سجلماسة^(٦)، وأقاموا فيها إمارة ظفرت بتأييد قبائل المثلثين الضاربة في نواحيها،

(١) ابن خلدون ج٦ ص ١١٠.

(٢) ابن خلدون ج٦ ص ١١١.

(٣) ابن خلدون ج٦ ص ١٩١.

(٤) البيان المغرب ج١ ص ٢٦.

(٥) ابن خلدون ج٦ ص ١١١.

(٦) ابن خلدون ج٦ ص ١٠٥.

أما برغواطة الساحل فقد أقامت إمارة على رأسها صالح بن طريف . وبرغم هذه
الفرقة ظلت الوحدة الثقافية على أشدها، كما ظلت القيروان على اتصال بمدن
المغرب الأقصى، وظل العلماء يجوبون هذه الأقطار رافعين لواء العلم .

ورغم أن ولاية القيروان قد فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى فقد ظلوا يهتمون
بشئونه، ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التي تربطه بإفريقية، فقد
عمل عبدالرحمن بن حبيب على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية
وبين أودغشت بصحراء المغرب الأقصى^(١)، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة
الحكيمة أن يعبروا الصحراء لأول مرة، وأن يمعنوا في نشر الإسلام في ربوع
صنهاجة الجنوب أهل اللثام الضاريين في جوف هذه الصحراء، واستطاع حفيد
عقبة هذا أن يتم ما بدأه جده من نصف قرن تقريباً، فأصبح التجار يتصلون بديار
الملثمين، وبلاد السودان عن طريقين: طريق ساحل المحيط، وطريق الصحراء،
الذي أصلحه عبدالرحمن بن حبيب، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياد هذا
الطريق ميممة شطر غرب إفريقية، وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة، إذ
عملت على تسرب الإسلام إلى ديار صنهاجة عن طريق آخر غير الطرق المألوفة من
قبل .

واستطاع عبدالرحمن بن حبيب أن يضمّد جروح إفريقية بعد أن أثخنّت فيها
ثورة الخوارج حتى كادت تأكل الأخضر واليابس، فنشر السلام والطمأنينة في ربوع
البلاد^(٢)، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر، كما بسط سلطانه غرباً
حتى تلمسان بل حاول غزو صقلية^(٣)، وأغارت قواته على جزيرة سردينيا،
وبرغم ما انتاب العالم الإسلامي من فتن بعد سقوط الخلافة الأموية، وقيام
الخلافة العباسية، ظلت السكينة ضاربة بجرائنها في ربوع البلاد، بفضل سياسة هذا
الوالى الحكيم، وقد استطاع الأغالبة من بعده أن يتموا الجهود التي بذلها، فتألق
نجم الحضارة في إفريقية^(٤)، وغدت القيروان كعبة القصاد من كل فج، وقد
استطاعت الإمارات التي انتشرت في المغرب الأقصى أن تتعاون فيما بينها: فأظلت

De la chapelle: Hesp 1930 t.xl.pp.56-57. (١)

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٤٩، ابن خلدون ج٦ ص١١١ .

(٣) المراجع السابقة .

(٤) ابن خلدون ج٥ ص١١٣ .

المغرب السكينة التي أظلت إفريقية، ومضى تيار الثقافة الإسلامية في طريقه المرسوم.

وقامت دولة الإدارة في المغرب الأقصى بنفس الدور الذي قام به الأغلبية في إفريقية، فاستطاعوا أن يوحدوا البلاد تحت لوائهم، وأن يقرروا السكينة والطمأنينة في ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شمله، وتأتى على مابذل من جهد في سبيل تنظيم شتونه وإتمام إسلامه، وكان لانتساب الإدارة إلى الرسول ﷺ أثر كبير في توحيد القبائل المتنافرة الضاربة في المغرب الأقصى، فظفروا بتأييد السكان على اختلاف ألوانهم ومشاربهم، فقد أيدهم البتر، وأيدهم البرانس^(١)، وأيدهم المصامدة، ونجح إدريس حيث أخفق غيره من العرب، واستطاع لأول مرة أن يوحد إقليم السهول وإقليم المراعى، وبين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة، فلما نجح في ذلك اطمأن أهل السهول، واطمأن البدو، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل.

وقد نجح الإدارة في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنباً إلى جنب^(٢)، واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة، والجهود المتضاربة أن يوجهوا أبصارهم إلى حركة جهاد مقدس، بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة، والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية المنتشرة بين قبائل المغرب الأقصى^(٣)، فانقضوا على المصامدة يردونهم إلى حظيرة الإسلام، وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف، وعلى إقليم مكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى، كما فتحت بلاد نفيس، وتامنا^(٤)، وشالة^(٥)، وماسة، وتادلة^(٦)، وأوغلوا في كل فج يحاربون الشرك أينما كان.

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ البلاد، فقد أصبحت حاضرة المغرب الأقصى، يقصدها العلماء والتجار من كل صوب^(٧)، وبدأت

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣، Terrasse (op.cit.) p.211

(٢) Terrasse: (op. cit.) p.II.

(٣) الجزناني: زهرة الآس ص ٢٢، الكتاني: الأزهار العاطرة الأنفاس ص ٣٨، الإنحاف ج ٢ ص ٢٦، ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧.

(٤) بلدة برغواطة بالمغرب الأقصى. البكري ص ٧٨.

(٥) هي مدينة سلا الحديثة وهي من الموانئ الساحلية. الإدريسي ص ٧٣.

(٦) مدينة من مدن المغرب الأقصى قرب أغمات من بلاد السوس. الإدريسي ص ٧٣.

(٧) عبدالرحمن بن زيدان: الإنحاف ج ٢ ص ٦.

مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة، وتبث العلم في ربوع ذلك القطر النائي، وكان الأدارسة أنفسهم يذكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم، إذ لهم الفضل في نشر اللغة العربية في البلاد وإحلالها محل لغة البربر^(١).

ماهو موقف المثلثين من هذه الأحداث الخطيرة، التي بدأت تشكل تاريخ المغرب الأقصى، وتكسبه الصبغة الإسلامية البحتة؟ ذكر كثير من المؤرخين أن صنهاجة المغرب الأقصى بايعت إدريس، وشدت أزره، وأيدته^(٢)، فليس ببعيد أن يكون الأدارسة قد ظفروا بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام، ولعلهم اشتركوا في بيعة إدريس بن عبدالله، وأيدوه حتى ظفروا بما ظفرت به القبائل الأخرى من نعمة الدولة الجديدة. ويذهب ابن خلدون^(٣) إلى القول بأن الإسلام ظهر في ربوع هذه القبائل لعهد المائة الثالثة، وقد بينا كيف أن الجهود المتصلة التي بذلها عقبة وموسى وخلفاؤهما نشرت الإسلام في ربوع صنهاجة اللثام منذ عهد بعيد، وإذا كان للأدارسة فضل فإنما يرجع هذا الفضل إلى إذكاء حركة الإسلام في بلاد المغرب الأقصى عامة، فاشتد ساعد الإسلام، وتمكن من نفوس هؤلاء القوم، ولعل الثقافة العربية التي كانت تشع من مدينة فاس قد أصابت ديار المثلثين بقبس من نورها، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريبا، كما بسطوا نفوذهم أيضا على النواحي الشمالية من ديار المثلثين، وتخطى نفوذهم جبال درن، وانتشر في إقليم الواحات، وروى المؤرخون أن عبدالله بن إدريس أخضع لمطة الضاربة على ساحل المحيط، وتولى عمل أغمات والسوس الأقصى، وبلاد نفيس، وصنهاجة الرمال^(٤)، أعنى صنهاجة اللثام الضاربة في منطقة سجلماسة، أما عمر بن إدريس ابن إدريس فقد تولى تيجنساس وترغة^(٥)، وخلفه ولده على حكم هذه المناطق^(٦).

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الجزنائي : - زهرة الآس ص ١٢.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ١ ص ١٨٢.

(٤) أبو بكر بن محمد السيوطي المغربي: نسب بعض الصحابة الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة ورقة ٩ (ب).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢١٩، الروض الهتون ص ٢٨.

(٦) روض القرطاس ص ٤٧.

من ذلك يتبين أن مضارب المثلثين القرية من جبال درن انضوت تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، يولون عليها الولاية، ويخضعونها للحكومة المركزية في فاس، ولذلك لن نتردد في القول بأن إسلام صنهاجة اللثام الذي بدأ في عهد عقبة قد اشدت وتأكد في عهد الأدارسة، ووضح إسلام أهل اللثام وضوحاً تاماً في القرن الثالث الهجري، على ماذهب إليه ابن خلدون^(١).

وكان إسلام قبائل المثلثين في القرن الثالث الهجري ذا أثر بالغ في تاريخ هذه القبائل، وتاريخ المغرب والسودان. فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل المثلثين جميعها بزعامة لمتونة، وذلك بفضل الجهود التي بذلها الزعيم اللمتوني تيولوتان بن تيكلان^(٢)، الذي أسلم وحسن إسلامه، وأكسبه دينه الجديد القوة التي مكنته من إتمام هذا التوحيد، فلما تم هذا التحالف كان على القبائل المتحالفة أن تعد العدة لتوسع جديد، إما صوب الشمال باختراق نطاق جبال درن، والإغارة على سهول المغرب الأقصى الخصبة، أو بالتقدم صوب الجنوب.

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها، فإن دولة الأدارسة في القرن الثالث الهجري كانت مازال بحيث تستطيع الاحتفاظ بمافي يدها، ورد أي عدوان يأتي من الجنوب، كما أن قبائل زناتة المؤيدة للدولة الإدريسية كانت تجوس في هضاب المغرب الأقصى وتقف لقبائل المثلثين بالمرصاد لتحول بينها وبين التقدم صوب الشمال^(٣)، هذا إلى جانب قبائل مصمودة القوية المحاربة التي كانت مازال في أوج قوتها، وكانت مستعدة للدفاع عما بيدها من أرض خصبة، وأن ترد أي عدوان يفكر فيه البدو الضاربون جنوب جبال درن، فلم يبق أمام الحلف الجديد إلا أن يتوسع صوب الجنوب، وقد حدث هذا فعلاً. ومما أذكر تيار هذا التوسع أنه كان بقصد الجهاد في سبيل الإسلام، والعمل على نشره في ربوع القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب^(٤)، وكان القبائل المثلثة حديثة العهد بالإسلام أرادت أن تسهم في حركة الجهاد المقدس، وأن تدلي بدلها في الدلاء..

(١) ابن خلدون ج٦ ص ١٨٢. Julienp. 376. De la Chapelle p.50.

(٢) ابن خلدون ج٦ ص ١٨١-١٨٢، جامع تواريخ فاس ص ٢٧.

(٣) Terrasse: (op. cit.) p.211.

(٤) Terrasse: (op. cit.) p.211.

وفى هذا العصر كانت مملكة غانة الزنجية قد بلغت أوج قوتها، وعنفوان توسعها، حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله «كانوا أعظم أمة وأضخم ملك»^(١) امتدت منطقة نفوذهم من منحى النيجر جنوبا حتى مدينة أركى فى الشمال، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة قرب وادى نون^(٢). ولكن كان من حسن طالع هذا الحلف الصنهاجى الوليد، أن دبت عوامل الضعف فى هذه المملكة الزنجية الضخمة فى هذا الوقت بالذات، فنقد روى المؤرخون^(٣) أن هذا البناء الضخم انهار فجأة أمام ضربات المثلثين المتقدمين من الشمال، ويقال فى تحليل ذلك، إن شعب صوصو^(٤) النازل إلى الجنوب من ديار غانة أفلح فى طعن هذه المملكة من الخلف، والإغارة عليها فى الوقت الذى أئختهم فيه سيوف المثلثين من الشمال.

ويقال فى تحليل ذلك أيضا أن المعركة كانت بين الإسلام والشرك، بين شعب ألهم الإسلام حماسه، وجد فى طلب الاستشهاد، دفاعا عن الدين الجديد، وشعب زنجى من عبدة الأصنام، فلم يكن مستغربا أن ينجح الحلف المثلث نجاحا بعيد المدى، وأن يشحن فى ديار غانة، وأن يردهم صوب الجنوب، وأن يمضى قدما فى توسعه حتى أصبح على مسيرة أيام من منحى النيجر، كما وضع يده على مدينة أودغشت، وفرض الجزية على الشعب المغلوب على أمره^(٥)، واتخذ هذه المدينة حاضرة له^(٦).

ويفيض المؤرخون فى وصف هذا الملك العريض، الذى حققه زعيم صنهاجة اللمتونى، فيقولون إنه كان مسيرة ثلاثة أشهر، ويدللون على قوة هذا الملك الصنهاجى فيقولون إنه كان يركب فى مائة ألف نجيب^(٧). وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على هذه القوة الجبارة، التى تمخضت عن هذا الحلف المثلث القوى.

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٩٩.

(٢) Cooley: Negroland p.19.

(٣) الإدريسى ص ٢٩، ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٩، القلقشندى: صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٩٣. Cooley, p.71.

(٤) صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٩٣. Cooley, p.71.

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٩.

(٦) Terrasse:(op. cit.) p.213.

(٧) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، جامع تواريخ فاس ص ٢٧.

ويروى المؤرخون أن هذا الزعيم توفى عام ٢٢٢هـ ، وأن الملك قد استمر فى أعقابه حتى عام ٣٠٦هـ، حتى تفرق شمل الحلف، وعملت عوامل الفرقة عملها، فعدت صنهاجة على تميم خليفة تيولوتان، فقتلته، وتفرقت القبائل أيدى سباً^(١).

ويخيل إلينا أن قبيلة جدالة كانت فى طليعة الفاتحين، بدليل أن مضاربها أقرب مضارب المثلثين من دولة الزنوج، ولم تكد غانة تتحرر من ربة قبائل المثلثين بعد تفرقها، حتى عادت تبسط ظلها على مدينة أودغشت مرة أخرى،^(٢) ولكنها لم تستطع أن تسترد أملاكها السابقة بعد استقرار القبائل المثلثة فى البلاد التى تم فتحها، ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب، وفى ذلك ربح طائل وثناء عريض.

١١ - ظهور الزناتيين فى المغرب الأقصى:

فى الوقت الذى شغلت فيه صنهاجة الجنوب بمداغة غانة، كانت الأمور فى بلاد المغرب تجرى فى صالح صنهاجة الجيل الأول، النازلة فى إفريقية، فقد قامت الدولة الفاطمية، وحالفتها كتامة، وصنهاجة من أول الأمر، وسارتا فى ركابها وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب، كما تحفزت الدولة الأموية فى الأندلس للنزال، وبدأ الفريقان يتخذان المغرب الأقصى ميدانا للصراع فيما بينهما طمعا فى الغلبة والسيادة.

وفى الوقت الذى كان هذا الصراع فيه على أشده بين الفاطميين، وأحلافهم من زناتة، استطاعت صنهاجة الجنوب أن تتحد مرة أخرى، ولاندرى الظروف التى أدت إلى هذه الوحدة، إنما يخيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن قبائل المثلثين شعرت بأنها بين خطرين داهمين، خطر فى الشمال بسبب اضطراع القوى السياسية فى المغرب، وخطر فى الجنوب ناجم عن سيطرة غانة على طرق التجارة، التى هى عصب الحياة لهذه القبائل، فقد ذكر المؤرخون^(٣) أن لمتونة استطاعت

(١) ابن خلدون ج٦ ص ١٨١ - ١٨٢ ، De la Chapelle 1930, t. xi, p.29

Barth (op. cit.) vol. iv, pp. 580-581.

(٢) Terrasse: (op. cit.) p. 213.

(٣) ابن حوقل: المسالك ص ٧١، البكرى: المغرب ص ١٥٩، ابن خلدون ج٦ ص ١٨١ - ١٨٢.

بزعامه الأمير تين يروتان بن ويسنو أن تلم شعث المثلثين مرة أخرى، ويخيل إلينا أن ذلك تم حوالى سنة ٣٥٠هـ، فإن ابن حوقل^(١) طوف بديار المثلثين فى ذلك الوقت تقريبا، ودخل مدينة أودغشت، ووصف مبلغ قوة ذلك الحلف الجديد، الذى عاد يتخذ هذه المدينة حاضرة له مرة أخرى، بعد أن أقصى عنها عدوان غانة، وعادت صنهاجة اللثام تبسط ظلها من جديد على الأقاليم الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحى النيجر فى الجنوب، ولكن الصراع لم تهدأ تأثرته، إذ كانت غانة بالمرصاد، فاستردت أودغشت مرة أخرى، وترفت قبائل المثلثين^(٢)، وأظلمها القرن الخامس وهى متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان، حتى قدر لها أن تستعيد وحدتها، وتسترد مكانتها تحذوها آمال جديدة، وتدفعها بواعث أخرى، وأهداف سامية.

وفى ذلك الوقت بالذات كانت زناتة وأحلافها من قبائل البتر صاحبة السيادة على المغرب الأقصى، فقد كان بنو خزرون يتزلون بسجلماسة، ويتحكمون فى مسالك الصحراء؛ وكان المغراويون يسيطرون على إقليم فاس، ويمدون نفوذهم إلى إقليم الساحل، أما بنو يفرن فكانوا يسيطرون ظلهم على منطقة سلا^(٣) عدا كثير من البطون البترية التى كانت تنتشر فى هذا الإقليم بمعونة هذه الإمارات الثلاث.

ويحق لنا أن نسأل، كيف تم لزناتة وأحلافها من البتر السيطرة على المغرب الأقصى على هذا النحو؟ نحن نعرف أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها، وكانت فى الواقع تشطر الوطن الصنهاجى شطرين: شطر شرقى، وآخر غربى، كما كانت بطونها تضرب فى صحراء إفريقية جنوب تونس وسفوح الأوراس والهضاب العليا ونطاق المراعى^(٤).

كانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة، والعداء بينهما معروف، وهو صورة من ذلك العداء التقليدى بين البرانس والبتر، ذلك العداء الذى عرفه تاريخ المغرب منذ القدم، عرفه الرومان^(٥)، وعرفه العرب بعد فتحهم المغرب، ولعب فى

(١) ابن حوقل : المسالك ص٧١، Barth: (op. cit.) vol. p.580

(٢) البكرى: المغرب ص١٦٤، ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٦، القلقشندى: صبح الاعشى ج١ ص١٨٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٦٣، الحلل المشوية ص١٢.

(٤) Gautier: (op. cit.) p.197.

(٥) Ibid.pp. 234-239.

التاريخ الإسلامى فى العصرين الأموى والعباسى دورا كبيرا، وترك فى حياة المغرب آثارا واضحة، ويرى جوتيه «أن البتر قتلوا المغرب ولعبوا دورهم المحزن كاتم مايكون^(١)».

ولكن الأحداث التى وقعت بالمغرب فى القرن الرابع الهجرى قدر لها أن تبرز أهمية هذا النزاع، وتخرج به من نطاق النزاع المحلى بين شعبين متعاضدين متباغضين إلى نطاق أوسع، حين أكسبته صفة عالمية دولية، فقد قامت الدولة الفاطمية فى إفريقية بمعونة قبيلتى كتامة وصنهاجة، وظفرت هذه الدولة الناشئة بتأييد البرانس، ذلك التأييد الذى حقق أحلام المهدي كاملة، وأتاح لجنود الفاطميين أن يتوسعوا إن شرقا وإن غربا، كيفما طاب لهم، ولم تنظر القبائل الزناتية النازلة بالمغرب الأوسط إلى ذلك التأييد بعين الارتياح، فارتابت فى الدولة الجديدة التى قامت على أكتاف البرانس، ووقفت منها موقف الحذر، ثم تجاوزت الحذر إلى الموقف الإيجابى، فأغار محمد بن خزر الزناتى على مدينة تيهرت فى عهد المهدي^(٢)، الذى استطاع أن يرد عدوانه، وينزل به الهزيمة، فلاذ بأذيال الفرار معتصما بالصحراء، كما شق أبو هارون الهوارى عصا الطاعة بطرابلس، فحوصر وقضى عليه، ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الفتية، لأنها كانت تعتمد فى نضالها على مواردها المحدودة^(٣)، وهى ليست شيئا إذا قيست بموارد الدولة الجديدة.

وما لبثت الدولة الفاطمية أن ناصبت الدولة الأموية بالأندلس العداء من أول الأمر، بسبب العداء المعروف بين الشيعة وبين الأمويين^(٤). فاعتقد الأمويون بالأندلس أن الفاطميين بإفريقية يريدون بهم شرًا، ويتربصون للإيقاع بهم^(٥)، والأخذ بذلك الثأر القديم، كما أن اتجاه الفاطميين إلى بسط سيادتهم على المغرب أول الأمر، أشعر الأمويين بأن الخطر الذى كان بعيدا بإفريقية أخذ يقترب من ديارهم، زد على ذلك أن عبيد الله المهدي أرسل يؤيد ابن حفصون الثائر بالأندلس^(٦)، ويشد أزره نكاية فى أعدائه الأمويين.

(١) Gautir: (op. cit.) p.402.

(٢) Fournel: Les Berberes, vol. II, p.95.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٥٢.

(٤) Dozy: Hist. des Mugulmans d'Espagne, vol. III, p.14-21.

(٥) Ibid pp.14-21.

(٦) Dozy: Hist. des Musl. vol. III, p.17.

ولم يكن عبدالرحمن الناصر يستطيع فى ذلك الوقت أن يتدخل فى شئون المغرب تدخلا مباشرا بسبب مشاغله فى الأندلس، واشتغاله بمداخلة الفرنجة فى الشمال^(١)، فلم يجد بدءاً من أن يؤيد الأمراء المغاربة الخارجين على الفاطميين، فوجد فى الزناتيين والبتريين أحلافاً يطيعون، وكان البتريون كانوا يتلهفون لمثل هذه الفرصة النادرة للثأر من الفاطميين وحلفائهم من البرانس، فأقبلوا على الدعوة الأموية إقبالا منقطع النظير، وأيدوها تأييداً مطلقاً، ولبوا نداء عبدالرحمن الناصر عن طيب خاطر، فدخل موسى بن أبى العافية فى طاعته وخطب له على منابر بلاده^(٢).

وأحس الفاطميون أن الزناتيين أصبحوا خطراً جليلاً الشأن، حين عمد عبدالرحمن الناصر إلى الاستيلاء على سبتة، واتخذها قاعدة لأعماله الحربية، فأرسلوا إلى المغرب الأقصى حملة بقيادة ميسور الفتى، استعادت فاس سنة ٣٢٣هـ^(٣) وهزم ابن أبى العافية هزيمة ساحقة، ففر معتصماً بالصحرى، كما أن الخليفة القائم بن عبيد الله، انقض على محمد بن خزر المغراوى فهزمه أيضاً، واتخذ العداء بين الفاطميين والزناتيين صورة جديدة عنيفة سترك أبلغ الأثر فى تاريخ البرانس والبتريين معاً.

وأصبح واضحاً كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبتريون أمويون^(٤)، وأمعن الصنهاجيون بدورهم فى تأييد الفاطميين أكثر من ذى قبل، فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون من أملاكه، فاستطاع أن يرد عدوان الزناتيين عن إفريقية، وكانت زناته بالمغرب الأوسط لاتزال قوية، وكانت ترتبص بالغزوات الفاطمية العائدة من المغرب الأقصى، فتزل بها جسائر فادحة.

وقد بلغ الخطر الزناتى أشده فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد، الذى كاد يأتى على ملك الفاطميين بإفريقية، والذى كان يرسل إلى بلاط قرطبة أنباء انتصاراته المتتالية، يطلب العون والمساعدة، لكن الفاطميين انتصروا وهزم

(١) Fatarel: Les Berberes. vol. II, p. 199.

(٢) ابن عذارى: البيان ج ١ ص ٢١٧، روض القرطاس ص ٥٦.

(٣) ابن زرع: روض القرطاس ص ٥٨.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٣، مفاخر البربر ص ٤.

الزناتيون، ولأدت قبائل بنى يفرن ومغراوة بأذيال الفرار^(١) حين تلاشت قوة أبي يزيد، ولم يعد يستطيع المقاومة.

وما كادت ذيول ثورة أبي يزيد تنتهى، حتى عادت كتائب الفاطميين إلى المغرب الأوسط، غازية بقيادة جوهر ونكلوا بالزناتيين شر منكل، وأصبحت الجبهة الزناتية بتصدع كبير، فقتل موسى بن أبي العافية^(٢)، وهزم جوهر بنى يفرن، واسترد تيهرت، وخرب مدينة أفكان^(٣) حاضرة زناتة^(٤)، فتفرق شمل بنى يفرن، وتقلص نفوذهم، وبدأت جموع زناتة بالمغرب الأوسط ترحل تدريجيا إلى المغرب الأقصى، تلوذ به من غضب الفاطميين، وانتقامهم، وأمعن جوهر فى طلبهم، ودخل المغرب الأقصى، واستولى على فاس وسجلماسة وشنت جموعهم، وما كاد محمد بن خزر المغراوى يلم شعثه، ويعاود الكرة حتى تصدى له زيرى بن مناد الصنهاجى، والتقى به فى موضع بين أشير وتلمسان^(٥)، فحرز نصراً عظيماً، فاضطر محمد بن خزر إلى أن يقتل نفسه بسبب عار الهزيمة واخترقت الخط المغراوى، وحوصر العدو، وذاق البأس والشدة، وبذلك تمت السيادة البرنسية على المغرب الأوسط، إذ لولا ذلك النصر، لما بايع المعز صنهاجة، ولما قدر لها أن تخلف الفاطميين فى ملك المغرب.

ولما حاول جعفر بن على الأندلسى أن يحيى موات مغراوة، ويقودها للقاء البرانس من جديد، خف إليه بلكين، فهزمت زناتة، وولت الأدبار متجهة صوب سجلماسة، ولم يترك بلكين للعدو المنهزم فرصة يلتقط فيها أنفاسه، بل راح يتزع مدن المغرب الأوسط واحدة واحدة، فاسترد طبنة^(٦)، وبغاية^(٧)، والمسيلة^(٨)، وبسكرة^(٩)، وانقض على تلمسان فخر بها^(١٠)، وقتل من زناتة فى هذه المعارك

(١) Gautier: (op. cit.)p.263.

(٢) السلاوى: الاستقصا ص ٨٢.

(٣) أفكان من مدن المغرب الأوسط قرب تيهرت. الادريسى ص ٨٣.

(٤) نبد تاريخية جامعة ص ٥.

(٥) Gautier: (op. cit.) p.375.

(٦) طبنة بلدة فى طرف إفريقية عما يلى المغرب على ضفة الزاب. انظر: ياقوت ج ٣ ص ٥١٥.

(٧) مدينة كبيرة فى أقصى أفريقية بين محانة وقسنطينة. ياقوت ج ١ ص ٤٧٣.

(٨) بالفتح ثم الكسر والياء ساكنة ولام.

(٩) بسكرة بكسر الباء بلدة فى المغرب من نواحي الزاب بينها وبين قلعة حماد مرحلتان. ياقوت ج ٣ ص ٦٢٥.

(١٠) نبد تاريخية جامعة ص ٨.

جموعاً لا تحصى، وبلغ من شدة إمعان بلكين فى التنكيل بأعدائه من البتر أنه كان يقول: «لا أمان عندى لبربرى ركب فرساً أو نتج خيلاً أبداً حيثما سلك من البلاد»^(١).

ولما كانت قبيلة بنى يفرن قد تفرقت شملها بعد أن قتل جوهر زعيمها، فإن مغراوة أيضاً ذهبت ربحها، وأصبح المغرب الأوسط لأول مرة منذ الفتح الإسلامى، خلوا من زناته، وتم بذلك القضاء على زناته الجليل الأول بالمغرب الأوسط، هاجرت فلولها إلى المغرب الأقصى، مثل بنى يفرن، ومغراوة، وانتقل بعضهم إلى الأندلس^(٢)، ونستطيع أن نقول إن سيطرة صنهاجة على نواحي المغرب الأقصى قد بدأت من ذلك الوقت.

وفى ذلك الوقت أيضاً كانت الدولة الأموية فى عهد الحكم المستنصر قد تخلصت من أكثر متاعبها، بحيث تستطيع التدخل فى شئون المغرب الأقصى، لمد يد العون لزناته والبتر، التى كادت أن تفتيها جهود الفاطميين والزيريين، وقد انتهز الحكم المستنصر فرصة انشغال بلكين بشئون المغرب الأوسط، ف قضى على الحسن ابن كنون الإدريسي حليف الفاطميين، وبذلك عاد المغرب الأقصى إلى طاعة الأمويين، وراحت جموع زناته الفارة من المغرب الأوسط تمعن فى تأييد حلفائهم الأمويين، وتتهيا للقاء البرانس إذا حدثتهم أنفسهم بالعدوان على المغرب الأقصى.

ولم تخن بلكين شجاعته، بل انقض على المغرب الأقصى لينال من زناته فى عقر دارها الجديدة، فلعله يستطيع القضاء عليها، فيستريح من شرها، وقد استرد فاس، وسجلماسة^(٣). هزم البتر أقبح هزيمة، ولاذوا بالفرار معتمدين بسبته، ليكونوا على مقربة من القاعدة الأموية لتحمل ظهرهم، وتقيهم شر الصنهاجيين، وكان الأسطول الأموى على استعداد للدفاع عن سبته، إذا هم بلكين بالانقضاض عليها، ولكن جهود بلكين لم تستطع أن تستأصل الخطر الزناتى من المغرب الأقصى عليها تماماً، فلم يكده يعود أدراجه حتى علم أن بنى خزرون قد استولوا على سجلماسة، وتوفى قبل أن ينجح فى ردهم على أعقابهم.

(١) مفاخر البربر ص ٨.

(٢) Terrasse:(op. cit.) p.159.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٦٧.

وقد استطاع المنصور بن أبى عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلل من الاتفاق، الذى كان قد أبرم بينهما، وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد فى شئون المغرب الأقصى، وأصبح ميدان المغرب هو الميدان الذى يستطيع المنصور فيه أن يبدي نشاطه ويظهر مقدرته، ويعمل على تأييد حلفائه من زناتة بقدر ما يستطيع.

ويبدو أن جهود المنصور بن عامر كللت بالنجاح، فقد استطاع رجل من بيت محمد بن خزر أن يجمع كلمة مغراوة، وأن يلم شعثها، واتجه صوب فاس واستولى عليها^(١)، كما حاول خليفة بلكين أن يدفع مغراوة عما أرادته بفاس وسجلماسة، ولكنه ارتد على أعقاب مهزوما، وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس، وراحوا يدعون للخليفة هشام المؤيد، بينما عمل زيرى بن عطية على بسط سلطانه على المغرب الأقصى دون منازع.

ولكن يبدو أن المنصور بن أبى عامر رأى أن الوقت قد حان ليعمل فى المغرب الأقصى بحرية تامة، دون أن يعتمد على تأييد زناتة وحلفائها، ويخضع هذه البلاد لاحتلال أندلسى مباشر، لأن سياسة تأييد الزناتيين كانت تكلفه أموالا طائلة، ولأن الخطر الصنهاجى على المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور قد زال أو كاد، وانشغل الزيريون بمشاكلهم الخاصة، وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى، هذا إلى ما كان من أمر تدخل زيرى بن عطية فى شئون السيدة صبح زوج المستنصر، وعمله على إحباط خطط المنصور، فسير المنصور واضحا الفتى عام ٣٨٧هـ لقتال زيرى واحتدم النضال بين الزعيمين، فكان شعار جند زيرى «هشام يامنصور»، وشعار العامريين «يامنصور»^(٢).

ولكن واضحا هزم وارتد إلى سبتة، فأرسل المنصور ولده عبدالمملك لينضم إلى واضح، واستطاعا أن يوقعا بزيرى بن عطية، ودخل العامريون مدينة فاس، ودعى للأمويين على منابرهما، وأصبحت القوات الأندلسية نفسها تحتل المغرب، وتوغل فيه، وفر ابن عطية إلى الصحراء، وحاول أن يغير على المغرب الأوسط، ولكن الصنهاجيين كانوا له بالمرصاد، فردوه على أعقابهم خاسرا، فلما توفى المنصور بن أبى عامر وخلفه ولده عبدالمملك، رد إلى المعز بن زيرى بن عطية حكم

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٤.

(٢) ابن عذارى: البيان ج ١ ص ٢٦٣.

فاس عام ٣٠٧هـ على «أن يعطيه عدة من الخيل والسلاح يحملها كل سنة إلى قرطبة»^(١).

ثم انقسم الصنهاجيون على أنفسهم في عهد باديس بن المنصور، واستقل حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط، وأمن المغرب الأقصى عادية بنى زيري الصنهاجيين، واستطاع المغز بن زيري بن عطية المغراوي وحلفاؤه الزناتيون أن يمكنوا لأنفسهم في السيادة على المغرب كيفما طاب لهم، وخصوصا بعد أن شغل أهل الأندلس عن المغرب نهائياً في حجابة عبد الرحمن بن أبي عامر، وأصبح المغرب الأقصى للبتير وشيعتهم لا ينازعهم فيه منازع، وأصبح النضال بين صنهاجة البرنسية وزناتة البترية نضالاً لا تحركه المطامع الأجنبية.

وكانت هذه الحروب الطاحنة مما أضعف من قوة الزناتيين وفت في عضد البتر، فإن جهود الفاطميين ثم الزييريين من بعدهم مزقت شملهم وشتت قبائلهم، وأقصتهم عن المغرب الأوسط، ولاحتقتهم إلى المغرب الأقصى، ففقت على زهرة فرسانهم، ونخبة رجالهم، نعم خاض الزناتيون حرباً استمرت قرناً من الزمان، لم يحالفهم النصر إلا قليلاً، بل كانت الغلبة للبرانس الذين استطاعوا أن يأخذوا ثأرهم كاملاً.

وقد وصف ابن حوقل آثار هذه الفتن الطاحنة في صفوف الزناتيين فقال: «جميع هؤلاء البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن ودوام القحط وكثرة القتل والموت»^(٢). كما أن محالفتهم الأمويين كانت ذات نتائج بعيدة في تاريخ الأندلس، فقد أخذوا يقدون إلى الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، وكان البرانس كلما هزمهم، أو نكلوا بهم، هاجرت بعض بطونهم إلى الأندلس، ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يقدون عليهم الأعطيات، ويرحبون بمقدمهم، ويولونهم الأعمال، ويشجعونهم بكل الطرق الممكنة على الوفود إلى الأندلس، أشركوهم في الجيش، واعتمدوا عليهم اعتماداً كبيراً في حركة الجهاد المقدس في الأندلس، بل أصبحت قبائل البتر في المغرب معينا لا ينضب يستمد منه الجيش الأندلسي حاجته بين الحين والحين، لأن الخلفاء لم يكونوا يستطيعون الاعتماد على الجند المرتزقة اعتماداً

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٦٨.

(٢) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٦٨.

تاما، فأضعفت الهجرة قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى إضعافا كبيرا، على حين صد الأمويين عن البرانس، فأبقوا على قوتهم بالمغرب لم تمس بسوء،

وقد أمعن المنصور بن أبي عامر في اصطناع البربر^(١)، لأنه كان يريد في الواقع أن يجمع السلطة في يديه، فوجد من البتر جموعا غفيرة، وأغدق على زعمائهم وفرسانهم، فوفدوا على الأندلس زرافات، وشاركوا في الحملات المتعددة التي قام بها، والتي أبلى فيها البلاء الحسن، كل هذه الظروف قد فتت في عضد البتر، وأنقصت جموعهم، وأصابته وحدتهم في المغرب الأقصى بخطر جسيم.

أنعجب بعد ذلك، إذا رأينا قبضة زناتة على المغرب الأقصى في القرن الخامس الهجري يصيبها الضعف، وأن هذه القبائل عصفت بها الفرقة، وبدت حكومتها بالمغرب ضعيفة هزيلة؟؟ على أن هناك سببا آخر يعزى إليه ضعف شأن البتر بالمغرب الأقصى في ذلك العصر، وهو سقوط الخلافة الأموية، وافتراق أمر الأندلس، وضياع الوحدة الإسلامية في شبه الجزيرة، حين أصبح المسلمون شيعة وأحزابا متنافرين متحاربين متباغضين، فقد كانت الدولة الأموية تبسط ظلها على المغرب، وتمتد يد العون للقبائل الزناتية، تجزل لها العطاء، وتمد لها يد العون وتمنحها ما تحتاج من مال لتنفيذ مشاريعها، وتقف إلى جانبها إذا عدا عليها البرانس، فكان هذه القبائل المتنافرة كانت توحيدها وحدة الولاء للخليفة الأموي، والدخول في طاعته، فكانت هذه الإمارات في الواقع تدعو لهشام على منابرها، وتدين بالطاعة والولاء للبيت الأموي.

فلما سقطت الخلافة تفرق شمل المغرب^(٢)، كما تفرق شمل الأندلس، وعدمت الوحدة التي كانت تمد رواقها على هذه البلاد، ووجدت القبائل الزناتية نفسها حرة طليقة تعاود سياستها القديمة، سياسة الإغارة والعدوان، فانقسمت السلطة على نحو ما بينا بين إمارات بترية ثلاث متباغضة متحاربة فيما بينها، وقد صور المؤرخون مدى افتراق الكلمة في المغرب الأقصى عقب تدهور الخلافة الأموية بعد هشام المؤيد أصدق تصوير، ووصفوها بأبلغ وصف، فقد قيل «انحرفت الإمامة، وتفرقت الجماعة، وانهدمت الدولة الروانية، وصار أمر الناس

Dozy: Histoire, vol. III, p. 184. (١)

Marçais: Les Arabes pp. 20-12. (٢)

بجزيرة الأندلس شيعا، ولما كانت الطاعة بالأندلس واحدة، وإمامتهم واحدة، تشتت الناس بالمغرب كفعلهم بالأندلس، وانتزى بعضهم على بعض^(١)».

يضاف إلى ذلك، ما عرف به البتر في تاريخهم الطويل من حب النقلة والترحال وافتراق الكلمة، فلم تستطع القبائل البترية أن تتحد فيما بينها لتكون حلفا قويا يستطيع أن يصمد أمام الأخطار، أو تكتب له صفة الدوام^(٢)، هذا على النقيض مما عرفت به صنهاجة من حب الاستقرار، والتعلق بأسباب الحضارة، والوحدة التامة بين قبائل الحلف الواحد، بل إن الوحدة والتفاهم كانا على أتم ما يكون بين صنهاجة إفريقية، وصنهاجة الصحراء، رغم بعد الشقة واختلاف الظروف، فلم تستطع قبائل البتر في المغرب الأقصى والحالة هذه أن تتحد لمواجهة الخطر المشترك، بل سادتها شرعة الأسماك، وعدا القوى على الضعيف، فقد أغار أمراء فاس على سجلماسة، وأغار أمراء سجلماسة على فاس^(٣)، ولم تستطع زناتة أن تنتهج سياسة بربرية ذات شخصية مستقلة، بل كانت دائما صنيعة غيرها، والعوبة في أيدي الدول المتنافسة على السيادة بالمغرب^(٤).

ويبدو أن روح البداوة، غلبت على الإمارات التي كونتها زناتة بالمغرب الأقصى، فلم تنجح في إقامة نوع من الحكومة المنتظمة المستقرة، التي تؤلف بين طبقات السكان على اختلاف مشاربهم، فتضمن تعاونهم في سبيل المصلحة العامة^(٥)، بل كان كره الزناتيين للاستقرار أكبر عقبة في سبيل إقامة نوع من الحكومة المنظمة، فهم من هذه الناحية أكثر شبها بعرب بنى هلال، الذين قوضوا بناء الدولة الصنهاجية، وأخفقوا في إقامة نوع من الوحدة، بل أقاموا إمارات متنازعة متنافرة، لم يستطع الزناتيون إذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار، والبدو أصحاب المناطق الرعوية، كما فعل الأدارسة من قبل، إنما أفلحوا في إقامة حكومات تتسم بميسم الضعف والقسوة، حتى رماهم المؤرخون^(٦) بكل نقیصة، فقال صاحب البيان «جرت أمور وخطوب لا يحسن ذكرها لشناعتها، إن الدول إذا أدبرت فكل مايجرى فيها يقبح ذكره^(٧)».

(١) ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٦٤، مفاخر البربر ص ٤١، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧٨.

(٢) Marçais: Les Arabes p.21.

(٣) مفاخر البربر ص ٤١ - ٤٢.

(٤) Terrasse : (op. cit.) p.175.

(٥) Terrasse : (op. cit.) p.177.

(٦) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٦٨، جامع تواريخ فاس ص ٢٠. الفلقشندی : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٩٧.

(٧) ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٦٤.

١٢ - اضطراب الأحوال الاقتصادية:

وقد اضطربت الأحوال الاقتصادية في المغرب الأقصى، إلى جانب اضطراب الحياة السياسية على النحو الذي عرضنا له. ذلك أن الفتن المستمرة، والثورات المتصلة، والحروب غير المنقطعة، لم تتح للبلاد نوعاً من الهدوء والاستقرار، والاستقرار كما نعلم لا بد منه ليتوفر السكان للإنتاج، ويطمئن الزارع إلى زراعته، والصانع إلى صناعته، والتاجر إلى تجارته، فلما عدم الاستقرار على هذا النحو قل الإنتاج، واضطربت الأوضاع الاقتصادية في البلاد، لأن محور الحياة الاقتصادية في هذه البيئة هو حسن التعاون بين المناطق البدوية والمستقرة^(١)، لا يعتدى البدو على المستقرين الأمنين، فيصرفوهم عن أداء رسالتهم وزيادة إنتاجهم.

وقد زال هذا التعاون في القرن الخامس الهجري، بل ساد التنافر بين مناطق السهول، ومناطق الرعي، ولم يستطع الزناتيون حماية أهل السهول زراع الأرض من عدوان البدو وغاراتهم^(٢)، فما بالك إذا كان الحاكمون أنفسهم هم مصدر هذه الإغارات على الرعية الآمنة المستقرة، وهذا عكس ما حدث في إفريقية في عهد بني زيري، الذين أفلحوا في إقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة من أن يزكو نبتها، وتؤتي الثمرات المرجوة، فلما أغار عرب بني هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأساً على عقب.

وهناك أسباب أخرى عملت على إشاعة الاضطراب في الحياة الاقتصادية في البلاد، وهي أن التجارة بين إفريقية والسودان كانت تسلك طريقين: طريق فزان، وبرنو، وكانم، وطريق سجلماسة، وأودغشت، ومنحني النيجر^(٣)، وقد حدث أن هجر الطريق الأول بسبب العواصف الرملية، التي بدأت تجتاحه، فخاف التجار على أنفسهم، وعدلوا عن سلوك هذا الطريق، فازدادت أهمية الطريق الثاني^(٤)، وأصبحت سجلماسة على طرف الصحراء من الشمال، وأودغشت على

(١) Terrasse : (op. cit.) pp.203-205.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p.203.

اقرأ عن تجارة الصحراء في العصور الوسطى

Charles de la rouciere: La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, c.l.pp.71-108.

(٣) Cooley : The Negroland of the Arabs.

(٤) Terrasse : (op. cit.) pp.203-205.

طرف الصحراء من الجنوب من أهم مدن المغرب وأوفرها مالا^(١)، فقصدتها التجار من كافة الآفاق، وكان هذا الطريق يمر بديار قبائل المثلثين فاحتكروه، وفرضوا أنفسهم لحماية المتاجر التي تعبره من المغرب إلى السودان، كما أن طريق المحيط الأطلسي رادت أهميته، وبدأت القوافل تسلكه، وهو يمر بديار جدالة، ولمتونة، فكانت النتيجة أن تحكمت قبائل المثلثين في هذا الطريق الحيوى، واحتكرت التجارة بين المغرب والسودان.

وكان هذا الاحتكار أول الأمر من نصيب زناتة، التي استطاعت بعد أن حالفت العرب أن تضع يدها على هذه التجارة الربحية، ولكن المثلثين نازعوها هذا الأمر، وانتزعوا هذه الموارد الضخمة من أيدي الزناتيين، بل ناضلوا مملكة غانة، وغيرها من الممالك الزنجية دفاعا عن هذه الثروة الضخمة، ووضعوا أيديهم على مدينة أودغشت، كما أن قبيلة لمطة بسطت نفوذها على المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نون، وأنشأت مدينة نول لمطة التي أصبحت في الواقع من أهم المراكز التجارية في غرب إفريقية^(٢)، وكان الملح من أهم السلع المتبادلة بين السودان والمغرب، كان يحمل من بلدة أوليل بديار^(٣) جدالة إلى المغرب والسودان على السواء، وكانت القوافل تحمل من بلاد السودان التبر والصمغ والصوف والخرز^(٤).

وكانت هذه المتاجر تحمل إلى موانئ المغرب، ومنها تنقل إلى الشرق، أو تحمل إلى أسواق أوروبا^(٥)، فلما وجدت زناتة أن هذه الموارد الغنية قد ضاعت منها، فرضت المكوس الجائرة على تجار سجلماسة، وعلى غيرهم من التجار^(٦)، الذين كانوا يجتازون إقليم المغرب الأقصى، فأدى ذلك كله إلى اضطراب الحياة الاقتصادية، وقلت موارد بيت المال في الوقت الذي لم تعد فيه زناتة تعتمد على معونة بني أمية في الأندلس.

(١) De le chapelle: Hesperis, 1930,t.xl,p.59.

(٢) Demombyne: Masalik p.200.

(٣) البكري : المغرب ص ١٧١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦، أبو حامد الفرناطي: تحفة الالاب ص ٤١-٤٢.

(٥) البكري : المغرب ص ١٨٠.

(٦) De le chapelle: Hesperis, 1930,t.xl,p.59.

وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد، وانقطعت المواد، وكثر الخوف، وتبدل الرخاء بالشدة، فاتصل الجوع والغلاء، وعدمت الأقوات^(١)، حتى لقد قيل أن أوقية البر كانت تباع بدرهم^(٢)، وقد روى المؤرخون^(٣) صورا غريبة لهذه الضائقة، التى اجتاحت البلاد فى ذلك الوقت، إذ قيل أن الزناتيين كانوا يقتحمون الدور ليستولوا على الطعام، ويمثلوا بالنساء والأطفال، وكانوا يستولون على أموال التجار بالقوة، بل قيل أيضا أنهم كانوا يقفون على جبل قريب من فاس، فإذا رأوا دخانا منبعثا من منزل انقضوا عليه بحثا عن الطعام^(٤)، فاتخذ الناس لأجل ذلك «مطامر تحت الأرض يطبخون فيها وغرفا من غير أدراج تصعد بالسلالم خوفا منهم»^(٥).

وليس من شك فى أن هذه صورة قائمة قد تكون فيها مبالغة، لكنها على كل حال تصور لنا اضطراب الحياة الاقتصادية فى البلاد، وتبرم الناس بالضائقة التى حلت بهم، والمجاعة التى انتابتهم، فليس بعجيب أن يتطلع الناس إلى الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء، بتأييد أية قوة جديدة تخلصهم مما هم فيه من ضنك وشدة، وقد جاء الخلاص من ديار المثلثين على النحو الذى سنعرض له فيما بعد.

١٣ - انتصار المالكية على الشيعة:

وقد تمخض القرن الخامس الهجرى أيضا عن أحداث أخرى هامة كانت ذات آثار بعيدة المدى فى تاريخ المغرب بوجه عام، وفى تاريخ الدولة التى نحن بصدد التأريخ لها، ذلك أن المالكية قد انتصرت، وصمدت لما أريد بها وعمت المغرب بأسره، وأصبحت فى نظر المغاربة مذهبا وعقيدة ووطنية، ولم تستطع المالكية أن تحرز هذا النصر، وتظفر بهذا الفوز إلا بعد جهاد شاق وكفاح مرير، وذلك أن الجهود التى بذلها العرب فى نشر الإسلام فى إفريقيا والمغرب فى عهد حسان بن

(١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص ٢٠٩.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٢.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٢، جذوة الاقتباس ص ٢٠٩، جامع تواريخ فاس ص ٢١.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) المراجع السابقة.

النعمان، وخليفته إسماعيل بن أبي المهاجر^(١) قد آتت أكلها، فغدت القيروان عاصمة المغرب السياسية والثقافية، وفد إليها التابعون والفقهاء والعلماء وتعلمد عليهم كثيرون.

وأخذ البربر بعد أن انتهى دور الكفاح، وجاء دور الاستقرار يقبلون على تفهم ذلك الدين الذى اعتنقوه ويفسرونه تفسيراً تقبله عقولهم، وترضى عنه أفهامهم، وكانت الجهود التى بذلها الولاة المتعاقبون ذات أثر بعيد فى شد أزر هذه الحركة المباركة وإذكاء جذوتها، وأخذ نجم القيروان يتألق بمضى الزمن، حتى غدت قبلة القصاد من كل فج، وأخذت تنشر ثمار نهضتها الجديدة فى أرجاء المغرب الأقصى قاصيه ودانيه، فقامت حركة إسلامية مغربية مباركة^(٢)، وأخذ الإسلام ينتشر بين الناس رويدا رويدا.

ولكن الوافدين على المغرب من العرب جلبوا معهم العقائد الشاذة، فوفدت جماعة من الخوارج أخذت تبث فى نفوس البربر بذور الخلاف والخروج، وأخذ الإسلام فى بعض نواحي المغرب يجرى فى اتجاهات خطيرة كادت أن تشوّه فى نظر المسلمين من البربر، وكانت حركات خالد بن حميد الزناتى، وثورة ورفجومة^(٣) على عبدالرحمن بن حبيب، وثورة أبى قرّة اليفرنى فى تلمسان، وأبى ميسرة البرغواطى - استجابة لهذه العقائد الغربية على أفهام المغاربة^(٤)، ووفدت المذاهب المختلفة إلى القيروان، فقد غلب عليها مذهب الكوفيين، ثم وفدت عليها الشافعية^(٥)، ومذهب داود، ثم أوى إليها فريق من المعتزلة أهل الرأى، والمغاربة أمام ذلك كله فى حيرة من أمرهم.

وقد وفد مذهب مالك إلى القيروان، شأنه شأن غيره من المذاهب، إذ رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقى مالك^(٦)، كما وفد عليها على بن زياد

(١) المالكى: - رياض النفوس ص ٣٦، الدباغ: معالم الإيمان ج ١ ص ٦١-٦٢ ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨، ٣٣، ٣٤

(٢) Terrasse: (op. cit.) p. 109.

(٣) قبيلة من قبائل البربر.

(٤) حسين مؤنس: مقدمة رياض النفوس ص ٢٨.

(٥) القاضى عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١.

(٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣، الدباغ: معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٢.

التونسي وابن أشرس، والبهلول بن راشد^(١)، ولكن لم يكن لهم القضاء أو الفتيا حتى جاء أسد بن الفرات، إمام العراقيين بالقيروان كافة^(٢)، ووفد على بن القاسم إمام المالكية بمصر، فسمع منه، ودون ماسمع في كتاب سماه «الأسدية»^(٣)، وعاد به إلى المغرب، فانتشر ذكره في الآفاق، ورحل إليه الناس، وتوافد عليه الكوفيون^(٤) أنفسهم، ينهلون من علم مالك الذي رواه أسد، ولكن أسد لم ينصرف إلى مذهب مالك وحده، بل كان «يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ماوافق الحق لتبحره في العلوم»^(٥)، وكان يفسر المذهبين معا، ولكنه كان أكثر ميلا لمذهب مالك فقد قال: «إن أردت الله ورسوله والدار الآخرة فعليك بقول مالك، وإذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق»^(٦).

ولكن المغاربة وإن أعجبوا بالأسدية، وكلفوا بمذهب مالك، إلا أنهم لم يقنعوا بما رواه أسد، بل طلبوا المزيد حتى قيص الله لهم أبا سعيد سحنون بن سعيد، الذي قدم القيروان سنة ١٩١ هـ^(٧). ذلك الرجل الذي جمع فضل الدين والورع والعفاف والانقباض عن الناس، فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ^(٨)، وقد رحل إلى مصر، ولقى أبا القاسم، وسمع منه فقه مالك، وقابل الأسدية عليه، وجمع ذلك كله في كتاب سماه «المدونة» طار ذكرها في الآفاق، وتناقلها الناس وحملت إلى الأندلس^(٩)، وكان لها فضل توطيد دعائم مذهب مالك في المغرب والأندلس، بل أصبحت في قوتها تضارع موطأ مالك. وقد أصيب مذهب أبي حنيفة من جراء سحنون وفقهه وعلمه في الصميم،

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١.

(٢) المالكي: رياض النفوس ص ١٨١.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان ج ٢ ص ٨.

(٤) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٨٣.

(٥) المالكي: رياض النفوس ص ١٨١، وانظر

M. Vonderheyden: La Berberie Orientale sous la Dynastie de Benou - I-Arlab pp. 133-135

(٦) القاضي عياض: المدارك ج ١ ص ٦٨٣.

(٧) الدباغ: المعالم ج ٢ ص ٥٠.

(٨) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٩) المالكي: رياض النفوس ص ٢٦٧، ابن خير: الفهرسة ص ٢٤٠.

حتى قيل «ومحى الله عزل وجل كتب أبى حنيفة من إفريقية، محاها سحنون^(١)، واستقر مذهب مالك بعد سحنون، وشاع في المغرب جميعه، نعم كان الصراع محتدما بين مذهبين: مذهب أبى حنيفة، الذى يعطى رأى أهمية كبيرة، ولا ينكر الاجتهاد، ولا يحرم محبة السلطان، أو تولى القضاء والفتيا^(٢)، أو كما يقول أسد ابن الفرات «إذا أردت الدنيا فعليك بقل أهل العراق^(٣)»، ومذهب آخر وهو مذهب مالك، الذى كان أبغض الناس للمتكلمين والعراقيين، وأشد الناس التزاما لكتاب الله، وسنة رسوله، وسنة الصحابة والتابعين^(٤)، وأكثرهم حربا على القدرية، حتى لقد روى عنه أنه أفتى بألا يصلى عليهم، ولا تشهد جنازتهم، ولا يناكحون، ولا يصلى خلفهم، ولا يحمل عنهم الحديث، ولا يسلم عليهم، ولا يعاد مرضاهم، ولا تجوز مشاهدتهم^(٥)، أو بعبارة أخرى مقاطعتهم سلبيا وإيجابيا، ومذهب مالك هو أكثر المذاهب عزوفا عن السلطان^(٦)، وبغضا في القضاء، وزهدا في الفتيا، فقد كان مالك يقول: «يجب على ذى العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك^(٧)».

فلما امتحن أهل المغرب بمحنة خلق القرآن، وتفتشت آراء المعتزلة والقدرية كان المالكيون أشد الناس لهم حربا، وأكثرهم عنفا في مقاومتهم، وامتحنوا في سبيل ذلك، فصبروا على الإيذاء^(٨)، وتمسكوا بالكتاب والسنة، ونافحوا عنها منافحة الأبطال، حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع كتابه، وسنة نبيه، وهزمت المعتزلة، حتى لم يبق لها بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الأمراء مفرا من النزول على رأى المالكية، فلما أحبوا أن يولوهم القضاء والفتيا أعرضوا، فأمعنوا حتى لقد كان الأمراء يشهرون في وجوههم السيوف، ويهددونهم بالقتل في سبيل الرضا بالقضاء لاطمئنان الناس إلى عدالتهم، أفنعجب بعد ذلك، إذ كانت هذه السنة الحميدة، وهذه التقاليد القيومية، وهذا التمسك

(١) المالكي: رياض النفوس ص ١٦٥.

(٢) عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٧٩.

(٣) عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٨٣.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ١٩٨.

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٥.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٦٩-٧٣.

(٧) ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٥٤.

(٨) الدباج: معالم الإيمان ج ١ ص ٢٢.

الشديد بالكتاب والسنة، والتزام نصوص القرآن، قد تردد صداها في المغرب كله، وفي السودان^(١)، بل في الأندلس أيضا، حتى لقد قال الحكم المستنصر - وهو العالم الفذ - في تفضيل مذهب مالك: «نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء، وقرأنا ماصنف في أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر في مذهب من المذاهب أسلم منه، كان فيهم الجهمية والرافضة، والخوارج، والشيعا إلا مذهب مالك رحمه الله، فلما ماسمعنا أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله^(٢)».

ولكن المالكية ماكادوا يتصرفون في هذه المعركة الأولى، حتى خاضوا غمار معركة أخرى أعنف وأقسى، فقد نجح الفاطميون في إقامة دولة بإفريقية، وراحوا يسيطون ظل عقائدهم في كل ناحية^(٣)، يسبون الصحابة، ويفرضون على الناس أن يؤذنوا بحى على خير العمل، حتى إذا تمكن نفوذهم من القيروان ناصبوا مذهب مالك العداء من أول الأمر، وأعلنوها على فقهاء المالكية حربا شعواء، لأن المالكية يفضلون الصحابة على بن أبى طالب، فقد روى أن هارون الرشيد سأل مالكا فقال: «هل لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفء حق قال: لا، ولاكرامة، قال: من أين قلت ذلك. قال: قال الله تعالى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ فمن عابهم فهو كافر، ولا حق لكافر في فء^(٤)». فلم يجد الفاطميون بدا من تحريم الإفتاء بمذهب مالك، والحيلولة بين فقهاء المذهب وبين القضاء والفتيا^(٥).

وقد توسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم، ورفع لواء مذهبهم، توسلوا بالمنظرة، فعقدوا المجالس، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان، وأخذوا يناقشونهم الحجة، ويقارعونهم بالرأى، فما ازدادوا إلا تمسكا برأيهم، حتى لقد قيل لأبى سعيد بن محمد الحداد، اتق الله في نفسك فقال، «حسبى من له غضبت وعن دينه ذببت^(٦)»، حتى لقد شبهه أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام

(١) الدباغ: المعالم ج٣ ص ١٣٩.

(٢) عياض: المدارك ج ١ ص ١٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٠٦.

(٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٤.

(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠، الدباغ: معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٢، ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٩٤.

المحنة، وعمد الفاطميون إلى إغداق المال والجاه، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبيلا، فلم يجدوا بدا من التنكيل والتعذيب، فقد قال فقهاؤهم إن من انتقص واحدا من نسل فاطمة فإنه مباح الدم^(١) فجلسوا في المساجد ومعهم الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى التشريق، فمن أجاب أحسنوا إليه ومن أبى حبسوه^(٢)، وذهبوا إلى أبعد من ذلك، ضربوا الفقهاء والمؤذنين بالسياط^(٣)، بل قطعوا لسان مؤذن نسي أن يقول حى على خير العمل^(٤)، وضربوا الرقاب، وصلبوا بعض الفقهاء أحياء^(٥)، وصادروا الأموال، وأخذوا أموال الأحياس^(٦)، وأجلوا أهل الربط والحصون^(٧) المتعبدن المنقطعين إلى الله، بل افتنوا في التعذيب، فكانوا يبطحون الناس على ظهورهم، ثم يأمرن السودان أن يدوسوهم بالأقدام، حتى تزهق أرواحهم^(٨)، وبشوا العيون على الناس في صلاتهم ينكلون بكل من لا ينصاع لأوامرهم أو يدخل في دعوتهم^(٩). قد تكون هذه الروايات التي اعتمدنا عليها قد انتحلها أهل السنة المبغضون لبنى عبيد، ولكنها على كل حال تبين أن الفاطميين أخذوا الناس بالشدة، وعملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين.

وقد وقف المالكيون في وجه بنى عبيد وقفة رجل واحد، أفتوا بتكفيرهم، لاتخطب لهم جمعة، بل كل من خطب لهم على منبر يعتبر كافرا، يقتل ولايستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولايرث ولايورث^(١٠) اعتبروا الفاطميين زنادقة لما أظهروه من خلاف الشريعة، ونادوا بقتلهم حيث وجدوهم، كما يقتل الزنادقة^(١١)، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا أيضا، نادوا بالمقاطعة السلبية، وأشهروا

(١) الديباغ: معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٨٢.

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٥٠ (عن ابن الأثير) ..

(٣) الديباغ: المعالم جـ ٢ ص ١٣٧، ابن عذارى: البيان ج ١ ص ١٩٣

(٤) ابن عذارى: البيان ج ١ ص ١٨٦.

(٥) الديباغ: المعالم جـ ٢ ص ٢٤٤.

(٦) الديباغ: المعالم جـ ٢ ص ٢٤٤ جـ ٢ ص ١٩٩.

(٧) عياض: ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٥٩.

(٨) الديباغ: المعالم جـ ٢ ص ١٩٨.

(٩) عياض: ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٣٩.

(١٠) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٧.

(١١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥١٣.

فى وجوههم ذلك السلاح الماضى ، لا يؤمون لهم صلاة،منعوا الناس من حضور صلاة الجماعة، وقاطعوا الجناز (١)، فأقفرت المساجد من المصلين، وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم (٢)، ورفضوا دفع الأموال، بل إن فقيها ألف كتابا فى تصحيح نسب بنى عبيد فقاطعه الناس، ففر من القيروان يلتمس النجاة بنفسه (٣).

وقد انتشر تيار المقاومة فى المغرب كله، وشق الفقهاء فى كل مكان عصا الطاعة على الفاطميين، وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة، لأن قتيل الخوارج فى رأيهم خير قتيل (٤)، قيل لأحدهم إن السيف ينتظرك، فقال «الصراط أحد من السيف ومن السلطان» (٥)، يخير الواحد منهم بين الدخول فى طاعة العبيدين، أو القتل فيختار القتل (٦)، قال ابن التبان لدعاة بنى عبيد: «شيخ ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا، لو نشرت اثنين مافارقت مذهب مالك (٧)». كانوا يفرون بمذهبهم إذا استطاعوا، يعتصمون بالمقابر (٨)، ويؤيدون كل ثائر، انضموا إلى أبى يزيد مخلد بن كيداد حين خرج على الفاطميين برغم أنه خارجى النحلة، لأنه من أهل القبلة، على حين أن الفاطميين فى نظرهم زنادقة كفر (٩).

أمعن الفقهاء فى اصطناع هذه الروح العالية، لم يضعفوا أو يلينوا، لم ينل منهم التعذيب أو القتل، بل تركوا جيلا يعجب بهم، ويتفانى فى الاقتداء بهم، سموا فى نفوس الناس إلى مرتبة الشهداء والقديسين، فنسبت إليهم الخوارق، ونسجت حولهم أساطير وخيالات تمجد أفعالهم، وتتغنى بجهادهم، وقد قدر لهم أن يظفروا آخر الأمر، وأن تعلق كلمتهم، ويرتفع علم مذهب مالك فى عهد المعز

(١) الدباغ: معالم الإيمان ج٢ ص ١٨٦.

(٢) المالكي: رياض النفوس ص ٢١٧.

(٣) عياض ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢٥.

(٤) الدباغ: المعالم ج٢ ص ٢٠٤.

(٥) عياض المدارك ج٤ ص ٤٣١.

(٦) المرجع السابق ج٤ ص ٤٤٨.

(٧) المرجع السابق ج ٤ ص ١٥١.

(٨) الدباغ: المعالم ج٣ ص ٤٧.

(٩) عياض: ترتيب المدارك ج٣ ص ٥٦٤، الدباغ: المعالم ج٣ ص ٣٧، ابن عذارى: البيان ج١

ص ٢٠٠.

ابن باديس الصنهاجى، حين قتل الشيعة بالقيروان وإفريقية، قتلوا أينما وجدوا^(١)، فى المغرب الأوسط، أو فى المغرب الأقصى^(٢)، فأنمحت دعوة الإسماعيلية، وتغلب مذهب مالك نهائيا، فجب القدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والإباضية، والزندقة، كما تغلب على مذهب أبى حنيفة، فأوغل إلى قلوب المغاربة، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما.

حدث هذا فى القرن الخامس الهجرى، فهل من أسباب نلتمسها لذلك النجاح العظيم، هل من أسباب توضح لنا كيف أصبح هذا المذهب للمغاربة وطينية وعقيدة؟ كانت المالكية المعقل الذى عصم أهل المغرب من شرور الفتنة فى عصر كادت ربح الشرف فيه تعصف بالمجتمع، صمدت المالكية للخارجية فأتت عليها، وصارعت المعتزلة، وانتصرت على العبيديين، وحفظت على المجتمع وحدته وقوته، وسلمته للأجيال التالية سليما معافى، ومصدق ذلك مارواه الرحالة ابن جبير حين قال: «إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة وماسوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة أو شيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها^(٣)».

كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير فى ركابه، بل معارضتهم له فى كثير من الأحيان، وأخذهم بالبأس والشدة صار نغمة محببة إلى قلوب أهل المغرب المعروفين فى طول تاريخهم بالنزعة الاستقلالية، وميلهم إلى الانتقاص من كل سلطان أجنبى يفرض نفسه عليهم، فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محبا يرتاحون إليه، كما أن الفقهاء المالكيين سمنوا فى نفوس المغاربة إلى مرتبة الزعماء، الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين، ويعارضون الحكام فى سبيل إعلاء كلمة الحق، ويستشهدون فى سبيل عقيدتهم، فأمنوا بزعامتهم، وارتبط فى أذهانهم معنى الولاية بصورة الزعيم القومى، والدفاع عن

(١) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٢٩٦، الرحلة التيجانية ص ١١٥، الدباغ: معالم الإيمان ج٣ ص ٢٥، ابن عذارى: البيان ج١ ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) عياض: ترتيب المدارك ج١ ص ٢١.

(٣) ابن جبير ص ٧٨.

الحق وحماية الرعية من عدوان الحكام، وإصلاح المفاسد، فانتشرت فكرة الإيمان بالزهاد والأولياء، ذلك الإيمان الذى مهد لقيام دولة المرابطين والموحدين^(١).

نعم، اختفت الزعامة السياسية الحربية، وحلت محلها زعامة أخرى هنية شعبية، ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان. والمغاربة بطبعهم معروفون بالعصبية يتعصبون للشيء، فيخلصون، ويصلون إلى حد التضحية بأنفسهم فى سبيل المبدأ الذى يؤمنون به، كما عرفوا طوال تاريخهم بالشدة والتزمت والصلابة فى الحق، والمالكية تمتاز بالشدة فى الحق، والتزمت، والتزام الجادة، فكأنها وافقت طبيعة المغاربة، ووجدت فيهم بيئة صالحة، تنشر تعاليمها فيهم، بل أمعن المغاربة فى تعصبهم لمذهبهم المحجب، فمن كان مالكيًا قبلوه وأحبوه، ومالوا إليه. ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة^(٢)، وقد بلغ من شدة تعصبهم أن مغربيا جمعه الطريق بالحجاز برجل بغدادى، وكان إذ ذاك يرى رأى مالك فقال البغدادي: «روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كذا» فقال له المغربى: «فيما أذكر مالك لا يرى ذلك» فقال البغدادي: «شاهت وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبى بقول مالك^(٣)».

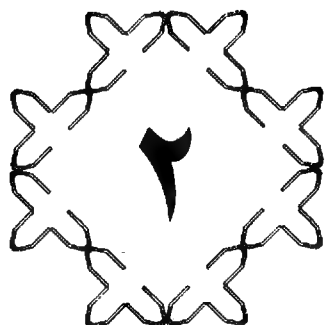
وبعد، هذه قبائل قوية محاربة مفترقة الكلمة فى انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى، وأساء حكامه من زناتة السيرة حتى تبرم الناس، وضاقوا، وتاقوا إلى أن يغير الله أحوالهم، وهذا مذهب مالك قد تألق نجمه، وبسط رواقه على المغرب كله، وسترى فى الباب التالى كيف اتحدت هذه القبائل، لتقيم دولة عظيمة وكيف سقط المغرب الضعيف المتهاوى أمام ضرباتهم القوية، وكيف توطد مذهب مالك وبسط ظله حتى أدرك حوض النيجر.

(١) حسين مؤنس مقدمة رياض النفوس ص ١٤م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣م.

(٣) الخشنى : كتاب طبقات علماء إفريقية ص ٣١٤.

الباب الثاني



توحيد صنهاجة

بزعامه عبدالله بن ياسين
(الدور الصحراوي)

١ - الظروف التي أدت إلى إخفاق الحلف الصنهاجي الثاني:

ذكرنا في الباب السابق كيف أن القرن الخامس الهجري أظل صنهاجة الجنوب وكلمتها مفترقة ووحدتها مشتتة بعد سقوط الحلف الثاني، وكيف أن ملك غانة عاد يسيط ظله على مدينة أودغشت ذات التجارة الرابعة والموقع الجغرافي الممتاز، ولم تكن صنهاجة الجنوب تستطيع أن تعيش في ظل هذه الفرقة المتفشية بين قبائلها والأعداء يحفون بها ويتربصون بها الدوائر. فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة في الشمال ما تزال تسد مسالك المغرب، وكانت مملكة غانة تهدد تجارة السودان تهديدا خطيرا، هذه التجارة التي كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجة الضاربة في الصحراء، أو على ساحل المحيط، نعم لا يمكن أن يستقيم لأهل اللثام حال إلا إذا اتحدت كلمتهم وقويت شوكتهم، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة^(١)، بفضل الجهود التي بذلتها قبيلة لمتونة القوية، التي كانت تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد^(٢).

ويبدو مما ذكره المؤرخون أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة في الجنوب، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب، واسترداد ما فقدته الحلف من تجارة ونفوذ، والمراجع حين تتحدث عن هذا الحلف غامضة أشد الغموض متضاربة في أقوالها أشد التضارب، فهي تختلف حتى في صحة اسم زعيم هذا الحلف، فمن قائل أن اسمه أبو عبدالله بن تيفات^(٣)، أو أبو عبيد الله ابن تيفات^(٤)، أو أبو عبدالله بن نارشت اللمتوني^(٥). وتختلف الرواية أيضاً في تحديد سنة إتمام هذا التحالف، وفي مدة حكم أبي عبدالله هذا، فيذكر بعض المؤرخين أنه تولى ٤٢٦ هـ^(٦)، وحكم خمس سنوات^(٧)، أو ثلاثاً في رواية أخرى^(٨)، ومعنى ذلك أنه توفي سنة ٤٣٠ هـ أو ٤٣٢ هـ. لكن أغلب المراجع تتفق

(١) Terrasse :Hist. du Maroc, vol. I, p. 214.

(٢) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٩١، جامع تواريخ فاس ص ٢٧، القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥ ص ١٨٨.

(٣) جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

(٤) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٢.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص ١٨٩.

(٦) Barth: Travel and discros in North and cental Africa ap.p.582.

(٧) جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

(٨) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٢.

على أن خليفة هذا الزعيم تولى سنة ٤٢٩ هـ، وأنه حج ولقى أبا عمران الفاسي فقيه القيروان قبل وفاته سنة ٤٣٠ هـ^(١)، مما يدفعنا إلى القول بأن أبا عبد الله تزعم حلف صنهاجة عام ٤٢٤ على الأكثر، وإذا كان قد حكم خمس سنوات، فلا بد أنه توفي سنة ٤٢٩ هـ، وهي السنة التي حددها المؤرخون لبيعة خليفته.

ومهما يكن من شيء، فإن سياسة هذا الحلف الجديد كانت واضحة أشد الوضوح، إذ كانت تقضى بمواصلة الجهود التي بذلت منذ إسلام صنهاجة، التي تقضى بالجهاد في الجنوب، ومدافعة ممالك السودان، والمحافظة على طرق التجارة السودانية بأية وسيلة، ولم تفكر صنهاجة في ذلك الوقت في انتهاج سياسة مغربية بالاتجاه صوب الشمال ومنازلة زناتة وأحلافها الضاربة في المغرب الأقصى بل كانت سياسة الحلف الجديد محلية صرفة، ويبدو أن هذا الحلف لم يحقق الغرض المعقود عليه، ولم يكتب له أن تطول مدته، فقد قتل زعيمه وهو يحارب ملك غانة، وهزمت لمتونة وأخفقت في الاستيلاء على مدينة أودغشت والسيطرة على تجارة السودان^(٢).

وكانت هزيمة لمتونة في معركة السودان هذه بعيدة المدى في سير الحوادث، التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين، فقد تخلت عن زعامة المثلثين في هذا الوقت العصيب من تاريخهم، بعد أن ظلت الزعامة في بنيتها أكثر من قرنين، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أن مضارب لمتونة كانت في أقاصى الشمال، قرب حدود المغرب الأقصى، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض السنغال لمداخلة السودان يتطلب جهودا شاقة وأموالا طائلة، فلم تستطع أن تمضى في هذا الجهاد حتى نهايته، وآلت زعامة المثلثين إلى قبيلة أخرى هي قبيلة جدالة^(٣) فخفت إلى المعركة التي كانت ماتزال دائرة الرحي^(٤)، إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت ريح المثلثين، وعادت مملكة غانة توغل صوب الشمال من جديد فتقضى

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

(٢) البكري: المغرب ص ١٧٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٦.

(٤) البكري: المغرب ص ١٦٤، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩، الحلل المشوية في الأخبار المراكشية ص ٩٠، جامع تواريخ فاس ص ٢٧، مفاخر البير ص ٥٢، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢، النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٢، روض القرطاس ص ٧٦.

على الجهود التي بذلت في نشر الإسلام في ربوع صحراء المغرب، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان من أية قبيلة أخرى، فكانت ديارها مصابقة لديارهم، وكانت أعرف بهم وبطبائعهم، ثم أنها كانت من أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق^(١).

٢ - الظروف التي مهدت لاختيار عبد الله بن ياسين:

وقد قدر لجدالة هذه القبيلة القوية الفتية أن تتبنى الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين، فكانت صاحبة فضل على الملتزمين بوجه خاص، وعلى قبائل البربر بوجه عام، لذلك يجدر بنا أن نعود إلى تقصى اسم ذلك الأمير الجدالي الذي أمسك براية الملتزمين عقب استشهاد الزعيم اللمتوني السابق، لأن تحقيق اسمه وتحديد سنة حكمه يعيننا على كشف الغموض الذي أحاط بأول خطوة تمت في سبيل إقامة الدولة. يذكر بعض المؤرخين أن هذا الأمير يدعى الجوهر^(٢)، كما نسبته بعضهم خطأ إلى قبيلة جزولة^(٣)، وجزولة كما نعلم كانت تنزل قرب جبال درن في قاصية المغرب، ولكن البكري^(٤) يذكر أن الجوهر هذا كان من الخارجيين على الفقيه عبد الله بن ياسين فيما بعد، وأن زعيم جدالة في ذلك الوقت كان يدعى يحيى بن إبراهيم^(٥)، وقد أيد البكري في روايته تلك كثير من المؤرخين الثقات.

وقد أوتى هذا الزعيم الجدالي من رجاحة العقل وبعد النظر وصدق الإيمان بدينه ومستقبل أمته، ما جعله يدرك أنه آن لأمر الملتزمين ألا يتخذوا سياسة محلية صرفة، بل أن يتخذوا سياسة عالمية، عن طريق وصل مجتمعهم بسائر المجتمعات المغربية الأخرى، أعنى وصل تاريخ صنهاجة الجنوب لا بتاريخ السودان فحسب، بل بتاريخ العالم الإسلامي في المغرب والشرق، كما أدرك أن هذه الأحلاف التي تمت بين قبائل صنهاجة الجنوب كانت أحلafa ذات أهداف مادية

(١) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٢.

(٢) القباضي عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٥٣٢، ابن الأثير ج٩ ص ٢٧٩، النويري : نهاية الأرب ج٢٢ ص ١٧٢.

(٣) القباضي عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٥٣٢.

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٤.

(٥) نفس المرجع ص ١٦٤.

صرفة، وأنه قد آن لهذه القبائل القوية الفتية أن تتألف وتتآزر على سياسة جديدة روحية صرفة بتقويم المعوج من الأخلاق والتمسك بأهداب الدين، لأنه أدرك أن وحدة هذا أساسها ستكون وحدة قوية باقية الأثر.

وليس يبعد أن يكون يحيى بن إبراهيم الجدالي قد ارتاد أسواق المغرب الأقصى متاجرا أو زائرا، فأحس بذلك البون الشاسع بين البيئتين، بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة، وبيئة الصحراء التي يظلمها الجهل وتقفز سوقها من العلماء المتضلعين في العلم، بسبب طول السفر ومشقة الطريق، نعم كانت الحياة العقلية في المغرب الأقصى قد بلغت الأوج في القرن الخامس الهجري ذلك أن العلماء بعد أن وردوا مورد القيروان والأندلس والمشرق بدءوا يستقرون ويتجنون ويجودون، وبدا المغرب الأقصى في ذلك العصر بالذات حافلا بالمدارس والعلماء الذين قصدهم الناس من كل فج.

كانت مدرسة فاس أكثر مدارس المغرب الأقصى تفوقا ونجودا، حتى قصدها الناس من كل حذب^(١)، فأصبحت دار فقه وعلم وحديث وعربية، فقهاؤها يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب،^(٢) شبهها المؤرخون بالإسكندرية «في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس»^(٣). زادت شهرة جامعة فاس بعد اضطراب أمر قرطبة والقيروان^(٤)، حتى لقد قصدها أحد الباباوات طلبا للعلم^(٥)، وانتشرت المدارس في وكالة^(٦)، وأصيلا وسبته وطنجة^(٧) وأغمات وريكة، واشتهر من علمائها أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن الهواري^(٨)، ويوسف بن موسى الكلبي، وهو أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى^(٩)، كذلك اشتهرت مدرسة سجلماسة وغدت من قواعد فقه مالك بن أنس، ومن أشهر علمائها في ذلك العصر الفقيه أبو عبدالله مروان بن عبدالمالك

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

(٣) الفلقشندي: الصبح ج ٥ ص ١٥٧.

(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٥) عبدالرحمن بن زيدان: الإنحاف ج ٢ ص ٧.

(٦) التادلي: التشوف ص ١٥٥.

(٧) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج ٤ ص ٣٠١.

(٨) ابن المؤقت المراكشي: السعادة الأبدية ج ١ ص ٦٥.

(٩) التشوف ص ١٠٤.

ابن كنون زعيم المغرب وشيخه^(١)، وابن الغرديس الذى قصده الطلاب من الأندلس^(٢)، ولم تكن مدرسة تلمسان بأقل من مدرسة سجلماسة فقد غدت «دارا للعلماء والمحدثين، وحملة رأى على مذهب مالك^(٣)»، وأخذ علماء البربر، بعد أن نهلوا من موارد العلم بالأندلس وإفريقية يذيع صيتهم ويقصدهم الناس من كل صوب، مثل عبدالكريم بن عبدالرحيم الصنهاجى^(٤) وأبو زكريا يحيى يسولان^(٥) وزاوى بن مناد بن عطية بن المنصور^(٦)، وأحمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى^(٧)، وميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى الذى سكن ألمرية وذاع علمه فى الأندلس^(٨)، بل شارك المصامدة فى هذه النهضة المباركة فنبغ منهم تونارت بن تبدى^(٩).

حدث هذا كله، وتفوق المغرب الأقصى على هذه الصورة، على حين خيم الظلام على ربوع الصحراء وفى ديار المثلثين، ولم تستطع هذه المدارس أن تحيل هذه الظلمة نوراً، نعم، صور المؤرخون المجتمع المثلثى فى ذلك الوقت تصويراً قائماً، فذكروا أن المثلثين لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه، ولم يقلعوا عما اعتادوه فى جاهليتهم من مساوئ^(١٠) قضى عليها الإسلام فى كل مكان حل فيه، ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق البوادر وتعليم الناس مبادئ دينهم القويم، أو كما قال يحيى بن إبراهيم: «إننا فى الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون فى الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً^(١١)».

أفنعجب بعد ذلك كله إذا رأينا يحيى بن إبراهيم الجدالى يعهد بالأمر إلى

(١) مشيخة عياض : ورقة ٦٦ ب.

(٢) المرجع السابق ورقة ٢٠ ب.

(٣) البكرى : المغرب ص ٧٧.

(٤) ابن الأبار : المعجم ص ٢٦٦.

(٥) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ١ ص ٦٥.

(٦) ابن الأبار : المعجم ص ٨٩.

(٧) المصدر السابق ص ١٨.

(٨) المصدر السابق والتكملة ج ١ ص ٣٩٥.

(٩) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢.

(١٠) البكرى : المغرب ص ١٦٥، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢.

(١١) الحلال الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٩.

ابنه، ويخرج من ديار المثلثين لا طلبا للحج كما يذكر المؤرخون^(١)، وإنما بحثا عن الحقيقة، يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم وإرواء لروح المتعطشة للاستزادة من أمور الدين، أو بحثا عن فقيه يثق به ويطمئن إليه فيعود به إلى قومه مبشرا ونذيرا، عله يخرجهم من الظلمات إلى النور، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الإسلام.

وهنا يحق لنا أن نسأل في أى وقت خرج يحيى بن إبراهيم من ديار المثلثين بقصد ارتياد مدارس المغرب وإشباع رغبته في العلم، والإجابة على هذا السؤال وتحديد التاريخ الذى قام فيه الزعيم الجدالى برحلته تلك فى غاية الأهمية، إذ سترتب عليه نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الدعوة المرابطية، فهو يعيننا على التعرف على الفقهاء الذين قصدهم وتلمذ عليهم، وإذا عرفنا العصر الذى يعيش فيه الفقيه استطعنا بعد دراسة ترجمته أن نعرف شيوخته فى الشرق أو الغرب أو الأندلس، وأن نعرف التيارات العلمية المختلفة التى أثرت فى الدعوة المرابطية أهى مشرقية أم هى مغربية أو أندلسية.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد هذا التاريخ، وذهبوا فيه مذاهب شتى، فقد ذكر كل من ابن عذارى^(٢)، والنويرى^(٣) أنه خرج سنة ٤٤٥هـ، وذكر صاحب الحلل الموشية^(٤)، والقلقشندى^(٥) أن ذلك كان سنة ٤٤٠هـ، بل إن ابن الأثير^(٦) يذهب أبعد من هذا، فيقرر أنه خرج سنة ٤٤٨هـ، فى الوقت الذى يروى ابن أبى زرع^(٧) وصاحب جامع تواريخ فاس^(٨) أن الرحلة قد تمت عام ٤٢٧ أو ٤٢٩هـ والرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة من الرواية الأولى لأن المراجع كلها المؤيدة أو المعارضة أجمعت على أن الجدالى تلمذ على الفقيه أبى

(١) البكرى : المغرب ١٦٥، الحلل الموشية ص ٩، روض القرطاس ص ٧٦، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢، جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢.

(٤) الحلل الموشية ص ٩، القلقشندى ج ٥ ص ١٨٩.

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨.

(٧) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٦.

(٨) جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

عمران الفاسى بمدينة القيروان، ولما كانت كتب التراجم وكتب التاريخ وكتب الطبقات^(١) تجمع على أن عمران قد توفي عام ٤٣٠هـ، فلا بد أن تكون الرحلة قد تمت قبل هذا التاريخ، وإلا لما استطاع أن يحضر مجالس أبى عمران الفاسى ويتلمذ عليه، وفى هذه الحالة تصبح رواية ابن أبى زرع أقرب هذه الروايات من الحقيقة، وليس ببعيد أن تكون الرحلة قد تمت سنة ٤٢٧ أو ٤٢٩ على الأكثر.

ومهما يكن من شىء، فقد يمى يحيى بن إبراهيم شطر القيروان حاضرة المغرب الثقافية، وكعبة القصاد من قاصية المغرب والأندلس، وكانت القيروان فى ذلك الوقت بالذات قد تحررت من نير الشيعة، واستردت حريتها كاملة، وانتصر فقهاء المالكية فى معركة الفاطميين والزييريين نصرا عظيما، أعاد إلى هذه الحاضرة شهرتها السابقة ومجدها القديم، وذلك عقب هذه الثورة الجامحة التى قضت على الشيعة بإفريقية والمغرب عام ٤٠٩هـ، فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى^(٢). قصد الزعيم الجندالى القيروان لأنه مالكى المذهب والقيروان عاصمة المالكية وعلمائها أقطاب الفقه وأئمة المذهب، كما أحب أن يقصد إمام المالكية فى المغرب قاطبة فى ذلك الوقت، ونعنى به ذلك الفقيه الذائع الصيت أبا عمران الفاسى الذى تألق نجمه وذاع صيته، وقصده الطلاب من فاس وأغمات ومن الأندلس من سرقسطة^(٣) وأشبيلية^(٤)، كما قصده فقهاء المصامدة^(٥) وأهل وشقة^(٦) وعلماء من بجانة^(٧) وألمرية^(٨) وطليطلة^(٩) وقرطبة^(١٠) وصقلية^(١١) أيضا.

ولم يصل أبو عمران إلى هذه المكانة الرفيعة فى ذلك العصر إلا بعد

(١) عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص ٤٢٠، معالم الإيمان ج٣ ص ٢٠٤، روض القرطاس ص ٧٤، التشوف ص ٨١، شذرات الذهب ج٣ ص ٢٤٧، البيان المغرب ج١ ص ٢٧٥، التكملة لابن الأبار ج١ ص ٢٥١، ابن بشكوال ص ٥٥٢، جذوة الاقتباس ص ٢٣٠، الديباج المذهب ص ٣٤٤.

(٢) الرحلة التيجانية ص ٨، ابن بشكوال: الصلة ص ٤٩٨، ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ٣٨٨.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٨٦، ابن الأبار ج١ ص ١١٧.

(٤) ابن الأبار ج٢ ص ٤٤٦.

(٥) التادلى: التشوف ص ٨٦.

(٦) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٠.

(٧) التكملة لابن الأبار ج١ ص ٥٢.

(٨) ابن بشكوال: الصلة ص ١٧٢، ٢٧٧، ٤٣٠.

(٩) المصدر السابق ص ٣٣٤، ٣٩١.

(١٠) الديباج المذهب ص ١١٠.

(١١) المصدر السابق ص ١٧٤.

دراسات عميقة وسفر طويل ودأب على التحصيل، فقد خرج من المغرب مشرقاً فسمع من علماء مصر ^(١)، ورحل إلى الحجاز ^(٢)، وسمع بمكة ^(٣)، ثم قصد مدارس العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس، وأبي الحسن المستملي، وأبي الحسين بن الحماس المغربي ^(٤)، وتلمذ على الفقيه أبي بكر بن الطيب المعروف بالباقلاني المتكلم على مذهب أهل الحديث وطريقة الأشعرية ^(٥)، وتلقى عليه علم الأصول ^(٦)، وظل يلازمه ببغداد فترة طويلة ^(٧)، وكان قبل رحيله إلى المشرق قد تلمذ على الفقيه المالكي الذائع الصيت أبي الحسن القابسي ^(٨)، واختلف إلى مدارس الأندلس ونهل من علمها ما طاب له، فأخذ عن عبدالوارث ابن سيفان ^(٩) وأبي الحسن أحمد بن محمد بن الصلت القرشي ^(١٠)، وسمع بقرطبة ^(١١) وأشبيلية ^(١٢)، وعاد إلى القيروان بعد ذلك ليلقن علمه للناس الذين جاءوا من كل صوب.

كان أبو عمران قد برع في علم الأصول وعلم الكلام والمناظرة ^(١٣)، «وكان من أحفظ الناس وأعلمهم، جمع حفظ المذهب المالكي والحديث وعلوم القرآن ^(١٤)» وقد شهد له الباقلاني بذلك كله فقال: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب لاجتمع علم مالك ^(١٥)»، شب أبو عمران في هذه البيئة الزاهدة في

(١) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ١٤٥، ابن بشكوال ص ٥٥٢.

(٢) ابن عذاري: البيان ج١ ص ٢٨٦.

(٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٥٢.

(٤) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٤١٣، الديباج المذهب ص ٣١٤.

(٥) النباهي : المرقبة العليا ٣٧، الجذوة ص ٢٣٠، ابن بشكوال ص ٥٥٢ شذرات الذهب ج٣ ص ٢٤٧، روض القرطاس ٧٩.

(٦) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ، الديباج المذهب ٣٤٤.

(٧) النباهي : المرقبة العليا ص ٣٧.

(٨) المدارك ج٤ ص ٤١٣، الروض ص ٧٦.

(٩) شذرات الذهب ج٣ ص ٢٤٧.

(١٠) ابن الأبار : المعجم ص ٣٨.

(١١) المدارك ج٤ ص ٤٣، ابن بشكوال ص ٥٥٢.

(١٢) ابن بشكوال ص ٧٦.

(١٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٢، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٣٠ ابن خير : الفهرسة ص ٤٤٠.

(١٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٤٤.

(١٥) المرجع السابق ص ٣٤٤.

متاع الحياة، بيئة الفقهاء المالكية في القيروان الذين عرفوا بالشدة في الحق والتزموا والميل إلى التشف، واطراح حياة التمتع والميل إلى التأمل والعبادة، وقد بث أبو عمران هذه التقاليد فيمن قصده من تلاميذ المغرب ومنهم ذلك الفقيه الزاهد المتعبد عبدالعزيز التونسي^(١) وفقيه السوس وناسكها ومتعبدها وجاج بن زللو اللمطى.

تتلذذ الزعيم على أبي عمران بالقيروان، ولم يكن يقصد أن يختص نفسه بما يحصل من علم أو يسمع من درس، إنما كان يتألم لحال قومه، ويريد أن ينقذهم مما يهيمنون فيه من جهل، يريد أن يرد إليهم دينهم كاملاً نقيًا، وأن يجمعهم على هذه التقاليد الحميدة التي أثلت لها مدرسة القيروان، أو بمعنى آخر يريد أن يقيم وحدة صنهاجية من نوع جديد، فكان أول مافعله بعد أن لقي أبا عمران أن طلب من الإمام فقيهاً من تلاميذه المالكيين ليصحبه إلى بلاده^(٢)، ليعينه في هذه المهمة الشاقة التي وضع نصب عينيه أن يضطلع بها إعلاء لشأن قومه.

والمؤرخون^(٣) يضيفون على هذه القصة لوناً طريفاً، فيصورون كيف أن أبا عمران جمع تلاميذه وانتدبهم لهذه المهمة الشاقة، وأنهم أحجموا جميعاً خوفاً من بعد الدار ومشقة السفر، وأنهم أشفقوا على أنفسهم مما سيلقون هناك من مشاق، وهو في الواقع تصوير يفسد الصورة الرائعة التي رسمتها كتب الطبقات لفقهاء المالكية في المغرب، فقد عرفنا عنهم الحرص على رفع لواء المذهب لايهمهم اغتراب ولا تنبيه مشاق، والواقع أن في رواية المؤرخين إسرافاً كثيراً، ويخيل إلى أن هؤلاء الفقهاء أو التلاميذ لم ينتدبهم الإمام لهذه المهمة، وبالطبع لم يرفضوا، وإنما رأى الإمام أنه لابد لتحقيق هذه المهمة على الوجه الأكمل من فقيه من البربر يعرف البيئة المثلثة معرفة تامة، ويلم بلسانها إلماً تاماً، حتى يستطيع في أقصر وقت أن يهدى هؤلاء القوم سواء السبيل، فلما لم يجد في تلاميذه من يحقق هذه الرغبة، سير الجدالي إلى أحد تلاميذه فقهاء المغرب الأقصى، إلى رجل يدعى وجاج بن زللو فقيه مالكي مشهور تتلمذ على أبي عمران^(٤) ونهل من علم

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٣٧٠.

(٢) ابن رزع : روض القرطاس ص ٧٧، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٩، جامع تواريخ فاس ص ٢٨، البكزي ص ١٦٥، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٩، وروض القرطاس ص ٧٧.

القيروان وتقاليدها وتلقن زهدا وتقشفها وإطراحها لحياة اللهو، لذلك نراه يتخذ بلاد نفيس أو قرية ملكوس^(١) مكاناً يأوى إليه بعيداً عن الناس، يتزهد فيه، ويتقشف ويتعبد، وقد بنى رابطة من أجل ذلك، وكان مريدوه وتلاميذه يفدون عليه من كل فج، ويتلقون عنه هذه التقاليد فيرضون عنها، ويتعصبون لها. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن تقاليد المالكية بالقيروان نفذت إلى قاصية المغرب، فأحيت موات الأمل، وقومت دين البربر، ورسمت لهم الجادة المستقيمة الواضحة، كما أن هذا الفقيه لمطى صنهاجي من قبائل المثلثين أعرف الناس بطباع قومه، وأكثرهم خبرة بما ينفعهم ويضرهم.

هذه إذن هي جذور هذه الحركة الدينية التي سنعرض لها بالتفصيل بعد قليل، بدأت خيوطها الأولى في القيروان على يد أبي عمران الفاسي، ثم تنهت إلى فقيه السوس وزاهدها وجاج بن زللو اللمطي، وكانت رسالة إمام القيروان إلى هذا الفقيه الورع المتزهد أن «ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين»^(٢). وبذلك يكون الزعيم الجدالي قد أرضى رغبته في التفقه في الدين، وأوشك أن يحقق ذلك الأمل الذي طالما ساوره، وهو هداية شعب المثلثين ولم شعبه وجمعه على الهدى والتوحيد، فقد ذكر المؤرخون أن فقيه السوس ما كاد يتلقى رسالة أستاذه أبي عمران حتى جمع مريدوه رواد رابطة، وأطلعهم على رغبة إمام القيروان. وقد أضاف المؤرخون إلى ذلك قولهم أنه قد وقع اختياره على ابن أخيه ليمضى إلى الصحراء، غير أنه خشى المغبة، ونكص على عقبيه، لكن يخيل إلينا أن وجاج بن زللو اللمطي هذا أراد أن يحقق رغبة أستاذه، فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجي الأصل يدعى عبدالله بن ياسين، فلم يتردد عبدالله في الاضطلاع بهذا الأمر، بل أقبل عليه، وتحمس له ورأى فيه لونا من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام.

(١) البكري: المغرب ١٦٥.

(٢) البكري: المغرب ص ١٦٥، النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢.

٣- التحريف بعبد الله بن ياسين:

وباختيار عبدالله بن ياسين يتدئ عهد جديد فى تاريخ شعوب المثلثين ^(١). بل فى تاريخ الإسلام فى السودان وتاريخ المغرب، بل فى تاريخ العالم الإسلامى. فقد استطاع بفضل ماتوافر له من صفات، وماوهبه الله من إخلاص أن يحقق الآمال التى ساورت يحيى بن إبراهيم الجدالى وغيره من المخلصين من زعماء هذا الشعب، فإليه يرجع الفضل فى جمع كلمة المثلثين ولم شعشهم، وإقامة حلف قوى، بل إقامة دولة مبسطة الأطراف عزيزة الجانب، ألهم النفوس بالحمية الإسلامية، فخرجت القبائل التى كانت منذ عهد غير بعيد يقاتل بعضها بعضا فاتحة غازية مجاهدة، أتت على ملك زناتة، واحتلت المغرب وخفت إلى الأندلس ترد عادية المسيحيين، وتشارك فى حركة الجهاد المقدس، وتحمى تراث الحضارة الإسلامية الذى كادت أن تذهب ريحه فى عصر المحنة، فمن حقه علينا بل من حقه على التاريخ أن نترجم له ونعرف به ونكشف عن الأحوال التى هيأته ليقوم بذلك الدور الممتاز، ونبين الصفات التى توافرت فيه، وأهله لحياة الكفاح والجهاد.

ولد عبدالله من أب صنهاجى يدعى ياسين بن مكوك بن سير على، وقد اختلف المؤرخون فى اسم القبيلة التى يتنسب إليها، فذكر فريق ^(٢) أنه يتنسب إلى قبيلة جزولة الضاربة كما أشرنا فى أقصى المغرب قرب جبال درن، ولكن البكرى ^(٣) انفرد برواية غريبة بعض الشيء، فقال إنه ولد فى قرية تيماماناوت فى طرف صحراء مدينة غانة، أعنى فى أحواز مدينة أودغشت. فلا يبعد إذن أن يكون قد انحدر من هذه القبائل المثلثة التى تضرب فى تلك النواحي. ويخيل إلينا أن ذلك يرجع نسبه إلى قبيلة جدالة التى تضرب قرب منطقة السنغال، وتوغل جنوبا حتى منحنى نهر النيجر، ومن السهل جدا أن يحرف الرواة اسم الجدالى فيصبح الجزولى بسبب خطأ النسخ أو عدم التحقيق، وهذا فى رأينا أقرب إلى الحقيقة، لأنه يفسر لنا لماذا أقبل عبدالله على التطوع لهذه المهمة دون تردد، شأنه فى ذلك شأن غيره من الفقهاء، فإذا صحت نسبة عبدالله إلى جدالة يكون أعرف الناس

(١) عياض : ترتيب المدارك ٤ ص ٥٣٢.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٨، جامع تواريخ فاس ٢٨، مفاخر البربر ص ٥٢.

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٥.

بأحوال قومه، وأكثرهم اطلاعا على مواطن الضعف فيهم، وأقدرهم على رأب الصدع وتقويم المعوج.

والمراجع لاتذكر لنا عن نشأة ذلك الزعيم الدينى شيئا يشفى الغلة، ولم نجد فى كتب الطبقات - للأسف - أية ترجمة لذلك الفقيه الجرىء والمصلح الفذ، اللهم إلا ترجمة واحدة فى كتاب ترتيب المدارك^(١) للقاضى عياض اليحصبى، لكنها ترجمة مقتضبة مضطربة لم تلق ضوءاً كافياً لدراسة حياة هذا الرجل الذى شكل تاريخ الملتهمين، واستطاع بمعونة أميرهم أن يحقق مايشبه المعجزة.

ومن أسف، أن القاضى عياض ترجم له ترجمة مفصلة فى كتاب له عن تاريخ سبته مازال مفقودا حتى اليوم لم يعثر له على أثر، لأن عياض وهو من أئمة المالكية فى المغرب أُولع بتقصى أخبار فقهاء هذا المذهب، فلم يترك فقيها دون أن يترجم له أو يعرف به، ومن الطبيعى أن يفرد لابن ياسين فصلا طويلا، لأنه كان قريبا من عصره، إذ توفى عياض فى القرن السادس الهجرى، وكان يعرف تلك الجهود الشاقة التى بذلها لرفع لواء مذهب مالك فى صحراء الجنوب وفى السودان.

مهما يكن من شىء، فإنه يخيل إلينا أن الفتى عبدالله خرج من مسقط رأسه فى فجر شبابه ليشبع رغبته فى العلم، ويرد مناهل الثقافة فى المغرب الأقصى، ويتلمذ على أئمة الفقهاء فى المدارس التى انتشرت فى المغرب كله، ولاندرى كيف اتصل بفقيه السوس وجاج، أتلمذ عليه قبل ذهابه إلى الأندلس أم بعد عودته منه؟ فقد ذكر المؤرخون^(٢) أن الفتى الملتهم شد الرحال إلى الأندلس فى طلب العلم والمعرفة، ولا بد أنه تردد على أئمة العصر وأعلام الفكر فى الأندلس.

ومن الغريب أن كتب الطبقات الأندلسية سكنت عن هذا الأمر سكوتاً ليس من العسير تعليله، فإن أغلب هذه الكتب ألف فى عصر الموحدين الذين كرهوا المرابطين، واعتبروهم زنادقة كفر، وجهدوا فى إخفاء آثارهم وطمس معالم تاريخهم، فلا يبعد أن يكون كتاب الطبقات قد خافوا البطش فسكنت أقلامهم عن

(١) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٥٣٢ ومابعدها.

(٢) الحلل الموشية فى الاخبار المراكشية ص ١٠.

ذكره، وقد انفرد صاحب الحلل بذكر قصة ذهاب عبدالله بن ياسين ^(١) إلى الأندلس، فقال إنه رحل إليها في عهد ملوك الطوائف أعنى بعد عام ٤٠٠ هـ، ومكث هناك سبع سنوات، ثم عاد إلى المغرب الأقصى بعد ذلك، فلعله اتصل بوجاج فقيه السوس في ذلك الوقت، ذلك الفقيه الذي كان قد رحل إلى القيروان ^(٢)، وتلمذ على أبي عمران الفاسي، وعاد إلى المغرب فابتنى الرابطة وتزهد وتعبد، وأخذ ييث دعوة القيروان وتقاليدها في نفوس مريديه.

ولا يبعد أن يكون عبدالله بن ياسين قد أعجبه هذه التقاليد التي اتسم بها فقهاء المالكية من البعد عن السلطان، واطراح النعيم، والتعبد والزهد والتقشف والإيواء إلى الربط تقرباً من الله. وإذا كان عبدالله بن ياسين قد تلمذ على وجاج وهذا قد تلمذ على أبي عمران، فيعتبر ابن ياسين من هذه الناحية تلميذاً لأبي عمران ^(٣) عن طريق غير مباشر، ويكون بذلك قد جمع إلى علم الأندلس علم القيروان، ويبدو أنه كان لعبد الله بن ياسين ذكر وصيت كمحدث فيذكر ابن بشكوال ^(٤) عرضاً أن أحد علماء الحديث قد روى عنه.

ومهما يكن من شيء، فقد أجمع الرواة - على قلتهم - «على أن عبدالله بن ياسين كان من الفقهاء النابهين. كان شهماً قوى النفس حازماً ذا رأى وخير وتدبير حسن ^(٥)»، كما ذكر صاحب الروض أنه «كان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء من أهل الدين والفضل والتقوى والفقه والأدب ^(٦)». هذه هي الصفات التي اتسم بها ذلك الفقيه الجريء الذكي، وقد حق ليحيى بن إبراهيم أن يستبشر بقدومه ويعتقد أن تحقيق آماله قد آن.

(١) ليس ببعيد أن يكون عبدالله بن ياسين من المغمورين في ذلك الوقت فلم تسجله كتب الطبقات.

(٢) مفاخر البربر ص ٦٩.

(٣) اليكوى: المغرب ص ١٦٥.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ص ٤٢٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٨.

٤ - عبد الله بن ياسين في ديار لتونة:

دخل ابن ياسين الصحراء بصحبة أمير جدالة، ولانعرف بالضبط الطريق الذي سلكه، ولا الوجهة التي اتجهها، فهل اتجه إلى ديار لتونة كما يذكر النويري^(١) أم سلك طريقاً آخر؟. يخيل إلينا أنه اتجه إلى لتونة أولاً، لأنه كان يتعين عليه أن يمر بمضاربها قبل أن يصل إلى جدالة، ثم إنه اضطر إلى محاربة لتونة بعد أن أيدته جدالة، ولا يعقل أن يجاهد لتونة إذا لم تكن قد أعرضت عن دعوته وهذا هو ما يؤكد الرواة^(٢) حين يقولون إنه دعا لتونة إلى طريق الحق، وبسط أمامها سبل الهداية فصدت عنه وأعرضت، فاضطر أن يشد الرحال جنوباً إلى مضارب جدالة، عله يستطيع بمعونة أميرها يحيى أن يحقق ما أخفق في تحقيقه في صفوف لتونة.

وتغرب الرواية في الخيال حين تصور قدوم عبدالله بن ياسين فقيه المثلثين وهاديهم، فذكرت - وإن كان ذلك تفصيل لاغناء فيه - أنه كان يركب بعيراً يقوده يحيى بن إبراهيم، وهو يقول للناس: هذا محبى سنة رسول الله، يعرضه على الناس، ويدعوهم لحضور مجلسه والاستماع إلى مواعظه^(٣). مهما يكن من شيء، فقد كان لقدوم عبدالله بن ياسين رنة فرح وصدى بعيد في ديار المثلثين، جاءت الوفود من كل فج داعية مرحبة^(٤)، لأنهم كانوا كما يبدو يحسون بذلك المستقبل الزاهر الذي أخذ هذا الفقيه الجريء يرسمه لهذه الشعوب التي لم تكن قد اضطلعت بدور يذكر في تاريخ المغرب، فقد ذكر المؤرخون أن شيخاً منهم قال حين رآه يمتطى راحلته، ويمضى في طريقه: «أرأيتم هذا الجمل لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم»^(٥)، وكان يحيى بن إبراهيم الذى أطلق عليه اسم إمام الحق في سعيه وراء الحقيقة وعمله على إحياء شريعة محمد، وجلبه فقيهاً يعلم الناس ويهديهم سواء السبيل الإمام المثالى الذى رسمه الطرطوشى إذ قال: «فإمام العدل النبوى كان يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاه وفقهاؤه وهم الأدلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحفاظون لحدود الله

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣.

(٢) الحلل الموشية ص ١٠، روض القرطاس ص ٧٨.

(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٠٠.

(٤) ابن أبى روع: روض القرطاس ص ٧٨.

(٥) النويرى ج ٢٢ ص ١٧٣.

والناصحون لعباد الله . فواجب على السلطان ألا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكماً إلا بمشاورتهم، لأنه فى ملك الله يحكم، وفى شريعته يتصرف»^(١).

أخذ عبدالله بن ياسين منذ وطئت قدماه ديار الملثمين يرسم لنفسه المنهج الذى يدينه من الأهداف التى حالف يحيى بن إبراهيم الجدالى على تحقيقها، وهى - كما أشرنا من قبل - تأليف قلوب الملثمين، وإقامة نوع من التوحيد بين القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح، والخلق القويم، حتى لا يكتب لها أن تتفرق كما تفرقت من قبل، وهذا المنهج الذى اصطنعه عبدالله لنفسه يقع فى دورين : دور سلبي، ودور إيجابى . دور قنع فيه بالدعوة السلمية، وآخر امتشق فيه الحسام، وأعلن الجهاد على المفسد، دور كان يعظ فيه بالحسنى، ويخوف الناس عاقبة آثامهم، درو خاض فيه حومة الوغى فى سبيل تحقيق غايته، وإتمام رسالته وهو من هذه الناحية يتفق مع طبائع الأشياء، ومع الدعوات المماثلة التى عرفها التاريخ، دعوات المصلحين من رجال الدين الذين يسالمون ويعتمدون على القول، حتى إذا خذلهم الناس استلوا السيوف بعد تأليف قلوب الأنصار وحشد المؤيدين لحلبة الكفاح.

بدأ الدور الأول من أدوار الدعوة حين اتخذ عبد الله بن ياسين صفة الفقيه المشاور المعلم، واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية، وصدق يقينه، وإخلاصه أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج، فكانوا يشدون إليه الرحال من أقصى الديار يحضرون حلقاته، ويستمعون إلى دروسه^(٢). ويبدو أن عبدالله كان يرقى بهم فى فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد، أعنى ينزل إلى مستوى أفهامهم ويلقنهم المبادئ الصحيحة للدين، حتى إذا تمكن من نفوسهم، وأقبلوا عليه بعقولهم وأفهامهم، أخذ يفسر القرآن ويروى الحديث^(٣)، ولعله وهو الفقيه المالكى كان يقرأ نصوصاً من موطأ مالك أو المدونة التى وضعها سحنون أو المستخرجة التى وضعها طلبة سحنون فقيه القيروان، واستطاع عبدالله بفضل فرط ذكائه وخبرته بطبائع الناس وسعة أفقه، بسبب كثرة أسفاره أن ينفذ إلى قلوب العامة، ويصبح قريباً من قلوبهم، فوثقوا به وأقبلوا عليه، وتفتحت أذهانهم لتعاليمه، «فكانوا

(١) الطرطوشى: سراج الملوك ص ٥٢.

(٢) الحلال الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٠.

يحفظون من فتاويه وأجوبته لا يعدلون عنه^(١)، وسما في نفوسهم إلى مرتبة رفيعة من التقديس، كان يعلمهم، ويفتى في مشاكلهم. كان صاحب الرأي والمشورة بل كان بيت مالهم تحت إشرافه^(٢).

ويبدو أن عبدالله بن ياسين قد خطا في سبيل هذه الدعوة السلبية خطوة أبعد، فلم يكتف بالدرس بل أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر^(٣)، وليس بمستغرب أن يفعل مثل هذا وهو تلميذ فقهاء القيروان الذين عرفوا بأنهم حرب على الفساد، ونقمة على المنكر، وسيف على البغاة، ورأى كيف فشّت الرذيلة بينهم، فأراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فأراد أن يقيم الشرع ويحكمه في رقاب المفسدين، «أخذ في الشدة في ذات الله تعالى، وتغيير المناكير وأظهر الإيمان»^(٤)، كما عمل على معاقبة السارق ورجم الزاني ومحاربة الداء بالسنة القويمة^(٥) ولعله فعل آنثذ مثل مافعله بسجلماسة فيما بعد، حين أراق الخمرور وحطم آلات الطرب ودعا إلى الزهد والتقشف.

وقد رأى عبدالله كيف أن النبلاء من المثلثين يتحكمون في رقاب عبيدهم ومواليهم، ويذيقونهم ألوان الخسف، وقد ذكرنا في الباب الأول كيف أن المجتمع المثلث يضم قبائل سيدة وأخرى مستذلة مسودة، وعرضنا لحالة الموالى عرضا موجزا، وقد أحب عبدالله أن يقيم حدود الإسلام، وأن ييسط لواء المساواة بين الناس، فيخفف من غلواء السادة، ويسرى عن المستضعفين في المجتمع ولاندرى بالضبط ماهى الوسائل التى استعان بها على تحقيق بغيته، غير أن البكرى يروى أنه اختط مدينة اتخذها حاضرة له، وأنه أمر بأن تكون دورها متساوية لاتعلو دار على أخرى، فكأنه أراد أن يضرب لمريديه مثلا وأن يكون لهم أسوة حسنة.

مهما يكن من شىء فإنه يخيل إلينا أن عبدالله لم يأل جهدا في التخفيف عن كاهل الموالى، والحد من جبروت السادة والنبلاء^(٦). وقد اتخذ لنفسه منهمج فقهاء

(١) عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص ٥٣٣.

(٢) البكرى: المغرب ص ١٦٥.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص ١٧٢.

(٥) ابن الاثير ج٩ ص ٢٥٨.

(٦) البكرى: المغرب ص ١٦٥.

القيروان في الزهد والتقشف والبعد عن مطايب الحياة، فقد روى المؤرخون أنه لم يشارك المثلثين في حياتهم الخاصة، تورع عن أكل طعامهم، وتناول شرايبهم وكان يعتمد على صيد البرية^(١)، كان يتقشف، يلبس الخشن من الثياب، ويكتفى من الطعام بأقله، يتقرب إلى الله بالعبادة، ويروض نفسه على الصبر، ويبدو أن سيرته تركت في نفوس الناس أثراً بعيداً، فوثقوا به، وآمنوا بدعوته، وبدءوا ينسجون حول شخصه قصصاً هي الخرافة بعينها، وهي إن كانت بعيدة عن التصديق إلا أنها تصور لنا كيف سما في نفوس القوم، وكيف غدا في نظرهم في مرتبة الأولياء والصالحين، فقد روى البكري كيف استعانوا به في استخراج الماء من جوف الصحراء بإذن الله، كما ذكر روايات أخرى قريبة من ذلك المعنى^(٢).

ولكن مايلقاء الدعاة والمعلمون في مستهل رسالتهم من مقاومة أهل الشر والفساد قد لقيه عبدالله، فروى المؤرخون^(٣) كيف تبرم الناس بحكم السنة، إذ لم يألفوا الخضوع لقانون يحد من نزواتهم، ويوقف شهواتهم عند حد، لكن يخيّل إلينا أن المعارضة لم تفرخ في صفوف المستضعفين من عامة المثلثين، لأن عبدالله كان نصيرهم وحاميهم، وكان هو الذي رد البغى والعدوان عن ساحتهم، إنما انبعثت المعارضة من صفوف الزعماء والنبلاء، الذين رأوه يتقص من حقوقهم التقليدية، ويضع حداً لجبروتهم وعدوانهم، وينشر المساواة بين الموالي والسادة، فسخطوا عليه. وما يؤيد هذا الرأي ما أشار إليه البكري حين قال: «فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر أيتكوا فعزلوه من الرأي والمشورة وطردوه وهدموا داره^(٤)».

(١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٥، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢، ابن أبي رزع : روض القرطاس ص ٧٨، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨.

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٥.

٥ - انتهاء الجور الساسي من رسالة عبد الله بن ياسين:

واضطر عبدالله خوفاً على نفسه أن يخرج من ديارهم إلى حيث قدر للدعوة أن تمر في دورها الإيجابي الناجح، الذي ينتهي بقيام الدولة في دورها الأول، ولكن يخيل إلينا أن جهاد عبدالله لم يضع هباء وأن الكثرة الغالبة من جمهور الملتزمين أحبته ووثقت به، واعتقدت أنه منقذها من الضلال، إنما القلة الحاكمة هي التي عدت عليه، وأخرجته من الديار ظناً منها أنه تهيأ لها القضاء على هذه الدعوة الناشئة، ولكن الأيام خيبت ظنهم.

وتختلف المراجع في الوجهة التي اتجهها عبدالله بن ياسين بعد أن خرج من مضارب لمتونة يطلب النجاة بنفسه، بعد أن يش من إصلاح حالهم، فذكر فريق ^(١) أنه غلب عليه اليأس من تقويم اللمتونيين، فخرج إلى المغرب يلوذ بأستاذه وجاج فقيه السوس، ويشكو إليه مايلقاه من عناء ونصب. ويذكر فريق آخر أنه هم بالعودة إلى المغرب لولا أن أن قيص الله أمير جدالة يحيى بن إبراهيم ^(٢) ليرده عما أراده من اعتزال الدعوة والمعركة على أشدها.

ويبدو أن عبدالله بن ياسين كان على صلة روحية بأستاذه فقيه السوس، وليس بعيداً أن يكون الأستاذ ظل يرقب تلميذه عن كثب، مباركا حركته متمنياً أن يكتب له التوفيق، وأنه كان يمدّه بالمشورة والرأي والنصح والتوجيه كما يتبين من رواية البكري ^(٣)، ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين لم يشأ أن يسير إلى الجنوب من تلقاء نفسه أول الأمر، لأنه كان يخشى أن يلقي في الجنوب مثل مالمقيه في الشمال من محاربة النبلاء، وإعراض الزعماء الذين أعمتهم الأنانية وأضلهم حب الذات، ولأنه لم يكن على علم تام بمسالك البلاد الجنوبية، وهذا يؤيد ماذهب إليه بعض المؤرخين ^(٤)، من أنه فعلاً هم بالعودة من حيث أتى لمعاودة حياة الدرس والتفقه، لولا أن يحيى بن إبراهيم الجدالي رأى أنه إذا تخلى عنه أخفقت آماله، وأحببت مشاريعه التي عقد الخناصر على تحقيقها، فآلح عليه في أن يصحبه إلى

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨، جامع تواريخ فاس ص ٢٨.

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٥.

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨.

الجنوب وتوسل إليه ألا يتخلى، وهو الفقيه المجاهد، عن رسالته السامية، فقال له «إنى لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى، وما على من ضل من قومى^(١)».

هكذا قدر لهذا الزعيم الجدالى المخلص أن يتدخل ليغير مجرى الحوادث، ويوجه مصير قومه المثلثين، فآثر أن يصطحب الفقيه معه إلى الجنوب إلى ديار جدالة أهله وعشيرته، ولعله يلقي من قومه المعونة والتأييد لتحقيق غايته، وقد سار عبدالله بن ياسين صوب الجنوب إلى ديار جدالة، حيث قدر للدور الإيجابى أن يبدأ وأن تثمر الجهود التى بذلت لإقامة دولة من المثلثين على أسس جديدة قوية.

وقد بدأ الدور الإيجابى حين عمد عبدالله بن ياسين إلى بناء رباط يأوى إليه صحبه، يتعدون عن الناس، يتقربون إلى الله، يتزهدون ويجاهدون. والمراجع التى بين أيدينا وإن كانت قد اتفقت على ذلك، تختلف أشد الاختلاف فى الظروف التى أنشئ من أجلها ذلك الرباط، ويذهب البعض إلى أن يحيى بن إبراهيم الجدالى هو الذى أشار على عبدالله بن ياسين ببناء رابطة للعبادة وهذا أمر بعيد التصديق، لأن عبدالله بن ياسين وهو الفقيه المتلمذ على علماء القيروان والمغرب الأقصى كان أدرى الناس بفائدة الربط، التى كانت قد انتشرت فى المغرب انتشارا بعيدا فى ذلك الوقت. كما أنه هو نفسه تتلمذ على أستاذه وجاج فى رابطة ابتناها الأستاذ فى بلاد نفيس جعلها مقرا له وخف إليها التلاميذ من كل صوب لتلقى العلم على يديه، إن يحيى بن إبراهيم الجدالى لم يشر على ابن ياسين ببناء رابطة للعبادة، إنما كان له الفضل فى اختيار أصلح المواقع لإقامة ذلك الرباط، لأنه كان يعرف مضارب قومه حق المعرفة. يشير صاحب روض القرطاس إلى ذلك حين يروى أن يحيى بن إبراهيم قال لعبد الله «ولكن ياسيدى هل لك فى رأى أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة...» قال «ماهو» قال «إن هاهنا فى بلدنا جزيرة فى البحر... تدخل إليها فنعيش فيها... فقال عبدالله: هذا حسن، فهلم بنا ندخلها باسم الله تعالى، وابتنى بها رابطة^(٢)».

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٢) ابن أبي زرع ٧٩.

وإذا كانت المراجع قد اختلفت فى هذا الأمر، فإنها اختلفت أيضا فى تحديد الموضوع الذى اختاره عبدالله وصاحبه مستقرا لحياتهم الجديدة، ومأوى يضعون فيه أسس الدولة الجديدة، فيذهب فريق إلى أنهما ابتنيا هذا الرباط على حدود الصحراء فيما يلى تاردونت إلى الجنوب^(١)، وهذا رأى لا يطابق الحقيقة، فتارودانت تقع على حدود المغرب الأقصى، على مقربة من جبال درن، وقد ذكرنا كيف أن عبدالله بن ياسين بعد أن كفرت لمتونة بدعوته سار إلى الجنوب إلى ديار جدالة، ليبدأ حياة جديدة، وأنه لم يذهب إلى الشمال، وليس من المعقول أن يبنى رباطه حيث يحف به من كل صوب الأعداء الذين يتربصون به الدوائر.

ويذهب فريق آخر إلى أنهما قد لجآ إلى ديار جدالة، وأنهما اختارا جزيرة صغيرة، تقع فى مواجهة الشاطئ، على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة فى الخليج الذى يطلق عليه الجغرافيون اسم خليج Arguin، وأن هذه الجزيرة سهل الخوض فى الماء للوصول إليها إذا كان الجزر، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد^(٢). ويعتمد أصحاب هذا الرأى على رواية لصاحب روض القرطاس جاء فيها «أن هاهنا فى بلدنا جزيرة فى البحر إذا حسر (الماء) دخلناها على أقدامنا وإذا ملأ دخلنا فى الزوارق وفيها الحلال المحض الذى لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت»^(٣).

ويذهب فريق آخر^(٤) إلى أن هذه الجزيرة تقع فى مصب السنغال الأدنى وأنها فى الصيف تصبح صلتها بالبر ميسورة وفى الشتاء تنقسم إلى جزيرات صغرى.

ويخيل إلينا أن ماذكره الفريق الثانى أقرب إلى الصواب، ذلك لأن الرباط لا يبنى عادة إلا فى المناطق التى تتعرض للغزو، ويتطلب الأمر حشد القوى بقصد الجهاد ورد المغيرين، فلا يعقل والحالة هذه أن يتخذوا هذه الجزيرة الواقعة قرب ساحل المحيط مركزاً لنشاطهم، لأنه لم يكن ثمة خطر يهدد جدالة عن هذا

(١) حسين مؤنس: مقدمة رياض النفوس ص ٢٦م.

(٢) De lachapelle: esquisse d'une histoire du Sahara Occidental p.61.

(٣) ابن أبى روع: روض القرطاس ص ٧٩.

(٤) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٣، R.Basset: Mission au Seuegal p.446.

R.Basset: Mission au Seuegal et Orientaux, p.199. De Slan: Introduction p.xxx.

ودائرة المعاف الإسلامية (الطبعة الفرنسية)، مادة سنغال M.Delafose

الطريق، على حين نجد ممالك الزوج الواقعة إلى جنوب حوض السنغال تغير على مضارب الملثمين باستمرار، وتهدد طرق القوافل، وقد رأينا كيف أن الملثمين والزوج تبادل الاستيلاء على مدينة أودغشت مرات عدة، فكان يتعين على عبدالله ابن ياسين أن يتخذ نهر السنغال، وهو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزوج، مستقراً لرابطته بقصد الجهاد ونشر الإسلام في ديار الزوج ومحاولة وقف عدوانهم وحسر تيارهم، والحيلولة بينهم وبين الإغارة على مضارب الملثمين. هذا إلى جانب أن الحياة في هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة في المحيط، والتي ذكر بعض المؤرخين أنها اتخذت مقراً للدعوة الجديدة تكاد تكون شاقة بسبب قلة موارد الماء وضيق رقعتها، فلا تستطيع أن تعمل عدداً ضخماً من المرابطين بلغ في بعض الأحيان أكثر من ألف مجاهد، على حين تيسر الحياة في الجزر الواقعة في مصب السنغال، بسبب وفرة المياه العذبة، ووفرة النبات والأشجار البرية، يتضح ذلك من قول صاحب الروض «فيها الحلال المحض الذى لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوث»^(١).

قد يقال كيف يجرؤ المرابطون على بناء رابطتهم بحوض السنغال ودولة الزوج كانت تبسط نفوذها حتى حوض هذا النهر^(٢)، وتهددهم بخطر جسيم؟. يرد على ذلك القول بأن الأطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال، وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمى ظهر العصبة المرابطة، إذا ما فكر الزوج في الاعتداء عليها، وما تزال الأساطير الشعبية التي يتناقلها سكان حوض السنغال اليوم تردد ذكر أحد المرابطين، الذين قدموا حوض هذا النهر في القرن الثاني عشر الميلادي، مما حمل الأستاذ M.Gaden^(٣) إلى الظن بأن عبدالله ابن ياسين هو بعينه ذلك الم رابط الى تتحدث عنه الأسطورة.

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في هذه الأمور كلها، فإنهم قد اختلفوا اختلافاً شديداً في التأريخ لهذا الدور الجديد، وكل ما استطعنا أن نصل إليه هو أن يحيى بن إبراهيم الجدالي توفي سنة ٤٤٠هـ، بعد أن استقر به المقام مع عبدالله بن ياسين في رباط حوض السنغال، لأنه صاحب الفضل في اصطحاب عبدالله بن ياسين إلى ذلك المكان البعيد، وذكر المؤرخون أيضاً أن العصبة المرابطة

(١) ابن أبي زراع: روض القرطاس ص ٧٩.

R. Basset: Misston au Senegal p.477. (٢)

Ibidp. 446. (٣)

خرجت من مستقرها مجاهدة، واستولت على أودغشت سنة ٤٤٧هـ، وأن يحيى ابن عمر الذى خلف يحيى بن إبراهيم توفى فى ذلك الوقت، وخلفه أبو بكر بن عمر إذن فلا بد أن الفترة التى قضاها عبدالله بن ياسين فى رباطه هذا فترة طويلة لا تقل عن سبع سنوات إن لم تكن تزيد، لأنه أدرك الرباط قبل وفاة يحيى بن إبراهيم أعنى قبل سنة ٤٤٠هـ.

٦- حركات المراقبة فى بلاد المغرب:

لكى نفهم الرسالة التى أداها الرباط الذى أنشأه عبدالله بن ياسين فى مصب السنغال، ونقف على الدور الذى لعبه الرباط فى تاريخ قيام الدولة، ونكشف عن المنهج الذى التزمه عبدالله حتى كتب له النجاح، وحقق الغاية التى كان يصبو إليها، يجدر بنا أن نعرض لحركة المراقبة فى المغرب على العموم، نعرض لجذورها الأولى، كما نعرض لتطورها، ذلك التطور الذى خدم الإسلام فى المغرب خدمة جليلة، كل ذلك يعيننا على فهم الدور الإيجابى للدعوة فهما صادقا، لأن رباط السنغال ليس إلا جزءاً من حركة المراقبة التى بدأت فى المغرب منذ أن فتحه العرب.

وتفسير كلمة رباط يحدد لنا معالم التطور الذى أصاب حركة المراقبة فى المشرق والمغرب، فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو، ومعناه أيضا المحافظة على أوقات الصلاة^(١)، ذهب الإمام الطرطوشى^(٢) هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»^(٣)، بقوله «ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات»^(٤).

والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المراقبة، الجهاد فى الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة، تسمى حياض المسلمين^(٥)، وترد عادية المعتدين.

وكانت المراقبة فى المغرب بعد أن فتحه العرب على هذه الصورة، ذلك أن سواحل البلاد ظلت بعد الفتح تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى من قواعده فى

(١) الإتحاف ج١ ص ٣٩.

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٩٧.

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٩.

(٤) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٩٧.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (مادة رباط) Doute:Notes sur l'islamMaghribin "Les Marabouts" p.29. (G.Marçais).

صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا^(١)، وكانت المدن الساحلية تصاب من جراء هذه الغارات بأضرار جسيمة، فاضطر العرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة، الذين أخذوا يرابطون فيها للدفاع عن المسلمين، والحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين وبين النزول إلى البر^(٢).

كان المسلمون أنفسهم يرون في هذه المراقبة لونا من ألوان الجهاد في سبيل الله، فكانوا يتسابقون إلى الربط، يحرسون عورات المسلمين، وينالون الشهادة دفاعاً عن عقيدتهم، فكانت الربط في الواقع مجرد حصون^(٣) تقام في الجهات الأكثر تعرضاً لغارات العدو، تشحن بالمقاتلة، والمؤن لصدها عادية المعتدين.

ويبدو أن عقبة بن نافع الفهري كان يدرك أهمية الرباط في الدفاع عن المغرب، في وقت لم تكن البحرية الإسلامية قد تفوقت فيه على البحرية البيزنطية في العدد والعدة، فكانت القيروان رباطاً كبيراً اتخذته العرب لصدها غارات الروم، فقد قيل في تفسير كلمة قيروان إنها موضع اجتماع الجيش، وقيل محط أثقاله^(٤). ويتضح الغرض من إنشاء القيروان من حديث عقبة حينما قال له أصحابه: «نريد أن نقرّبها من البحر ليجتمع أهلها الجهاد والرباط^(٥)»، فقال: «إنى أخاف أن يطرّقها صاحب القسطنطينية، فيهلكها صاحب البحر، لكن اجعلوها بينها وبين البحر مالا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون».

ويبدو أن هذه الروابط قد حققت الغرض الذي أنشئت من أجله، وحمت ثغور إفريقية من عادية الفرنجة، ومكنت للإسلام وللحضارة الإسلامية من أن تنتشر وهي في مأمن من الغزاة، فإن زهير بن قيس البلوي^(٦) لم يشأ بعد أن حاقت بجنده الهزيمة أن ينسحب من الميدان، بل رابط ببرقة للدفاع عنها، والاستعداد لرد العدوان.

(١) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٥.

(٢) Doutte: Notes sur l'islam Maghribin " Les Marabouts " p.29.

(٣) الرحلة التيجانية ورقة ١٥.

(٤) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٧.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥.

وتوسع الأغلبة فى بناء الربط (وكانت تسمى القصور والمحارس^(١)) فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسى، وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجئون إليها، ويتعاونون فى الدفاع عن أنفسهم، ويصمدون فى وجه الغزاة^(٢). لم تستطع الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من الساحل الإفريقى، لأن المحارس والربط كانت بالمرصاد^(٣)، وكان المتطوعون الراغبون فى الجهاد يخرجون للعبادة والحرس على المسلمين^(٤) بقلوب راضية مطمئنة.

ثم انتشر الإسلام بإفريقية، وأخذت الثقافة العربية تتوغل فى بيئة المغرب، ووفد الفقهاء والرواة والمحدثون، وأخذت المدارس تشارك فى الحياة العقلية التى نشرها العرب فى البلاد، وشرع فقهاء مذهب مالك يثبتون أقدامهم فى القيروان، ويبسطون ظلهم على إفريقية، ويشيعون بين الناس تقاليدهم من الشدة فى الحق والتورع عن مصاحبة السلطان، ومحاربة أهل الأهواء والبدع، والميل إلى التقشف، والزهد فى متع الحياة الدنيا، وغدوا قلة الناس ومحط رجائهم، وأخذ القوم يروون الشئ الكثير عن ورعهم وإخلاصهم وتشبثهم بالسنة القويمة، وانتشرت رسالتهم هذه فى المغرب الأقصى وفى الأندلس على النحو الذى فصلناه فى الباب السابق.

كل هذه العوامل ساعدت على أن تخرج بالربط عن وظيفتها الأولى، وهى إيواء المدافعين عن الثغور، ورد أساطيل الغزاة المغيرين، وبدأ الناس يقصدون الربط ليس للجهاد فحسب، بل لتلقى العلم أيضاً، إذ غدت الرباطات مدارس يدرس فيها الفقه والحديث، يقصدها العلماء من كافة جهات المغرب فينهلون من مواردها ما طاب لهم أن ينهلوا. ومن العلماء الذين أوا إلى الربط وذاع صيتهم، وتحدثت عنهم كتب الطبقات أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمى^(٥) المعروف باللبدى، وأبو الحسن اللواتى^(٦)، وأبو إسحق الساحلى^(٧) وعبدالرحيم

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ب.

(٢) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ب

(٣) Pirenne : Mahomet et Chariemange, p.149.

(٤) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢١.

(٥) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢١

(٦) نفس المرجع والصفحة.

(٧) أبو العرب عميم : طبقات علماء تونس ص ١١١.

ابن عبد ربه ^(١)، وأبو عثمان الخولاني ^(٢)، وأبو محمد بن حكيم ^(٣) وسعيد بن إسحق ^(٤)، وأبو الفضل يوسف بن نصر ^(٥)، وأبو بكر محمد بن مسعود التميمي ^(٦)، وسعيد بن إسحق الفقيه ^(٧).

ولم يكتف رواد الربط بذلك، بل برعوا في التأليف، وتناقل العلماء كتبهم، فقد ألف أبو الفضل يوسف بن مسرور العابد بالمنستير كتاب فضل العلم والعلماء ^(٨)، رواه عنه أهل الأندلس، وغدا عباد الربط من الفقهاء مقصد علماء المشرق، فقد ذكر المؤرخون أن بقية بن الوليد والأزهر بن عبد الله من أهل الشام لقيا عبد المؤمن بن مستنير الجزري العابد ^(٩) ولما ذاع صيت رباط رادس كتب علماء المشرق إلى أهل إفريقية يقولون «من رباط برادس يوما واحداً حججنا عنه حجة».

وذاع صيت المالكية في هذا المضمار، وانتشر فقهاؤهم في الربط يعمرونها ويشيرون علمهم فيها، حتى قيل «إن قصور زياد المرباط بساحل إفريقية دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك» ^(١٠).

كما أشاع المالكية في إفريقية والمغرب حركة من الزهد والتقشف والورع والتقل من الدنيا، وأصبح أئمتهم مثلاً يضرب في العدل والحكمة وعفة اللسان، والتمسك بأهداف السنة، وإمامهم في هذا الميدان سحنون الفقيه المالكي المشهور، الذي قيل فيه «الفقيه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهد في الدنيا والتخشن في الملابس والمطعم، شديداً على أهل البدع» ^(١١). والواقع إن هذه الصفات لم ينفرد بها سحنون وحده، بل اتسم بها جميع فقهاء المالكية بإفريقية والمغرب، هم الذين بثوا هذا الزهد وهذا التقشف بين الناس، وكان دستورهم في

(١) الخشي : طبقات علماء إفريقية ص ١٦٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٢.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٢.

(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢.

(٧) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٤١.

(٨) ابن خير : الفهرسة ص ٣٠٢.

(٩) أبو العرب تميم : طبقات علماء تونس ص ١١١.

(١٠) الرحلة التيجانية ورقة ٢ ب.

(١١) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥١.

ذلك حديثاً يروونه عن الرسول ﷺ «سئل رسول الله ﷺ أى الناس أفضل فقال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله عز وجل، قالوا ثم من يارسول الله : قال ثم مؤمن معتزل فى الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة^(١)».

لذلك هرع أهل التقى والورع إلى المحارس والقصور والربط، فارين من الدنيا، ينقطعون للعبادة والتقشف، كان بعضهم يغشى الرباطات فى أوقات معلومة من العام كلما أحس أنه بحاجة إلى زاد من التقوى والتقرب إلى الله، يغشونها فى شهر رمضان، وفى أول رجب وشعبان^(٢)، يأوون إلى ديارهم، ولكن بعضهم كان يفر من الحياة فى المدينة إلى الأبد، ويقسم فى هذه الربط مدى الحياة^(٣)، وكثيرا ما يحدث أن يترك التاجر تجارته، أو الزارع زراعته، ثم يأوى إلى الرباط، فلا يخرج منها إلا مَحْمُولاً على الأعناق^(٤).

ومن أمثلة أولئك المرابطين المنقطعين عبدالرحيم بن عبدربه الربعى^(٥)، وأبو سعيد بن إسحق الكلى، الذى كان دائم الحسرات مغلق الباب حتى مات^(٦)، كانوا يقضون أوقاتهم فى رياضة روحية شاقة يقومون الليل، ويصومون النهار مثل أبى حفص، الذى لم يكن ينام أبداً^(٧)، ومثل أبى يوسف جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن مسلمة الصدفى، الذى كان كثير الدعاء شديد التضرع، وأبى الفضل يوسف بن نصير وبشير المنستيرى، الذى كان من رهبان الليل لا ينام منه إلا قليلا، فإذا أصبح يقول: «أصبحت ونفسى وقلبى مصران على محبتك مشتاقان إلى لقائك فعجل ياسيدى بذلك قبل أن يأتى الليل^(٨)».

كان أهل الربط يتقللون من الطعام، فلا يكاد يزيد عن الشعير والزيت، زار الفقيه ابن حارث إحدى الرباطات، فرأى المرابطين يستعملون التوابل فى طعامهم

(١) المالكى: رياض النفوس ص ٢١١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤.

(٣) عياض: ترتيب المدارك ج ٢ ص ٢٥٤.

(٤) المالكى: رياض النفوس ص ٣٣٤.

(٥) عياض: المدارك ج ٢ ص ٣٥٤.

(٦) الدباغ: المعالم ج ٣ ص ١٧٣.

(٧) عياض: المدارك ج ٣ ص ٦٥٠.

(٨) المالكى: رياض النفوس ص ٣٢٤.

فاستكثر ذلك عليهم^(١)، وعده ترقًا وإسرافًا، لذلك كان بعضهم يصومون عن الطعام أو يتقللون منه، روى أن «أبا عبدالله محمد المتعبد صام حتى نحل وغارت عيناه وعلاه شحوب^(٢)»، كانوا يتقشفون في الملبس كتقشفهم في المأكّل، لا يلبسون إلا الخشن الذي يكاد يستر العورة، وكان بعضهم يهيم على وجهه في البلاد، «أو يسبحون» على حد تعبير الرواة، يأكلون النباتات البرية إمعانًا في تعذيب النفس، وإذلالها، ومن هؤلاء أبو على شقران بن على الهمداني، الذي روى عنه أنه قال: «سح في الأرض واستعن بأكل عشبها على أداء الغرض، لاتب الدنيا، وعد الفقر غنى، والبلاء من الله نعمة، والمنع من الله عطاء، والوحدة مع الله أمنا والذل عزًا^(٣)»، كما كان أبو عبدالله محمد المتعبد «في سياحات ورياضات وعزلة وانفراد^(٤)».

ويبدو أن حركة الزهد والانقطاع للعبادة قد أشاعها المرابطون في كل ناحية، حتى أن أميرًا من بني الأغلب اسمه أبو عقّال غلبون بن الحسن انقطع إلى السواحل، وصحب عابدًا اسمه أبو هارون الأندلسي^(٥). وبلغ من شهرة الرباطات بالعبادة والأتقياء أن ظهرت أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ، تشيد بفضل رباط المنستير، فقد روى أنه قال: «بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير^(٦)»، وروى أنه قال: «من رباط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة، فقال أنس: بخ بخ يارسول الله، قال: نعم يا أنس وله في هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين^(٧)».

تناقل أهل المغرب عن هؤلاء العباد قصصًا غريبًا أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، وسموا بهم إلى مرتبة الأولياء، حتى بلغ صيتهم المغرب والمشرق، مثل

(١) عياض : المدارك جـ ٢ ص ٢٥٤.

(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٥٢.

(٣) الدباغ ك معالم الإيمان جـ ١ ص ٢١٥.

(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧.

(٥) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٢٢. ولكن يبدو أن اسمه جاء بصورة أخرى في رياض النفوس (ص ٤٢٧) -

أبو عقّال بن علون. انظر أيضا . Vonderheyden: op. cit.p.117.

(٦) أبو العرب ص ٢، ٣.

(٧) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٤ ص ٤، الرحلة التيجانية ورقة ١٤.

أبى شقران بن على الهمداني^(١)، الذى روى أن ذا النون المصرى جاءه وأقام على بابيه أربعين يوماً، وفروخ بن سعدون، وأبى السرى واصل بن عبد الله اللخمي^(٢) وغيرهم كثير، وأخذ الناس ينسبون اليهم الخوارق والمعجزات.

وقد خدمت هذه الرباطات الإسلام أجل الخدمات، وأسدت إلى السنة المحمدية أيادى ييضاء، فعصمت أهل المغرب، لم تعبت بهم يد الفتنة فى وقت انتشرت فيه المذاهب الضالة، وأخذ مروجوها ينفشون سمومهم فى البلاد، كما عمل المرباطون على نشر الإسلام، والدفاع عن حوزته، وإعلاء كلمته، وكانت الرباطات ملاجئ يعتصم بها الناس وقت الفتنة، فلولا الربط والمرباطون لقضى الخوارج والصفرية والإباضية والبرغواطيون على التقاليد السليمة والسنن القويمة، ولا سيما فى عهد الفاطميين، الذين مثلوا بفقهاء مالك شرمثل، حتى كانوا يفرون بأنفسهم وبدينهم إلى الرباطات^(٣)، يتعبدون ويصونون تراث مالك، حتى إنه ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية، وهم الذين دكوا صرح الشيعة فى إفريقية والمغرب^(٤).

أما فى المغرب الأقصى فقد انتشرت حركات المرباطة انتشاراً بعيد المدى، أوغلت فى السواحل حتى أدركت المحيط الأطلسى، وأوغلت فى قلب بلاد السوس حتى وصلت إلى أطراف الصحراء، ترفع لواء الزهد والتقشف، وتضرب للناس أروع الأمثال من التقرب إلى الله ابتغاء وجهه، وتعمل على نشر الإسلام والتمكين لبلاده فى قلوب الناس.

(١) العالم ج ١ ص ٢٢٠.

(٢) المالكي: رياض النفوس ص ٣٣٤.

(٣) الديباج: معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٥.

(٤) وقد تأثرت بلاد الأندلس ببلاد المغرب بحكم الاتصال الوثيق بينهما فانتشرت حركة الرباطات فى الأندلس كما انتشرت فى المغرب وأذكى تيارها هذا الجهاد المستمر لأعداء الدين، وهذه الحرب التى كانت مستعرة بين المسلمين والفرجة فكان المجاهدون يخفون إلى الثغور للمرباطة فيها للدفاع العدو وردة عن حياض المسلمين وكان المغاربة أنفسهم يقدون إلى الأندلس زرافات ووحدانا للمشاركة فى حركة الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام، وكما نشر المالكيون تقاليد الزهد والتقشف فى المغرب نشرها فى الأندلس وأخذت كتب الطبقات تتحدث عن فقهاء متبتلين متقشفين يلبسون الصوف ويلتزمون الرباطات فى طليطلة ورباط بطليوس ورباط الفهميين ورباط حصن ولش، كانت هذه الرباطات - شأنها شأن رباطات المغرب - عامرة بالعباد والزهاد المنقطعين إلى الله المتقشفين المباعدين بين أنفسهم وبين الحياة.

لعبت هذه الربط في تاريخ المغرب الأقصى دوراً رائعاً، حمت الإسلام من الفتنة، ووقت المسلمين وجنبتهم شر المحنة، وحالت بينهم وبين الانسياق في تيار النزعات الضالة، وأوجدت في المغرب الأقصى جيلاً من الفقهاء الزهاد العباد كانوا خير من مهد لدعوة المثلثين، ومكنوها من النجاح، والتفوا حولها يباركونها ويؤازرونها، ويحضون الناس على التمسك بأهدها.

ومن أشهر رباطات المغرب الأقصى: رباط تازة^(١)، ورباط وادي ماسة^(٢)، ورباط تيطنططر في بلاد آزمور^(٣)، ورباط سلا على البحر، ورباط بعض المنقطعين للعبادة قرب فاس^(٤)، ورباط هرغه^(٥) ببلاد السوس، ورباط أضيلا^(٦)، ورباطات أخرى في أقصى بلاد السوس^(٧)، وقد لعب رباط نفيس الذي أنشأه وجاج بن زللو اللطى^(٨) دوراً هاماً في تاريخ دولة المثلثين، ففي هذا الرباط تأدب عبدالله ابن ياسين بأدب أهل الرباط، وتلقن مبادئ الزهد والتقشف والورع والإخلاص لله والجهاد في سبيل الدين.

وانتشرت حركات المrapطة انتشاراً بعيد المدى في القرن الخامس الهجري، هذا القرن الذي بلغ فيه الصراع بين المسلمين والفرنجية أشده في البر والبحر، ففي الأندلس كانت قوات الفرنجية بعد سقوط الخلافة تجوس في ديار المسلمين وتسومهم سوء الخسف، وكانت الأساطيل الفرنجية المغيرة من موانئ جنوب أوروبا وجزر البحر الأبيض تغير على الثغور، تهب وتسلب، وتنزل بالمسلمين أفدح الأضرار. وفي الجنوب كانت ممالك السودان تواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء على الجهود التي بذلها المثلثون في نشر الإسلام في ربوع الصحراء وبلاد السودان، وكان عبدالله بن ياسين كما تقدم من ثمرات هذه الحركة المباركة.

وهنا يحق لنا أن نسأل: هل كانت حركات المrapطة وما صاحبها من النزول

(١) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(٣) التادلي : التشوف ص ١٨٥.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٥) أعز ما يطلب ص ٣.

(٦) البكري : المغرب ص ١١٢، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤١.

(٧) البكري : المغرب ص ٨٦.

(٨) التادلي : التشوف ص ٨٦.

بالحصون بقصد الدفاع عن المسلمين، ثم ماتورت إليه من الزهد والتقشف والانقطاع للعبادة، أو صيام النهار وقيام الليل، وتعذيب النفس وإذلالها بشتى أنواع الحرمان فى اللبس والمأكلى، وقتل اللذات بالتزام حياة شاقفة قاسية تحطم فى النفس الرغبة فى المتعة بأطايب الحياة، هل كانت حركة إسلامية صرفة، أعنى هل تطورت هذه الحركة فى ظل الإسلام وحده، فلم تخضع لمؤثرات مسيحية مثلاً؟، وقبل أن نجيب على هذا السؤال إجابة شافية يحسن بنا أن نعرض لأمور قد يكون التعرض لها مما ينير أمامنا السبيل للإجابة عن هذا السؤال إجابة قريبة من الصواب.

فقد كانت حركات المراقبة فى الشام والمغرب متشابهة إلى حد كبير، ففي بلاد الشام على الحدود البيزنطية الإسلامية انتشرت الثغور والربط، أوى إليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الإسلام والعزلة والتقشف، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمحارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام.

ولم يكن التشابه فى الهدف فحسب، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات، زار ابن جببر بلاد الشام، ودخل بعض هذه الرباطات ووصفها، فقال: «ومن أعظم ماشاهدناه موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء، فى أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها وهو من البلد بنصف ميل له شأن عظيم يتصل به . . وقد وهبه نور الدين ووقفه برسم الصوفية مؤبداً لهم^(١)».

أما جورج مارسيه فقد وصف قصر سوسة أو رباط سوسة، الذى ماتزال آثاره باقية حتى اليوم، فقال: «بناء مربع الشكل فى كل زاوية من زواياه برج أما الجدران فإنها تصعد سامقة إلى السماء، تنتهى بأقواس متعاقبة فى هيئة كورنيش. وهذه الأبراج مستديرة، غير أن برجاً يقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية شكله مربع ولكنه أكثر بروزاً من سواه ينتهى بمئذنة أسطوانية كبيرة . . ومن الداخل نجد صحناً تحيط به عمد تعلوها أقواس . وهو من دورين يتصل الدور الأول بالثانى بسلم، وهذا الصحن تحيط به أو تطل عليه زوايا أو غرف ينزل بها المرباطون وتنتشر هذه الزوايا فى الطابقين»^(٢).

(١) ابن جببر ص ٢٨٧، ٢٦٣ - ٢٤٣.

(٢) Marçais: Manuel d'art Musulman v. I, p. 27-47.

هذا التشابه بين وصف ابن جبير ومارسيه له دلالة ومغزاه، فهو يدل في رأينا على تشابه في التأثيرات المعمارية في بلاد الشام وبلاد المغرب، وإذا عرفنا أن التأثيرات الشامية بيزنطية، وأن إفريقية كانت تخضع للنفوذ البيزنطي أدركنا سر هذا التشابه في عمارة هذه القصور، وعلمنا أن التأثيرات البيزنطية واضحة في ربط بلاد الشام والمغرب، التي كانت في الواقع حصونا بيزنطية^(١)، أقيمت في الموانئ، وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الساحل الطويل، وكان البيزنطيون يقيمون سلسلة من الحصون الشامية على الحدود، يشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان، وهو ما يعرف بنظام الثغور . . إذن هناك تأثيرات مسيحية في عمارة الربط، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها^(٢).

ولكن إذا عرفنا أن الربط الإسلامية كانت في أول الأمر تؤدي غرضاً حربياً، حين كانت تشحن بالمقاتلة والفرسان، ليرابطوا، ويتخذوا الأهبة للدفاع عن المسلمين، ورد عادية الأسطول البيزنطي، أدركنا أن هناك تشابهاً بين الربط الإسلامية وبين الحصون البيزنطية التي أقيمت على سواحل المغرب، تشابهاً في الأغراض وفي الأهداف.

ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط إلى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف وصيام النهار وقيام الليل وتعذيب البدن وإذلال النفس، فهل تأثر المسلمون في هذه الناحية بحركات الرهبنة المسيحية؟ أفرد صاحب كتاب رياض النفوس^(٣) في نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء فصلاً خاصاً لأهل العبادة والنسك المنقطعين لعبادة الله، يعرض لحياتهم، ويصف ما يقومون به من صيام النهار وقيام الليل، حتى لقد سماهم رهبان الليل، لأنهم لم يكونوا ينامون من الليل إلا قليلاً، يسيحون في البلاد، يأكلون النباتات البرية، ويمنعون في تعذيب النفس والبدن، وهذه تقاليد قاسية ليست من الإسلام في شيء^(٤).

لأننا نذكر أن الإسلام يحارب الشهوات، ويرغب الناس في الحياة الأخرى

Ibid, p.44. (١)

Ibid, p.44. (٢)

(٣) مقدمة رياض النفوس ص ٢٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

ويحض على القناعة، ويحارب الأثرة، ولا تنكر أيضاً أن المالكية على وجه الخصوص غلوا في هذه الناحية بعض الشيء، وعرف فقهاؤهم بالترمت والبعد عن الهوى والميل إلى التقشف، فقد روى عن سحنون أنه قال: «ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولا يتكلف إلى أكثر من ذلك، وإذا احتاج إلى امرأة طلبها على قدر ذات يده في ثوبتها وقناعتها، وحتى يبقى في يده ما يستغنى به»^(١). ولكن هذه التقاليد التي وضعها سحنون وخلفاؤه لاتحضر على الإمعان في تعذيب النفس وإذلالها بالرياضة الروحية العنيفة من صيام الليل والنهار، وأكل العشب والفناء في ذات الله، بل هي مستمدة من تقاليد الإسلام ومتمشية مع تعاليمه نصاً وروحاً.

V - حياة المرابطين في رباط السنغال:

بعد أن عرضنا لحركات الرابطة في بلاد المغرب، وألمنا بتطورها، وكشفنا عن أهدافها، وبيننا الفوائد التي جنتها البلاد من هؤلاء النساك المجندين لحماية الضعيف، وإغاثة الملهوف، نستطيع على ضوء ماقررناه من حقائق أن ندرس هذه الحركة التي بثها عبدالله بن ياسين في حوض السنغال، وأن نوضح الدور الذي لعبه رباط السنغال في تاريخ المثلثين وتاريخ المغرب، ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين حين بنى رباط السنغال، كان يحتذى مثل المغرب وإفريقية في طريقة بناء الرباط وفي نمط الحياة فيه، فقد كانت ربط المغرب حصوناً تشبه إلى حد كبير القلاع التي انتشرت في أوروبا في العصور الوسطى^(٢)، كان كل حصن يدافع عن نفسه، وكانت الحصون تتعاون في الدفاع عن المجتمع وحمايته من الغزاة، وكانت الربط الإسلامية تتخذ الأبهة لكل طارئ فإذا دقت طبول الخطر^(٣)، ولاحت طلائع العدو المغير، أوى المرابطون إلى رابطتهم يعتصمون من العدو، ويغلقون في وجهه الأبواب، ويدفعونه حتى يرتد على أعقابهم وتحمل به الهزيمة.

فلا بد أن يكون عبدالله قد جعل هذا الرباط حصناً يدفع عن المرابطين خطر أعدائهم، ويتيح لهم لوئاً من الحماية يفيثون إلى ظلها، وينصرفون إلى نسكهم وتقشفهم.

(١) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط (G. Marcais).

(٣) المصدر السابق.

كان المرابطون فى حصون المغرب يحيون فى داخل الرباط حياة جماعية تعاونية، يتعاون النساك تعاونًا وثيقًا فى الاضطلاع بأعباء الحياة، كان للرباطات مزارع^(١) تمدّها بحاجتها من الطعام، وكان المرابطون يفلحون أرضهم بأنفسهم، ويتعاونون فى إعداد حاجتهم من الطعام^(٢)، وكانوا فى بعض الأحيان يعتصمون بالجبال، يعيشون من نبات الأرض، ويقتاتون من صيد البر والبحر، أو على حدّ تعبير البكرى «يتخلون عن الدنيا ويسكنون مع الوحوش»^(٣). ولم تكن حياة المرابطين فى السنغال تختلف عن هذه الحياة فى كثير أو قليل، فقد كانوا يعتمدون على ماتوافر بجزييرتهم من صيد البر والبحر، ولعلهم كانوا يزرعون شأنهم شأن مرابطين المغرب^(٤).

ومهما يكن من شيء، فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة، وكان مجتمّعهم فاضلاً حقاً، فهذه نفوس مخلصة لا تبتغى غير الدار الآخرة، متعاونة فى سبيل الله، ترضى من الطعام بأقله، وترتدى من الثياب أخشنها، أكلوا على أنفسهم ألا يغادروا الرباط، وأن يقضوا العمر فيه متعبدين متسكين^(٥).

وكانت هذه الرابطة بمثابة شعلة تسرب نورها فى ظلمة الصحراء، وتسامع المثلثون المنتشرة قبائلهم من جبال درن فى الشمال حتى منحنى النيجر فى الجنوب بخبر فقيه الرباط، وتقشفه، وزهده وإخلاصه، وجهاده، وبخبر رفاقه المخلصين الذين تجردوا من الدنيا وعرضها، تاركين الحياة والمال فى سبيل الفوز برضاء الله، فبدأت العصبة الصغيرة يطرد نموها^(٦).

ولم يعتمد عبدالله بن ياسين فى جذب أنظار المريدين إلى مجرد تسامعهم بأخباره، بل بعث إلى ديار القبائل البعوث، تحدث الناس بخبره^(٧)، وتقصى عليهم ما يلقونه فى رباطه، يحضون القوم على الطاعة، ويرغبونهم فى الدخول فيما

(١) عياض: ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٢٥٦.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٦٢.

(٣) البكرى: المغرب ص ١٤.

(٤) ابن جبير ص ٢٨٤.

(٥) ابن أبى روع: روض القرطاس ص ٧٨.

(٦) المرجع السابق ص ٧٩.

(٧) روض القرطاس ص ٧٩.

دخلوا فيه، فتوافد عليه الناس، حتى بلغت عدة المرابطين بحوض السنغال ألفاً^(١)، فلما كثر أنصاره على هذا النحو، بدأ رباط السنغال يدخل في طور جديد من أطوار نموه، فقد أحس عبدالله بن ياسين أن هذه العصابة المرابطة قد تكون عنصراً فعالاً في تنفيذ سياسته، وتحقيق أهدافه، لو حسن إعدادهم، وتهيئتهم لذلك الهدف العظيم، الذي كان يسعى إلى تحقيقه، وهو توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه، فما هي الوسائل التي اصطنعها عبدالله بن ياسين لإعداد هذه العصابة لحياة من الجهاد والكفاح، وكيف استطاع أن يؤلف بين قلوبهم، وأن يفرض عليهم منهجاً خاصاً، استطاع عن طريقه أن يردهم من بدو غلاظ جفاة إلى عصابة مؤمنة متحمسة متحفزة للجهاد؟؟.

ولم يكن عبدالله بن ياسين في الواقع مجرد فقيه يفتى بين الناس فيفسر القرآن ويروى الحديث، بل كان رجلاً نافذ البصيرة بعيد النظر ذكياً خبيراً بالمجتمع الذي يعيش فيه، له قدرة خارقة على التأثير في نفوس مريديه، جعلتهم يؤمنون به إيماناً لا حد له، فأصبحوا في يده آلات طيعة يسخرها في تحقيق الغاية التي رسمها لنفسه، وفي سبيل هذه الغاية اصطنع لنفسه منهجاً في الإصلاح لم أجد له مثيلاً في أخبار فقهاء المالكية الذين امتلأت بسيرهم كتب الطبقات.

فقد روى المؤرخون أنه كان يتردد طويلاً قبل أن يضم المريد إلى زمرته، فإذا وافق على إدخاله في رباطه ألزمه أن يطهر روحه من الدنس والرجس، وأن يسلم إسلاماً جديداً، وأن يحاسب على ما اقترفت يده من إثم في حياته السابقة على دخوله الرباط^(٢)، فيطلب إليه أن يتوب عن ذنوبه، ثم يقول «أذنبت ذنوباً كثيرة في شبابك فيجب أن تقام عليك حدودها»^(٣)، ثم تقام عليه الحدود التي شرعها الإسلام، فيضرب حد الزنا أعنى يضرب مائة سوط، ثم يضرب ثمانين سوطاً حد المفترى، ثم يضرب حد الشارب، ثم تضاعف العقوبة بالتدرج^(٤)، فإذا تقبل ذلك راضياً، فقد ظهرت نفسه من الرجس، وكفر عن آثامه، وقبل في زمرة المرابطين،

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) البكري: المغرب ص ١٧٠.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

وأصبح قادراً على تحمل أعباء الدعوة ومشاقها، وإذا تذر وتبرم اعتبرت نفسه غير مطهرة، واعتبر غير أهل للانضمام إلى زمرة المرابطين.

ويحق لنا أن نسأل لم عمد عبدالله بن ياسين إلى ذلك، وخرج عن رسالته كفقيه، واصطنع لنفسه منهجاً لم يعرف له مثيل في سير الفقهاء؟ يخيل إلينا أن سياسة هذه رد فعل لما أصابه في المرحلة الأولى من دعوته، فقد سالم واعتمد على النصيحة والموعظة الحسنة، فلما أخفقت هذه السياسة السلمية اضطر أن يمتحن الذين يرغبون في الانضمام إليه، حتى لا يقبل منهم إلا من يثبت إيمانه وشدة رغبته في التكفير عن ماضيه، وفي الانصراف إلى حياة الزهد والجهاد، وأن يدقق في اختيار أتباعه، وأن يعذب أبدانهم حتى تمتحن نفوسهم، ويتبين صدق إخلاصهم، لأن الحياة في المجتمع الجديد كانت شاقة تفرض عليهم أن يتحدوا تحت لوائه، وإلا أخفقت خطته، ولم يؤد رباطه الغرض الذي أنشئ من أجله، كان ينتقى من المثلثين أظهرهم نفساً، وأوفرهم قوة، وأقدرهم على تحمل مشاق الجهاد، وكان المريدون يتحملون ما يلقونه من أذى في صمت وصبر، ويعتقدون أن سوط عبدالله هو سبيلهم إلى الخلاص من آثام الحياة، وكانوا يؤمنون به إيماناً لا حد له، سموا به إلى مرتبة الأولياء، ونسبوا إليه الكرامات ونسجوا حوله الأساطير.

وإذا اجتاز المرابطون هذه المرحلة الأولى بنجاح، تولى عبدالله تشقيفهم وتعليمهم، فكان يقرئ القرآن، ويفسره، ويروى الحديث، ويفسره، ويعلمهم أحكام الدين ^(١) حتى إذا تم له ذلك خوفهم من النار، وشوقهم إلى الجنة، وكشف لهم عن مفاصل الحياة التي يحيونها، وطلب إليهم أن يأمرؤا بالمعروف وأن ينهؤا عن المنكر، وأن يتهيئوا لحياة من الجهاد والكفاح ^(٢) في سبيل إعلاء كلمة الحق، ورد عصبة المثلثين إلى حظيرة الطاعة، وتطهير المجتمع من أدران الفساد.

وفي أثناء ذلك لم يكن يتهاون أبداً في حد من حدود الإسلام، أو يترك للمريد فرصة للهو أو عبث، فإنه يحملهم على الجادة حملاً، فمن تخلف عن صلاة الجماعة ضرب عشرين سوطاً، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط، «يأخذون الناس بصلاة الظهر أربعاً قبل صلاة الظهر في الجماعة، وكذلك في سائر

(١) البكري: المغرب ص ١٦٥، ابن أبي رزق روض القرطاس ص ٧٩.

(٢) ابن أبي رزق روض القرطاس ص ٧٩.

الصلوات فيقولون إنك لا بد قد فرطت في سالف عمرك فاقض ذلك ^(١) بل من رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب ^(٢).

ولم يكن عبدالله في الواقع يؤمن بحرية الاختيار، أعنى أن يترك للفرد حرية الاختيار بين الشر والخير، بل كان يرد أتباعه عن طريق الشر بالقوة، وكان يلزمهم حدود الله إلزاماً، ويفرض عليهم أحكام الدين فرضاً، حتى إذا استقامت قناتهم، ورضخوا لحكم الدين أصبحوا أعضاء صالحين في مجتمعه الجديد، ولم يكن الناس يجدون ذلك شذوذاً ولا غرابة، بل كانوا يقبلون عليه، وتزداد جموعهم يوماً بعد يوم، يرضون بأحكامه عن طيب خاطر، يطيعونه طاعة عمياء، ويؤمنون به إيماناً لا حد له، لافرق في ذلك بين كبير أو صغير.

وقد قنع عبدالله بن ياسين في هذا المجتمع بدور الإمام الذي يعلم، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقود الناس إلى الطريق السوي، أما دور الأمير أو دور الحاكم الذي ينفذ أوامر الإمام، فقد تركه ليحيى بن إبراهيم زعيم ^(٣) جدالة، فلما توفي اختار يحيى بن عمر اللمتوني لقيادة المرابطين، وتدريبهم على القتال وإعدادهم لمعركة الجهاد.

٨- خروج المرابطين من رباط السنغال:

ثم أمر عبدالله المرابطين بالجهاد، وهذا تطور طبيعي لهذه الدعوة التي بثها وهذه الرسالة التي اضطلع بها، فقد أُنذر وحذر، وأرسل الدعاة إلى القبائل، يحضون على الطاعة ويحذرون الناس، ويخوفونهم من النار، ويرغبونهم في الجنة، فلما يئس من هدايتهم قال لمعشر المرابطين: «قد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ^(٤)»، ثم قال لهم: «اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حاجته، فإن تابوا وأنبأوا ورجعوا إلى الحق وأطاعوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم ^(٥)».

(١) البكري : المغرب ١٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ابن أبي ذرع : روض القرطاس ٧٩.

(٤) ابن أبي ذرع : روض القرطاس ص ٧٩.

(٥) المصدر السابق ونفس الصفحة.

والواقع أن الجهاد والرباط متلازمان، فقد كانت الثغور الإسلامية في المغرب والأندلس حافلة بالمرابطين والمجاهدين^(١)، واشترك مرابطو إفريقية في فتح صقلية^(٢)، وكان محمد بن سحنون يأخذ رمحه ودرقته وسيفه وترسه وسهامه، ويخرج لقتال الروم، والدفاع عن عورات المسلمين^(٣)، كما خرج الفقيه سعد بن أحمد في أربعة آلاف من المرابطين للجهاد، ومداغة الروم عن ثغور إفريقية^(٤).

لكن المرابطين في حوض السنغال لم يحملوا السيف لجهاد الروم، بل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الفساد في مجتمع المثلثين، وغدوا رهن إشارة هذا الفقيه الورع، الذي كان قلبه يضطرم بالتحمس للإسلام، وهذا القائد للمتونى الذي وهب نفسه للجهاد في سبيل الدعوة الجديدة، ألم يقولوا لعبد الله «أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»^(٥).

ولكن عبدالله لم يأذن للجماعة الجديدة بأن تخرج من الرباط مجاهدة قبل أن يتم تنظيمها على النحو الذى يكفل لها الظفر والنجاح، لأن الحمية والحماس لا تجدان نفعاً إذا لم تقترنا بالتنظيم الدقيق، والإعداد الطويل، ليس من شك في أن عصبية المرابطين قد أخذ عددها يزيد بمضى الوقت، حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل^(٦). ولكن عبدالله أثر الأيسار إلى القتال إلا بعد أن ينظم المجتمع الجديد على أسس سليمة، كان يعرف أن المجتمع الجديد في حاجة إلى المال للإنفاق على الجند، وابتياح السلاح، فكان يجمع الزكاة والعشور^(٧)، ويشتري السلاح، ويدرب المقاتلة على الحرب^(٨)، وكان عليه أيضاً لكى يتم له تنظيم الجيش أن يختار له قائداً بعد أن توفى يحيى بن إبراهيم الجدالى.

وقد واجه أزمة كادت تعصف بوحدة المرابطين، وتفرق شملهم، فقد كان

(١) السيوطي: بغية الوعاة ص ٤٠٥.

(٢) مؤنس: مقدمة رياض النفوس ص ٢٦م.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان ج ٢ ص ١٥٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج ٣ ص ٣٦١.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩.

(٧) روض القرطاس ص ٨٠، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٨) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٨٠.

الجداليون من أنصار عبدالله يرون أنهم أحق بالإمارة ، لأنهم آووه ونصروه وبثوا الدعوة، واحتضنوها، حتى شبت عن الطوق، واشتد ساعدها^(١)، ولكن عبدالله لم يشأ أن ينساق وراء نزعات قبلية ضارة، إنما أراد أن يختار أصلح القوم وأظهرهم نفساً، وأحسنهم أخلاقاً، وأصدقهم إيماناً بالدعوة، وأقدرهم على الاضطلاع بعبء القتال، ولكن جدالة شقت عصا الطاعة، وأرادت أن تفرض على المجتمع أميراً جدالياً خلفاً ليحيى بن إبراهيم^(٢)، ولكن عبدالله لم يهن ولم يضعف، إنما جمع مجلساً من وجوه القوم، وحكم على المحرض على الفتنة بالموت جزاء خيائته^(٣)، فاستطاع بسياسة الحزم والقوة هذه أن يقضى على الفتنة فى مهدها، وأن يرد الوحدة إلى المجتمع الجديد.

وكان عبدالله حين نقل القيادة من جدالة إلى لمتونة^(٤) صائب الرأى بعيد النظر، إذ كان يعلم أنه لن يستطيع أن ينفذ بجموعه صوب الشمال، أو أن يتم الوحدة المنشودة، إلا إذا ظفر بتأييد لمتونة، وهذه القبيلة القوية الغنية التى كانت تتحكم فى طرق التجارة الساحلية، وتحتل فى مجتمع المثلثين مكانة مرموقة، فقد ظلت الزعامة فى أمرائها مايقرب من قرنين، هذا إلى ماكان يتمتع به يحيى بن عمر من صفات حازت رضا المرابطين، وظفرت بإعجابهم. «كان من أهل الدين المتين والفضل والورع والزهد فى الدنيا والصلاح لأمر الجهاد»^(٥) لذلك جمع عبدالله مجلساً من أصحابه^(٦)، وأخذ البيعة ليحيى بن عمر^(٧)، فأصبح أميراً على المرابطين، واستطاع عبدالله بن ياسين بعد نظره أن يحقق السياسة التى رسمها لنفسه، استعان بجدالة وبزعيمها يحيى بن إبراهيم فى بث الدعوة، وإقامة المجتمع الجديد، ثم رأى أن يستعين بلمتونة فى تزعم حركة الجهاد، حركة المقاومة، حركة توحيد قبائل المثلثين تحت لوائه.

كان الأمير الجديد يؤمن برسالة عبدالله بن ياسين إيماناً لا يرقى إليه الشك، ويحرص على تحقيق أهدافه حرصه على الحياة، يطيعه طاعة عمياء ويأتمر

(١) التويرى: نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٥.

(٢) البكرى: المغرب ص ١٦٧، التويرى جـ ٢٢ ص ١٧٥.

(٣) التويرى جـ ٢٢ ص ١٧٥.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٩.

(٥) ابن أبى ذرع: الروض ٨٠.

(٦) روض القرطاس ص ٨٠، ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٨، التويرى ج ٢٣ ص ١٧٤.

(٧) جامع تواريف فاس ص ٢٩، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

بأمره، وينفذ إرادته دون تردد، وكان عبدالله بن ياسين لاتأخذه فى الحق لومة لائم، لايتردد فى أن يقتصر من المخالف ولو كان أميراً، لم يتردد فى أن يضرب هذا الأمير عشرين سوطاً، لأنه اشترك فى القتال، على حين كان يجب عليه أن يقف عن كذب، يحرض الناس، ويرسم لهم الخطة الكفيلة بتحقيق النصر^(١).

استطاع عبدالله بن ياسين إذن أن يتم تنظيم المجتمع الجديد. أعد الجيش للجهاد، زوده بالمال والسلاح، واختار له أميراً يأمر بأمره، وينفذ إرادته دون تردد، وقنع هو بالإشراف البعيد، ونأى بنفسه عن الإمارة، وكان يقول: «إنا أنا معلم لكم دينكم»^(٢).

وبعد أن تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تنظيم مجتمعه، والتأليف بين قلوب المخلصين من رجاله، الذين بايعوه على الموت والاستشهاد فى سبيل الدعوة أمرهم بالخروج للجهاد.

ولكن المؤرخين يختلفون فى تحديد الوجهة التى اتجهتها جموع المرابطين بعد خروجهم من رباط السنغال، قال بعضهم إنهم اتجهوا صوب الشمال نحو مضارب قبيلة جدالة^(٣)، لإدخالها فى الدعوة الجديدة بالقوة، إذا لم تنجح للسلم، ولأن مضاربها قريبة من مجرى نهر السنغال، ولكن كيف يستطيع عبدالله أن يخاطر بالاتجاه صوب الشمال والعدو من خلفه يهدده تهديداً خطيراً، كيف يتجه إلى جدالة وهذه مملكة غانة لاتزال قوية تسيطر على مدينة أودغشت^(٤)، وتتحكم فى أهم الطرق التجارية التى تحتاز الصحراء؟؟ ليس من المعقول أن يتجه عبدالله بن ياسين صوب الشمال ويترك دولة غانة من خلفه تهدد ظهره، وتقضى على الجهود التى بذلها.

يخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين لم يتجه صوب ديار جدالة أول الأمر، إنما سار إلى الشرق نحو منحنى النيجر، صوب مدينة أودغشت لاستردادها من الدولة التى كانت قد اغتصبتها من المثلثين بعد سقوط التحالف الصنهاجى الثانى^(٥)،

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠.

(٢) الحلال الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢٠.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩، النويرى ج ٢ ص ١٧٤، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨.

(٤) البكرى : المغرب ص ١٦٨.

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠، جامع تواريخ فاس ص ٢٩، البكرى ص ١٦٨.

وليحمل أهل غانة على اعتناق الإسلام، فيحقق غرضين: فيستولى على هذه المدينة الهامة، ويثأر لما حاق بالملثمين من هزيمة، ويجاهد في سبيل نشر الإسلام.

ويبدو أن المعركة التي خاضها عبدالله بن ياسين وعصبته من المرابطين كانت حامية الوطيس، استبسل فيها المرابطون استبسالاً عظيماً، لأنهم كانوا يقدرّون النتائج الخطيرة المترتبة على النصر والهزيمة، فلو حاقت بهم الهزيمة لما تلت الدولة الجديدة في المهّد، ولانتصرت دولة غانة، فابتلعت مجتمع الملثمين، أما إذا تم لهم النصر ثبتت أقدامهم وارتفع شأنهم في مجتمع الملثمين، وقد استشهد يحيى بن عمر في هذه المعركة الفاصلة ^(١)، وانتصر المرابطون ^(٢)، واستولوا على مدينة أودغشت وأوغلوا في توسعهم صوب الجنوب، بدليل أن المؤرخين يذكرون أن رئيس التكرور قد حالف المرابطين، وخاض غمار الحرب إلى جوارهم ^(٣)، وإذا علمنا أن شعب التكرور يضرب إلى الجنوب من ملك غانة، أدركنا أنه لا يبعد أن يكون المرابطون قد أوغلوا في ديار غانة حتى أشرفوا على ديار التكرور.

وقد حققت هذه الحملة آمال عبدالله بن ياسين، فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين في مدافعة ملك غانة، وحمل أهلها على الإسلام بالقوة، كما عرفت قبائل الملثمين الأخرى أن جميع المرابطين الذين دحروا مملكة غانة لن يلبثوا أن ينقضوا عليهم بعد حين، وقد ذاعت شهرة المرابطين في أرجاء الصحراء، وتجاوزت أصدائها جبال درن إلى الشمال، لأن المرابطين عملوا بعد احتلال أودغشت على التمكين للإسلام الصحيح من نفوس الناس، ومقاومة الفساد بحد السيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقويم المعوج من سلوك الناس.

ومن أسف أن المراجع لم تتحدث عن هذه الأعمال الجليلة بالتفصيل، إنما أشارت إليها في غموض وإبهام، لا ينير السبيل أمام الباحث، وليس ببعيد أن تكون وفود أخرى من الملثمين هرعت إلى الجنوب لتنضم إلى جموع المرابطين المظفرة،

(١) جامع توارينغ فاس ص ٢٩.

(٢) ذكر المؤرخون أن وفاته كانت سنة ٤٤٧ هـ وهذا التاريخ مقبول إلى حد ما. ولم نستطع أن نحققه تحقيقاً سليماً لقلة المراجع المادية التي يعتمد عليها في التحقيق عادة مثل السكة والنقوش والآثار. وقد خلفه أخوه أبو بكر بن عمر. وقد ذكر المؤرخون أن ذلك قد تم عام ٤٤٨ هـ إنما يخيل إلينا أنه ببيع قبل ذلك بقليل ساعة وفاة أخيه يحيى أثناء المعركة المحتدمة لأنه لا يعقل أن يترك الجند بغير قائد يدير دفة المعركة ويشرف عليها.

(٣) البكري: المغرب ص ١٦٧.

وتشارك فيما يضطلعون به من شرف الجهاد، فتضاعف عدد المرابطين، واشتد أزر أبي بكر بن عمر وعبدالله بن ياسين، وتدفقت إلى بيت المال الأموال من الأعشار والصدقات والزكاة، وأصبح المرابطون في مقدورهم أن يتبعوا هذا النجاح بنجاح آخر، وأن يواصلوا الحملة إذ كانوا لا يزالون في بداية المعركة. (١).

وقد اتجهت جموع المرابطين بعد هذا إلى ديار جدالة، لأن عبدالله بن ياسين أراد أن يؤدب هذه القبيلة على نقضها العهد والميثاق، وتنكرها للدعوة إثر وفاة يحيى بن إبراهيم، وكان لابد له كي يواصل تقدمه صوب الشمال أن يمر بمضاربها ويتجنب الصحراء، التي تقترب من ساحل المحيط فتفصل بينها وبين لمتونة. وقد اتخذ الجداليون الأهبة للقاء المرابطين، وحشدوا - كما ذكر البكري - (٢) ما يقرب من ثلاثين ألف مقاتل، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن جدالة اعتزمت المقاومة والوقوف في وجه الدعوة الجديدة مهما كلفها الأمر، وخاضت جيوش المرابطين المعركة مستميتة في الدفاع، لأنهم كانوا يعلمون أن من يقتل سيكتسب أجر الشهادة في سبيل الله، ولأن عبدالله راح يذكر في نفوسهم الحمية والحماس، ويلهب عواطفهم، ويؤجج صدورهم بالحقد على أعداء الدين (٣). وقد نجحت جدالة في الإحداق بجيش المرابطين أول الأمر، ولكنهم حطموا حلقات الحصار، وانقضوا على أعدائهم يتكلمون بهم شر منكل، وهزم الجداليون شر هزيمة (٤)، وأذعنوا للدعوة الجديدة، ودخلت هذه القبيلة طائعة أو مكرهة في زمرة المرابطين المجاهدين، وقد ضاعف هذا النصر أعداد المرابطين، وشد من أزرهم، فأمن الناس بأن جندهم محفوف بالنصر أينما سار.

كان من الطبيعي جدا أن يواصل عبدالله بن ياسين سيره صوب الشمال، مخترقا الطريق الذي يحف بساحل المحيط الأطلسي، بعد أن أخضع جدالة، وليس بمعقول أن يكون قد انحرف إلى الشرق لإخضاع قبيلة مسوفة، التي تضرب في المنطقة الصحراوية الممتدة من سجلماسة في الشمال إلى أودغشت في الجنوب، لأن مغامرة كهذه تكلف كثيراً من الجهد والمشقة، في الوقت الذي

(١) النويري: نهاية الأرب ج٢ ص ١٧٤.

(٢) البكري: المغرب ص ١٦٧.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) ابن أبي رزع: روض القرطاس ٧٩، ابن الأثير ج٩ ص ٢٥٩، النويري ٢٢ ص ١٧٤.

تستطيع فيه لمتونة أن تهدده تهديداً خطيراً. لذلك يخيل إلينا - وهذا ما أجمعت عليه المراجع^(١) - أنه اتجه إلى لمتونة مباشرة، وانقضت جموع المرابطين على مضارب هذه القبيلة توغل فيها وتنال منها، ولكن يبدو أن لمتونة لم تقاوم الدعوة الجديدة مقاومة جدية، كما فعلت جدالة من قبل، إنما دخلت في طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جهداً أو نصبا، وهكذا استطاع عبدالله بن ياسين أن يضع لبنات ثلاثا في صرح دعوة المرابطين: أخضع غانة، وقهر جدالة، واستمال لمتونة^(٢).

عمل المرابطون بعد ذلك على إخضاع جميع قبائل الملثمين، فأخضعوا مسوفة^(٣)، ولطة، وجزولة^(٤). وهكذا تم لعبد الله أن يحقق الهدف الذي كان يسعى إليه، وهو إقامة حلف جديد من قبائل الملثمين، يقوم على أساس جديد. كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة، من دفع خطر مشترك، أو للاحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية، أما حلف اليوم فقد أقيم على أسس تختلف عن هذه تماما، أقيم على أساس روحى صرف، من إحياء الدين، ونشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وبسط لواء العدل، ورفع راية الإسلام. فليس بعجيب أن تصبح هذه الجموع الغفيرة من المقاتلة التى انضوت تحت لواء عبدالله بن ياسين قوة ذات شأن عظيم، لا فى تاريخ الصحراء فحسب، بل فى تاريخ المغرب كله.

أما الأمل الذى كان يدور بخلد يحيى بن إبراهيم الجدالى، والذى من أجله رحل إلى المشرق وطلب العلم، فقد تحقق بصورة لم يكن يتوقعها أحد من زعماء صنهاجة السابقين فقد استطاع هذا الفقيه المتواضع أن يصنع المعجزة، استطاع بقلبه وعقله أن يجعل من هذه القبائل البدوية جنداً من جنود الإسلام المخلصين، الذين لا يترددون فى بذل نفوسهم فى سبيل حماية هذا الدين، والدفاع عنه. نعم، استطاع هذا الفقيه الذى خرج من ديار لمتونة منذ وقت غير بعيد خائفاً يترقب أن يوحد القبائل، وأن يقر السكينة والطمأنينة فى ربوع الصحراء، وأن يهزم ملك غانة، ويرده خاسراً إلى الجنوب، وأن ينشر لواء الإسلام الصحيح على المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحى النيجر فى الجنوب، فانتشر

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٠، الحلل المشية ص ١١.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٠، ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠.

(٤) البكرى: المغرب ص ١٦٦.

العدل، وعلت كلمة الحق، وأصبحت شرعة الأسماك وأكل القوى الضعيف لا محل لها في هذا المجتمع الجديد.

ثم ما لبثت الأيام أن كشفت عن تطور جديد في وجهة حركة المرابطين، أو في أهداف قبائل الملمثمين، فبعد أن كانت هذه القبائل تنتهج سياسة صحراوية محلية، تتجه صوب الجنوب للدفاع ممالك السودان، والحيلولة بينها وبين الاستيلاء على مسالك التجارة المارة بين بلاد المغرب والسودان، أصبحت تتجه وجهة أخرى، وجهة مغربية إسلامية، بل وجهة عالمية، بدأت تتطلع إلى ما وراء جبال درن، إلى المغرب، ثم إلى الأندلس، وبدأ أهل المغرب أنفسهم يتطلعون إلى هذه القوة الجديدة، التي بدأت تطرق أبواب المغرب، ذلك أن أخبار عبدالله بن ياسين وأبي بكر بن عمر وصحبهما من المرابطين كانت تصل إليهم، يتناقلها الرواة، وينقلها التجار الساعون بين الشمال والجنوب، نعم كانوا يتناقلون أخبار تقاه وورعه وتقشفه وزهده، وأخبار حكومته التي أقامها على أسس مستمدة من تعاليم الإسلام، من المساواة بين الناس، وبسط لواء العدل، ومحاربة البدع، والقضاء على المفساد، وتأليف القلوب على الخير، وعدم الإثقال على الناس فيما يفرض الشرع من أعباء مالية، وأصبح أهل المغرب وسكان الواحات الواقعة جنوب جبال درن، يودون لو يخف المرابطون إلى إنقاذهم مما يرزحون تحته من ظلم المغراويين وعسفهم.

ولم يجد فقهاء سجلماسة وصلحاؤها بداً من أن يكتبوا للمرابطين^(١)، يرغبونهم في الوصول إلى بلادهم لتطهيرها من المنكرات، والقضاء على الأمراء الزناتيين، فجمع عبدالله شيوخ قومه وشاورهم في الأمر^(٢)، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لأهل سجلماسة، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزملك فسر بنا على بركة الله^(٣)»، فخرجت جموع المرابطين زاحفة صوب سجلماسة^(٤)، ونازلت أميرها المغراوي، وهزموه هزيمة منكرة، وفتحت المدينة، ودخلت في طاعة المرابطين.

(١) ابن خلدون ج٦ ص ١٩٠.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥.

هكذا قدر للمرابطين أن يتجهوا وجهة جديدة صوب المغرب، وأن يلتحموا بزنانة لأول مرة، وأن يعجموا عودها، وأن يتزلوا بها هزيمة ساحقة ستكون ذات أثر بعيد في تاريخ المغرب والأندلس.

٩. سياسة عبد الله بن ياسين في تحقيق أهدافه:

وهنا يحق لنا أن نسأل، كيف استطاع عبد الله بن ياسين أن يصيب هذا النجاح، وأن يحقق هذه النتائج البعيدة الأثر في تاريخ المغرب؟ ماهى السياسة التى سنهنا لنفسه، فحققت ما يصبو إليه، وماهى الآثار التى تركتها هذه السياسة فى تاريخ المغرب عامة، وتاريخ المثلثين خاصة؟. كان عبد الله بن ياسين يعتقد أن قبائل المثلثين خرجت على تعاليم الكتاب والسنة، مادامت قد حللت ما حرم الله، وكانت سادرة فى هذه الحياة الحافلة بالمآثم والذائل، مادامت لم تأخذ من الإسلام إلا اسمه، وظلت على تقاليدها القديمة لا تريد أن تتحول عنها، كان لزاماً على هذه القبائل إذا أرادت أن تدخل فى زمرة المرابطين فتتصوى تحت لوائهم، وتدخل فى دعوتهم أن تتطهر من مآثمها، وأن تسلم إسلاماً جديداً^(١)، فكأنما ولدت من جديد، وجبت ما بينها وبين ماضيها، وكان على هذه القبائل أن تباع الإمام عبد الله على الكتاب والسنة^(٢)، والسير وفق تعاليمهما، والعمل على إحياء تراث الإسلام، ونشر تعاليمه. وكان على كل فرد يريد أن يدخل فى زمرة المرابطين أن يخضع لهذه الالتزامات القاسية التى فرضها عبد الله بن ياسين على أفراد مجتمعه فى رباط السنغال: وهى أن يكفر المريد عن خطايا السابقة، ويحاسب عليها حساباً عسيراً، فيضرب بالسياط حد السارق والزانى وشارب الخمر^(٣)، حتى يستهل صفحة جديدة فى حياته، أما من سالم وأسلم، وتطهر راضياً طائعاً، فإن له ما للمرابطون، وعليه ما عليهم^(٤). أما من أبى واستكبر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون فى عنقه. كان عبد الله بن ياسين يجمع المعاندين، أو المشركين الخارجين على دعوته، ثم يحكم السيف فى رقابهم ويذبحهم عن آخرهم^(٥).

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٨١.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥.

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨، روض القرطاس ص ٧٩، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٥.

كان المرابطون فى الواقع يجتازون حربا لاهوادة فيها ولا رحمة، فإما نصر وحياة كريمة، وإما موت واستشهاد فى سبيل الدعوة، وماداموا قد بدءوا بالمسألة ووعظوا وأنذروا وحذروا فليس عليهم لوم إذا لجثوا إلى السيف فى نشر آرائهم ورفع لواء دعوتهم.

ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين كان مضطراً إلى اتخاذ مثل هذه الوسائل، وأنه لم يعمد إليها حبا فى إراقة الدماء، إنما كان ذلك لتحقيق أهداف سامية عقد النية على تحقيقها بالسلم أو بالحرب، ومادام قد اختار الحرب، فلم يسعه إلا أن يحكم السيف فى رقاب المعاندين.

ويبدو أن سياسة عبدالله هذه لم ترق فى نظر معلمه فقيه السوس، إذ روى المؤرخون ^(١) أنه أخذ عليه إفراطه فى إراقة الدماء، وعمله على فرض الإسلام بالسيف، ويبدو أن وجاج بن زللو اللمطى لم يفهم رسالة تلميذه عبدالله حق الفهم. إذ يخيل إلينا أنه كان يريد ألا يجاوز عبدالله دور الفقيه المعلم، الذى يفسر ويروى ويعظ، ويؤدى رسالته السلمية فى صمت وفى غير ما جلبة، ولكنه لم يتصور أن يصبح هذا الفقيه المتواضع معلما صاحب دعوة ورأى ومذهب فى الحياة، ويعمد بعد أن خابت سياسة المسألة إلى السيف، ويخوض ميدان الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ورفع راية المثلثمين، وإتمام وحدتهم، ولم ينكر على عبدالله اتخاذه هذه السياسة؟ ألم يكن عبدالله صنهاجيا جزوليا يسعى لخير قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويود أن يرتفع بهذه القبائل إلى مثل ما ارتفعت إليه قبائل البربر، فتوجه سير الحوادث فى المغرب الأقصى؟

كان عبدالله بن ياسين يعتقد أنه حين لجأ إلى القوة لم يأتى ولم يخطئ، بل كان يرضى ضمير الفقيه المخلص المتحمس، فقد كتب إلى أستاذه يقول «أما إنكارك على ما فعلت، وندامتك على إرسالى فإنك أرسلتنى إلى أمة كانت جاهلية يخرج أحدهم ابنه أو بنته لرعى السوام فيرعيان فى المرعى . . . وليس دأبهم إلا إغارات بعضهم على بعض، وقتل بعضهم البعض، لادية عندهم من الدماء ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقى بينهم فى الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦ .

لهم والمحدود فيهم فمنهم من قبل واليته ومن تولى أرديته، ومانتجاورت حكم الله ولا تعديته»^(١).

ولم يكن عبدالله يحكم السيف وحده في رقاب الناس، بل كان يلجأ إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد، وترغيبهم في الدعوة الجديدة، حتى يؤمنوا برسالتها إيماناً صادقا، كان يسقط المغارم والمكوس^(٢)، ويلغى الضرائب الجائرة، التي كان الحكام والولاة يلجئون إليها لامتصاص دماء الناس وإذلالهم، لم يفرض إلا ما أوجبه الكتاب والسنة، فرض الزكاة، وأخذ الأعشار، وألزم الأغنياء بدفع صدقات للفقراء^(٣)، وقسم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئاً للمرابطين^(٤)، وأقام بيت مال للمسلمين، ينظم دخلهم ومنصرفهم^(٥)، فأمن الناس بأن الدعوة الجديدة عادلة منصفة تأخذ بناصر الملهوف وتحمي الضعيف، وتزيح عن الناس ما أثقل كواهلهم، فليس عجيباً إذن أن نرى هذه الإصلاحات يتجاوب صداها في بلاد المغرب قاطبة، وقد رأينا أن أهل سجلماسة كتبوا إلى المرابطين يسألونهم أن ينقذوهم مما هم فيه من بؤس وشقاء.

ولم يغفل عبدالله بن ياسين أمر الدعاية للدولة الجديدة، ونشر أخبارها بين الناس، حتى يجذب إليها الأنظار، ويأتيه الأنصار من كل فج، فكان يبعث أموالاً من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة^(٦) وفقهائها وقضاتها ومحتاجيها، حتى يعرف الناس أن في الصحراء قوما يحمون الفقير، ويأخذون بناصر الضعيف، ويكرمون أهل العلم، ويخصونهم بالبر، ويمدون لهم يد العون.

على أن الجانب السياسي من شخصية عبدالله بن ياسين لم يحجب الجانب العلمي، وهو جانب الفقيه المعلم، إذ لم يكف عبدالله عن أداء رسالته، إذ ظل يروى ويحدث ويعلم^(٧)، حتى خلق في الصحراء جوا من العلم والمعرفة لم يكن

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٤) الحلل الموشية ص ١١، روض القرطاس ص ٨٠.

(٥) روض القرطاس ص ٨٠.

(٦) روض القرطاس ص ٨١.

(٧) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥.

يألفه الناس من قبل، إذ لا تثبت أركان الدين إلا بالعلم، ولا إسلام صحيح إلا بدراسة حقة لكتاب الله وسنة رسوله، وقد أدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالسورج والتقوى وإنكار الذات، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم. ومن أمثلة هؤلاء الفقهاء تلاميذ ابن ياسين لمثاد بن نصير اللمتوني الذي يضرب المثل بفتياه في بلاد الصحراء^(١)، ومنهم أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني الذي رحل إلى الأندلس محدثا وراويا، بل إن أمراء الملتثمين أنفسهم أخذوا من العلم الذي بثه عبدالله بن ياسين بنصيب وافر^(٢).

وإذا كانت سياسة عبدالله بن ياسين قد تمخضت عن إذكاء نور العلم والغرفان ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم، الذين كانوا يضربون في بيداء الجهل، إلا أنه عرف كيف يسمو بالروح الحربية في نفوس المرابطين من أنصاره، ولم يصبح القتال في نظره وسيلة للدفاع عن النفس، أو للسلب أو النهب، بل أصبحت له غاية سامية هي الدفاع عن الدين، وحمايته وبثه بكل وسيلة ممكنة والجهاد في سبيله والموت دونه، وليس من شك في أن الإيمان الصادق إذا اقترن بدقة التنظيم الحربي، وحسن الاستعداد للقتال خليف بأن يوجد طبقة من الجند لا يعرف الخوف إلى نفوسهم سبيلا، بل يخوضون المعارك غير هيايين ولا وجلين.

وقد تحدث المؤرخون عن هذه العصبية الحديدية القوية، وأوردوا كثيرا من ضروب الشجاعة والإقدام في الحروب التي خاضوها غمارها، فكانوا «أثبت من الهضاب ولم يحفظ لهم فرار من زحف»^(٣).

لذلك لانعجب إذا كان صيتهم قد ذاع في المغرب والأندلس، وتناقل الناس قصصا عجيبا عن هؤلاء القوم، عن قوتهم وبطولتهم، وأخذت العصبية الناشئة تتخذ لونا من ألوان الفروسية والفتوة «شاع في المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء، وأنها دعوة دينية على دين متين وتأسيس بفق، وأنه إسلام جديد، فحدقت إلى سمته العيون، وصرفت إليه الوجوه، ثم ارتفع إليه الصراخ»^(٤). وبدأ المقاتلون الجدد يتهيئون لنجدة كل مظلوم، والوقوف بجانب كل ضعيف، يتهيئون

(١) ابن الأبار: المعجم ج١ ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص ٥٣٢.

(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١١.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٨.

لإصلاح المجتمع وتطهيره. فليس غريبا أن يتطلع الناس إلى هؤلاء القوم المنقذين يطلبون الخلاص مما هم فيه من بغى الولاة وفساد الحكام، يطلبون الدخول فيما دخلوا فيه، والمضى معهم فى إصلاح المجتمع، والعودة بالإسلام إلى مجده السابق.

١ - أسس دعوة عبد الله بن ياسين:

أما وقد فرغنا من الكشف عن الجهود التى بذلها عبد الله بن ياسين فى سبيل التمهيد لإقامة صرح دولة فتية جديدة، فقد بقى علينا أن نعرض لناحية هامة، ناحية غامضة فى تاريخ قيام دولة المرابطين، ونقصد بها أسس دعوة عبد الله ابن ياسين، لقد كان لعبد الله دعوة وطريقة خاصة فى إصلاح المجتمع، له آراء وأفكار يجب أن نكشف النقاب عن منابعها الأولى، وننير السبيل أمام الباحث لتفهم هذه الناحية، وهذا الغموض مرده إلى أن المؤرخين لم يتحدثوا بالتفصيل فى هذا الموضوع، لأن المراجع المعاصرة تعد على الأصابع، وما يزال بعضها مفقوداً لم يعثر عليه حتى اليوم^(١). كما أن المراجع التى كتبت بعد سقوط دولة المرابطين تأثرت بذلك العداء المر الذى شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم، وحاربوهم كما يحارب الكفرة، والفساق، فرموهم بكل نقيصة، واتهموهم بالكفر والإلحاد، ولم يستطع المؤلفون أن يبرءوا من هذه النزعة العدائية، فلم يذكروا الحقيقة كاملة، سكتوا حيث تجب الإفاضة فى الحديث، وأوجزوا حيث تجب الإطالة، وأبهموا حيث يجب الوضوح، فلم يرووا غلة ولم ينفعوا صدى.

ثم نسب الموحدون إلى المرابطين أمورا، ورموهم بدواهى، وأسهبوا فى الرد عليهم وتكفيرهم، والمنطق السليم يقضى بأن نستبين هذه الدعوة الظالمة، ونرى الأسباب الخفية لهذه التهم الجائرة، ونفند ما قالوه، فنعرض أولا لما رواه المؤرخون عن عقيدة عبد الله بن ياسين، عن أسس دعوته، ثم نعرض لأقوال المتهمين له المشوهين لرسالته، ثم نخلص بعد المقارنة والمناقشة إلى رأى الذى يقبله العقل ويرضى عنه المنطق.

وقبل أن نمضى إلى هذه الغاية يجب ألا نغفل ناحية مهمة، تستحق أن نقف

(١) مثل كتاب الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية لأبى بكر بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٣٠هـ.

عندها، وأن نفصلها تفصيلا^(١)، ونقصد بذلك مكانة عبدالله بن ياسين في المجتمع الجديد. هل أدى دور الفقيه لم يجاوزة؟، هل كان صاحب دعوة إصلاحية؟، هل كان إماما في هذا المجتمع الجديد؟، هل كان مهديا كما قيل؟، هل تجاوز رسالة الفقيه وذهب مذهبا آخر؟، إلى أى حد خرج عن الدور الذى رسمه له أستاذه وجاج، ولم خرج عنه؟، وماهى الأسباب التى برر بها هذا الخروج؟.

ليس من شك فى أن عبدالله بن ياسين كما أشرنا بدأ حياته فى الصحراء فقيها يعلم الناس، ويفسر لهم القرآن، ويروى الحديث، ويفتى فيهم، يؤمهم فى الصلاة ويعظهم ويذكرهم، ويحضهم على سلوك الطريق القويم، وينهاهم عن البغى والمنكر، لكنه مالبث بعد أن أخفقت سياسته المسالمة أن سن لنفسه ولأتباعه خطة الجهاد المسلح لإخضاع قبائل الملثمين، وردهم إلى حظيرة الدين بالقوة، وتطهير نفوسهم، فهل تجاوز عبدالله حين اصطنع لنفسه ذلك المنهج الذى أشرنا إليه دور الفقيه المعلم؟. الواقع أن سياسة عبدالله الجديدة، ونبذه سياسة المسالمة، وتبنيه سياسة الكفاح والجهاد والحرب، واصطناع الشدة لرد العصاة وتطهير المجتمع من أدرانهم لم ترض - كما تقدم - أستاذه فقيه السوس وجاج بن زللو اللمطى، ورأى فى منهجه خروجا عن رسالة الفقيه الذى يهدى الناس إلى الحق.

إذن فقد جاوز ابن ياسين فى رأى وجاج دور الفقيه المسالم، ولكن قد يقال كيف يلام عبدالله بن ياسين على سياسته تلك، وهاهم فقهاء القيروان من المالكية قد وسعوا من سلطة الفقيه، وأضافوا لأنفسهم حقوقا لم تكن لهم من قبل، فقد روى المؤرخون أن سحنون الفقيه المالكي المعروف كان أول من نظر فى الأسواق، أعنى أول من ضم وظيفة المحتسب إلى وظيفة القاضي^(٢) فى المغرب على الأقل، «أخذ ينظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع ويجعل الأمانة على ذلك يؤدب على الغش وينفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من نظر فى الحسبة من القضاة، وأمر الناس بتغيير المنكر، وأول القضاة الذى فرق حلق أهل البدع من الجامع، وشرذ أهل الأهواء منه وكان يضرب بالدرة ويقيم الحدود فى الجامع^(٣)».

(١) كنا قد أشرنا إلى مثل ذلك إشارات عارضة فى ثنايا الكتاب.

(٢) عياض : المدارك ج٢ ص ٣٧-٣٨.

(٣) عياض : المدارك ج٢ ص ٣٧-٣٨.

بل تطور دور الفقيه المالكي في القيروان إلى أبعد من هذا، فقد روى بعض المؤرخين أن سحنون كان يجمع الصوفية من البراري، فيجتمع إليه منهم نحو ألف يختار منهم فئة قوية يستعين بها في رد المظالم^(١)، وتأديب العصاة وإرهاب ذوى البغى والشر، نعم جرد عبدالله سيف الحق على البغى والفساد فى مجتمع الصحراء، وجاهد هو وعصبته من المرابطين جهادا شاقا مريرا ليتمكن للإسلام الصحيح من نفوس القوم الذين ضلوا طريق الحق، وانغمسوا فى حمأة الرذيلة.

وليس من شك فى أن فقهاء المالكية فى ذلك العصر اضطرتهم الظروف إلى ذلك اضطارا، فقد بعدت الهوة بين المثل العليا الرفيعة التى رسمها القرآن للحياة الصالحة، وبين الواقع المرير من الحياة المليئة بالضعف والانحلال والفساد والتخاذل^(٢)، ولما أخفق الأمراء فى إصلاح الحال، وإنقاذ المجتمع مما يعانيه من ضعف وانحلال^(٣)، التف الناس حول رجال الدين يلتمسون العون، فأخذ الفقهاء يضطلعون بأعمال الإصلاح بقدر الطاقة، ويحمون المجتمع من الفساد بقدر ماتيسر لهم من جهد، وكان البعض الآخر يصبرون على ما يجدون من مظالم مكرهين معللين الناس بأن المهدي سيظهر ليظهر العالم من الفساد ويحمى الضعيف ويغيث الملهوف^(٤).

ولكن الفقهاء السنيين على وجه العموم، والمالكيين على وجه الخصوص لا يقولون بالخروج على ولى الأمر أو شق عصا الطاعة عليه، كانوا يعتقدون «بأن المسلم الصالح حبا فى خير الجماعة، وإبقاء على وحدتها لا ينبغى أن يشق عصا الطاعة، بل عليه إثارا للمصلحة العامة أن يتحمل صابرا المظالم القائمة، ويتذرع بالصبر وطول الأناة فى معاناة آثام الأشرار، ولكنهم لا يتوقون علاوة على ذلك إلى التوفيق بين الواقع ومقتضياته، وبين إيمانهم وتقواهم، وأمدهم بهذا التوفيق رجاؤهم الوحيد فى ظهور المهدي^(٥)».

فإذا كان فقهاء المالكية قد أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر مصطنعين القوة

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦٧.

(٢) جلدزير: العقيدة والشرعة ص ١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) جلدزير ص ١٩٤.

فى بعض الأحيان، وعارضوا أولى الأمر، وجدوا فى رد عدوانهم، ولم يمتشقوا الحسام^(١) خروجاً على ولى الأمر، وإذا كانوا قد قاوموا البدع بحد السيف فقد كانت مقاومات فردية^(٢).

أما عبدالله بن ياسين فقد امتشق الحسام، وخاض غمار الحرب دفاعاً عن الإسلام، ووضع أساس دولة جديدة، واتخذ لقومه أميراً يلى أمورهم، ويقود عسكرهم، ورتب الجيوش، وأمدهم بالسلاح، وأقام بيتاً للمال وجبى الزكاة، لم يكن عبدالله بن ياسين إذن مجرد فقيه من فقهاء السوس أو من فقهاء القيروان، لانكر أن عبدالله عزف عن الإمارة من المبتدأ^(٣)، ولكنه كان كل شىء فى المجتمع الجديد، هو الموحى والموجه والمشير، إذا خرج الأمير عن القواعد التى سنّها أدب على ذلك، لم يتورع عن ضرب الأمير يحيى بن عمر لأنه جاوز تعليماته وعصا أمره^(٤)، وكانت الجيوش إذا خرجت للحرب خرج ابن ياسين فى المقدمة يتبعه الأمير وسائر الجيش^(٥)، وكان الأمير فى الواقع هو الذى يأمر وينهى^(٦).

لم يكن عبدالله إذن مجرد فقيه، بل كان صاحب دعوة فى الإصلاح، كان من رأيه ألا يعصم المجتمع من الفساد إلا الشدة فى الحق، ولو تجاوزت هذه الشدة الحدود المرسومة، كان صاحب آمال بعيدة، لم يكن يهدف إلى الوعظ والتذكير، بل كان يريد إقامة دولة إسلامية على أساس جديد من الدين الحنيف، يريد الرجعة إلى عالم مجيد مضى أيس المسلمون من رجوعه مرة أخرى.

لم تكن حركة عبدالله بن ياسين مجرد أمر بمعروف ونهى عن منكر، كانت

(١) قال ابن عباس «من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه فإنه من خرج عن السلطان شبراً مات ميتة جاهلية» انظر الطوطوشى: سراج الملوك ص ١١٥.

(٢) رأى المالكية فى الخروج على إمام الجور «ذكر يحيى بن عون قال دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه وأصابه فى علة قلق فقال له «يا ابن القصار ما هذا القلق الذى أنت فيه؟ قال الموت والقدوم على الله عز وجل فقال له سحنون ألت مصداقاً بالرسول أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى يرى يوم القيامة وأنه على العرش استوى ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا ... مت إذا شئت». انظر رياض النفوس ص ٢٦٦.

(٣) التويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤.

(٤) البكرى: المغرب ص ١٦٦.

(٥) الحلل المشية ص ١٠ - ١١.

(٦) المرجع السابق ص ١٢.

خروجاً على ولى الأمر المنغمس فى الفساد، كانت خروجاً على أمراء زنادة المسيطرين على المغرب، وأوليائهم من الأمويين الذين دالت دولتهم بالأندلس، كان عبدالله بن ياسين صاحب دعوة مصلحاً وزعيماً دينياً وسياسياً، كان يؤمن بأن الوحدة بين قبائل الملثمين هى سر القوة، وهى الكفيلة بالمضى فى حركة الإصلاح التى بدأها^(١)، والتى إن عمت خلصت المجتمع من أدرانته، وباعدت بين الناس وبين ظلم الحكام، كان يخشى أن تدهم الفرقة أتباعه فتذهب ريحهم، وتتحطم الآمال التى عقدها عليهم. هذه السياسة تتبين بوضوح فى وصيته إلى قومه حين أشرف على الموت إذ قال^(٢) « يامعشر المرابطين إنكم فى بلاد أعدائكم وإنى ميت فى يومى هذا لا محالة فإياكم أن تجنبوا فتفسلوا فتذهب ريحكم وكونوا ألفة وأعواناً على الحق فى ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة فإن الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى الأرض من يشاء من عباده.. »^(٣)

وقد وصف روض القرطاس عبدالله بن ياسين ولقبه بمهedy المرابطين^(٤)، فهل اتخذ عبدالله لنفسه لقب المهدي؟ الواقع أننا لم نعثر فى المراجع التى بين أيدينا على ما يؤيد اتخاذه هذا اللقب .. وإن كان فى الحقيقة قد أدى الدور الذى كان الناس يترقبون ظهور المهدي من أجل تحقيقه، وهو التقريب بين المثل العليا وواقع الحياة، ورد الإسلام إلى عفوانه الأول، وإقامة صرح العدل وبث الطمأنينة فى النفوس، والقضاء على ما كان يعانى به المجتمع من علل نخرت فى عظامه وكادت تأتى عليه.

يخيل إلينا أن ابن أبى زرع كان متأثراً بحركة الموحدين، فإذا كان ابن تومرت قد اتخذ لقب المهدي، فلا بأس من أن يخلع صاحب الروض على عبدالله بن ياسين لقب المهدي.

وقد تمكن ابن ياسين من قلوب معاصريه بفضل الصفات الشخصية الممتازة

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٤.

(٢) يذكر صاحب روض القرطاس (ص ٧٤) أنه توفي فى ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ كما يذكر صاحب

كتاب المدارك (ج ٤ ص ٥٣١) أنه توفي عام ٤٥٢.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٤.

(٤) المرجع السابق ص ٧٤.

التي توافرت له، وبفضل السيرة الطيبة واصطناع التقشف وإذلال النفس بكثرة الصيام^(١)، إلى جانب قوة الحجة والقدرة الفائقة على التأثير في سامعيه، وخلب لبهم بحديثه الممتع وعلمه الغزير، فليس بغريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلح أو زعيم، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولي من أولياء الله، وبدءوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات^(٢)، «تحفظ فتاويه وأجوبته فلا يعدل القوم عنها» بل ظلوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة بهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته^(٣)، وظل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهات متبركين، وقد قيل أنه دفن بموضع يعرف بكريفة بتامسنا^(٤)، ولكن يبدو أن الموحدين أخفوا معاملة انتقاماً منه، وإن كانوا قد عجزوا عن إخفاء سيرته التي ظل الناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل.

أما دعوة عبدالله بن ياسين فإنها تقوم على أسس أهمها: الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وغيرها من الواجبات المالية، وقد أخذ الجهاد منذ أن شرع في عهد الرسول ﷺ يحتل في الإسلام مكاناً مرموقاً وخصوصاً بعد أن توسع المسلمون في بلاد الفرس والروم.

وقد احتل الجهاد في المغرب الإسلامي أيضاً مكاناً رفيعاً، لأن المغرب كان أكثر البلاد الإسلامية تعرضاً لغارات الروم وغزواتهم، فقد كانت سواحله الطويلة مكشوفة معرضة للغزو في أي وقت، وكانت أساطيل العدو لا تكف عن الإغارة على المدن الآمنة تسلب وتنهب، كما كانت هذه السفن تعيث في البحر تسد المسالك على سفن المسلمين وأساطيلهم فتتال منها، لذلك عنى المسلمين في المغرب بمداغة الروم أشد العناية، واتخذوا الأبهة لرد عدوانهم، فنشأت حركة المرابطين مقترنة برغبة جامحة في مجاهدة العدو، ورده عن حياض المسلمين. وكان المسلمون يقدون على الثغور من كافة الجهات ليشاركوا في الدفاع عن البلاد

(١) البكري: المغرب ص ١٦٨، روض القرطاس ص ٨٤.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٤.

(٣) البكري: المغرب ص ١٦٩.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٤.

مكتسبين أجر الجهاد، وكان ملك المسلمين في الأندلس يتعرض لمثل ماتعرض له ملكهم في المغرب، فأصبح الجهاد هناك سياسة مقررة يلتزمها كل أمير، ويحلها المحل الأول من سياسته.

وكان المسلمون يفدون على الأندلس، ويرحلون إلى الثغور للمرابطة والجهاد والمشاركة في دفع العدو وردة على أعقابهم، نعم احتل الجهاد في الإسلام محلا رفيعا ومكانا مرموقا، حتى كاد أن يصبح ركنا سادسا من أركان الدين، أصبح فرض عين عند طائفة من الخوارج^(١)، وأصبح الجهاد والإسلام متلازمين يجب الجهاد طالما في المجتمع الإسلامي رمق من حياة، ولايكف المسلمون عن الجهاد إلا إذا انحل المجتمع الإسلامي وعفت آثاره^(٢).

وللجهاد قواعد وأصول وأحكام رسمها الدين وحدد معالمها، وسنرى إلى أي حد التزم عبدالله بن ياسين أحكام الدين في هذه الناحية، كما سنرى إلى أي حد جاوز الحدود المرسومة وخرج عليها، وأول أحكام الجهاد أنه فرض كفاية على كل مسلم بالغ صحيح العقل والجسم، توافرت له أسباب بلوغ جيش المسلمين، ويجب أن يستمر هذا الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة في حكم الإسلام^(٣). وقد فرض عبدالله بن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين من أول الأمر، بعد أن خابت سياسة المسالمة، وأصبح لزاما عليه أن يمتشق الحسام في سبيل نشر الدين، وفرض الجهاد على قومه، ودعاهم إليه، وحضهم على التزامه، وقال لهم: «وجب عليكم أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وأن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام فاستعدوا لقتالهم^(٤)».

نعم لقد أذكى عبدالله بن ياسين حركة الجهاد، وظل - هو وعصبته - يكافح كفاح الأبطال مجاهدا، حتى لقي مصرعه شهيدا في قتال المرتدين من برغواطية. فرض الجهاد على أعوانه كافة لم يستثن أحدا، يستنفرهم ويؤجج قلوبهم بالحماس، ويرغبهم في الشهادة، ومن أحكام الجهاد أيضا أن يقوم عليه حاكم

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. Bacdonald)

(٢) المرجع السابق.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. Bacdonald)

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨، النويري ص ١٧٤.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

مسلم^(١) أو إمام، ولم يغفل عبدالله بن ياسين هذه الناحية الهامة، فما كاد يستقر له الأمر في رباطه بجزيرة السنغال، وما كاد أتباعه تتضاعف أعدادهم حتى عقد النية على أن يتخذ للمجتمع الجديد أميرا يقود الجيش، وينفذ سياسة الجهاد، فبايع يحيى بن عمر، فلما قتل اختار أخاه أبا بكر بن عمر، وظل هو بمنأى يوجه الجماعة الجديدة من بعيد، ويرسم لها سياسة الجهاد وفق أحكام الدين، قال لقومه: «اجعلوا لكم حزبا وأقيموا لكم راية وقدموا لكم أميرا^(٢)».

وإذا كانت أحكام الجهاد تقول بأن شرط الجهاد يتوافر إذا قام الإمام بغزوة مرة في كل عام^(٣)، فإن عبدالله بن ياسين قد جاوز ذلك فجعل أعوانه من المرابطين مجتدين للجهاد في كل وقت، يقفون على أهبة الاستعداد لكل طارئ، ويخيل إلينا أن ذلك يرجع إلى أن المرابطين قد خرجوا من رباطهم في حركة غزو وفتح مستمرة، فلم يكن من المعقول أن يضعوا السيف حتى يقهر العدو، ويدخل الناس كافة فيما يدعو إليه عبدالله بن ياسين من الإسلام الصحيح. ومن الغريب أن دولة المرابطين لم تضع السيف أبدا منذ قيامها حتى قدر لها أن تسقط، فبعد أن تم الجهاد في المغرب انتقل الجهاد إلى الأندلس، فكانت دولة عاشت من أجل الجهاد، وذهبت في سبيل الجهاد.

وإذا كانت أصول الجهاد تقضى بأن يدعى الناس إلى الإسلام قبل أن يعلن الجهاد، فإن أبوا خيروا بين القتال أو الدخول في حكم الإسلام^(٤)، فإن عبدالله بن ياسين أنذر وحذر وخوف، وبعث البعث إلى القبائل تدعو بالحسنى والموعظة الحسنة، ولم يعمد إلى السيف إلا بعد أن أصموا آذانهم^(٥)، وتربصوا به وهموا بالقضاء عليه، كان يفرض عليهم أن يسلموا إسلاما جديدا وإلا عاملهم معاملة المشركين، فإن أسلموا وتابوا وأنابوا بايعوه على الكتاب والسنة، ودخلوا في زمرة رجاله، لهم ما له وعليهم ما عليه، وإن أبوا حكم السيف في رقابهم، وحاربهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة.

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨، النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. B. Macdonald).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٧٩.

وإذا كانت أحكام الجهاد قد قضت بأن أموال من يأبون الدخول في الإسلام ويختارون القتال غنيمة للمسلمين^(١)، يأخذ الجيش الغازي أربعة أخماسها، فإن عبدالله بن ياسين اعتبر المناوئين له الصادين عن الدخول في دعوته كفارا يجب قتالهم، فكان يقاتلهم حتى يقهرهم، ويردهم على أعقابهم، وكانت أموالهم غنيمة لجيش المرابطين وفيثا لهم، وكان يقسم الغنائم وفق ما قضت به السنة^(٢)، كما أنه التزم مانصت عليه السنة من النهي عن قتل النساء والولدان^(٣)، فكان يقتل الرجال لأنه اعتبرهم مرتدين عن الإسلام، يحل له قتلهم حتى لا يفتنوا غيرهم.

كما تقدم يتبين لنا أن عبدالله بن ياسين التزم السنة في أحكام الجهاد^(٤)، وحض على الاستشهاد في سبيل الله، ونادى بالوفاء بالأمان^(٥)، ولم يقتل النساء والأطفال، كما التزم الأحكام في توزيع الغنائم والأسلاب.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأخذ به^(٦)، حض عليه القرآن الكريم^(٧)، ونادى به الرسول ﷺ^(٨) ولما كان من غير المعقول أن يخلو بين الأفراد وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتعم الفوضى ويحدث الاضطراب، فقد تولى الإمام هذا الأمر في مستهل قيام الدولة العربية، فكان الخلفاء وعمالهم يأمرون الناس بالمعروف، ويحاربون المنكر، ويحملون الناس على الجادة المستقيمة.

فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعذر على الإمام مباشرة هذا الأمر

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة جهاد.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩، الحلل الموشية ص ١١.

(٣) موطأ الإمام مالك ص ١٦٧.

(٤) الموطأ ص ١٦٧.

(٥) المرجع السابق ص ١٧٣.

(٦) ابن حزم : الفصل بين الأهواء والملل ج ٤ ص ١٧١.

(٧) قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ سورة آل عمران : آية

١٠٣

(٨) «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان. لا طاعة في معصية إنما الطاعة في الطاعة وعلى أحذكم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»

انظر ابن حزم، ص ١٧٣

بنفسه، استعين بالمحتسب^(١)، يندبه الإمام لهذا الأمر، يتولاه بنفسه، يرقب المجتمع بعين يقظة، ويحول بين الناس وبين السير في الطريق المعوج، ولكن العالم الإسلامي ما لبث أن دهمته الفرقة، وعجز الأمراء عن تحقيق آمال جمهور الأمة، وانتشرت المفاسد، وبعد ما بين المثل العليا الرفيعة، والحياة الواقعية الحافلة بالإثم، وانحرف المحتسبون عن الجادة، ولم يشددوا القبض على الفتنة^(٢)، فعم الجور وانتشر الفساد، وبدأ أولو البصيرة يكتبون في الحسبة رسائل تبصر المحتسين بأقوم الطرق التي يسلكونها لتحقيق آمال الناس، ومحاربة البغى والفساد^(٣)، فبدأ الناس بعد أن يشوا من الأمراء وأعوانهم يتطلعون إلى الفقهاء ليأخذوا بناصرتهم، فيقوموا المعوج من أمور المجتمع، وقد وضع هذا الاتجاه - على ما نعلم - في المغرب أكثر منه في أي قطر آخر، بسبب هذه التقاليد الرفيعة التي بثها علماء المالكية في أنحاء البلاد، من الشدة في الحق، والزهد في الترف، ونصرة الضعيف، ومقاومة بغى السلطان وعدوانه.

وكان المالكون في المغرب يستلهمون الإمام مالكا في تقاليده وآرائه، وهو الإمام الذي نهى عن صحبة السلطان ولم يتحرج في أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر إذا رأى منه اعوجاجا، فقد روى أنه قال: «حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذي سلطان، ويأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويعظه حتى يتبين، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك، فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل^(٤)».

اضطلع فقهاء المالكية في المغرب بهذا الأمر بعد مارأوه من انحراف الأمراء، وانصرفهم إلى غير إصلاح أحوال المجتمع. أمروا الناس بالمعروف، ونهوه عن المنكر، وشنوا على الفساد والبذع حربا لارحمة فيها ولا هوادة، روى المؤرخون أن

(١) Levi-Prevençal : Un Manuel Hispanique de Hisba :sur la Surveillance des Coporations et la repression des fraudes en Espagne Musulmanne.p. 1.

جلدزيهر : العقيدة والشريعة ص ٨٧.

(٢) Provençal et colin: un Manuel Hispanique de Hisba, p.1.

(٣) ابن فرحون : الديناج المذهب ص ٢٧،

(٤) ابن فرحون : الديناج المذهب ص ٢٧.

أن فقهاء القيروان كانوا حربا على المنكر، فضيقوا على أهلها في ملاهيهم، بل حاربوا أصحاب العقائد الضالة من الصفرية والإباضية^(١).

وكان طبعيا أن يترسم عبدالله بن ياسين خطى فقهاء القيروان، وغيرهم من فقهاء المالكية في المغرب، فلم يقنع بتعليم الناس وتثقيفهم في دينهم، بل أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وإذا كان فقهاء القيروان قد قاموا بمحاولات فردية في هذا السبيل، فإن عبدالله بن ياسين جند أمة بأسرها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وسخر المرابطون سيوفهم لتقويض صرح الباطل، وتطهير المجتمع من أدرانته ومفاسده، واستطاع ذلك الفقيه المتواضع أن يخلق جيلا من المحاربين الأشداء، يتعصبون لفكرته، ويخفون إلى نصرته، ويبايعون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن هل تجاوز عبدالله بن ياسين الحدود التي رسمتها السنة لسل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الواقع أن فئة من الصحابة والتابعين قالوا: إن الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما بالقلب فقط، ولكن أهل السنة^(٢) اتفقوا على أن الإمام العدل إذا قام عليه فاسق وجب سل السيوف للدفاع عنه، ورد الفئة الباغية الظالمة^(٣)، كما قالت غالبيتهم: «بأن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك، فلذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا يأسون من الظفر فرض عليهم ذلك^(٤)» قال تعالى ﴿وإن فئتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله﴾^(٥) فكأنه قد فرض على المسلمين قتال الفئة الباغية، إذن فقد التزم عبدالله بن ياسين حدود الشرع في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقد أمر بقلبه ولسانه، سالم ونصح وحذر وأنذر، حتى إذا أخفق لم يجد مناصا من سل السيف دفاعا عن الحق، فقد كان يعتقد أن الأمير الذي بايعه المرابطون إمام عدل، وأن الخارجين عليه فئة باغية، وأنه يجب على المرابطين أن يسلوا السيف دفاعا عن هذا الإمام العادل.

(١) المالكي: رياض النفوس ص ٢٧٦، ٣٨١. الديباغ معالم الإيمان ج ٢ ص ١٣٥ و ص ١٥٥.

(٢) ابن حزم: الفصل ج ٤ ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٥) سورة الحجرات آية ٨.

وإذا كان الفقهاء قد قالوا: بأن أهل الحق يستطيعون امتشاق الحسام إذا قدروا على ذلك، ولم يئسوا من الظفر، فإن عصبة عبدالله بن ياسين بعد أردادت عددا وعدة كانت قادرة على دفع العدوان ورد البغي، واثقة من الفوز والظفر، وإذا كان الكتاب الكريم قد جاوز قتال الفئة الباغية بعد اليأس من الإصلاح، فإن عبدالله يئس من إصلاح قومه واعتبر الخارجين عليه فئة باغية يحل قتالهم وجهادهم.

وإذا كانت أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضت «بألا يؤخذ مال المسلم بغير حق ولا يضرب ظهره بغير حق فإن فعل به ذلك فهو إثم وعدوان»^(١) فإنه لم يرد عن عبدالله بن ياسين - فيما نعلم - أنه تجاوز هذا الحد، فلم يغتصب مالا بغير حق، ولم يضرب ظهرا بغير حق، وإذا كان لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن «يهتك حرима ولا أن يأخذ مالا بغير حق»^(٢) فإن عبدالله بن ياسين قد عف عن ذلك، وإلا لما كان ثمة ما يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل كان عبدالله حربا على الإثم أينما وجد، وعلى البدع أينما كانت، لا تكاد عصيته تطلأ أرضا حتى تغير المنكر وتقطع الزامير وتريق دنان الخمر^(٣)، فلم يجاوز مانادى به فقهاء القيروان من قبل حينما حاربوا البدع والملاهي^(٤)، بل إن الإمام الغزالي يجيز اقتحام البيوت لتحطيم آلات الطرب ودنان الخمر^(٥).

ومن المبادئ الإصلاحية التي أخذ بها عبدالله بن ياسين عمله على أن يزيح عن الناس ما كانوا ينوءون به من ضرائب ظالمة جائرة، فإن اضطراب الأحوال السياسية بالمغرب، وما أعقبه من جور الحكام وعسفهم، وتنكبهم الطريق سوى وإثقالهم على الرعية بقصد ابتزاز أموالهم، قد زهد الناس فيهم وجعلهم يتطلعون إلى من يخلصونهم مما يعانون من ظلم واضطهاد، وقد افتقن ولادة الأمر في فرض هذه المغارم، فمن مكوس إلى معونة إلى قبالات إلى تقسيط^(٦)، بل أمعنوا في ظلمهم وبغيهم، فجبوا الخراج من الأرض التي أسلم أهلها، فتركت على أن

(١) ابن حزم : الفصل جء ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

(٤) المالكي : رياض الناس ص ٣٠٣ ، ٣٨١ .

(٥) جلدزير ص ٨٧ .

(٦) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية جء ٢ ص ٨٩ ، ابن خلدون جء ١ ص ١٨٣ ، روض القرطاس ص ٨٧ .

يدفعوا ضريبة العشر، ومن الأرض التى وزعت على الفاتحين على شرط أن تعفى من الخراج اكتفاء بالعشر، وقد اضطر عبدالله بن ياسين إلى رفع هذه المظالم، وإعفاء الناس من هذه الضرائب الجائرة، واكتفى بفرض ما أوجبه حكم الكتاب والسنة، فروى المؤرخون أنه التزم أحكام الكتاب، ولم يحد عنه قيد أمثلة^(١)، فرض الزكاة والتزم أحكام الدين التى تقضى بأن لا تفرض إلا على ثلاثة أشياء: الحرث والعين والماشية^(٢)، وليس من شك فى أن عبدالله جبا الزكاة بأنواعها من زكاة المعادن^(٣)، وزكاة التبر والحلى^(٤)، وزكاة أموال اليتامى، والتجارة لهم^(٥)، وزكاة الميراث^(٦)، وزكاة العروض^(٧)، وصدقة الماشية^(٨)، وزكاة مايخرص من ثمار النخيل والأعناب^(٩)، وزكاة الحبوب والزيتون^(١٠)، وضريبة أهل الكتاب^(١١)، وأخذ الأعشار من أهل الذمة الذين يتاجرون فى بلاد المسلمين^(١٢).

وقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعيد المدى فى تاريخ الدعوة المرابطية، إذ أظهرت للناس فى المغرب والأندلس أن المرابطين قوم لا ييغون جاهها ولا مالا، إنما ييغون الإصلاح وإنقاذ الناس مما تردوا فيه من جور وعسف، فأخذوا يتطلعون إلى هذا الشعب الذى بعث بعثا جديدا، بل لانكون مغالين إذا قلنا بأن هذه السياسة كانت تكسب المرابطين عطف الجماهير الفقيرة، التى كانت تهب للترحيب بهم، وتأييدهم فى كل مكان حلوا فيه.

ولكى تتم دراسة هذا الموضوع دراسة وافية شاملة، لا بد من أن نعرض لناحية أخرى هامة، وهى مناقشة التهم التى ألصقها الموحدون بالمرابطين، إذ

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٨، السعادة الأبدية ج ٢ ص ٣٨٩، الجلود ص ٢٤٢.

(٢) الموطأ ص ١٠٣.

(٣) الموطأ ص ١٠٥.

(٤) الموطأ ص ١٠٥.

(٥) الموطأ ص ١٠٥-١٠٦.

(٦) الموطأ ص ١٠٦.

(٧) الموطأ ص ١٠٨.

(٨) الموطأ ص ١٠٨.

(٩) الموطأ ص ١٠٦.

(١٠) الموطأ ص ١١٧.

(١١) الموطأ ص ١٢١.

(١٢) الموطأ ص ١٢١.

لا يمكن أن تتم دراسة عقائد المرابطين دراسة صحيحة، إلا إذا عرضنا لما يقوله الموحدون، وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت هذه الادعاءات صحيحة أم غير صحيحة.

رحل محمد بن تومرت المصمودى إلى الأندلس والمشرق^(١)، واغترف من معين الثقافة الإسلامية فى المدرسة النظامية ببغداد^(٢)، ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويهاجم أمراء العصر، ويشدد النكير عليهم، ويتهمهم بأنهم مسئولون عما حل بالمجتمع من مصائب، ومادهاه من انحلال،^(٣) وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين، أعلن عليها حربا لارحمة فيها ولا هوادة، وظل يؤلب قبائل المصامدة، ويؤجج الحقد فى قلوب البربر حتى أوغر صدورهم على الدولة التى دافعت عن العقيدة الإسلامية دفاعا مجيدا، واستطاع بعد جهود متصلة أن ينال من الدولة وأن يهددها تهديدا خطيرا، وهو فى سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة، ويرمى فقهاءهم وعلماءهم بالجمود والتأخر، ويحملهم مسئولية ما أصاب المجتمع من فساد، وقبل أن نفصل مارمى به المرابطين من كفر وضلال، وما حشده من تهم يجدر بنا أن نشير إلى ناحيتين هامتين قد تعينان على استبطان هذه الدعوة الظالمية، والتعرف إلى موجهاتها، وأهدافها، ومعرفة الأسباب التى هيات لمحمد بن تومرت من أن ينال من المرابطين على هذا النحو.

كان محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغة من قبيلة مصمودة^(٤) الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى، هذه القبيلة التى عرفت فى طول تاريخها بشدة مراسها، وكرهها الشديد لبدو الصحراء، الذين كانوا يغيرون على مواطنها، وينالون منها، وقد أخضع المرابطون هذه القبائل بعد فتح المغرب، وأذلوها، فاستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضر الحقد والكراهية للملثمين، وتلمس السبل المؤدية إلى الثأر لما نالها، والخلاص مما تردت فيه من مذلة وخضوع، فما كاد محمد بن تومرت المصمودى يرفع علم المقاومة، ويحمل لواء الجهاد حتى كانت قبائل المصامدة من

(١) جلدزير ص ٩.

(٢) جلدزير ص ١٢، صبح الاعشى ج ٥ ص ١٩١.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦، أعز ما يطلب ص ٤٠، المراكشى ص ٢٠، الخلل ص ٥٧، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٤٣.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦، جامع تواريخ فاس ص ٣١، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٤٣.

خلفه، تتبنى حركته وتشد أزره، وتسوق له الكتابات تدافع عنه، وتنصره نصرا لما نالها من هزيمة وإذلال على يد بدو الصحراء^(١). إذن دعوة الموحدين دعوة أذكتها العصبية القبلية، وأوحى بها ذلك العداء المريع القبائل الجبلية المستقرة، وبين شعوب المثلثين، هي دعوة ظاهرها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباطنها تعصب دميم، وكره دفين وطعن فى المرابطين وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم.

رفعت دولة المرابطين علم مذهب مالك، فلا بأس من أن يعلن صاحب الدعوة الجديدة الحرب السافرة على مذهب مالك، وفقهاء مالك، فيرميهم بالتعصب والجمود والتكالب على عرض الدنيا^(٢)، وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب أنهم أحرقوا مدونة سحنون^(٣)، دعا المرابطون لبنى العباس، وخطبوا لهم على المنابر، فلا بأس من تؤدي الكراهية العنصرية إلى أن يخرج المصامدة على بنى العباس، وأن يعملوا لإقامة خلافة موحدية^(٤)، لاتدين بالتبعية لبنى هاشم، ولا لبنى أمية.

وقد توسل محمد بن تومرت المصمودى بوسائل كثيرة لكسب الأنصار لدعوته الجديدة، فادعى الانتساب إلى بنى هاشم^(٥)، واتخذ لنفسه اسم محمد بن عبدالله العربى القرشى الهاشمى الفاطمى المحمدى^(٦)، ووضع أنصاره له نسبا يربطه بعبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب^(٧)، بل ذهب إلى أبعد من هذا، أخذ يهين الأذهان لقرب ظهور المهدي، يذكره ويشوق إليه، ويجمع الأحاديث التى تقول بقرب ظهوره^(٨)، ويبين للناس أن «الباطل لا يرفعه إلا المهدي وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي وأن المهدي معلوم فى العرب والعجم والبدو والحضر وأن العلم به ثابت فى كل مكان وفى كل ديوان وأن ماعلم بضرورة الاستفاضة قبل ظهوره يعلم ضرورة المشاهدة بعد ظهوره، وأن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه كافر، ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع يفتح الدنيا شرقها وغربها

(١) الإدريسي ص ٦٤، المراكشى ص ١٢٣، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩١، الإنخاف ج ١ ص ٦٢.

(٢) ملحق البيدق ص ١٣٦.

(٣) أحمد بابا: نيل الابتهاج ص ١٣٨.

(٤) أبو بكر الصنهاجى (البيدق): كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٣.

(٥) المرجع السابق ص ٢٣.

(٦) المرجع السابق ص ١١.

(٧) الزركشى ص ١٤٦.

(٨) المراكشى ص ١٢٠.

يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور»^(١)، ثم أعلن للناس أنه المهدي المنتظر^(٢)، الذي يبعث في آخر الزمان، لإنقاذ المجتمع مما يعانيه من بؤس، بل ذهب محمد بن تومرت إلى أبعد من هذا، إذ أحيا نظرية الإمامة، وادعى أنه الإمام المعصوم^(٣)، لا يجوز عليه الخطأ، من شك فيه فهو كافر مارق وزنديق^(٤)، لأن الإمام يجب أن يكون معصوما من الباطل ليهدم الباطل، معصوما من الضلال، لأن الضلال لا يهدم الضلال^(٥)، «لا بد أن يكون الإمام معصوما من هذه الفتن وأن يكون معصوما من البدع»^(٦)، من خرج عليه أو كفر بإمامته أو نقض بيعته أحل ماله واستبيح دمه^(٧).

أما الناحية الأخرى التي يجب أن نضعها نصب أعيننا حينما نحاول أن نتفهم سر هذه الحملة العنيفة، التي شنّها الموحدون على المرابطين، فهي أن محمد بن تومرت ظهر في عهد علي بن يوسف بن تاشفين^(٨)، بعد وفاة عبدالله بن ياسين بما يزيد عن نصف قرن من الزمان، كان يتنقل في مدن المغرب، يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر^(٩)، وقد دخل المهديّة ثم بجاية ثم ذهب إلى أغمات^(١٠)، ثم بارحها إلى فاس، حتى استقر به المقام في مراكش آخز الأمر^(١١)، ولم يرد عنه في هذه الفترة أنه تعرض لعقائد الناس بالسوء، فلم يكفر أحدا ولم يتهم أحدا، كان همه منصرف إلى محاربة البدع، وحض الناس على التزام أحكام الدين، واطراح ما انغمسوا فيه من إقبال على الدنيا، وتناقل عن العمل للحياة الأخرى.

وكانت دولة المرابطين بعد أن مضى على قيامها وقت طويل، قد بدأ الفساد

(١) أعز ما يطلب ص ٢٥٤-٢٥٧.

(٢) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج ١ ص ٢١٤.

(٣) البيدق ص ١٥، ملحق البيدق من رسالة الفصول ص ١٣٤، ١٣٦، المراكشي ص ١٢٣.

(٤) أعز ما يطلب ص ٢٤٥، البيدق ص ٥٢.

(٥) أعز ما يطلب ص ٢٤٥.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق ص ٢٥١، ٢٥٤.

(٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣١٧.

(٩) ابن الخطيب رقم الحل ص ٥٧.

(١٠) أعز ما يطلب ص ٤، ابن عذارى ج ١ ص ٣١٧.

(١١) جامع تواريخ فاس ص ٣٣.

يدب فى أوصالها، وبدأت الدعوة الكريمة التى وضع عبدالله بن ياسين أساسها ويناها بدمائه، ودماء أعوانه من المرابطين، تفقد أثرها فى نفوس القوم، وانصرف الأمير على بن يوسف عن أمور الحكم إلى الانقطاع للعبادة^(١)، فازداد عتو الفقهاء وسيطروا على الحياة العامة فى المغرب والأندلس، وكان ييدهم تصريف شئون الدولة، حتى ضج الناس بالشكوى، متبرمين باستبدادهم بالسلطة وبدأت النساء يلعن فى المجتمع دورا كبيرا، يوجهن السياسة العامة، ويتحكمن فى مجريات الأمور^(٢)، كما أخذ الأمراء المرابطون يستبدون ببعض مناطق الأطراف ويهددون الدولة بالانقسام ثم الزوال^(٣).

كانت هذه الأحوال السيئة مما أذكى الحمية فى قلب محمد بن تومرت، ودفعه إلى أن يعمل بقدر ماوسعه من جهد إلى مقاومة هذا المنكر، وإصلاح هذا الفساد، وكان يرى أن الأمير مسئول بين يدى الله عن ذلك كله، وأن باستطاعته أن يقوم المعوج ويرد العاصى^(٤)، فلما دخل مراكش، وعظ على بن يوسف وأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر فى شىء من العنف، ثم التحم مع الفقهاء المالكين المحيطين بعلى بن يوسف فى مناظرة عنيفة، استخدم فيها علم الكلام وتعاليم المدرسة النظامية ببغداد، فأفحم مناظريه وأجج نار العداء فى صدورهم فأنتمروا به، وحملوا على بن يوسف على أن يخرج من مراكش خائفا يترقب^(٥)، وبعد أن خرج ابن تومرت من مراكش، اتخذت دعوته مظهرا آخر، أعلنها حربا ضروسا على المرابطين، وراح يؤلب قبائل المصامدة، وبدأت حملاته على المرابطين وعقائدهم تشتد وتعنف، وبدأ منذ هذه اللحظة بالذات يشكك الناس فى عقائدهم، ويرميهم بالزيغ والمروق على الدين، ويبين لهم أن الدعوة الصحيحة هى التى يحض عليها ويدعو لها . . .

ولكن قد يقال وما لعبد الله بن ياسين وعلى بن يوسف، والشقة بينهما بعيدة، توفي عبدالله بن ياسين عام ٤٥٠هـ وولى على بن يوسف عام ٥٠٠هـ،

(١) المراكشى : المعجب ص ١١٤-١١٥.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) البيهقي ص ٦٨، رقم الحلل ص ٥٧.

(٥) أعز ما يطلب ص ٧.

وللرد على ذلك نقول إن محمد بن تومرت لم يوجه حملته لعلی بن يوسف، بل إنه وجهها للمرابطين على وجه العموم، ولما كان عبدالله بن ياسين هو صاحب الدعوة، وصاحب الرسالة، ومنشئ الدولة، فإن تكفير المرابطين يعتبر تكفيرا له، ومهاجمة عقائدهم تعتبر مهاجمة لعقيدته، واتهامهم بالمروق عن الدين يعتبر اتهاما له بالمروق عن الدين، لذلك يجب أن نعرض بعد مذكرنا من ملابسات لبعض هذه التهم فثبتها على عبدالله بن ياسين أو ننفيها عنه.

كانت أهم التهم في نظر ابن تومرت أن المرابطين مجسمون مشبهون، يشبهون الخالق بال مخلوق، وينسبون إليه من الصفات ما ينسبون إلى البشر من السمع والبصر والحركة، وما إلى ذلك، وهم في نظر ابن تومرت كفرة يجب جهادهم حتى ينفوا عن الخالق التشبيه، والتشريك، والنقائص، والآفات، والحدود، والجهات، ولا يجعلوه في مكان، ولا في وجهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة^(١) والجهات، فمن جعله في وجهة ومكان، فقد جسمه، ومن جسمه، جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا، فهو كعابد وثن، فمن مات على هذا فهو مخلد في النار^(٢)، هم في رأيه كفرة يجب جهادهم كما يجاهد الروم^(٣)، دماؤهم حلال سفكها، وأموالهم فيء، جهادهم فرض على الأعيان على كل من فيه طاقة على القتال^(٤)، وكل من قتل من الكفرة والمجسمين، فهو مخلد في نار جهنم وبئس المهاد^(٥) «اعلموا أنكم في قتال الكفرة على الحق المبين . . . اعلموا وفقكم الله أن المجسمين أشد في الصدد عن سبيل الله من إبليس اللعين^(٦) . حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها، وحرفوا الكلام عن موضعه ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة مخالفا^(٧)» . .

والمجسمون في الواقع يفسرون النصوص المجسمة والمشبهة، التي جاءت في القرآن، والحديث، والنصوص المتواترة تفسيرا حرفيا، فالله بصير سميع غضوب

(١) البيهقي ص ٤.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) المرجع السابق ص ٩.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) نفس المرجع ص ٢٠.

(٦) نفس المرجع ص ٤٠.

(٧) نفس المرجع ص ٤٠.

ضاحك يجلس ويقف له يدان ورجلان . . . وكانوا يفسرون هذه الآيات على
ظاهرها ويطلبون الإيمان الأعمى بحرفية النص^(١).

والواقع أن المسلمين في تفسير الصفات المنسوبة للخالق فريقان: فريق لم
ينكر هذه الصفات، وفريق أنكرها إنكاراً تاماً، والفريق الأول هم جمهرة أهل
السنة، والفريق الثاني هم فريق المعتزلة، أو المعتلة الذين يعطلون الصفات
الإلهية^(٢). فالفريق الأول قالوا: بأن لله صفات أزلية من العلم، والقدرة، والحياة
والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجود، والإنعام والعزة، والعظمة.
لا يفرقون بين صفات الذات، وصفات الفعل، ويشبّهون صفات خبرية مثل اليدين
والوجه، ويقولون بأن هذه الصفات قد وردت في الشرع، فوجب تسميتها صفات
خبرية، ثم قالوا إن الله تعالى ليس كمثله شيء، ولا يشبه شيئاً من المخلوقات
ولكنهم لا يعرفون معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش
استوى﴾ وليسوا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات، يكفيهم الاعتقاد بأنه لا شريك
له، وليس مثله شيء، لا يريدون التأويل، بل يقبلون النصوص على علاتها،
ويؤمنون بها كما هي^(٣). ويمثل هذا الرأي مالك بن أنس الذي لم يتعرض
للتأويل، ولا وقع في التشبيه، فلما سئل في ذلك، قال: «الاستواء معلوم
والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه^(٤)». وقد وقف أحمد بن
حنبل مثل هذا الموقف، وكذلك سفيان، وداود الأصفهاني من الأئمة^(٥).

أما المعتزلة فهم ينفون الصفات عن الخالق، ويقولون بالتأويل: الله عالم
بذاته، قادر لذاته، وقدرة وحياة هي صفات قديمة، ومعاني قديمة، واتفقوا على
نفي رؤية الله تعالى بالأبصار، ونفي الشبه عنه «من كل وجه ومكان وصورة
وجسم، وتحيز وانتقال، وزوال وتغير وتأثير». وقد سمي هذا التأويل توحيداً،
وأصبح العدل والتوحيد من أركان عقائد المعتزلة^(٦). وقد حاول الأشعرية أن
يوفقوا بين رأى أهل السنة وعلماء الكلام، فثبتوا الصفات للخالق ولكنهم

(١) ابن حزم الفصل ج٢ ص ١٤٠.

(٢) جلدزير: العقيدة الشرعية ص ٦٥-٩٦.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٦٤.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) نفس المرجع والصفحة.

(٦) الملل والنحل ص ٢٢٨.

استعانوا فى تبرير ذلك بعلم الكلام^(١)، فلم يقبلوا هذه الآيات على علاتها كما فعل أهل السنة، ولم يرق ذلك فى نظر جمهرة الفقهاء السنيين، فظلوا على رأيهم القديم لأنهم لم يكونوا يؤمنون بعلم الكلام، لأن علم الكلام فى ذاته عدو، سواء أقاد إلى نتائج سنية أو بدعية، شعارهم «فر من الكلام فى أى صورة ما يكون كما تفر من الأسد^(٢)». وقد أمر الإمام الشافعى أن يضرب المتكلمون بالسياط والنعال، وأن يطاف بهم مشهرين فى المجمع والقبائل وينادى عليهم «هذا جزاء من ينبذ علم القرآن والسنة وينكب على علم الكلام^(٣)»، والكلام علم إذا أصاب المرء فيه^(٤) لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر، ليس هنالك حاجة للعقل فى معرفة الحقيقة الدينية فهى موجودة فى القرآن، والحديث. وقد رأينا كيف أن المالكية فى المغرب كانوا يكرهون المتكلمين، ويحاربون المعتزلة حربا لا هوادة فيها ولارحمة، كانوا ينفرون من الرأى، ويأخذون على أتباع أبى حنيفة توسعهم فى ناحية الرأى لأن مالكا كان يكره أهل الرأى، وكان يقول: «الرأى والجدل فى العلم يذهب بنور العلم فى قلب العبد^(٥)».

إذن تأثر ابن تومرت بالمعتزلة فى هذه الناحية، فأنكر الصفات كما أنكروا، ونادى بالعدل كما نادوا، وقال بالتوحيد كما قالوا، فسمى أتباعه الموحدين، وصب على أهل السنة أصحاب الصفات، الذين لا يقولون بالتأويل جام غضبه، وحمل عليهم حملة منكرة، وإذا كان المعتزلة قد قالوا بأن من أجاز رؤية الله تعالى بالأبصار بلا كيف فهو كافر، والشاك فى كفره كافر^(٦)، فإن ابن تومرت اتهم القائلين بالصفات بالكفر والزندقة، أحل دماءهم وحض على جهادهم. والمعتزلة يسرفون فى التكفير، على حين أن أهل السنة لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب دون الشرك^(٧). إذن فاتهم المرابطين بالتجسيم هو اتهام عام، اتهام لأهل السنة على العموم، للفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

(١) المرجع السابق ص ٦٥.

(٢) جلد زهر: العقيدة والشرعة ص ١١٤.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٤.

(٦) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ١٥٢.

(٧) عياض: ترتيب المدارك ج ١ ص ١٣٩.

وقد أنكر ابن تومرت المذاهب كلها، كما أنكرها المعتزلة من قبل . ولم يكن عبدالله بن ياسين إلا فقيها من هؤلاء الذين ترسموا خطى إمامهم مالك وغيره من أهل السنة فى إثبات الصفات لله عز وجل . وعزوفهم عن التأويل واشتغالهم عن الخوض فى بحر خضم هو بحر علم الكلام والفلسفة، إن كفر ابن تومرت المرابطين فقد كفر المعتزلة أهل السنة جميعا وحضوا على قتالهم وجهادهم .

ليس من شك فى أن طائفة من المتأخرين، قد غلت فى التشبيه غلوا كبيرا فقالوا بأن الله تعالى جسم، وحجتهم فى ذلك أنه لا يقوم فى المعقول إلا جسم أو عرض، فلما بطل أن يكون تعالى عرضا، ثبت أنه جسم . وقالوا: إن العقل لا يصح إلا من جسم، فالبارى تعالى وجب أنه جسم، واحتجوا بآيات من القرآن فيها ذكر اليد واليدين والأيدى والعين والوجه والجنب، وبقوله تعالى «وجاء ربك» وقوله «يأتهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة» وتجليه تعالى بأحاديثه للجبل فيها ذكر القدم واليمين والرجل والأصابع . وغلوا فى ذلك وأسرفوا حتى خرجوا على ما قال به أهل السنة أنفسهم، وانحدروا إلى مهاوى الشرك^(١).

إن لم يجاوز المرابطون الحدود التى رسمتها السنة، وما أجمع عليه أهل المذاهب وإذا صح مانسبه ابن تومرت إلى المرابطين فلم اتصل إمام عظيم كالغزالي بيوسف ابن تاشفين وبارك جهاده، وسعى له عند خلفاء بنى العباس، حتى اعترفوا بشرعية حكمه، وأعجب به وبجهاده فى سبيل إحياء الدين؟^(٢) فلو كان أتباعه مجسمة كفر، أفكان الغزالي يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها تحقيق للأهداف السامية التى كان يسعى إلى تحقيقها من إحياء الإسلام الصحيح!!!

كان عبدالله بن ياسين على جادة السنة، لم يحد عنها، قام يدعو إلى الحق ورد المظالم، وقطع جميع المغارم، «وهم على أهل السنة متمسكون بمذهب مالك ابن أنس رضى الله عنه^(٣)» نعم كان عبدالله بن ياسين متمسكا بأهداف السنة عاملا على إحيائها، مالكى المذهب، متمسكا بمذهبه، حريصا عليه كل الحرص^(٤)

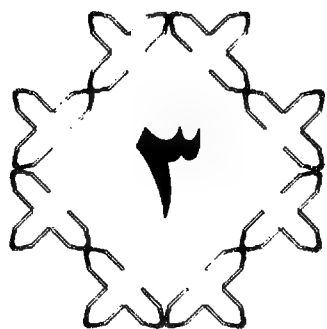
(١) ابن حزم : الفصل جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٤ .

(٤) الإتحاف ج ١ ص ٨٨

الباب الثالث



الدور المغربي

١ - أهمية الدور المغربي في تاريخ دولة المرابطين:

عرضنا في الباب السابق للدور الأول من أدوار قيام دولة المرابطين، وهو ما أطلقنا عليه اسم الدور الصحراوي، ورأينا كيف انتهى بتوحيد قبائل الملمثمين تحت راية عبدالله بن ياسين، وكيف استطاع ذلك الحلف الذي بعث بعثا جديدا أن ييسر نفوذ الملمثمين على صحراء المغرب، من مصب نهر السنغال في الجنوب حتى جبال درن في الشمال، وكيف استطاعت هذه القوى الجديدة أن تمكن للإسلام، وأن ترفع لواءه، وأن تنشر الثقافة الإسلامية في ربوع الجنوب، وأن تبصر الناس بشئون دينهم، وأن تحارب دول الزنوج وتردها إلى الجنوب فتقضي على خطرها قضاء مبرما.

ولكننا سنعرض في هذا الباب لدور آخر من أدوار قيام الدولة، نطلق عليه اسم الدور المغربي، ذلك أنه بعد أن تم للمرابطين بسط سيادتهم على الصحراء، واطمأنوا من ناحية الجنوب، بدأت جموعهم تطرق أبواب المغرب، وتندفع صوب الشمال فاتحة غازية، وتفتح في تاريخ المغرب على الخصوص، وتاريخ العالم الإسلامي على العموم، صفحة جديدة، ذلك أن الدولة الجديدة إذ تتجاوز حدود الصحراء متقدمة صوب الشمال، لم يعد تاريخها تاريخا محليا يخص تاريخ الصحراء، أو تاريخ السودان الغربي، بل بدأت تتخذ صفة عالمية، بدأت تحتك بمواطن الحضارة القديمة، وبالثقافة الإسلامية المنتشرة في أرجاء المغرب الأقصى، والمرابطون حين يردون هذا المورد، ويقتحمون هذا الميدان الجديد، يتجدد تاريخهم، ويكتسبون فوق قوتهم قوة، ويخضعون لبيئة المغرب الأقصى، كما خضعت لها الدول التي قامت هناك من قبل، فتزداد صلتهم بالأندلس^(١)، ويتشوفون إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فيحتلون الموانئ الساحلية، ويضطرون - وهم الصحراويون البدو - إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل، ويسهمون في حركة الجهاد العام، أعنى أن الدولة الجديدة ستنتقل من حركة جهاد خاص في صحراء الجنوب إلى حركة جهاد عام، إذ تدخل المعترك الدولي من أجل تثبيت السيادة الإسلامية، وتضطر إلى منازلة القوى المسيحية التي بدأت تظهر في القرن الخامس الهجري، وتنوش العالم الإسلامي، وتهدهد بالخطر.

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٢٧٤.

بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة، وقوى فتية تلم الشعث، وتوحد الجهود المبعثرة، بعد أن كاد الناس ييئسون من الوحدة، ويستسلمون لنير الغلبة، وظهورهم فى هذا الوقت المناسب يكاد يشبه ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الحوادث فى الشرق الإسلامى^(١)، فكلاهما قوتان فتيتان حديثتا عهد بالإسلام تضطربان بالحمية والحماس، وتتقدمان الصفوف فى وقت ضعف فيه المسلمون وتفرقوا^(٢).

مما تقدم، يتبين أن الدور المغربى من أدوار قيام الدولة دور بالغ الأهمية، ذلك أن قبائل المثلثين لوقعت بالسيطرة على إقليم الصحراء لتفرق شملها بعد قليل، ولضاعت الجهود الشاقة التى بذلها زعيم أمين وأمراء متفانون فى خدمة بني جنسهم. نعم لو لم تتقدم قبائل المثلثين إلى المغرب الأقصى، لما سجل كتاب تاريخ هذه الحوادث التى هزت مشاعر المسلمين فى الشرق والغرب، فإن إقدام المرابطين على فتح المغرب يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم، بعد استيلائهم على موارد المغرب المتنوعة، وبانتهاء دور الزعامة الدينية، وبروز الأمراء المثلثين من القادة والفاحين، الذين سوف تخلد المعارك التى سيخوضونها اسمهم فى مكان بارز من تاريخ الجهاد.

٣ - أسباب فتح المغرب:

وقبل أن نعرض للحوادث التى ستنتهى بفتح المغرب، لابد من أن نسأل: هل جاء المرابطون إلى المغرب تلبية لنداء الطبقة المضطهدة فى المجتمع المغربى؟. ليس من شك، فى أن المجتمع المغربى كما قلنا فى الباب الأول كان يعانى من تسلط الزناتيين، ومن سوء الحالة الاقتصادية، ومن هذه الأعباء الثقالة التى كان يرزح تحتها، ويتوق إلى الخلاص منها. روى بعض المؤرخين أن الفقهاء تطلعوا إلى هؤلاء المنقذين الجدد، يلتمسون العون ويرجون الخلاص^(٣)، ونحن لانستبعد هذا، ولكن يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن المثلثين كانوا سوف يندفعون إلى المغرب

(١) ابن دحية : النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ص ١٣٧.

(٢) Mendez pidal : The Cid and his Spain, p. 212.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨.

لفتحته، سواء استنجد بهم أهله أو لم يفعلوا، لأن عبدالله بن ياسين - كما يبدو - رسم لنفسه هذه الخطة، وجعل من أهدافه أن يسيط نفوذه على المغرب، كما بسطه على الصحراء من قبل، فقد ذكر صاحب الحلل الموشية، «أن الشيخ أبا محمد عبدالله بن ياسين لما رأى استقامة لتونة، واجتهادهم أراد أن يظهرهم، ويملكهم بلاد المغرب وقال لهم: إنكم صبرتم، ونصرتم دين رسول الله ﷺ، وقد فتحتم ماكان أمامكم، وستفتحون إن شاء الله ماوراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء^(١)».

ثم إن الحركة التى بثها عبدالله كانت بمثابة طاقة عظيمة لا بد من أن تنصرف على صورة غزوة كبرى، أو هجرة عظيمة، وهذا يتلاءم مع ما عرف عن طبائع البدو، ماتكاد قبائلهم تتحد برئاسة زعيم، حتى تهب غازية فاتحة، وكان من الممكن أن تنصرف هذه الطاقة صوب الجنوب، لولا أن جهود عبدالله بن ياسين، ومن سبقه تمضخت عن هزيمة الزوج، وإخضاعهم، ونشر الإسلام فى بلادهم، فلم تعد قبائل المثلثين تخشى أن تطعن من الخلف، إذا هى انصرفت إلى الشمال للفتح والغزو، كان لا بد إذن أن تتجه قبائل المثلثين إلى الشمال، وأن تغادر مواطنها بأية صورة، وخاصة بعد هذه الروح العالية التى بثها ابن ياسين فى هذه الجيوش الكثيفة التى حشدتها لتحقيق أغراضه وتنفيذ مشروعاته، هو تيار كان لا بد أن يندفع نحو غاية معينة، لا بد أن تتحقق فى وقت عجزت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتخاذلها.

٣- العوامل التى تحكمته فى زحف المرابطين إلى المغرب:

وقبل أن نخوض فى تفصيل الحوادث التى أدت إلى إتمام فتح المغرب، يحسن بنا أن نكشف النقاب عن العوامل التى كانت تتحكم فى حركة الزحف، صوب المغرب الأقصى، وأن نكشف عن التيارات الباطنية التى كانت تسير هذه الهجرة الكبيرة، وسنعرض لهذه الموجهات بصفة عامة، ثم نحاول أن نعرض للدور الذى لعبه كل منها فى إتمام فتح المغرب، وتحقيق ذلك الهدف الذى كان عبدالله بن ياسين يتغياه.

وأهم هذه العوامل، وأبعدها أثرا ذلك النزاع التقليدى المعروف بين قبائل

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٠.

البتري وقبائل البرانس، هذا العداء الذى ظل يوجه تاريخ المغرب الأقصى مدة خمسة قرون متوالية. احتدم النزاع أول الأمر بين صنهاجة الجيل الأول وزناتة، وتدخلت الدولتان الفاطمية والأموية فيه، ثم مالبت شمل صنهاجة الجيل الأول أن تفرق بعد أن غزا عرب بنى هلال إفريقية، وقوضوا صرح الدولة البربرية، وبدعوا يترقون أبواب المغرب الأوسط، ويهددون دولة بنى حماد^(١)، ولكن صنهاجة الجنوب أهل اللثام استطاعت أن تتم وحدتها على يد عبدالله بن ياسين، وبدأت قلوب أفرادها تضطرم بحمية دينية لم تعهد من قبل.

شاءت الأقدار أن تهوى صنهاجة الجيل الأول لتخلفها صنهاجة الجيل الثانى وقد رشحتها الحوادث لزعامة شعب البرانس على وجه العموم، وكان عليها أن تتمكن لهذه الزعامة بأن تخف إلى مناضلة البتري، الذين أذلوا المثلثين طوال القرون السابقة، واضطهدوهم، ونكلوا بهم. تفرق شمل زناتة، وضعف شأنها بعد انهيار الخلافة الأموية بالأندلس، فى وقت اتحدت فيه صنهاجة الجنوب، واشتد ساعدها، وبقي عليها أن تخف إلى الميدان، منتهزة هذه الفرصة للأخذ بذلك الثأر القديم، وانتزاع هذه الأرض الخصبة التى ظل الزناتيون يسيطرون عليها فترة طويلة، هذا إلى جانب أن القبائل الزناتية فى المغرب الأقصى كانت تسد مسالك البلاد، وتحاول أن تقاسم شعوب المثلثين رزقهم من تجارة المغرب والسودان، فكان على المثلثين إذا أرادوا أن تخلص هذه التجارة لهم كلها أن يناضلوا زناتة، وأن يخفوا إلى قتالها.

وهناك عامل آخر لا يقل عن العامل السابق أثرا فى إذكاء تيار الغزو، وهو الرغبة فى تحقيق الدعوة، التى بثها عبدالله بن ياسين، منذ كان يريد أن يجند قبائل المثلثين فى حركة لتطهير المجتمع الإسلامى كله، كان يريد أن تمتد صيحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى المغرب والأندلس، ولعل هذا يفسر ما ذكره المؤرخون من استنجاد الفقهاء^(٢)، واستغاثتهم بالمرابطين، فبعد أن انتهى جهادهم الأصغر بالصحراء، لم يكن بد من أن يتطلعوا إلى جهاد أكبر بميدان المغرب والأندلس.

(١) Marcais: Las Arabes en Berberie Du Xli au xiv Siecle p. 127

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١.

وهناك عامل ثالث اشترك مع العاملين السابقين في توجيه المثلثين صوب المغرب الأقصى، ذلك أن الصحراء أصبحت تضيق بجموع المرابطين، الذين كانوا يتزايدون يوما بعد يوم^(١)، وكان لابد من أن يجد أولو الأمر لهم مجالا حيويا يتجهون إليه^(٢)، بعد أن ضاقت في وجوههم سبل الرزق بالصحراء.

هذه إذن هي المعالم الرئيسية للعوامل الثلاثة التي ساعدت على توجيه فتح المرابطين للمغرب، والتي أذكت هذه الحملات المتعددة، التي شنها المثلثون، حتى تهيأ آخر الأمر أن يفتحوا هذه البلاد، وأن يتموا المرحلة الثانية من مراحل قيام الدولة. ولكن بقي علينا أن نفصل هذه العوامل، وأن نتبعها من البداية إلى النهاية، لنرى إلى أى حد أسهمت في إتمام هذا الفتح.

٤ - تحقيق بدء تدفق المرابطين صوب المغرب:

وقبل أن نعرض لقصة الصراع بين زناتة وحلفائها، والمثلثين وحلفائهم، يجدر بنا أن نحقق تاريخ بدء تدفق المرابطين صوب المغرب الأقصى، لأن روايات المؤرخين فيما يتعلق بهذا التاريخ مضطربة أشد الاضطراب، متضاربة أشد التضارب، والسبب في ذلك يرجع - على ما يبدو - إلى أن المؤرخين لم يدونوا أخبار هذه المرحلة الأولى إلا بعد أن تم قيام الدولة، وبرزت في عالم المغرب قوة مستقرة، كما أن النقود والنقوش التي يمكن أن يعتمد عليها لضبط هذه التواريخ لم تظهر بعد أن استقرت الدولة في أرض المغرب، وبدأت بعد أن تهيأت لها أسباب القوة والاستقرار تسك النقود وتشييد العمائر.

والمؤرخون في تحديد تاريخ بدء هذه الحملة فريقان. فريق يسوق تواريخها بعد سنة ٤٥٠ هـ^(٣)، وفريق آخر يذكر أن زحف المرابطين على المغرب الأقصى بدأ قبل سنة ٤٥٠ هـ^(٤)، أما رواية الفريق الأول فنستطيع أن نستبعداها، ونحن مطمئنون غاية الاطمئنان، لأن أول نقود ظهرت للمرابطين ضربت بمدينة سجلماسة^(٥) سنة

(١) ابن الأثير ج٩ ص ٢٥٩.

(٢) A.Bel: Les Benou Ghanya, p.vi.

(٣) ابن الأثير ج٩ ص ٢٥٩، النويري نهاية الأرب ج٢ ص ١٧٧ أبو الفدا ج٢ ص ١٨٣. ابن الخطيب رقم الحلل ص ٥١.

(٤) ابن عذاري: البيان ج٣ ص ٢٤٣ ابن خلدون ص ١٨٣ صبح الاعشى ج٥ ص ١٦٨

(٥) Laveix: Catalogue des Monnaies de la Bib. Nat. pp. 556-554.

Piece: 507, Menéas de las Dinatias Araigo Espanolas. Piece: 1425.

٤٥٠هـ ، ولا يعقل بالطبع أن يضرب المرابطون النقود في مدينة لم يتم لهم فتحها، فلا بد إذن أن يكون المرابطون قد تحركوا صوب المغرب في تاريخ سابق لسنة ٤٥٠هـ، تاريخ ظهور أول عملة مرابطية.

وقد ذكر ابن خلدون ^(١) أن فتح المغرب بدأ عام ٤٤٥هـ، ولا يعقل أن يستغرق سير المرابطين من ديارهم بالجنوب صوب واحات المغرب الأقصى خمسة أعوام طوال، وإن كان بعض المؤرخين قد ذكر أن إقليم الواحات الجنوبية فتح مرتين : فتح مرة فاسترده الزناتيون، ثم استعاده المثلثون من جديد. ويخيل إلينا أن النضال حول سجللماسة استمر مدة لاتزيد على ثلاث سنوات، وعلى ذلك تعتبر رواية صاحب البيان من هذه الناحية أقرب إلى التصديق، لأنه ذكر أن الحملة بدأت حول سنة ٤٤٧هـ ^(٢)، أو بعد هذا الوقت بقليل.

٥ - النزاع بين البرانس والبتروأثره في فتح المغرب:

خرج المرابطون إذن من ديارهم في الجنوب في هذا الوقت، بقصد فتح المغرب الأقصى، ومصارعة البتر، والقضاء على قوة زناتة قضاء مبرما، ومن الغريب أن النزعة القبلية سيطرت على هذه الحملة، وتحكمت فيها، وكانت توجهها كيف تشاء، وقد كان من الممكن أن تتقدم القبائل في زحفها بحذاء الساحل، فتسير في بلاد تحتلها قبائل المثلثين، حتى تدرك جبال درن، ثم تسلك نفس الطريق، الذي سلكه عقبة بن نافع، وموسى بن نصير من قبل، فتستطيع أن تطوق الدولة الزناتية، وتجعلها بين شقى الرحا، ولكن المثلثين لم يفعلوا ذلك، بل كان هدفهم الأول مهاجمة منطقة الواحات الجنوبية بالذات، هذه المنطقة الممتدة من وادي درعة في الجنوب، حتى مدينة تافللت في الشمال، لا لشيء إلا لمهاجمة الإمارة البترية صاحبة السلطة على هذه الرقعة الصحراوية من صحراء المغرب، فقد كان مسعود ابن وانودين بن خزرون المغراوي ^(٣) من أشد الناس عدا لاصنهاجة الجنوب، إذ كان يقف وقبيلته من خلفه سدا منيعا يحول بينهم وبين تدفقهم صوب الجنوب، لذلك لانعجب إذا رأينا جموع المثلثين تنقض أول ماتنقض على الخط الزناتي الأول.

(١) ابن عذاري ج ٦ ص ١٨٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣.

(٣) الحلل المؤشبة في الأخبار المراكشية ص ١٢، البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٤ وج ٣ ص ٢٤٣. القلقشندى ج ٥

ص ١٦٨ (op. cit.) Julien p.378

وقد خرج المرابطون أول الأمر فى جيش ضخم^(١)، ونزلوا وادى درعة^(٢)، فلما أحس أمير مغراوة بالخطر يقترب من دياره، خرج فى اثنى عشر ألفا من قومه^(٣) للقاء المرابطين، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمامهم، فقد كانت تعاليم ابن ياسين قد وحدث صفوفهم، وألفت بين قلوبهم، فاعتقدوا أنهم إنما يخوضون الحرب دفاعا عن المستضعفين من أهل البلاد، الذين أذلهم الزناتيون، ولم تصمد القوات الزناتية طويلا، ولم تظهر ماعرفت به من شجاعة وفروسية، فقتل مسعود، وتفرق شمل الزناتيين^(٤)، وفتح طريق وادى درعة أمام المرابطين، الذين أخذوا يتقدمون صوب الشمال كيفما أحبوا. وقد تقدم المرابطون على الفور، يتعقبون فلول الزناتيين، وينكلون بهم، ولكن يبدو أن الزناتيين لم يستسلموا لليأس، ولم يستكينوا للغلبة، فقد كانوا يعرفون أن هذه الحرب كانت حرب حياة أو موت، لو غلبوا على أمرهم علت كلمة البرانس، وتم لهم التفوق والسيطرة على المسالك الجنوبية المؤدية إلى المغرب، فاعتصموا بمدينة سجلماسة، ودافعوا عنها دفاع الأبطال، ولكن المرابطين اقتحموها بالسيف وأوقعوا بهم، وفرقوا شملهم، وتمت لهم الغلبة، وعقد لهم لواء النصر^(٥).

ولكن زناتة لم تصبر على الهزيمة، فما كادت بعض جموع المرابطين تعود إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج^(٦)، حتى هب الزناتيون، وأعملوا فى المثلثين السيف، وقتلوا حامية المرابطين بسجلماسة، وكادت انتصارات المرابطين تضيع هباء، لولا أن عبدالله بن ياسين حرضهم على الحرب مرة أخرى، وأخذ يذكى فى قلوبهم جذوة الجهاد، فعادوا أقوى مما كانوا، موطدين العزم على كبح جماح الزناتيين، مهما كلفهم الأمر، ولم تصمد زناتة الجنوب أمام رحف المرابطين، وانتهى الأمر بهزيمتها شر هزيمة، ووطد المرابطون أقدامهم فى إقليم

(١) لسان الدين بن الخطيب: رقم الحلل ص ٥٢ (De. la Chapelle p.62)

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١.

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩.

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١.

(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢. البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣. صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٨.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١.

الواحات ^(١) وأسسوا مدينة تبلبلا ^(٢)، واتخذوها قاعدة للمرحلة التالية من مراحل فتح المغرب.

مهما يكن من شيء، فقد كسب البرانس من صنهاجة الجنوب الجولة الأولى في هذه الحرب، وانهار صرح ذلك الحصن، الذي كان يحرس مضارب زناتة في الجنوب، وسيطر على مسالك الصحراء، نعم، حقق ذلك النصر ثماره المرجوة، ورفع كلمة المرابطين في إقليم الواحات، وانتشرت أخبار ذلك النصر في أرجاء المغرب كله، مؤذنة بظهور هذه الدولة الفتية على يد هؤلاء القوم الأشداء من بدو الصحراء.

وكان من الممكن أن تنصرف جهود المرابطين بعد أن تمت السيطرة على إقليم الواحات، والقضاء على إمارة مغراوة في الجنوب، إلى تخطي النطاقات الجبلية الواقعة في الجنوب، ثم تنقض على قلب بلاد المغرب، ونعني به إقليم فاس، ذلك الإقليم الذي إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسيطر على أقاليم المغرب الأقصى كله دون عناء، ولو فعل المرابطون ذلك لاستطاعوا أن يشطروا الجبهة الزناتية شطرين، ويحولوا بين زناتة المغرب الأوسط، وبين مد يد المعونة لإخوانهم أهل المغرب الأقصى، ولكن يبدو أن الرغبة في الانتقام السريع من أعدائهم للبتر لم تسيطر عليهم هذه المرة، إنما سيطر على إقليم السوس الأقصى، وتكون كتلة متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة ^(٣). كانت قبائل المصامدة تكره الزناتيين أشد الكره، وتضيق بحكمهم، وتتحين الفرص للقضاء عليهم، وكانت تتوق إلى حليف تشد أزره، وتبارك جهوده، وقد وجدت ذلك الحليف المنتظر في قبائل الملثمين الزاحفة من إقليم الواحات، فروى المؤرخون أن المصامدة لم يقاوموا المرابطين، بل غاونوهم، وأيدوهم، ومدوا لهم أيديهم لمناضلة الزناتيين عدوهم المشترك، سواء أكان ذلك خوفا من المرابطين، أو رغبة في الانتقام من الزناتيين، فقد يسروا مهنة الغزاة، فاستطاعوا في وقت قصير أن يجتاحوا إقليم السوس الأقصى في جموع حاشدة، فاستولوا على بلاد جزولة، وبلدة ماسة، ودخلوا تارودنت

(١) رقم الحلل ص ٩. روض القرطاس ص ٨١ De LaChapelle: Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, t.xl. p.62.

De LaChapelle: (op. cit.) p.62. (٢)

Terrasse: Hist du Maroc, p.177. (٣)

عاصمة الإقليم دون مقاومة تذكر^(١)، ثم عبروا ذلك النطاق الجبلى العظيم المعروف بجبال درن عند أطرافه القرية من ساحل المحيط^(٢)، ولم يكن يتيسر لهم ذلك أبدا، إلا بعد استرضاء قبائل المصامدة، فلو لم يتم استرضاءهم لانقضوا عليهم من خلاف، فأتوا على جهودهم، وفرقوا شملهم.

لذلك يعتبر استرضاء المصامدة عملا سياسيا ممتازا، كما يعتبر اجتياز نطاق جبال درن عملا عسكريا ممتازا أيضا، ويدل على أن هذه القبائل البدوية لم تكن مجرد جموع بغير نظام، كما يدل على أن الجيش المرابطى كان منظما أدق تنظيم، يعمل كوحدة متماسكة متعاونة، وقد استولى المرابطون على شقشاوة ونفيس، وبلاد رودة، وإقليم جدموية، وأتتهم قبائل رجراجة، وحاجة مستسلمة مبايعة^(٣). وقد أوغل المرابطون فى إقليم السوس حتى وادى تنسيفت، الذى يصب فى المحيط الأطلسى، وبذلك سقط فى أيديهم آخر معاقل بلاد السوس، وأطاعتهم جميع قبائلها^(٤)، وأصبحوا سادة الجنوب دون منازع. نعم، استطاعوا أن يسيطروا ظلمهم على إقليم مراكش الجنوبية، وأن يقطعوا فى سبيل فتح المغرب الأقصى شوطا بعيدا، إذ مما لاشك فيه أن هذه الانتصارات المتلاحقة كانت تشد من أزر عبدالله ابن ياسين، وتزيد من بعد صيته ومن قوته، وتقوى روح الترابط، والاتحاد بين القبائل الملتزمة، مادامت قد جنت هذه الثمار الأولى.

بقيت لدينا ناحية أخرى لابد من أن نعرض لها، وهى تحديد التاريخ الذى أتم فيه المرابطون فتح إقليم السوس الأقصى، ونحن نعلم أن إقليم الواحات تم إخضاعه للمرة الأولى حوالى سنة ٤٤٧هـ، ولايبعد أن تكون الحرب الزناتية الصنهاجية قد استغرقت عاما أو عامين؛ لذلك نميل إلى تصديق رواية ابن خلدون التى تذكر أن فتح إقليم السوس تم سنة ٤٤٩هـ^(٥)، على وجه التقريب، ومما يعزز هذا رأى أن المراجع التى بين أيدينا تشير إلى أن عبدالله بن ياسين قتل فى

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣. (De La Chapelle, (op. Cit.).

p.62. دائرة المعارف الإسلامية: مادة مرابطين (A.Bel).

(٢) Julien,(op.cit.) p.379.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٢.

(٤) المصدر السابق والصقحة نفسها.

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

حرب برغواطة عام ٤٥٠هـ، وهو لم يقدم على محاربة برغواطة إلا بعد أن تم إخضاع إقليم السوس الأقصى^(١).

وقد أخذت النزعة القبلية تتحكم فى سير حملة المرابطين مرة أخرى، فقد كان على قوات المثلثين الزاحفة أن تتقدم صوب الشمال مخترقة ديار برغواطة فى طريقها إلى السهول الشمالية، لتقطع صلة المغرب بالأندلس، ولكنهم انصرفوا فجأة صوب الشرق، لمنازلة البتر مرة أخرى، ذلك أن لقوط بن يوسف بن على المخراوى كان قد أسس إمارة بترية فى منطقة أغمات^(٢)، وكانت هذه الإمارة وإمارة بترية أخرى فى منطقة تادلة تعتبران حصونا أمامية يجب على الغزاة أن يستولوا عليها قبل الهجوم على منطقة فاس، ومصارعة الإمارة الزناتية المسيطرة عليها، لذلك اجتاحت جموع المرابطين منطقة أغمات، ويبدو أن لقوط البرغواطى أخذ على غرة، فقد حاصرته القوات المهاجمة بالمدينة، وشدت عليه النكير^(٣)، غير أن أميرها استطاع أن ينفذ من ذلك الحصار، وفر بنفسه ملتجئاً إلى الإمارة البترية الأخرى^(٤) فى منطقة تادلة، فاقترحم المرابطون المدينة بالسيف، واستولوا على وريكة وهيلانة وهزميرة^(٥)، ويبدو أن موقع مدينة أغمات صادف هوى فى نفوس الفاتحين، فاتخذوها أول حاضرة لهم بالمغرب، ولم يتركوها إلا بعد أن تم لهم بناء مراكش، على النحو الذى سنعرض له فيما بعد، وقد فرت القوات الزناتية لما فر أميرها، والتجأ إلى أمراء تادلة^(٦)، فلم يجد المثلثون بدا من أن ينقضوا على إمارة تادلة هى الأخرى، وقد حاقت الهزيمة بالقوات البترية هناك، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة^(٧)، وبذلك أفلح المرابطون فى القضاء على الإمارات الزناتية فى إقليم الجنوب، ولم يبق أمامهم لتعلو كلمتهم وتتم له الغلبة على الشعب الزناتى أجمع، إلا أن يقضوا على الإمارة المسيطرة على منطقة فاس والجهات المحيطة بها.

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢. ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٢.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٤.

(٧) De lachapelle: Esquisse d' une histoire de sahare p. 62.

ولكن يجدر بنا هنا أن نعلم إلى تحقيق تاريخ استيلاء المرابطين على منطقة أغمات، محاولين ضبطه بقدر الإمكان، والمؤرخون في صدد هذا التاريخ فريقان: فريق يذكر أن المرابطين قد دخلوا أغمات عام ٤٤٩هـ^(١)، وفريق آخر يذكر أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠هـ^(٢)، ومن الغريب أن أغلب هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن عبدالله بن ياسين دخل أغمات سنة ٤٥٠هـ^(٣)، قبل أن يتقدم لحرب قبيلة برغواطة، ويذكرون أيضا أنه قتل في نفس هذه السنة وفي نفس هذه الحرب، وقد رأينا كيف أن المثلثين دخلوا بلاد السوس الأقصى سنة ٤٤٩هـ، فلا يعقل أن يكونوا قد وصلوا أغمات في نفس السنة مع بعد الشقة بين إقليم السوس الأقصى ومنطقة أغمات. وإذا كانت حملة إقليم الواحات قد استغرقت أكثر من عامين، فلا يبعد أن يكونوا قد دخلوا منطقة أغمات في أواخر سنة ٤٤٩هـ، أو أوائل سنة ٤٥٠هـ، ويخيل إلينا أن هذا الرأي هو أقرب هذه الآراء إلى الحقيقة.

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر في أغمات وتادلة، لم يواصلوا الفتح على الفور فقد بقيت قواتهم بمدينة أغمات حتى سنة ٤٥٢هـ، ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى مآذركه من مقتل عبدالله بن ياسين قائد المرابطين وإمامهم، واضطرارهم إلى اختيار من يخلفه، على كل حال يذكر المؤرخون أنهم قد عاودوا الهجوم سنة ٤٥٢هـ^(٤)، بعد أن خلصوا من مشاكلهم، وتم اختيار خلف لعبدالله ابن ياسين، وكان الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه هو القضاء على القوات البترية الأخرى، التي هزمت في معركة أغمات وتادلة، وفرت إلى الشمال لتلم شعثها، وتعود إلى مصارعة المثلثين من جديد، فقد انقضت قوات المرابطين على ديار بني يفرن، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة، ففروا إلى الشمال إلى منطقة فاس، يلوذون بأمرائها الزناتيين، واحتل المرابطون مدن فازاز، ولواتة ومكناسة^(٥).

ويبدو أن صدى هذه المعارك الحامية الوطيس التي كانت محتدمة بين البرانس والبتري قد ذاع في المغرب كله، وأخذت القوات البترية والبرنسية المنبثة في بلاد

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢. مفاخر البربر ص ٥٢ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ ابن خلدون ص ١٨٣.

(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ مفاخر البربر ص ٥٢. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ ابن خلدون ص ١٥٢ صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٣.

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥.

المغرب تنهياً لامتشاق الحسام دفاعاً عن كيانه، فقد روى المؤرخون أن بلكين الحمادى خف إلى المغرب الأقصى، ليمد يد العون لبني عمومته أبناء صنهاجة الجنوب فى هذه المعركة التاريخية الدائرة الرحي^(١). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال، وصنهاجة الجنوب واعتقادهما أنهما يقاتلان عدواً مشتركاً، يشتركان فى كرهه، والرغبة فى القضاء عليه، وقد دخل بلكين مدينة فاس، وطعن الزناتيين من الخلف، ولكنه مالبث أن ارتد إلى المغرب الأوسط مرة أخرى.

ومهما يكن من شيء فقد تخضعت حركته عن إحداث اضطراب فى صفوف الزناتيين، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا بين عدوين كبيرين، وكانت البطون الصنهاجة الأخرى المنتشرة فى أرجاء المغرب الأقصى تنضم لجيش المرابطين، وتخف إلى لمجدهم، وتقدم لهم المعونة الصادقة^(٢)، ويبدو أن تيار الفتح كان قد بلغ مداه، وأن له أن يتوقف بعض الشيء، فقد توقفت حركات المرابطين، وكفوا عن الزحف حتى سنة ٤٥٤هـ، ومما يساق فى تفسير ذلك التوقف أن بعض القوات المرابطة اضطرت إلى السير نحو الجنوب، لإخضاع ثورة قام بها الزنوج^(٣) كما أنه بقى على المرابطين قبل أن يخوضوا المعركة الكبرى التى ستقرر مصير المغرب كله أن يستعدوا لها كل الاستعداد، فيريحوا الجند، وينظموا شئون البلاد، ويؤمنوا القبائل، حتى إذا انصرفوا إلى الفتح لم يطعنوا من الخلف، فتذهب ريحهم ويتفرق شملهم، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن تأمين البلاد المفتوحة، وإقرار السكينة بين ربوعها خير من التعجيل بزحف لا تؤمن مغيبته لذلك اختطوا مدينة مراكش فى هذا الوقت بالذات، أعنى سنة ٤٥٤هـ^(٤)، لتكون معسكراً لقواتهم تستطيع أن تقيم فيه، وهى مطمئنة كما تستطيع أن تتخذها نقطة ارتكاز تتدفق منها صوب أهدافها الجديدة.

(١) ابن عذراى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٥. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤

Juien, (op. cit.) p. 379. Gautier (op.cit) p. 377.

De lachapelle : Esquisse d'une histoire de sahare p. 62. (٢)

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥.

(٤) ابن بىاسم : الذخيرة (مخطوط بغداد)، القسم الثانى ص ١٤. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤. صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

أفاد المرابطون حقا من هذه الهدنة الطويلة التي أعقبت فتح أغمات، فقد أخذوا يتهيئون للمعركة الكبرى التي سوف تحدث على بطاح إقليم فاس، ويخيل إلينا أنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أهمية هذا الاشتباك الكبير، الذي يقفون فيه أمام القوى الزناتية وجها لوجه، لذلك عنوا بالجيش عناية فائقة، وأمعنوا فى تنظيمه وتسليحه، فاستكثروا من الجند، واتخذوا الطبول، والبنود، وجعلوا فى جيشهم الأغزاز والرماة، كل ذلك إرهابا لقبائل المغرب^(١)، حتى لقد قيل إن الجيش المرابطى بلغت عدته أزيد من مائة ألف فارس^(٢)، وهو قول وإن بولغ فيه بعض الشيء، إلا أنه يدل على أن ذلك الطابع البدوى الذى كان من سمات القوات المرابطية الأولى قد بدأ يختفى وبدأت الجيوش تنظم على أساس حديث.

ويبدو أن سياسة المرابطين فى استرضاء قبائل المغرب، وتأليف قلوبها قد آتت أكلها، وأقبل المصامدة على الاشتراك فى الجيش، وانخرطت فى سلكه الفرق الزناتية، وبعض فرق من برغواطية نفسها^(٣)، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المرابطين بدءوا يضعون أيديهم على موارد حربية هائلة، سواء فى الرجال أم الأموال، وبدأت الدولة تخلص من الطابع الصحرواى نهائيا، وتتخذ طابع الدول التى قامت على مسرح المغرب من قبل، وأخذت منذ ذلك الوقت تتخذ سياسة مغربية صرفة^(٤).

وبعد أن تم استعداد المرابطين، وتم تهيؤهم قرروا خوض المعركة، والمضى بتيار الزحف قدما، وهنا نجد أن الإحن القبلية تتحكم فيها مرة أخرى، فبدلا من أن ينقضوا فى غزوات خاطفة صوب الشمال، بحذاء البحر، بعد أن هزمت برغواطية، نجدهم ينحرفون صوب الشمال الشرقى، صوب ديار زناتة عدوهم اللدود، ويخيل إلينا أن المرابطين كانوا محقين إلى حد ما، لأنه لا تظمئن قلوبهم وهذا العدو المرهوب جائم بمدينة فاس وضواحيها مستعد للأخذ بناصيتهم فى كل حين، كما كانوا يدركون أن مدينة فاس، والوادي الذى تقع فيه مركز الثقل فى المغرب الأقصى كله، موارد متوافرة وحضارته راقية، كما أن من يسيطر على فاس

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) rrasse :Hist'du Maroc, p.119.

يستطيع دون عناء إذا توافرت له القوة أن يتحكم فى السهول الشمالية كلها، لذلك قرر المرابطون التقدم صوب فاس مهما كلفهم ذلك من تضحيات

وما كاد الزناتيون وحلفاؤهم يشعرون بذلك، حتى أخذ القاسم المكناسى ينظم المقاومة فى وجه المرابطين فى الشمال الشرقى^(١)، ولكن ماكاد هذا الأمير يلتحم بجيوش المرابطين، حتى حلت به الهزيمة، ولاذ بالفرار، ودخل الزاحفون مدينة مكناسة، وفرقوا شمل القبائل الزناتية الضاربة بالقرب منها، ثم تابعوا الزحف فاستولوا على قلعة مهدى، وصيفرو دون عناء، ولكنهم ماكادوا يتقدمون مرة أخرى، حتى تألفت قبائل زواغة، ولماية، وصدية، وسدراتة، ومغيلة ومديونة واتخذوا مدينة مدية معقلا لمقاومتهم^(٢). ولكن المرابطين تمكنوا من اقتحامها، ودخلوها بالسيف، وقتلوا من البتر أعدادا غفيرة، بذلك فتح الطريق إلى فاس وزحف المرابطون بقصد الاستيلاء على هذه المدينة الهامة، والمؤرخون يجمعون على أن المرابطين دخلوا مدينة فاس للمرة الأولى سنة ٤٥٥هـ^(٣) وهذا تاريخ مقبول إلى حد ما، وخال من المغالاة، وإن كان صاحب كتاب جامع تواريخ^(٤) فاس يذكر أن ذلك تم عام ٤٦٠هـ ويبدو أنه قد خلط بين الحملة الأولى والثانية.

ويبدو أن المرابطين بعد هذه الانتصارات المتلاحقة قد أعجلهم الطمع، فتركوا بمدينة فاس حامية ضئيلة، ثم أخذوا يتقدمون صوب الشمال فى بلاد غمارة^(٥) بقصد الالتفاف حول مدينة طنجة، والاستيلاء عليها، ونسوا أن العدو لهم بالمرصاد.

وكانت القوى الزناتية فعلا تتربص بهم الدوائر، وكانت القبائل الزناتية طوال تاريخها لاتعرف اليأس، فما تكاد تحيق بها الهزيمة، ويظن الناس أنها القاضية حتى تتحدر من جديد، وتخف إلى النضال والمقاومة، وفعلا اتخذوا فرصة توسع المرابطين صوب الشمال، فأشعلوا نار الفتنة، ونشبت معارك عنيفة

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) ابن القاضى حذرة الاقتباس ص ٥٢. صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٧

(٤) جامع تواريخ فاس ص ٢

(٥) القلقشندي. صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٧

تذكرنا بتلك المعارك الحامية الوطيس، التى نشبت فى بلاد المغرب بين البرانس والبربر طوال القرون السالفة.

وروايات المؤرخين^(١)، فيما يتعلق بهذه المقاومة متضاربة أشد التضارب، مختلفة أشد الاختلاف، ومهما يكن من شىء فقد روى صاحب روض القرطاس^(٢) أن المرابطين أرسلوا إلى حليفهم المهدي بن يوسف الكزبائي زعيم مكناسة، يطلبون إليه السير بقواته صوب الشمال للمساهمة فى فتح السهول الشمالية، فما كاد المهدي يهم بالمسير حتى كانت القوات الزناتية قد لمت شعثها، وتقدم تميم بن معنصر بن المعز بن زيري، يعاونه بنو موسى بن أبى العافية ملوك زناتة وتسول^(٣)، والتقوا بالمهدي فهزموه شر هزيمة، وخر صريعا فى الميدان، وأرسل المكناسيون يستنجدون بقائد المرابطين سنة ٤٥٦هـ^(٤) فبعث المرابطون فحدا تنقذ حلفاءهم من برائن الزناتيين، وخصوصا بعد أن اقتحم الزناتيون مدينة فاس وقتلوا الحامية المرابطية^(٥)، ونكلوا بها شر منكل، وقد أحاطت قوات المثلثين بمدينة فاس. ولكن الزناتيين قاوموا مقاومة رجل واحد، ثم خرجوا للقاء المرابطين خارج أسوار المدينة، فأوقعوا بهم وهزم المرابطون هزيمة نكراء^(٦)، وأصبح موقفهم فى غاية الخطورة، وكادت تضيق جميع الجهود التى بذلت فى فتح منطقة فاس، كما خشوا أن تنتشر أخبار هذه الهزائم، وتتألب القبائل التى استكانت، وحالفت المرابطين خوفا من بطشهم، فاضطر قائد المرابطين إلى أن يعود أدراجه إلى مدينة فاس مرة أخرى، وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم^(٧)، وشرع يسترد البلاد المحيطة بها، حتى عزلها عن الجهات المجاورة لها^(٨)، وقد اضطرت المدينة بسبب اشتداد وطأة الحصار إلى التسليم، فدخلتها قوات المرابطين ونكلت بالزناتيين، وقتل أغلبهم، وفرت البقية الباقية منهم إلى المغرب الأوسط حتى لقد قيل: إن

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ٢٦٥. ابن أبى زرع: ص ٧٠، ابن خلدون ج٦ ص ١٨٥، جامع تواريخ فاس ص ٢٠. صبح الأعشى ج٥ ص ١٨٧. الإنحاف ج١ ص ٢٧.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩٠.

(٣) ابن خلدون ج٦ ص ١٨٥.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) جامع تواريخ فاس ص ٢٠.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩٠.

(٧) المرجع السابق ص ٧٠.

(٨) المرجع السابق ونفس الصفحة.

عدج من قتل من بنى يفرن وزناته ثلاثة آلاف، وأمعن يوسف فى التنكيل بأهل فاس، كما هدم أسوار المدينة هدمًا، ويسقط مدينة فاس تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذى احتدم بين زناته وبين صنهاجة الجنوب، وقد تفرق شمل زناته، ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر. وللأستيلاء على فاس أهمية بالغة الأثر، فقد فتح الطريق أمام المرابطين ليطمأ ففتح المغرب الأقصى كله، ويستولوا على السهول الساحلية، كما أنه يمثل بدء احتكاك المرابطين بالحضارة المغربية الأندلسية، التى كانت مزدهرة بفاس والسهول الساحلية من إقليم الريف.

ومهما يكن من شىء، فقد نجح المرابطون فى القضاء على قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى، ولكن بقيت بعض فلولهم بالمغرب الأوسط تتحفز للنضال من جديد، وكان المرابطون يودون لو انصرفوا إلى السهول الشمالية لإتمام فتحها، فتكمل سيطرتهم على إقليم المغرب الأقصى جميعه، ولكنهم آثروا أن يتموا قصة الصراع مع الزناتيين، ويمضوا فيها حتى نهايتها. فقد رأينا كيف خفت بعض البطون الزناتية بالمغرب الأوسط إلى ناحية الزناتيين بفاس، ورأينا كيف أن بعض البطون الزناتية قد آوت إلى المغرب الأوسط، لتتجمع فيه، وتتهيأ للقيام بعدوان جديد، فأثر المرابطون أن ينقضوا على المغرب الأوسط، فيأتوا على المقاومة الزناتية ويضعوا لها حدا، حتى ينصرفوا إلى فتوحهم مطمئنين.

ويخل إلينا أنه لو أن الدولة الحمادية كانت قوية فى ذلك الوقت، لاطمأن المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناته المغرب الأوسط إلى بنى عمومتهم، ولكن حدث فى ذلك الوقت أن بدأت جموع الأعراب بعد أن اجتاحت إفريقية تطرق أرض بنى حماد، فشغلوا عن المغرب الأوسط ولم يستطيعوا أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند، لذلك لم يتردد المرابطون فى التوسع صوب الشرق، فاستولوا على وادى ملوية، ومدينة ومطاط، ووجدة^(١) وانقضوا على إقليم تازا، وأوقعوا بالقاسم بن أبى العافية عند أقرسيف^(٢)، ثم انقضوا على مدينة تلمسان وفتحوها^(٣)، كما فتحوا وهران وتنس، وبلغت قواتهم مشارف إقليم

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ١٥٨، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ١٠٨.

(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢١.

الجزائر، وكان من الممكن جدا أن يتم لهم فتح إفريقية، لو كان فى نيتهم المضى إلى فتحها، لأن هذه البلاد إذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها، وأصبحت صنهاجة الشمال بسبب عرب بنى هلال بأضرار جسيمة، إنما يخيل إلينا أن المرابطين وقفوا عند حدود الجزائر، ولم يجاوزوها، لا إشفافا من فتح إفريقية إنما إبقاء على صلات القربى بينهم وبين بنى حماد.

وتمخضت هذه المعارك الخطيرة، وهذا الكفاح الطويل الذى استمر نحو عشرين عاما (٤٤٧هـ - ٤٦٧هـ) عن نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة - ربما لأول مرة - منذ وقت طويل تسيطر على إقليم المغرب كله، فتسيطر صنهاجة الشمال على إفريقية، ينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى، فارتفع شأن البرانس، وتقلص نفوذ البتر، وأصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع. نعم، كفاح طويل مرير أذكته العصبية المتأججة، واستمر عشرين عاما حافلة بالكفاح.

وقد نسأل لم استغرق المرابطون فى فتح المغرب هذه السنين الطويلة، على حين استطاع الفاطميون وحلفاؤهم أن يوغلوا فى المغرب كله، فى سنوات قلائل يخيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلى الطرق التى سلكها الفاطميون، وتلك التى سلكها المرابطون، فقد سلك الفاطميون الطرق والوديان المؤدية من الشرق إلى الغرب، وهى وديان سهلة العبور تستطيع القوات المتفرقة أن تمضى فيها قدما، لكن التوغل حتى ساحل المحيط لايعنى فتح المغرب الأقصى كله، إذ تبقى بعد ذلك المناطق الهضبية، والجبلية، والصحراوية. أما المرابطون فقد جاءوا من الجنوب، وفتحوا إقليم الصحراء، ثم توغلوا فى المغرب الأقصى يفتحون إقليما بعد آخر، لم يتركوا ناحية إلا أوغلوا فيها، سواء فى الهضاب أم الجبال أم فى السهول، لذلك استغرقوا هذا الوقت الطويل، وجاء فتحهم للمغرب أتم من أى فتح آخر.

٦ - تعاليم ابن ياسين وأثرها في فتح المغرب:

وهناك دوافع أخرى غير العصبية القبلية كانت ذات أثر بالغ في توجيه حركة فتح المغرب، بل في إتمام فتح هذه البلاد، ذلك أن قبائل الملثمين لم تخرج من مضاربها متجهة صوب الشمال بدافع الغزو والانتقام من الزناتيين المسيطرين على المغرب الأقصى فحسب، بل خرجت بقصد الإصلاح، يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن فقهاء سجلماسة أرسلوا إلى المرابطين يرغبونهم في الوصول إلى بلادهم بقصد تخليصها مما تعانيه من يؤس وشقاء، وبقصد القضاء على البدع والمنكرات التي كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي في ذلك العصر^(١)، ولأول مرة منذ الفتح الإسلامي تخرج جيوش غازية، لاحبا في الغزو والفتح، أو بسط رقعة الدولة فحسب، بل حبا في الإصلاح ورفع لواء الدين، نعم خرجت هذه القبائل أيضا لإقامة العدل وإظهار السنة^(٢).

ومما يؤسف له أن المراجع لم تمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الإصلاحات العظيمة، التي أدخلها المرابطون على المجتمع المغربي، بل هي مجرد إشارات غامضة مبهمة لاتشفى غلة، ولاتنقع صدى، لأن سير الفتوح والغزو على ما يبدو قد طغت على سير الإصلاح. فصل المؤرخون القول في الحروب والمعارك، وأجملوا أخبار الإصلاح إجمالا. ومهما يكن من شيء فإن لنا مما حدث في سجلماسة أسوة، لأن السياسة التي التزمها المرابطون في هذه المدينة هي نفس السياسة التي التزموها في الصحراء عند فتح أودغشت، ولعلها هي نفس السياسة التي التزموها في فتح المغرب، بل في فتح الأندلس، فقد ذكر المؤرخون «أنهم أصلحوا أحوال سجلماسة، وغيروا ما فيها من المنكرات، وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التي كانت بها الخمر^(٣)» أعنى أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وحاربوا البدع حربا لارحمة فيها ولا هوادة، وكانوا في الوقت نفسه يقربون الفقهاء والعلماء^(٤)، وينصرون المستضعفين من الطبقات الفقيرة المضطهدة.

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١.

(٢) المرجع السابق ص ٨٢.

(٣) روض القرطاس ص ٨١.

(٤) المرجع السابق ص ٨١.

وقد تسامع الناس في كافة بلدان المغرب بأخبار هذه الإصلاحات الجديدة، فهزت مشاعرهم، وتناقلها الناس، وتقبلوها قبول المندھش، لأن الناس طوال ذلك العصر اعتادوا أن يسمعوا قصص العنف والجور والظلم، «شاع خروج لتونة من الصحراء واستيلاؤهم على بلاد المصامدة، وخلعهم للوكهم وناموس عدلهم»^(١) ليس من شك في أن السياسة الإصلاحية كانت أبلغ أثرا من السيف، فكانت تمهد الطريق أمام القوات الزاحفة، وتفتح أبواب أمنع الحصون وأقواها، وربما يرجع الفضل إلى هذه السياسة في استسلام قبائل المصامدة دون مقاومة تذكر، واستسلام غيرها من القبائل، إذ لاشك في أن الغالبية من الناس فقيرة مستضعفة تخف إلى تأييد أمثال هذه الحركات الإصلاحية التي تفتح أمامها آفاقا جديدة من العدالة والمساواة. فقد كان المرابطون «يقيمون العدل ويظهرون السنة»^(٢)، وكان الناس يقارنون بينهم وبين ملوك زناتة الغاشمين المستبدين، نعم كانت هذه السياسة أشد وقعا من السيف، وكان الإصلاح يعقب الفتح، أو إن شئت فقل كان الفتح والإصلاح يسيران جنبا إلى جنب.

وقد لجأ المرابطون إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب الناس وكسب ثقتهم، فقد كانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء^(٣) في كافة جهات المغرب. وليس من شك في أن الفقهاء ورجال الدين في بلد مثل المغرب كانوا في ذلك الوقت القادة الحقيقيين للشعب، يوجهونه كيف شاءوا، فلا نعجب إذا رأينا المرابطين يعملون على كسب ودهم واسترضائهم طمعا في استرضاء الرعية وكسب ودها، لذلك كان المرابطون يستقبلون في كل بلاد يحلون فيها استقبال المنقذين المخلصين، وبدا واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح والغلبة، ولكن لإحياء الدين، وتطهير المجتمع من الفساد، وليس هذا بقول مبالغ فيه، فقد كان المرابطون فعلا يتغيون الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فكانوا يقتصرون في الضرائب على أخذ الزكاة والعشر، ويسقطون ماسوى ذلك من المغارم المحدثه^(٤)، ولا يخفى أثر هذه السياسة في المغرب الأقصى، لأن الزناتيين كانوا كما رأينا قد أثقلوا كاهل

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ٢٦٤.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٨١.

(٤) المرجع السابق ص ٨٢.

الناس حتى كادت البلاد يعمها الخراب، لذلك لانعجب إذا وجدنا طريق الفاتحين ميسرا في أغلب الجهات التي نزلوا بها، وكان الناس يرحبون بهم، ويستبشرون بمقدمهم، «والبلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانثالوا عليه انثيال الجياح على الوليمة وتباشروا به تباشر البلد بالديمة^(١)»، حتى لقد أصبحوا في نظر الكافة المنقذين الذين بعثتهم العناية الإلهية لإنقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية، وإن المرء ليعجب لهذه القبائل البدوية التي استطاع عبدالله ابن ياسين أن يحقق فيها المعجزة حين ردها عن طريق الإغارات إلى طريق الإصلاح.

ظلت هذه السياسة الحكيمة سياسة الإصلاح توجه حركات فتح المغرب، وتمتد يد العون لقواد المرابطين حتى بعد وفاة عبدالله بن ياسين، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن فتح المغرب، بقصد الإصلاح لا يقل قوة عن هدف فتح المغرب للقضاء على قوة زناتة وجبروتها، بل لانكون مغالين إذا قلنا أيضا إن محاربة زناتة ربما كان القصد منها إلى جانب الانتقام بوحى من العصبية القبلية تخلص المغرب من شرها وطمغيانها.

وكانت صيحة الجهاد في سبيل الدين^(٢) لاتقل أثرا في توجيه جيوش الفتح عن صيحة الإصلاح وإنصاف الطبقات المظلومة، فما كادت القبائل الزناتية تنقض على الحامية المرابطية بسجلماسة، وتستعيد ما فقدته حتى أعلن عبدالله بن ياسين الجهاد، واعتبر الزناتيين ناكثين للعهد، يحل قتالهم وقتلهم، وقد أذكت هذه الصيحة الحمية في قلوب المثلثين فألفت بينهم وانقضوا على الزناتيين انقضاض الصاعقة، فشتوا شملهم، واستعادوا سجلماسة، ومنطقة الواحات الصحراوية.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنه كان من الواجب أن يمضى المرابطون بعد فتح سجلماسة قدما صوب الشمال، وبينما أنهم عدلوا عن ذلك لأنهم خافوا أن ينقض المصامدة على جناحهم الأيسر فيوقعوا بهم، فيجب أن نضيف هنا أنهم اتجهوا إلى المغرب صوب ديار المصامدة، لا للقضاء عليهم فحسب، بل للجهاد أيضا، فقد كانت بمدينة تارودانت ببلاد السوس الأقصى طائفة من الشيعة، يقال لهم البجلية -

(١) الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٢.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩.

نسبة إلى علي بن عبدالله البجلي الرافضى - قدموا إلى السوس الأقصى زمن أبى عبدالله الشيعى، وزمن فتوح الفاطميين فى المغرب الأقصى، وقد نشروا مذهبهم وتوارثوه جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، «لا يرون الحق إلا ما فى أيديهم»^(١)، فقرر المرابطون أن يعلنوا عليهم الجهاد بقصد ردهم إلى الطريق القويم، وقد روى المؤرخون أن المثلثين اقتحموا مدينة تارودانت، وقتلوا من الشيعة أعدادا كبيرة، وحملوا أهل البلاد على أن يسلموا^(٢) إسلاما جديدا، أعنى أن المرابطين طبقوا نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حين كانوا يضطرون الناس إلى أن يسلموا إسلاما جديدا، ويباعوا بيعة جديدة. وكانت حملة السوس الأقصى فوق ذلك ترمى إلى القضاء على اليهودية التى كانت قد استقرت فى إقليم الصحراء منذ عهد بعيد، وانتشر اليهود فى توات وتافللت ووادي درعة ووادي نون، وسيطروا على الحياة الاقتصادية، وليس ببعيد أن يكون المرابطون قد حملوا أكثرهم على الإسلام، وإن كانت بعض بقايا اليهود لاتزال بالمغرب حتى اليوم^(٣).

بعد أن تم للمرابطين فتح أغمات على مارأينا علت صيحة الجهاد من جديد، بقصد القضاء على قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، والمسيطرة على المسالك المؤدية إلى إقليم طنجة^(٤)، وكان المرابطون فى الواقع فى زحفهم وتحركهم أسباب حرية ودينية، فقد كانت هذه القبائل تحتل منطقة جبلية وعرة المسالك، وكانت معروفة دائما بشدة المراس ورياسة الجأش، والاستبسال فى الدفاع، كما كانت تسد الطريق إلى طنجة، ذلك الثغر الهام الذى لم يكن بد من الاستيلاء عليه، لمن يريد أن يتحكم فى السهول الشمالية.

وقد ظهر أمر قبائل برغواطة سنة ١٢٧هـ فى خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وأخذوا ييثون عقائدهم الضالة^(٥)، وقد حاولت القوى التى سيطرت على المغرب الأقصى أن تقضى على بدعتهم، وتردهم إلى الطريق القويم، وتطهر المغرب من شرهم، فقد هاجمهم بلكين بن زيرى الصنهاجى،

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨١.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) De la chapelle: Esquiss d'une Hist. de Sahara.p.51.

(٤) الحلال الموشية فى الاخبار المراكشية ص ١٤.

(٥) مفاخر البربر ص ١٢٨.

واشتبك معهم فى حرب طاحنة وهزمهم^(١)، ولكنهم ظهروا من جديد، وحاربهم واضح الفتى عامل المنصور بن أبى عامر، فخرج لغزوهم، وأثنى فى ديارهم^(٢)، وقاتلهم الزناتيون. ولكن هذه القوى جميعها لم تتمكن من القضاء عليهم، فلم يجد المرابطون بقيادة عبدالله بن ياسين بدا من أن ينقضوا على مواطنهم فى معركة دامية جرح فيها عبدالله حتى أشرف على الهلاك، ولم يهن المرابطون بسبب وفاة إمامهم^(٣) ولم يضعفوا، بل اختاروا إماما غيره استشهد هو الآخر فى ساحة القتال، واضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين، وأن يمضى فى الحرب حتى «أذل برغواطة وفروا بين يديه وهو فى أثرهم يقتل ويسبى حتى أثنى فيهم وتفرقت برغواطة فى الشعارى وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا ولم يبق لديانتهم أثر^(٤)»، وبذلك استطاع المرابطون أن يحققوا غرضين : فتحوا الطريق إلى طنجة، واستأصلوا هذه العقيدة الضالة من المغرب الأقصى.

٧ . العامل الإقتصادي وأثره فى فتح المغرب:

ولكن يجب ألا نغفل أهمية العامل الإقتصادي فى فتح المغرب، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر بالغ فى توجيه غزوات المرابطين، واستنهاض همهم لفتح بلاد المغرب، خرجت القبائل المثلثة من الصحراء تريد الإصلاح، وتريد الأخذ بذلك الثأر القديم بين البرانس والبتتر، ولكنها كانت مضطرة إلى أن تجد مجالا لتعيش عيشة رحية، فقد ذكر المؤرخون أن أعداد القبائل المثلثة قد زادت وتضاعفت حتى ضافت الصحراء بهم^(٥)، وكان يجب عليهم أن يلتمسوا مواطن جديدة، وكانت منطقة الواحات الصحراوية لا تستطيع أن تعول عددا كبيرا من السكان، لأن مواردها محدودة، ورقعتها ضيقة، وكان أهلها إذا ضاق بهم العيش انصرفوا إلى الشمال صوب الأراضى الخصبة والعيشة الرغيدة^(٦)، كما ذكر المؤرخون أن ديار المثلثين قد قحطت فى ذلك الوقت

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٣٤٦، الفاخر ص١٨٠. ابن خلدون ج٦ ص٢٠٩.

(٢) مفاخر البربر ص٣٦.

(٣) بن أبى رزق ص٣٦.

(٤) الحلل المشوية فى الأخبار المراكشية ص١١. روض القرطاس ص٨٥، ابن خلدون ج٦ ص٢٩٩.

(٥) ابن الأثير ج٩ ص٢٥٩.

(٦) Terrasse: op.cit. p.215.

« فماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة فأمرهم عبدالله بالخروج إلى السوس »^(١)، وما يؤيد مذهبنا إليه من أن بلاد الملثمين أصبحت بضائقة مالية في ذلك الوقت بالذات مارواه النويري «من أن أبا بكر سار في أطراف البلاد إلى مدينة سجلماسة فنزل عليها وطلب أصحابه من أهلها الزكاة فقالوا له أنكم لما أتيتمونا في عدد قليل وسعكم فضلنا والآن فضعفاؤنا فيهم كثرة وقد أثرتكم سنين وما هذه حالة من يطلب الزكاة بالسلاح والخيول إنما أنتم محتالون ولو أعطيناكم أموالنا بأسرها مارغبتم بها»^(٢).

هذا إلى جانب أن زناتة كانت تحتكر تجارة المغرب، وتهتم منذ البداية بطرق القوافل وبالتجارة الذاهبة إلى الجنوب^(٣)، فلما أصبحت مدينة سجلماسة وغيرها من واحات الصحراء بمثابة موانئ لهذه التجارة النافقة استولت زناتة على إقليم الواحات لتشد من قبضتها على هذه التجارة، وكانت زناتة في الواقع تحتكر سوق الأندلس بسبب صلتها الوثيقة بالأمويين^(٤)، وكانت السلع الآتية من السودان تصادف راجا لابأس به في أسواق الأندلس، وكانت صنهاجة تقنع بنصيب متواضع، كانت قانعة بمجرد المشاركة في نقل هذه المتاجر من أسواق الجنوب إلى أسواق الشمال^(٥)، ولكن حدث بعد سقوط الخلافة الأموية واضطراب شئون الأندلس أن فقدت زناتة سوق الأندلس، ولم تعد تستولي على الأرباح الطائلة التي كانت تصيبها من قبل، فاضطرت أن تفرض على التجارة وعلى القوافل رسوما جائرة تعوض الخسارة التي أصابها^(٦)، فنفرت المتاجر وبدأ التجار يتبرمون بسوق المغرب الأقصى، وأثر ذلك في الموارد التي كانت صنهاجة تستولي عليها، لذلك لانعجب إذا رأينا صنهاجة الجنوب تنج أول ماتتجه إلى إقليم الواحات لانتزاعه من زناتة، حتى تستطيع أن تتحكم في هذه التجارة الصحراوية الرائجة.

وهناك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها، وهي أن القبائل البدوية عادة إذا

(١) النويري: نهاية الأرب ج٢٢ ص ١٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧.

(٣) De la chapelle: op. cit pp.57-58.

(٤) Ibid, p.60.

(٥) Ibid, pp.57-58.

(٦) De la chapelle: Esquiss d'une HistOire. de Sahara. ocid. pp.57-58.

خرجت غازية، أو مهاجرة برجالها ونسائها وأطفالها بقصد الاستقرار والاستيطان في البلاد المفتوحة، لذلك يغلب على الظن أن المثلثين خرجوا إلى إقليم الواحات على هذه الصورة، وليس بعيد أن تكون هذه الأسر المهاجرة قد استقرت في البلاد التي كانت تعمرها زناتة من قبل، ويخيل إلينا أيضا أن هذه المعسكرات التي كان المرابطون يعمدون إلى إقامتها مثل تبلبلا ومراكش، إنما كانت بقصد العناية بهذه الأسرات المستقرة مخافة أن ينقض عليها الأعداء فيجلونها عن البلاد التي استوطنتها، وكانت الغنائم والأسلاب التي توزع على الجند تغري بالفتح والتوسع، وتحفز القبائل المتخلفة عن الركب إلى السير إلى المغرب والمشاركة فيهما شارك فيه إخوانهم من قبل.

وكانت الحكومة الجديدة شأنها شأن الحكومات القبلية الأخرى تختص أبناء جنسها بالغنم، وتغدق عليهم بقدر ماتستطيع فتذكي تيار الهجرة، وتشد من أزره، وقد روى المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة، وجدالة، ومسوفة يرغبها في الاستقرار في البلاد التي فتحتها، ويزين لها الهجرة صوب الشمال، حتى تجنى ثمار الفوز، وتنعم بمطاييب الحياة في بلاد المغرب، فأخذت القبائل منذئذ تتسابق في الرحيل إلى المغرب في موجات متلاحقة للاستقرار والاستيطان^(١)، فانتشرت الأسر الصنهاجية في هذه البلاد المفتوحة، يتبين ذلك من المقارنة بين ماكتبه كل من البكري والإدرisy عن إقليم الصحراء فقد وصف البكري ذلك الإقليم قبيل تحرك قبائل المثلثين، كما وصفه الإدرisy بعد خروج القبائل ورحيلها إلى المغرب، لاحظ الإدرisy أن بني جدالة لم يعودوا أصحاب الكلمة الأولى في صحراء الجنوب، كما لاحظ أن قبيلة مغراوة تحتل نفس المنطقة التي كانت تحتلها جدالة من قبل، أما كيف ذهبت مغراوة إلى الجنوب، فأمر تفسيره يسير، ذلك أن القبيلة إذا انتصرت طردت القبيلة المغلوبة على أمرها، واحتلت مابيدها من أرض خصبة فتضطر القبيلة المغلوبة على أمرها إلى الرحيل إلى وطن آخر تحيا مطمئنة بعيدة عن أي^(٢) عدوان فلا بد أن مغراوة طردت إلى الصحراء،

(١) Du Mas Latrie (op.cit.) p.24.

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢١.

(٣) Cooley: The Negro Land of the Arabs p. 59.

وأن المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التي كانت جدالة تحتلها من قبل، هذا إذن يفسر ذلك الاختلاف الواضح بين مارواه البكري ومارواه الإدريسي .

٨ - العامل الجغرافي وأثره في فتح بلاد المغرب:

وهناك عامل آخر يرجع إليه الفضل في توجيه اهتمام المرابطين إلى استكمال فتح المغرب، ونعني به العامل الجغرافي، الذي يملأ على الفاتح الذي يسيطر على بلاد المغرب الأقصى الواقعة إلى جنوب جبال الأطلس الساحلية أن يتم فتح الإقليم كله، بالتوغل في ذلك السهل المسمى بإقليم الريف المشرف على البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن الطرق والمسالك التي تتفرع من الجنوب متجهة صوب الشمال تيسر للفاتحين أن يوغلوا في تقدمهم صوب الساحل بنجاح، إذا هم أفلحوا في القضاء على مقاومة القبائل البدوية الضاربة في منطقة الهضاب، ويفرض العامل الجغرافي أيضا على الدولة المسيطرة على المغرب الأقصى أن تعمل على ضم إقليم الساحل الغني بموارده وموانيه وبأرضه الصالحة للزراعة ذات الإنتاج الوفير. سيطر الأدارسة على ذلك الإقليم من قبل، كما استولى عليه الأمويون، وابتعدوا سببة وطنجة معقلا تتجمع فيه قواتهم لتوغل في البلاد ^(١)، لذلك كان على المرابطين كي تتوطد أقدامهم في المغرب أن يتجهوا صوب إقليم الساحل لإتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامة مثل سببة وطنجة، فقد كانت هاتان المدينتان في الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين العدوتين ^(٢).

يضاف إلى هذه العوامل أن البرغواطيين بعد أن سقطت الخلافة الأموية أفلحوا في إقامة إمارة بمنطقة سببة وطنجة، فطردوا عامل بني حمود، واعتمدوا على قبائل غمارة للتمكين لأنفسهم ^(٣)، وبسط سلطانهم، كانوا في الواقع بمثابة شوكة في ظهر جيش المرابطين الذي أصبح يسيطر على منطقة فاس. نعم، تم للمرابطين القضاء على غالبية برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، إلا أن هذه الإمارة البرغواطية بقيت تسيطر على إقليم الساحل، وتتحكم فيه، وتشرف على منطقة المضائق، وتسيطر عليها، فقد كانوا يشتغلون بالقرصنة في البحر «أضرم

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ ص ٢٤٠ مفاخر البربر ص ٤.

(٢) المرجع السابق ج٦ ص ٢٢٠.

(٣) عياض : ترتيب المدارك ج٤ ص ٤٤٣. البيان المغرب ج٣ ص ٢٥٠.

أميرهم بلججه نارا ولقى ريحه إعصارا يأخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء^(١) أضف إلى ذلك أن ميناءى سبتة وطنجة يعدان مرافئ طبيعية لأسطول قوى يسيطر على المضائق، ويتحكم فى تجارة الأندلس، وكان لابد إذن للدولة التى تسيطر على المغرب الأقصى، وتبسط ظلها على الساحل من أن تتخذ أسطولا يحمى سواحلها، ويؤمن موانئها، يضاف إلى ذلك أن بقايا القوات الزناتية اعتصمت بمنطقة الدمنة قرب طنجة^(٢)، ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الزناتيين يعيشون فى السهول الساحلية، ويستمدون العون من البرغواطيين^(٣)، كل هذه الأسباب مجتمعة أملت على المرابطين أن يخفوا لفتح طنجة، وبسط نفوذهم على إقليم الساحل، أو إقليم الريف، ومهما يكن من شيء، فقد تقدمت القوات المثلثة صوب طنجة، فقبضت على بقية الزناتيين واشتكت مع البرغواطيين فى معركة دامية انتهت بهزيمة أمير طنجة وقتله، ودخلت قوات المرابطين المدينة سنة ٤٧١هـ^(٤) ويبدو أن المرابطين بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق، وأطبقوا على مدينة سبتة^(٥)، وحاصروها من البر، واشتركت بعض سفنهم فى حصارها من البحر^(٦).

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول فى هذا الوقت القصير، وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خبرة بركوب البحر؟. ليس ببعيد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد فتح وادى ملوية، والاقتراب من الساحل ابتياع بعض السفن، وشحنها بالرجال، والأقوات، وأصبحت هذه السفن نواة لأسطول المرابطين، الذى لعب دورا عظيما فى تاريخ النضال فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد أثار المؤرخون^(٧) الذين رووا قصة حصار سبتة مسألة أخرى، وهى أن

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ جـ ٢٦٢.

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢١.

(٣) مفاخر البربر ص ٥٤.

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ١٠٩، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٥، ٢٢٢.

(٥) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٥.

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢.

(٧) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩١.

المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بعث سفينة أعانت المرابطين على حصارهم سبتة، ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين أن المعتمد تطوع بمساعدة المرابطين في فتح هذه المدينة، لأنه كان يفكر في أن يستنجد بهم لرد عدوان الفرنجة بالأندلس، كما ذكروا أيضا أن المرابطين قد وعدوه بالمساعدة إذا هم فرغوا من الاستيلاء على سبتة وطنجة^(١). ولكن ابن بسام^(٢) يسوق رأيا يختلف عن الرأي السابق، إذ يذكر أن سفينة المعتمد بن عباد كانت بميناء سبتة تمتاز وقت نشوب المعركة، فطلب المرابطون أن تمد لهم يد المساعدة، فلم ييخل بها في وقت كانت سفن المرابطين قد منيت فيه بالهزيمة، ودب اليأس في نفوس المقاتلة وكادوا ينصرفون عن فتح سبتة^(٣)، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن المعتمد بن عباد قد شارك المرابطين في القضاء على هؤلاء القراصنة، الذين يتعرضون لسفن أشبيلية بالتهب والسلب.

وقد أفلح المرابطون في الاستيلاء على سبتة، وقتل المعز بن سقوت، وزفت بشرى ذلك النصر إلى قائد المرابطين بمدينة فاس^(٤)، وتعتبر هذه المعركة في الواقع من المعارك الفاصلة في تاريخ المرابطين، بل في تاريخ المغرب، فهي أول معركة تخوضها سفن الأسطول المرابطي الناشئ، كما أنها وضعت أسس تقاليد بحرية عظيمة ستتمو وتزدهر، وتؤتي أكلها بعد حين. نعم مكنت هذه المعركة للمرابطين في إقليم الساحل الغني بمذنه الزاهرة، وموارده الجمّة، ومعينه الحضاري الزاهر، فتمت لهم السيادة على المغرب الأقصى كله، ويسطوا ظلهم من أقصى الجنوب حتى ساحل البحر في أقصى الشمال، ولعمري إنه لنصر لم يسبق له مثيل منذ عهد موسى بن نصير، فالأمويون مثلا سيطروا على إقليم الساحل، وتوغلوا في المغرب الأقصى، إلا أنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد كلها هذا التوحيد الذي حققه الملثمون.

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) الذخيرة، مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٣.

٩ - ظهور يوسف بن تاشفين وسياسته في فتح بلاد المغرب:

كللت جهود المرابطين بالنجاح، وعقد لهم لواء النصر على هذا النحو بفضل قائد عظيم أظهرته الحوادث وساقته المقادير ليدير دفة الحرب في هذا الوقت العصيب وقد عظم ذكره بالمغرب، وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسلا وطنجة وغيرها^(١)، «وكانت البلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانتالوا عليه انشبال الجياع على الوليمة وتباشروا به تباشر البلد بالديمة^(٢)». ذلكم هو يوسف بن تاشفين اللمتوني، فما هو الدور الذي اضطلع به هذا القائد المظفر في بناء صرح الدولة الجديدة.

الواقع أننا لا نكاد نعرف شيئا يذكر عن حياة يوسف بن تاشفين في الصحراء حتى كان خروج المثلثين إلى المغرب غازين فاتحين، فبدأنا نسمع به لأول مرة حين ذكر المؤرخون أنه كان قائد مقدمة الجيش المهاجم^(٣)، وليس ببعيد أن تكون مواهب يوسف كقائد شجاع قد ظهرت بواكيرها في هذه الحملة التي أبلى فيها البلاء الحسن، فلما تم للمرابطين فتح إقليم الواحات والسيطرة عليه ولأه ابن عمه على سجلماسة، فأحسن السيرة^(٤)، وظهر للناس كافة أنه قد تشبع بمبادئ الإمام عبدالله بن ياسين، فقد أحسن إلى الناس، وعمل في سبيل الإصلاح بقدر الطاقة، فلما انصرف المثلثون إلى فتح إقليم السوس الأقصى كان يوسف على رأس الجيش الغازي^(٥)، وإذا كانت حملة السوس قد أصابت من النجاح والتوفيق القدر الذي عرضنا له فإن الفضل في ذلك يرجع إلى ما أظهره يوسف القائد الناشئ من حنكة ودربة وجلد وتفان في الجهاد.

سارت الجيوش المثلثة قدما، ففتحت أغمات، وانصرفت بعض قوات المثلثين إلى قتال برغواطة، وقتل عبدالله بن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر بن عمر بالإمامة^(٦)، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٧.

(٢) الذخيرة: بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٥١، أبو الفدا ج ٢ ص ١٨٣.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٣، جامع تواريخ فاس ص ٢٤.

ولكن الصفة السياسية للأمير الجديد أخذت تغلب على صفته الدينية، لأن الدولة أخذت تمر بدور من أدوار الكفاح المر يتطلب حزما وسعة أفق، وحسن توجيه، فلما تشعبت مهام أبي بكر، وثقل العبء عليه، اشتد اعتماده على ابن عمه يوسف ابن تاشفين لما ظهر من إخلاصه وشجاعته، فإذا كان أبو بكر بن عمر قد أخذ على عاتقه المضي في قتال برغواطة إتماماً لرسالة الإمام عبدالله بن ياسين، فلا يبعد أن يكون قد اعتمد على يوسف في قيادة القوات المثلثة المرابطة بمدينة أغمات، وأخذ الأهبة لذلك الصراع العنيف الذى نشب بين زناتة وصنهاجة الجنوب، وهذا النزاع الذى قرر مصير المغرب على النحو الذى بيناه.

وقد تأكد ظهور يوسف، وبدأ نجمه يعلو، وشخصيته تبرز حين أتت الأنباء من الجنوب منبئة أن الصراع قد احتدم بين جدالة وملتونة، ذلك الصراع الذى كان يهدد حركة المرابطين تهديدا خطيرا، فى وقت كانوا فيه يتهيئون لمداغعة عدوهم، ومنازلته، كما يبدو أن ملوك الزنوج فى الجنوب انتهزوا فرصة انصراف غالبية القوات المثلثة إلى فتح المغرب، فأرادوا أن يطعنوها من الخلف^(١)، فلم يجد أبو بكر بن عمر بدا من أن يمضى بنفسه إلى الجنوب، ليقضى على هذه الثورات والفتن، ويوحد بين قبائل المثلثين، حتى لا تتفرق الكلمة وتتبعثر الجهود. انصرف أبو بكر إلى الصحراء^(٢)، ولكنه اضطر إلى أن يستخلف قبل سفره، فلم يجد خيرا من ذلك القائد الشجاع يوسف بن تاشفين، الذى عقد له على المغرب وفوض إليه أمره، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبنى يفرن وقبائل البربر وزناتة^(٣) وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار، فمضى أبو بكر لحماية ظهر المثلثين، حتى يفرغوا لما هم بصدد من الكفاح، فبرز يوسف بن تاشفين إلى الصفوف الأولى، وألّت إليه وحده قيادة حملة المغرب.

ويبدو أن حسن طالع هذه الدولة الناشئة قد هدى الأمير أبا بكر بن عمر إلى اختيار يوسف بن تاشفين فى هذا الوقت العصيب، الذى قامت فيه الأخطار تحدى

(١) التادلى: التشوف ص ١٠. ابن الوقت المراكشى: السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢١. ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٣. الحلل الموشية ص ١٦. صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٥.

M. de Lafosse: Chronique de Fautas Senegalais, Rev. M.M 1913, t.25 p.183.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٥ : جامع تواريخ فاس ص ٢٥.

بالدولة فى كل مكان، فهامى القوات المثلثة تصارع برغواطة صراعا عنيفا، وهامى فرق أخرى من المثلثين تقاثل فى الجنوب، وهامى أولاء زناتة وحلفاؤها، من مغراوة يؤلبون الناس، ويتجمعون فى الشمال قرب فاس لمقاومة المثلثين ووقف تقدمهم، والشأ لما نالهم من هزائم، وكانت هذه الظروف تتطلب سرعة البت والحزم والإقدام فى غير خوف والقدرة على إدارة دفة المعركة لمصارعة جميع القوى فى وقت واحد، أو بعبارة أخرى تجنيد جميع القوى وحشد لها هذه المعركة الهائلة، وكان يوسف بن تاشفين كفتا لذلك المجهود المضنى، وهذه المسئوليات الجسام «لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه وسداد رأيه ويمن نقيته»^(١)، فقد توافرت له الصفات التى تجمع حوله قلوب شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبدالله بن ياسين صاحب الدعوة، وتجمع قلوب الجند الصنهاجى، الذى يقدس البطولة، ويتغنى بالشجاعة، ويمجد القائد المبرز الشهم، فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التى كان يقودها بفطنة وحسن طالع يسبغان عليه جلال الفروسية التى تلهب حماسة الجند، فيندفعون وراءه اندفاع الصاعقة^(٢)، كما كان جوده، وتقشفه، واحتقاره لمظاهر الترف فى ملبسه ومسكنه أسوة حسنة، وقدوة يحتذونها كل مرابط مخلص، بل بلغ من تقشفه، وزهده أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير، ولحم الإبل، ولا يشرب سوى لبنها^(٣)، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة التى توافرت له أن يؤلف القلوب، ويذكى الحمية فى النفوس، ويصبح سيد الموقف بلا نزاع، وقد ظهرت آثار هذه القيادة الجديدة فى هذه الانتصارات السريعة الى تلاحقت عقب انصراف أبى بكر بن عمر إلى الجنوب، وكانت خطة يوسف منحصرة فى أن يواجه الأعداء جميعا دفعة واحدة، تقوم القوات الصنهاجية كلها قومة رجل واحد تواجه الأعداء، وتناضلهم مناظلة عنيفة، لأنه خشى إذا انصرفت قواته إلى ناحية واحدة انبعث الخطر من النواحي الأخرى التى أهملها أو شغل عنها.

وقد عمد يوسف إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وأنجادهم،

(١) ابن أبى عذارى: روض القرطاس ٨٥.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ج١ ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

فاختار أربعة من القواد هم محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرّك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته^(١) وسيرهم لقتال القبائل العاصية، ولانعرف بالضبط خط سير هؤلاء القواد، ولكننا عرفنا من قصة الفتح التي عرضنا لها فيما سبق أنه في الوقت الذي كانت فيه القوات المثلثة مشتبكة في معركة فاس كانت هنالك قوات أخرى تطرق باب المغرب الأوسط، وأخرى تهاجم برغواطة وتقترب من مدينة طنجة. ويبدو أن يوسف اختص نفسه بمنطقة فاس وماجاورها لأنها قلب المقاومة، ومركز ذلك الصراع، وقد تمخضت سياسة يوسف بن تاشفين عن نجاح كامل، وأخذت قلاع العدو تسقط واحدة بعد أخرى، وبدأت الجيوش المثلثة تتحرك فوق صفحة المعركة تحركها يد قائد ماهر.

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد فرغ من القتال في جهة الجنوب، ورد القبائل العاصية ووحدها، وصارع ملوك الزنوج، وعاد إلى المغرب الأقصى مرة أخرى في سنة ٤٦٥هـ، وعلى نحو ما يذكره المؤرخون^(٢).

والمؤرخون يصورون لقاء أبي بكر بن عمر بيوسف بن تاشفين صورة روائية، ويضيفون على هذا اللقاء مسحة الأسطورة^(٣)، فيقولون إن يوسف عقد النية على أن يختص نفسه بإقليم المغرب، فيصبح أميرا عليه يأمر وينهى، وأن أبا بكر بن عمر سمع أن يوسف أراد أن يستبد بالأمر دونه، فعاد لتوه ليخلعه، ويولي غيره^(٤)، وهم يسوقون على لسان كل من يوسف وأبي بكر بن عمر حوارا وأحاديث، ليس من شك في أن يوسف مكن لنفسه في المغرب كله، كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح مغاليق حصونه، وأن يؤدب قبائله، ويردها إلى الطاعة، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد اتخذ حرسا خاصا من العبيد السودان، أو من الروم على ما يذكره المؤرخون^(٥)، فقد كان أميرا للجيش، ونائبا لأمير المرابطين، فلا

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٨.

(٢) الحلال الموشية ص ١٤.

(٣) روض القرطاس ص ٨٦.

(٤) جامع تواريخ فاس ص ٢٥.

(٥) الحلال الموشية ص ١٤.

يستغرب أن يكون قد اتخذ حرسا يخلع عليه نوعا من الأبهة والسطوة، وليس بيعيد أيضا أن يكون يوسف قد جمع لبيت المال ثروة طائلة، سواء من الزكاة، أو الغنائم، بدليل هذه الهدية الضخمة التي جهزها للأمير أبي بكر^(١).

ولم يكن فى ذلك شىء من الغرابة، فما دام نائبا للأمير بالمغرب فمن حقه أن يجمع لبيت المال، أما عودة أبى بكر بن عمر فقد كانت عودة طبيعية، فرغ من مهمته فى الجنوب، أدب العصاة، ووحد القبائل، وصان ظهر القوات المقاتلة فى المغرب، ولو كان قد أحس حقا أن يوسف قد قلب له ظهر المجن، لكان فى استطاعته - لو أحب - أن ينقض عليه من خلف، وأن يجند من القبائل ما يستطيع به مدافعة يوسف وردة عن العصيان، وكان أبو بكر رجلا زاهدا متورعا محبوبا يلبي المرابطون نداءه إذا أراد، ولكن أبا بكر عاد إلى المغرب لاطمعا فى سلطة، ولا فى قيادة، إنما لتفقد الأحوال بنفسه، ويقف على الجهود التى بذلها ابن عمه فى فتح البلاد، وإصلاح شأنها، لم يطمع أبو بكر فى القيادة، وهو الذى ولى يوسف من تلقاء نفسه، وأمره على المغرب، وعهد إليه أن يتم فتحه، أفيكون جزاء يوسف أن يأتى أبو بكر لخلعه بعد هذه الجهود التى بذلها؟.

لم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة، فقد كان يقدر مركزه حق قدره، ويعرف أنه قائد مفوض من قبل أمير البيت اللمتونى، يدل على ذلك أنه ماكاد يعلم نبأ قدوم ابن عمه حتى جهز له هدية عظيمة «وكتب إليه كتابا يعتذر فيه إليه ويرغب فى قبول الهدية ويقول له: كل ذلك قليل فى حقك»^(٢). وقد طابت نفس أبى بكر لذلك اللقاء، ووضحت رغبته حين قال ليوسف: «إنه لا غناء لى عن الصحراء وماجئت إلا لأسلم الأمر إليك وأهدنك فى بلادك وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا»^(٣). إذن أكد أبو بكر بن عمر تولية يوسف بن تاشفين على المغرب مرة أخرى، استخلفه أول الأمر، فلما رأى حسن بلائه، وسعة ملكه، وحب الناس إياه، أحب أن يولييه على المغرب رسميا، وينصرف هو إلى الصحراء، لأنه كان رجلا زاهدا فى الدنيا عزوفا عن السلطان، يدل على ذلك

(١) المرجع السابق ص ١٦.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٥.

مارواه المؤرخون من أنه أحضر شيوخ لتونة، وأعيان الدولة، وأمراء المصامدة والكتاب، والشهود، والخاصة، والعامّة، وأشهد له بالتخلي عن الأمر بوطن المغرب^(١).

وقد تخلى أبو بكر بن عمر ليوسف بن تاشفين من نفسه، لامرغما ولا مضطرا، وقد ظلت السيادة الاسمية بالطبع من نصيبه، يؤيد ذلك مارواه البكرى حين قال: «وأمر المرابطين إلى اليوم (وذلك سنة ٤٦٠ هـ) أبو بكر بن عمر^(٢)»، ويدل على ذلك أيضا أن النقود كانت تضرب باسم أبي بكر بن عمر حتى توفي عام ٤٨٠ هـ باعتباره أمير الدولة وحاكمها الأوحـد^(٣)، وقد يقال كيف استباح يوسف بن تاشفين لنفسه أن يسك النقود باسمه^(٤)، الواقع أن يوسف لم يكن من هذه الناحية مجددا ولا مبتدعا، فقد ذكرت مجموعات النقود أن إبراهيم ابن أبي بكر بن عمر سك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ، ٤٦٥ هـ^(٥)، وذلك في حياة أبيه بوصفه أميرا على سجلماسة. وتفسير ذلك أن المرابطين كان من عاداتهم دائما أن يحكموا البلاد التي يفتحونها حكما إقطاعيا، فيولون أمراء من البيت الحاكم على أقاليم بعينها يصبحون أصحاب الكلمة الأولى فيها، ويكونون مسئولين أمام أمير البيت اللمتوني، فإذا كان يوسف قد سك نقودا فقد فعل ذلك بوصفه أميرا للمغرب من قبل أبي بكر بن عمر، الذي كانت له السلطة العليا حتى وفاته سنة ٤٨٠ هـ.

مهما يكن من شيء فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المرابطين، نحن لاننكر أثر الجهود التي بذلها عبدالله بن ياسين، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر، لكن مما لا شك فيه أن الفضل في إتمام فتح المغرب يرجع إلى يوسف بن تاشفين. إذ لو لم يفتح المثلثون المغرب لتفرق شملهم ولما قامت لهم

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) البكرى: المغرب ص ١٧٠.

H. Lavoix: Catalogue des Monnaies de la bibliotheque Nationnle (Espagne et (٣) Afrique) pp. 201,202 Monadas de les dimastias Afabigo-Espanolas p.238.

Lan- Poole :Catalogue of the Collection of Arabic Coins in the Khedivial library (٤) p.328.

H.Lavoix: Cat, des Monnaies Mus, p. 201. (٥)

قائمة ، بل لماتت دولتهم فى المهدي ، فلا نعجب إذا رأينا اسم ذلك القائد المحنك يعلو على اسم الأمير الشرعى ، ويتحدث الناس بذكره ، ويتردد صدهاء فى المغرب كله ، وفى الأندلس ، ويحس الناس أن قوة فتية ظهرت على مسرح المغرب يحسب لها ألف حساب .

وكان اختيار يوسف بن تاشفين أميراً للمغرب فى ذلك الوقت بالذات يدل على بعد نظر أبى بكر بن عمر وسعة أفقه ، فقد كانت البلاد فى حاجة إلى قائد ماهر ، وسياسى داهية ، يؤمن هذه الفتوح الواسعة ، ويضمد جروح المغرب ويرتق فتوقه ، ويؤلف بين قلوب أهله ، فماهى إذن السياسة التى اتبعها يوسف بن تاشفين فى إصلاح وتثبيت دعائم الدولة فيها؟

كان على يوسف إذا أراد أن يمضى فى مشروعاته الحربية أن يسد حاجة الجيش من الرجال ، ولم تستطع القبائل المثلثة وحدها أن تضطلع بعبء القتال فى هذه الميادين المتعددة ، فاضطر يوسف إلى أن يوسع دائرة التجنيد بعض الشيء ، فأشرك القبائل الأخرى ، جند من زناتة ، ومن مصمودة ، ومن غمارة ^(١) . وكان يطلق على هؤلاء المجندين اسم (الحشم) ^(٢) ، وكانت فرق الحشم تختلف عن الفرق المؤلفة من فرسان صنهاجة ، وقد اضطر يوسف أن يتخذ حرسا من السودان كما اشترى عبيدا من بلاد الروم ^(٣) . وأصبح الجيش لأول مرة يتألف من طوائف متعددة يؤلف بين قلوبها جميعا حب يوسف واحترامه وكثرة بذله وإغداقه ، كما عمد يوسف إلى تنظيم الجيش الجديد تنظيما دقيقا فبعد أن كانت جموع القبائل المثلثة تتقدم إلى الميدان جبهة واحدة ، أو كتلة واحدة متراسة ، اضطر إلى توزيع المسئولية على القواد ، فجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق فى إخلاصهم وصدق جهادهم ^(٤) . كما اتخذ البنود الطبول ، وزاد عدد الجيش حتى بلغ - على ماتذهب إليه الرواية - مائة ألف جندي ^(٥) . إذا دقت الطبول

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٤ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو^(١)، لذلك لانعجب إذا غدت هذه الجيوش آلة طيعة فى يد ذلك القائد الماهر يسخرها فى مشروعاته الحربية ويحذق ومهارة، حتى حقق ما أراد من نصر وظفر.

أضف إلى ذلك أن الفتوحات المرابطية كانت تتسع رقعتها بالتدريج، وكانت القبائل المثلثة تنتشر فوق رقعة المغرب كله^(٢)، وتشتبك مع قبائله، تناصبها العداء وتقف لها بالمرصاد، وكانت ديار المرابطين بعيدة، ووسائل الاتصال بين القبائل الغازية، وبين ديارها الأصلية عسيرة، فكان لابد لـيوسف من أن يؤمن هذه القبائل الفاتحة على نفسها، ويعمل على الإبقاء على البلاد المفتوحة بأية وسيلة^(٣)، ويحول بين القبائل المغلوبة على أمرها، وبين شق عصا الطاعة، وانتهاز فرصة اشتباك المرابطين مع أعدائهم ليرفعوا راية العدوان، فاضطر إلى بناء المعسكرات لحماية الفتوحات الجديدة، فلما فتح إقليم سجلماسة أسس المرابطون مدينة تلبلا^(٤). كما أنشئت مدينة مراكش فى قلب بلاد المصامدة، لتكون معسكرا يحشد فيه الجند الصنهاجيون، فيقفون بالمرصاد للمصامدة يردون عدوانهم^(٥) إذا حدثتهم أنفسهم بالثورة، وكان يوسف بن تاشفين يبنى الحصون المنيعة، ابثنى فى مراكش قلعة اسمها دار الحجر^(٦)، كما بنى فى تلمسان الجديدة بالمغرب الأوسط^(٧) قلعة تحرس الزناتيين، وتقف لهم بالمرصاد، كما أقام فى إقليم الريف حصنا لاتزال آثاره باقية حتى اليوم^(٨). ولابد أنه أقام سلسلة من الحصون تمتد من مراكش فى الجنوب حتى فاس فى الشمال، ومن تلمسان فى الشرق إلى طنجة فى الغرب، ومن أسف أن معالم هذه الحصون قد درست، لأن الموحدين استطاعوا بعد أن تم لهم الأمر أن يطمسوا رسمها إمعانا فى التنكيل بأعدائهم، وكانت كل قلعة من هذه القلاع تشحن بالأقوات والمقاتلة والسلاح، لتكون مستعدة لمواجهة العدو فى أى وقت، ولاندرى كيف استطاع هؤلاء البدو أن يتخذوا هذه السياسة الحربية الحكيمة، وليس ببعيد أن يكون احتكاكهم بالمغرب وورودهم مورد الحضارة المنبثة فى أرجائه، قد مكن لهم من تعلم هذا الفن وتطبيقه فى بلاد المغرب.

(١) يوسف أشياخ جـ ١ ص ٧٧.

(٢) Marcais: op.cit. pp.346-349.

(٣) Idem

(٤) De la Chapelle: op.cit. p.62-63.

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٦٠. ابن خلدون ص ١٨٤. النويرى جـ ٢٢ ص ١٧٨.

(٦) الجزنائي: زهرة الأس ص ٣٠.

(٧) المقرئ: نفع الطيب جـ ٢ ص ١٧٥.

(٨) Marcais: op.cit. pp. 346-347.

وقد جمع يوسف بن تاشفين ثروة طائلة من الغنائم والأسلاب، ومن حصيلة الزكاة والعشور^(١)، وقد استغل هذه الأموال في تأليف قلوب رعماء الملمثين، فأغدق عليهم، فحفوا إليه طامعين في رفده وكرمه^(٢)، كما عمد إلى توزيع الأراضي الخصبة على قبائل الملمثين القادمة من الجنوب^(٣) وولى رجالها الأعمال^(٤)، واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء، وأن يكسب ودهم، فمالوا إليه، ووقفوا إلى جانبه، وأصبحوا رهن إشارته، وطوع يمينه. كما اتخذ من ذوى قرياه ولاية على البلاد المفتوحة، فولى سير بن أبى بكر مدائن مكناسة، وبلاد تكلال، وفازاز، وولى عمر بن سليمان مدينة فاس، وأحوازها، وولى داود بن عائشة سجلماسة، ودرعة، وولى ولده تميم مدينة أغمات ومراكش، وبلاد السوس، وسائر بلاد المصامدة، وبلاد تادلة وتامسنا^(٥). وقد عمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها، فكان يستدعى زعماءها فيبرهم ويكرم وفادتهم، ويجزل عطاءهم ويتألف قلوبهم، فيلتفون حوله، ويبايعونه^(٦). فاستطاع أن يطفى نار الفتنة وأن ينشر السلام في المغرب^(٧)، ويقر الطمأنينة في ربوعه.

كانت هذه السياسة الحكيمة ذات آثار اقتصادية وسياسة بعيدة المدى، فقد انصرف الناس إلى الإنتاج، فزادت الأموال، ونشطت الصناعة والتجارة والزراعة، كما أنه استطاع بعد أن تألف قلوب أهل المغرب كله أن يجندهم للجهاد في الأندلس فلبوا نداءه طائعين، ولم ينس يوسف أن يمضى في السياسة الإصلاحية التي رسمها عبدالله بن ياسين^(٨)، كان يتفقد أحوال الرعية وينظر في أمر الولايات، ويرد المظالم، ويحكم بين الناس بالسوية. فلا نعجب إذا رأينا هذه السياسة الحكيمة تكمل بالنجاح، وتأتى أكلها فقد أصبح المغرب طوع يمينه ورهن إشارته.

(١) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٧.

(٣) Gooley: The Negro land of the arabs p.57.

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢١.

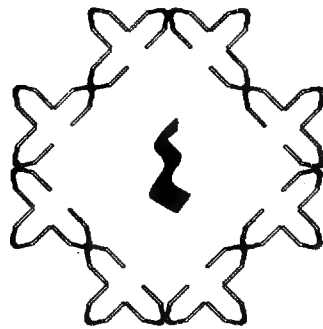
(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩١. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤.

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠.

(٧) الإنحاف ج ١ ص ٦٢.

(٨) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩١.

الباب الرابع



الدور الأندلسي

١ - انحراف الجاقة إلى معركة الجهاد:

استطاع يوسف بن تاشفين إذن أن يتم فتح المغرب الأقصى، وأن يعلى كلمة المرابطين فيه، ويرفع من شأنهم، وينشر الطمأنينة والسكينة فى ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجتها، هذه السياسة التى أثمرت ونجحت إلى حد بعيد، فبدأت الحياة فى بلاد المغرب الأقصى تتغير تغيرا كبيرا، وبدأت قبائل الملثمين تنتشر فى البلاد فتستقر فيها وتستولى على ماكان بيد القبائل الأخرى من أرض خصبة.

نعم، بدأت قبائل الملثمين بعد هذا النصر العظيم يشتد ساعدها وتشعر بقوتها وخصوصا بعد أن فرغت من أكثر مشاكلها وقهرت كل أعدائها، وبدأت الموارد الهائلة تتدفق على بيت المال، وبدأ المرابطون بعد كفاح دام عشرين عاما يتنفسون الصعداء ويحسون بنعمة الظفر.

نعم، أتم يوسف بن تاشفين ما بدأه عبدالله بن ياسين، كما أن دور يوسف فى بناء الدولة الجديدة لا يقل عن دور عبدالله نفسه، لانكر أنه يرجع إلى عبدالله الفضل فى بث الدعوة التى طهرت النفوس، وصقلت القلوب، وخلقت من الملثمين شعبا جديدا فتيا نابضا بالحياة والقوة، لكن لانسى أنه إلى يوسف يرجع كل الفضل فى فتح المغرب كله، والانتقال بالدولة إلى الدور الثانى من أدوار قيامها، إليه وحده يرجع الفضل فى تخلص الدولة من طابعها الصحراوى، واتخاذها السمة المغربية الخالصة، نعم أتم يوسف حركة الجهاد الرائعة التى أوقد عبدالله شرارتها وأضرم نارها، كانت الجذوة التى أوقدها عبدالله بن ياسين فى نفوس الملثمين ماتزال تضطرم فى نفوس أصحابه وعهدهم به قريب كما نعلم.

لم تخمد إذن هذه الدعوة المباركة التى بثها عبدالله بسبب هذا النصر الذى أحرزه أتباعه ومريدوه، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه عمل جاهدة على ألا تنطفئ شعلة الحماس فى نفوس أصحابه من المرابطين، وقومه من الملثمين، وكان بتواضعه وتقشفه وزهده وتقواه صورة ماثلة لإمامه عبدالله، كان فى الواقع المثل الحى لهذه الإمارة التى جمعت بين الدين والدولة معا، وإذا كان أبو بكر بن عمر قد اختاره الناس خليفة لعبد الله بن ياسين بسبب تواضعه وتقواه، فإن الناس قد آمنوا بيوسف كما آمنوا بأبى بكر واعتقدوا بحق أنه الزعيم الخلق بأن يقودهم فى ميدان الجهاد والتضحية.

كان لابد لهذه القوى الهائلة التى جندها يوسف، وهذه الأموال الضخمة التى جمعها، وهذه الطاقة التى أقام صرحها أن تنصرف إلى ميدان جديد من ميادين النشاط والكفاح. نعم كان لابد من أن تنصرف هذه الطاقة فى ميدان الجهاد فى سبيل الدين، وإعلاء كلمته، ومصارعة أعدائه، وليس هذا بغريب فإن الدولة قامت على الجهاد وأصبح الجهاد الطابع المميز بها من نشأتها الأولى، جاهدت فى بلاد السودان، وجاهدت فى الصحراء، وجاهدت فى المغرب، كان الجهاد إذن دستور الملثمين ورائد المرابطين. ولم يكن من المستطاع أن تخلد هذه القوى الكبرى المضطربة إلى الراحة والطمأنينة والدعة، لو فعلت ذلك لما اعتبرت رسالة عيـدالله بن ياسين قد نجحت أو حققت الأمل الذى عقده الناس عليها، ليس من شك فى أن هذه القبائل لو ركنـت إلى الراحة بعد هذا الكفاح المر لتفرق شملها، وتبعثرت كلمتها، كانت وحدتها يذكىها الجهاد، ويصونها الكفاح من أجل نشر الإسلام.

كان من الممكن أن تنصرف هذه القوى الكبرى نحو الشرق فتتم فتح إفريقية، وكانت الأحوال السائدة - كما كرنا - فى البلاد تمهد لذلك الفتح، ولو تقدم المرابطون لما وجدوا مقاومة تذكر، بل لبسطوا سلطانهم على البلاد فى غير كبير عناء، فقد كانت إفريقية قد تفرق شمل أهلها بسبب غارات بنى هلال، كما ضعف بنو حماد ودهمتهم الفرقة التى دهمت بنى عمهم بإفريقية.

ولكن الدولة فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها لم تكن فى حاجة إلى كسب مـادى، فلم تكن فى حاجة إلى أن تكسب أرضا جديدة أو تمضى فى توسع جديد. إنما كانت تريد أن تحقق الأهداف التى رسمتها دعوة عيـدالله بن ياسين، ألم يكن عيـدالله بن ياسين سلفيا يهدف إلى إحياء الإسلام، ورده إلى قوته الأولى ومحاربة البدع والفساد، ويعث الأمة الإسلامية بعثا جديدا؟ كان لابد للدولة الجديدة إذن بعد أن فرغت من الجهاد فى سبيل الإسلام فى الصحراء، وفى بلاد المغرب الأقصى أن تنصرف إلى الجهاد العام، إلى مدافعة أعداء الإسلام، إلى رد القوى الإسلامية إلى ماكان لها من سبق وتفوق، كانت الدولة الجديدة تريد أن

تضرب للأمم الإسلامية مثلاً. تريد أن تتمثل في أذهانهم دولة مجاهدة في سبيل الإسلام مسخرة كل جهد وكل مال في سبيل إذكاء حركة الجهاد، ورد أعداء الإسلام إلى سابق عهدهم من الضعف والتخاذل.

وقد ترك العامل الجغرافي في توجيه الدولة في هذا الدور الجديد من أدوار قيامها أثراً بعيداً، فقد أطلت على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت شواطئها الطويلة معرضة لأن تغير عليها الأساطيل الفرنجية، فتتال منها، وتعيث في نواحيها، فلم يكن بد إذن من أن تهتم الدولة بما يجرى في حوض البحر المتوسط الغربي من صراع بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية، كما أصبحت تطل على الأندلس وتهتم بما يجرى فيه وعادت الصلة بين العدوتين وثيقة قوية.

وكان ما يجرى في حوض البحر الأبيض أو في الأندلس تهلع له قلوب المسلمين المخلصين لديهم وتراثهم، نعم جاءت الدولة إلى المغرب في وقت كانت فيه المعركة دائرة الرحي بين المسلمين والفرنجة منذرة بتطور خطير في تاريخ المغرب والأندلس. كان لابد إذن من أن تدخل الدولة في هذا الدور الجديد ميدان الجهاد للدفاع الفرنجة، وردهم عن حياض المسلمين سواء في حوض البحر الأبيض أم في الأندلس.

وقد يقال: ألم يكن من الممكن أن تنتهي مراحل قيام الدولة بعد إتمام فتح المغرب الأقصى؟ وللإجابة على ذلك نقول إن المرابطين لو وقفوا من الأحداث المؤسفة التي كانت تجرى في بلاد الأندلس مكتوفي الأيدي لا يدلون بدلوهم في دلاء الجهاد، لاعتبروا خارجين على رسالة إمامهم عبدالله بن ياسين، حائثين بعهد خائنين للأمانة التي عقدها الناس عليهم، فإن قصة قيام الدولة لم تكن في الواقع إلا حركة جهاد مستمرة، بدأت الحلقة الأولى في الرباط الذي أنشأه عبدالله ابن ياسين في حوض السنغال، ثم أخذت الحلقة تتسع رويدا رويدا، فشملت الصحراء والمغرب والأندلس، ولم يقف الجهاد إلا بعد أن حقق أهدافه، حين تأكد قيام الدولة في أذهان المعاصرين في الشرق والغرب.

٢ - الدوافع التي أذكت رغبة المراتبين في الجهاد:

ولكى نعطي صورة واضحة لذلك الدور العظيم الذي اضطلع به المراتبون في معركة الجهاد، يحسن بنا أن نصور الدوافع التي أذكت الحماس في صدور المراتبين، ونستعرض القوى الإسلامية في الجزء المغربي من حوض البحر الأبيض ونبين مدى ما أصابها من ضعف وتخاذل واستسلام، ثم نبين الأسباب التي أدت إلى رجحان كفة القوى الإفريقية في البحر الأبيض، وفي بلاد الأندلس حتى يتيسر لنا أن نعطي صورة واضحة لهذه الأوضاع المؤسفة التي اضطرت المراتبين إلى المشاركة في حركة الجهاد ومحاولة بعث القوى الإسلامية المبعثرة المتفرقة.

نعم، كان من مظاهر الضعف الذي منى به المسلمون في القرن الخامس الهجري أنهم فقدوا السيادة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي؟ فكيف استطاع الفرنجة أن ينالوا من هذه السيادة، وكيف تمت لهم الغلبة حتى استطاعت أساطيلهم أن تتخن في ديار المسلمين، وتغير على موانئهم وتهدهم في عقر دارهم.

اشتدت حاجة المسلمين بعد فتح الشام ومصر إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل والاستعانة بالسفن في مدافعة الروم، فقد وضعوا أيديهم على موانئ هامة وجزر ذات أهمية حربية عظيمة. مثل قبرص ورودرس وغيرها من الجزر الصغرى المتناثرة في حوض البحر المتوسط، واضطر العرب أن يتخذوا الأهبة لرد عادية أسطول البيزنطيين، الذي كان يغير على موانئ الشام ومصر^(١)، فبدءوا يبنون السفن، ويروضون أنفسهم على ركوب البحر ليضارعوا البيزنطيين في ميدانه، وقد أحرر العرب في هذا الميدان البحري تقدما ملحوظا، فقد استطاعت سفنهم أن تهاجم مدينة القسطنطينية نفسها، ثم فتح المسلمون إفريقية والمغرب الأقصى، وأصبحت سواحل الطويلة معرضة لغارات الأساطيل المسيحية، التي كانت تتخذ من جزر حوض البحر الأبيض معاقل تغير منها على الشواطئ الإفريقية المقابلة^(٢)، ثم فتح المسلمون بلاد الأندلس واستولوا على الموانئ الهامة المطللة

(١) رينو: غزوات العرب في أوروبا ص ١٨.

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٥.

على حوض البحر الأبيض، وكانت الأساطيل الفرنجية تأوى إليها، وتعتصم بها، وكان الحوض الغربى لهذا البحر قد أصبح بحيرة إسلامية^(١).

وشرع المسلمون فى المغرب يعملون فى بناء الأساطيل بهمة لا تقل عن همة إخوانهم بالشرق، وإذا كانت أساطيل الشام قد أغارت على قبرص وروُدس^(٢)، فإن عبدالله بن سعد بن أبى السرح بدأ يستعين بالسفن الحربية على إتمام فتح إفريقية^(٣) ولكن موسى بن نصير هو فى الواقع المؤسس الحقيقى للبحرية الإسلامية فى غرب البحر الأبيض^(٤) فقد أكثر من بناء السفن، لأنه كان يعتقد أن العامل البحرى سيكون له أثر هام فى فتح الأندلس، فلما فتحت هذه البلاد توطدت سيادة المسلمين فى البحر، وانتشرت دور الصناعة فى موانئ الأندلس، كما انتشرت فى موانئ المغرب من قبل.

ولم تكن الأساطيل البيزنطية تستطيع وحدها أن تبسط ظلها على البحر الأبيض كله، من آسيا الصغرى إلى الأندلس، إذ حاقت بها الهزائم المتلاحقة فى الشرق والغرب، وضعف شأنها، ولم تستطع مقاومة التيار الإسلامى، أو الوقوف فى وجهه، ولم تكن القوى المسيحية فى المغرب تستطيع أن تضطلع بعبء الكفاح وحدها، إذ لم تكن لها أساطيل تذكر، فالقوط الغربيون لم تكن لهم بالبحر مغامرات ذات شأن^(٥). حصن المسلمون دور الصناعة وجعلوها قلاعاً يصعب اقتحامها أو الاقتراب منها، كما أنشؤا سلسلة من الربط والمحارس على طول الساحل الإفريقى من برقة إلى طنجة لتتعاون فيما بينها على صد الخطر الفرنجى إذا ظهرت طلائعه أو بدت نذره^(٦).

ولم يقنع المسلمون بذلك القدر، بل أخذوا ينظمون غارات متتابعة على الجزر والقواعد البحرية التى كان المسيحيون يلوذون بها ويعتصمون فيها، اتجهت

(١) Pirenne : Mohamet et Charlemaagne p. 142.

(٢) Ibid, p. 132.

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ١٧.

(٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٦٦.

(٥) Pirenne L Mohamet et Charlemagne, p. 145.

(٦) I dem.

أبصارهم إلى جزيرة صقلية من أول الأمر، ووجدوا أن في بقاء هذه الجزيرة في يد البيزنطيين خطراً داهماً لن يكف عن تهديدهم في عقر دارهم، وكان أول من اهتم بأمر صقلية معاوية بن حديج الكندي^(١)، وظل المسلمون منذ سنة ١١١هـ لا يكفون عن الإغارة على موانئ هذه الجزيرة ومدنها^(٢)، ويقلقون بال القوات البيزنطية ويهددون بها بخطر متلاحق، فقد أرسل عامل إفريقية سنة ١٢٢هـ حملة على صقلية فتحت سرقوسة، واضطرت أهلها إلى دفع الجزية^(٣). ولكن الولاة من العرب شغلوا عن صقلية بثورات البربر، وظلت الحال على ذلك حتى قام الأغالب سنة ٢٠١هـ بتجهيز حملة للاستيلاء على هذه الجزيرة^(٤)، وكان المسلمون جميعاً يتطلعون إلى هذه الجهود التي تبذل للاستيلاء على هذه القاعدة العظيمة، فقد روى المؤرخون أن القوات الأندلسية أسهمت في هذه الجهود المتلاحقة، التي بذلها الأغالب في فتح صقلية^(٥)، حتى كللت جهودهم بالنجاح سنة ٢٢٦هـ، وسقطت آخر قلاع الجزيرة^(٦)، وأخفقت محاولات البيزنطيين لاستردادها، فاستسلموا، وسلموا للمسلمين بما فتح الله عليهم^(٧). وقد وجه المسلمون عنايتهم لسردانية أيضاً، فقد أغارت عليها سفن^(٨) عبدالرحمن بن حبيب سنة ١١٥هـ^(٩) وسفن ابن الحبّاب سنة ١١٧هـ، كما أغارت عليها سفن الفاطميين سنة ٣٢٣هـ، حتى كتب لمجاهد العامري أن يستولى عليها آخر الأمر سنة ٤٠٦هـ^(١٠). كما فتح المسلمون جزيرة ميورقة^(١١)، وأغاروا على قرقة، وفتحوا مالطة سنة ٢٥٦هـ^(١٢). وفي عهد الأغالب « ملك المسلمون الجزائر

(١) المكتبة الصقلية ج١ ص ١٦٥.

(٢) المكتبة الصقلية ج٢ ص ٦٦١.

(٣) المرجع السابق ج١ ص ٢١٨.

(٤) المرجع السابق ج١ ص ٢٢٠. المطرب لابن دحية ورقة ٤٤(١)

(٥) المكتبة الصقلية ج١ ص ٢٢٤.

(٦) المرجع السابق ج١ ص ٢٣٩.

(٧) Pirenne :op.cit.p. 141.

(٨) المكتبة الصقلية ج١ ص ٢١٨.

(٩) المرجع السابق ج١ ص ٢١٦.

(١٠) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(١١) ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ ص ٩١.

(١٢) المكتبة الصقلية ج١ ص ٢٢٧.

المنقطعة مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش^(١)».

هكذا بلغت السيادة الإسلامية الذروة ولم يعد الفرنجة يسيطرون إلا على الطرق البرية، وأصبح القراصنة المسلمون مطلقى السراح يفعلون كما يشاءون، وانهارت الوحدة الاقتصادية فى حوض البحر الأبيض، هذه الوحدة التى لم تنل منها غارات البرابرة على الدولة الرومانية. ويعتقد (Pirenne) أن انهيار هذه الوحدة هو البداية الحقيقية لتاريخ العصور الوسطى^(٢).

ولم يكتف المسلمون بذلك القدر، بل بدأت قواتهم تغير على سواحل أوروبا نفسها، فأغاروا على مدينة طارنت وبارى بجنوب إيطاليا سنة ٢٢٨هـ^(٣)، كما فتحوا كريت سنة ٢٤٤هـ^(٤)، ووصلت غزواتهم إلى روما، فدخلوا من نهر التيبر، وأحرقوا بالمدينة ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس^(٥)، واضطر البابا إلى أن يدفع الإتاوة للمسلمين، حتى يكفوا عن تهديده فى عقر داره^(٦)، بل أغار المسلمون على مدينة جنوة وشاطئ دلاشيا سنة ٢٥٩هـ^(٧)، بل غزوا مرسيليا وأوقعوا بالسفن المسيحية الراسية فيها^(٨)، وحملوا الرعب إلى صفوف الفرنجة، فلم يعودوا يجربون على المخاطرة بأنفسهم فى اقتحام هذا الميدان.

وعلى الرغم من أن الفرقة دهمت القوى الإسلامية فى المغرب بسبب قيام الدولتين الأموية والفاطمية، لم تصب السيادة الإسلامية بأذى، بل اشتد ساعدها عن ذى قبل، إذ عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته، حتى لقد أصبحت المهديّة من أهم الموانئ الحربية فى حوض البحر الأبيض، كما غزا

(١) المكتبة الصقلية ج١ ص ٤٦١.

(٢) Pirenne : op. cit.p.143.

(٣) المكتبة الصقلية ج١ ص ٢٢٧.

(٤) المرجع نفسه ص ٣٥٤.

(٥) رينو: غزوات العرب ص ١٥٥.

(٦) Pirenne : op. cit.p.141.

(٧) Pirenne : op. cit.p.148.

(٨) رينو غزوات العرب ص ١٥٦.

الفاطميون سرديانية سنة ٣٢٣هـ^(١)، وجنوة ومرسيليا^(٢)، وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت مضيق مسينا، وثبتت سيادتهم في جنوب إيطاليا، وأرغمت الأهلين على دفع الجزية^(٣)، وقد فاقت الأساطيل الفاطمية غيرها من الأساطيل الإسلامية في عنف هجومها وجراتها، أما الأمويون في الأندلس فقد عمدوا إلى الإكثار من الأساطيل، حتى بلغت البحرية الأندلسية الذروة في عهد عبدالرحمن الناصر، الذي استولت سفنه على جزر البليار ومنورقة^(٤)، وبدأت دور الصناعة التي أنشئت في موانئ طرْقونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية والميرية^(٥) تسهم في إمداد البحرية الأندلسية بحاجتها من السفن، ورغم العداء المريبين الفاطميين والأمويين إلا أنهما كانا شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم.

ولكن القوى الإسلامية بعد أن بلغت الأوج في القرنين الثالث والرابع بدأت تتقهقر حينما أظل العالم الإسلامي القرن الخامس الهجري، وبدأت السفن الإسلامية ترتد على أعقابها خاسرة، وأخذت القوى المسيحية تنال من هذه السيادة، فقد انتقل الخلفاء الفاطميون إلى مصر، ولم يعودوا يهتمون بأمر هذا الجزء من العالم الإسلامي، وبدأت الأساطيل الفاطمية التي كانت موضع رعب وفزع تنقل ميدان أعمالها إلى الشرق إلى ثغور مصر والشام، كما أخذ شأن الخلافة الأموية يضعف رويداً حتى سقطت آخر الأمر، وتفرق شمل الأندلس، وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة، وأخذت البحرية الأندلسية التي طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها، وبدأت تختفي من الميدان، ونحن لاننكر أن بنى زيري الذين ورثوا ملك الفاطميين بالمغرب، قد اهتموا بالناحية البحرية، وأخذوا يعملون بقدر الطاقة على الاحتفاظ برمق البحرية الإسلامية^(٦)، إلا أنهم كانوا يعملون منفردين، ولم يكن باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله.

(١) المكتبة الصقلية ج١ ص ٢١٦.

(٢) المرجع السابق ج١ ص ١٧.

(٣) المرجع السابق ج ٢٥٣.

(٤) ابن عذاري: البيان ج٢ ص ٢٣٨.

(٥) المكتبة الصقلية ج١ ص ١٩٦.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص ٢٣٨.

حدث هذا فى الوقت الذى بدأت فيه الملكية الفرنجية التى قامت فى فرنسا تمكن لنفسها، وتنمو وتترعرع^(١)، وأثمرت الجهود التى بذلت منذ أيام شرلمان بعد أن تم توحيد الإمبراطورية الغربية، وأخذت الكنيسة بعد أن حالفت ملك الفرنجة تسترد نفوذها القديم، وتبسط ظلها على المجتمع الغربى بالتدريج. وقد تنصر النورمانديون وصاروا عاملا عظيما من عوامل القوة المسيحية، كما تنصر المجار، وأصبحت أوروبا كلها مسيحية تقريبا^(٢)، وبدأ ديبب النهضة يدب فى جسم أوروبا بعد أن تخلصت من أثر غارات الجرمان، وغيرهم من الشعوب المتبربرة، وبدأت الشعوب يشتد ساعدها، وتبرز قوتها مطالبة بحقوقها وتناقش الملوك بالحساب^(٣). كما انتعشت الحالة الاقتصادية، وبدأت جمهوريات إيطاليا، مثل البندقية وبيزة وجنوة توطد من سلطانها التجارى والبحرى، تبنى الأساطيل، وتنازع المسلمين السيادة على البحار، وبدأت تظهر حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى من القراصنة المسلمين، وتنتزع أوكار الأساطيل الإسلامية بالتدريج، فهاجمت جزيرة سرديانية^(٤) التى كان قد استولى عليها مجاهد العامرى^(٥)، ثم تطلعت إلى غزو المسلمين فى عقر دارهم، فدخلت أساطيل المسيحيين ميناء بونة سنة ٤٢٠هـ^(٦)، وعاثت فيها ثم ارتدت ظافرة لم تمس بسوء.

ثم ظهر عامل جديد أخذ يؤكد من تفوق السيادة المسيحية، ومن انهيار السيادة الإسلامية، فظهر النرمان فى جنوب إيطاليا، وبدءوا يتشوفون إلى صقلية منذ سنة ٤٥٣هـ^(٧)، وانتهزوا فرصة انشغال الزيريين فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين، وبدءوا ينتزعون مدن صقلية من أيدي المسلمين، ولم يجد الصقليون دولة إسلامية قوية تغيثهم، وتتشلهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنرمان الاستيلاء على صقلية نهائيا سنة ٤٨٤هـ^(٨)، وبدءوا يرنون بأبصارهم إلى

Pitnnet : op. cit. p.2. (١)

Du Mas latrerie : op. cit.p.2. (٢)

(٣) رينو : غزوات العرب ص ٢٠٠.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

Du Mas latrerie : op. cit.p.7.(٦)

(٧) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٨.

Du Mas latrerie : op. cit.p.7.(٨)

الشاطئ الإفريقي المقابل، فأغارت قواتهم على مدينة زويلة، كما أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهديّة سنة ٤٨٠هـ، حتى لقد قيل إن أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلاثمائة ألف قطعة تضم ثلاثمائة ألف محارب^(١)، وامتنحت المهديّة محنة لم يشهدها المغرب منذ فتحه العرب.

هكذا انهارت السيادة الإسلامية في البحر الأبيض، وامتهن المسلمون واستذلوا واستضعفوا، وأغار المسيحيون عليهم في عقر دارهم يأسرون وينهبون وينكلون، وما يصور شعور الناس أصدق تصوير حيال هذه الكارثة التي حلت بالبحرية الإسلامية، ماروى من أن ابن عباد أمير أشبيلية دعا شاعرا يدعى الحصري القيرواني لزيارته فأجاب بقوله:

لاتعجب لرأسى كيف شاب أسى واعجب لأسود عين كيف لم يشب

البحر للروم لايجرى السفين به إلا على مضض والبر للعرب^(٢)

هذا هو شعور عامة الناس، فما بالك بشعور قوم كالمرابطين كانوا يعملون على إقامة دولة جديدة بالمغرب، ويذكون الحمية والحماس ويبعثون الهمة ويمهدون الأمر لحركة جهاد عامة، وتجنيد عام للقوى الإسلامية؟، لايمكن أن تمر بهم مثل هذه الأحداث الخطيرة دون أن تهز مشاعرهم، وتدمى قلوبهم، وتشحذ عزائمهم للتهيؤ للجهاد لخوض معركة حياة أو موت.

لذلك لانعجب إذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح سبتة وطنجة يحاول إحياء البحرية الإسلامية التي كانت قد درست معالمها، وذهبت ريحها، ويبدو أن جهود المرابطين في إحياء البحرية كللت بالنجاح، وسنرى حين نعرض لحركة الجهاد في الأندلس كيف أن فتح هذه البلاد أعاد إلى الأذهان جهود موسى بن نصير في إحياء البحرية الإسلامية، فقد استطاعت الأساطيل المرابطية سنة ٥١٧هـ^(٣) أن تشترك في حرب نظمتهما القوى الإسلامية في المغرب لمهاجمة النرمان، واشتركت

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٣١١.

(٢) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٢٨.

(٣) الرحلة التيجانية ورقة ١٤٥ (ب)

القوى الإسلامية فيما يمكن أن نسميه حرباً صليبية بحرية. ما أقرب الشبه بين موسى بن نصير ويوسف بن تاشفين.

وترتبط بهذه الصورة القائمة صورة أخرى أشد منها حلقة، فكما تفوقت القوى المسيحية في البحر، كذلك تفوقت في البر، وبدأ المسيحيون يطرقون أبواب الأندلس، يفتحون وينكلون ويأسرون، وكما كانت المسيحية تذكي تيار الجهاد البحري وتبث الحمية في نفوس قادة الأساطيل الفرنجية، راحت تبارك جهود المسيحيين في أسبانيا، وتنظر إلى الجهود التي يبذلونها لمقاومة المسلمين بنظرة الرضا والارتياح، وراح بعض الكتاب يعتقدون أن الحروب الصليبية بمعناها المعروف بدأت في الغرب قبل أن تبدأ في الشرق، بدأت فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط الغربي، وفوق غرب الأندلس ذاتها، حيث كان الصراع محتدماً بين عقيدتين: بين الإسلام، والنصرانية.

بل يذهب بعض الكتاب إلى أن الحروب الصليبية في الشطر الغربي من العالم الإسلامي كانت أبعد أثراً، لأنها دائرة الرحى على أبواب أوروبا ذاتها، وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ لو قدر للمجاهدين المسلمين أن ينجحوا ويصمدوا في وجه هذا التيار المتدفق، أما في الشرق فلو أخفق الصليبيون لقنعوا بالعودة إلى ديارهم ولما هددت أوروبا بخطر كبير.

نعم أصبحت الغلبة للفرنجية في البحر ثم البر، وكان المسلمون بعد أن فتحوا الأندلس قد تجاوزوا جبال البرانس، وأوغلوا في جنوب فرنسا، ولولا هزيمتهم عند «تور» لمضوا في تيار الغزو، حتى أدركوا نهايته، وظل الولاة المسلمون يتابعون الجهود التي بذلها خلفاء موسى في مدافعة الفرنجة، والإمعان في القضاء عليهم، فقد روى المؤرخون أن عقبة بن الحجاج السلوي فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، «ولم يبق لأهل الإسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك إلا جبال قرقشونة وبنبلونة، وصخرة جليقية^(١)». وبدأ للناس جميعاً أن المقاومة القوطية قد انتهت، وأن السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة قد توطدت أركانها.

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ١٨.

وقد ظل الولاة من العرب من بعد عقبة بن الحجاج يدفعون تيار الفتح، أو على الأقل يبقون على ما يبد المسلمون، حتى أفلح الأمويون في توطيد أقدامهم بالبلد، واستطاعوا أن يسيطروا عليها ظل الوحدة والطمأنينة، حتى برأت من علل الفتنة، وإحن العداء والتطاحن، وأخذ الأمويون يفرغون لجهاد الفرنجة، يدفعونهم وينالون منهم، كانوا دائما على أهبة الاستعداد لدفع الخطر، والذود عما بيد المسلمين من حصون وقلاع، فقد روى المؤرخون في سياق التدليل على ذلك أنه «كان للحكم بن هشام ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر عليهم عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس، فإذا بلغه عن نائر ثار في أطرافه .. حتى يخلط به ^(١)». فاستطاع الأمويون بسياسة الحذر والحيلة هذه أن يوقفوا القوى الفرنجية عند حدها، حتى لاتطعم في تذوق طعم الراحة أو الطمأنينة.

ولكن تيار الجهاد الإسلامي قارب أن يبلغ الأوج بعد قيام الخلافة الأموية، فقد كان لزاما على الأمويين كى يثبتوا للعالم الإسلامي أنهم جديرون بالخلافة أن يبعثوا حركة الجهاد، ويشدوا من أزرها، ويتوسعوا فيها، ويصارعوا الفرنجة بعزيمة أشد وبأس أكبر، إنما بلغت حركة الجهاد في شبه الجزيرة الذروة حقا على يد الحاحب المنصور بن أبى عامر، وبدا للناس كافة كأن أيام الفرنجة معدودات، وأن نجمهم مؤذن بالأفول لامحالة، فقد ظل المنصور طيلة حياته لا يخلع رداء الجهاد، يتابع إرسال الصوائف إلى أطراف البلاد، لتتال من عدوه كل منال.

ويكفى للتدليل على أن تيار الجهاد قد جرف المسلمين في ذلك الوقت، وجرف معهم زعيمهم المنصور أنه مات مجاهدا، مات في الميدان بعد غزوة برشتر، ويبدو أن حركة بعث الجهاد في الأندلس كانت قوية، بدليل أنها استمرت إثر وفاة المنصور، بعد أن كان يظن أنها ستقف بعد ذلك، فقد ظل ابنه عبد الملك المظفر يشحن في أرض العدو بهمة لاتعرف الملل، فغزا جليقية سنة ٣٩٥هـ، كما غزا بلاد قشتالة في غزاة النصر، وكذلك حصن شنت مرتين سنة ٣٩٨هـ ^(٢)، وبلغ من

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص ١٨.

(٢) ابن عذارى ج٣ ص ١١.

هية عبد الملك وبعد صيته أن ملوك الفرنجة كانوا يحتكمون إليه إذا شجر بينهم خلاف، كما اشترك بعضهم فى حملاته، مثل شائجة بن غرسية، رعيم الجلالة وصاحب قشتالة^(١).

ولكن هذه الجهود الضخمة التى استمرت ثلاثة قرون، قد تبخرت بين يوم وليلة، وانهار ذلك الصرح الذى طالما بعث الرعب فى قلوب الأعداء، وانهارت المقاومة الإسلامية بالأندلس انهيارا مفاجئاً أذهل الكافة، كما أدهش المعاصرين، وانقلبت الكفة ورجحت فى جانب الأمم النصرانية.

ولا يمكن أن يفسر ذلك إلا بأن جهود المنصور بن أبى عامر كانت جهود فرد قاد أمة، وليست جهود أمة خلقت قائداً، بدليل أن المسلمين فى الأندلس بدوا أمام الناس بعد سقوط الخلافة كأنهم لا يستطيعون المقاومة إطلاقاً. فى هذه القرون الثلاثة التى بقيت فيها السيادة الإسلامية كالطود الشامخ كانت الدويلات النصرانية فى شبه الجزيرة تناضل وتكافح، «بقوى مضاعفة وحب أكيد متقد للحرية والدين والوطن»^(٢). كانت تتقدم تقدماً بطيئاً ولكنه تقدم أكيد، كأنها عقدت الخناصر على بلوغ الهدف مهما كلفها ذلك، فما قصة هذا البعث وما أهميته فى حركة الجهاد التى اضطلعت بها دولة المرابطين فى المرحلة الأخيرة من مراحل قيامها؟

الواقع أن قصة بعث القوى النصرانية فى شبه جزيرة أسبانيا تعتبر عنواناً طيباً للنضال من أجل المبدأ، والتفانى فى الدفاع عن العقيدة. فقد رأينا كيف أن فئة قليلة من بقايا قوات القوط لاذت بأذيال الفرار أمام الفاتحين العرب، واعتصمت بتلك المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، حيث تنحرف البرانس صوب الشمال قليلاً مخلفة وراءها منطقة جبلية وعرة وقف الفاتحون العرب حيالها لم تستطع خيلهم أن تنال منها^(٣)، فتنهى المقاومة النصرانية، وتأتى على القوة القوطية نهائياً. فى هذه المنطقة الوعرة أخذت

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٥.

(٢) يوهف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ج ١ ص ١٠.

(٣) Duruy: Hist du Moyen Age pp. 324-326.

هذه النواة القوطية تنمو بالتدريج بعيداً عن أذى المسلمين وضرهم، وأخذت تنبعث منها حركة قوية لمقاومة الفاتحين تعتبر فى الواقع من أروع حركات المقاومة فى تاريخ العالم.

وأخذت هذه القوة تنمو رويدا رويدا مستغلة ما أصيب به المجتمع الأندلسى من الفرقة فى عصر الولاة، وما اجتاحت البلاد من فتن داخلية مريرة، وكانوا كلما أمعنوا فى تقدمهم صوب الجنوب اتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون معصما لهم من الغزو ومقرا لإماراتهم. اتخذوا مدينة Oviedo حاضرة ثانية لهم فى بلاد أشتوريش^(١).

ثم ما لبثت الأحوال فى فرنسا أن تمخضت عن أوضاع جديدة هيات لهؤلاء المجاهدين من القوط ظروفاً استغلوها خير استغلال، فقد استطاعت الملكية الفرنجية الناهضة أن ترد العرب على أعقابهم فى جنوب فرنسا على يد شارل مارتل وخلفائه، بل إن هذا النصر على الغزاة العرب كان من أقوى الأسباب التى أدت إلى توطيد أركان هذا البيت الفرنجى الناهض، وبدأت الوحدة تبسط ظلها على فرنسا، وتبعث فى نفوس الفرنسيين الحمية والحماس لمقاومة العرب، وردهم على أعقابهم، ويعتبر هذا النصر على العرب نقطة تحول فى تاريخ مملكة الفرنجة، وفى تاريخ حركة المقاومة النصرانية، بل يعتبر أول لبنة تنهار من صرح السيادة الإسلامية فى غرب أوروبا^(٢). ذلك أن أهل جليقية استطاعوا أن ينصرفوا إلى العرب يقاومونهم ويدفعونهم وهم مطمئنون إلى أن الملكية الفرنجية الجديدة تحمى ظهورهم، وتشد من أزرهم، واستطاع ملوك الفرنجة الذين كانوا مقبلين على محالفة الكنيسة الغربية أن يجدوا فى مقاومة العرب مايمكنهم من التمكن لأنفسهم فى نفوس المعاصرين، وإظهارهم أمام العالم المسيحى أجمع بمظهر حماة المسيحية، والذادة عن تراثها، فأخذ المتطوعة من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا يخفون لشد أزر إخوانهم ليشاركوا فى جهاد العرب، بل إن الملكية الفرنجية ذهبت فى المساعدة إلى حد أبعد من هذا بكثير، فقد أقدم شارلمان على عبور جبال البرانس من

Idem. (١)

(٢) رينو : غزوات العرب ص ١١٤.

ناحيتين: هما بنبلونة وبرشلونة بقصد شد أزر المقاومة النصرانية^(١)، والنيل من السيادة العربية بشبه الجزيرة، وتعتبر حملة شارلمان فى الواقع بداية المقاومة المسيحية التى اشتدت فى القرن الحادى عشر^(٢).

وقد اشتد ساعد النصارى فى عهد ألفونس الثانى (٧٨٨م) فأسس الغسقونيون الأسبان إمارة نبرة، التى آلت إلى أمير برشلونة، وسرعان مامتت أرغونة يدها إلى برشلونة ونبرة وقشتالة، وتآلف من هؤلاء جميعاً حلف نصرانى عظيم^(٣)، كان من الممكن أن يشتد أثره بسبب ما أصاب الخلافة الأموية من متاعب فى ذلك الوقت.

مهما يكن من شىء فإن القوى المسيحية أحرزت بعض التقدم فى عهد أدولف الثالث (٨٦٢م)، الذى مد سلطانه حتى نهر دويرة، وجمع شمل الإمارات المسيحية، وراح يذكى جذوة الحرب المقدسة، ويستدر عطف القوى المسيحية فى أوروبا، ونقل الحاضرة أو مركز المقاومة من أشتوريش إلى ليون^(٤).

ولكن حركة البعث النصرانى لم يطل أمدها، فقد أفاقت الخلافة الأموية من متاعبها واستأنفت حركة الجهاد بصورة قوية بلغت مداها فى عهد المنصور بن أبى عامر، وبدا للناس أن المقاومة النصرانية الباسلة أوشكت أن يسدل عليها الستار، وأن المسلمين مستردون ما فقدوه من الحصون والقلاع، فقد استطاعت جيوش المنصور أن تخضع ملك قشتالة وليون، واستولت على قلمدية، ودخلت شانت ياقب، واستولت على برشلونة، وانتزعت كل ما استولى عليه المسيحيون جنوب نهر دويرة والإيبىرو.

وإذا كان القرن العاشر الميلادى عصر محنة بالنسبة للمقاومة النصرانية، فقد قدر لهذه المقاومة أن تبعث فى القرن الحادى عشر بعثاً جديداً^(٥)، فقد سقطت

(١) Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326.

Idem. (٢)

Idem. (٣)

Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326. (٤)

Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326. (٥)

الخلافة الأموية، وتفرق شمل الأندلس، وبات الناس لا يصدقون ما تراه أعينهم من ضعف وتخاذل وتقاوس، وبدأت حركة المقاومة النصرانية تدخل فى دور جديد نستطيع أن نطلق عليه بحق دور الاسترداد Reconquista. فقد انهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار، وبات على القوى المسيحية أن تجمع شملها، وأن توحد صفوفها لترد المسلمين على أعقابهم، وقد تمت وحدة القوى النصرانية على يد الملك شانجة الكبير سنة (١٠٠٠م^(١)). فقد استطاع أن يجمع بين نبرة وقشتالة وليون عن طريق المصاهرات - استطاع إذن أن يسطر سيادته على أسبانيا النصرانية من جبال البرانس إلى ماوراء شانت ياقب، ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة فيما يلى هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر^(٢). كان شانجة الكبير هذا هو باعث هذه الحركة الكبرى المسماة بحركة الاسترداد، التى استمرت فى عهد ولده فردناند الأول، ثم فى عهد حفيده ألفونسو السادس؛ ثم استمرت فى آل بيته، حتى كتب لهم الفور، فطردوا المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة.

وقد شاءت الظروف أن يخلف شنجة الكبير ولده فردناند الأول، الذى استطاع أن يتوسع فى حركة الاسترداد، وأن يخرج بها إلى نطاق أوسع. ولما كانت حركة الاسترداد تتطلب توحيد الصفوف قبل كل شىء، فإن فردناند الأول لم يأل جهداً فى ذلك السبيل، بل وضع الهدف نصب عينيه، فما كاد يستقيم له الأمر حتى طمع فى ملك ليون، واستطاع بعد انتصاره فى معركة تمارون أن يضم الإمارة إلى أملاكه^(٣). كما صارع البشكنس وتغلب عليهم^(٤). وبذلك تم له التوحيد بين ليون وقشتالة. وقد استولى أيضاً على مملكة نبرة الواقعة على الضفة اليمنى للإبيرو^(٥). كما حارب ملك أرغونة، واستطاع بعد جهاد طويل أن يمهد الطريق أمام القوى النصرانية لتخوض معركة الاسترداد، فتم له توحيد الإمارات النصرانية تحت رايتها، واستطاع أن يوجه جموع المسيحيين وجهة واحدة هى مناضلة المسلمين

(١) I dem.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج١ ص ١١.

(٣) Pidal: The Cid and his Spain p. 59.

(٤) I dem.

(٥) يوسف أشباخ ج١ ص ١٢-١٥.

ومدافعتهم، وكان يعلم أن شد أثر حركة الاسترداد لا يتأتى إلا بتوثيق الصلات بين الدول النصرانية بأسبانيا، وبين بقية الدول الأوروبية الأخرى، ويبدو أن هذه السياسة آتت أكلها، فقد عمد البابا إسكندر الثاني سنة ١٠٦٣م إلى تنظيم حملة لشد أثر الإمارات الأسبانية في كفاحها ضد المسلمين. وقد اشترك في هذه الحملة أمراء فرنسيون ونرمان وفرسان من إيطاليا. وقد عاجم المسيحيون بربشتر، وظلوا يحاصرونها أربعين يوما، فلما سلم المحاصرون أمعن الغزاة فيهم قتلا، حتى لقد روى أنهم قتلوا من الأسرى ما يقرب من ستة آلاف^(١).

هكذا بدأت حركة الاسترداد في عهد فردناند تتخذ صفة دولية، وبدأ المسيحيون في كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة جهاد مقدس، ويبدو أن سياسة التقرب من الكنيسة الرومانية أثمرت، فقد اتخذ فردناند لنفسه لقب إمبراطور كتأكيد لسيادته على أسبانيا المسيحية، كما كان يريد في الواقع أن ينافس هنري الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة^(٢). كان فردناند يريد ألا يلعب دورا محليا صرفا إنما دورا عالميا ويسيطر نفوذه لا على شبه الجزيرة فحسب بل على غرب أوروبا كله إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

وقد مضت حركة الاسترداد في عهد فردناند في طريقها حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب بإخضاع المسلمين، وإجلائهم عن البلاد. فقد روى صاحب البيان أنه قال «إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم فقد سكتموها ماقضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكتناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم»^(٣).

فهل استطاع فردناند أن يجنى من وراء حركة الاسترداد الغاية التي ينشدها؟ الواقع إن سياسة فردناند في مدافعة المسلمين كانت ذات شقين، فقد كان يعمل على إرهاب القوى الإسلامية، وبيث الذعر في قلوب المسلمين، فلا يترك لهم

(١) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٣ ص ٥٩، Pidal, p.84.

(٢) يوسف أشباح ج١ ص ١٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٢٨١.

فرصة يتنسمون فيها نسيم الراحة، أو يذوقون طعم الطمأنينة، كان يريد أن تظل القوى الإسلامية مجندة تـجـنـدا مستمرا، حتى يثقل على الأمراء ويثقل على الناس حتى إذا ضاق الأمراء المسلمون ذرعا، وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية، والاستعانة بالأموال لدفع خطر الفرنجة: وقد دفع الجزية صاحب طليطلة، وأشبيلية، وصاحب بطليوس وسرقسطة^(١). واشتط فردناند في طلب الجزية، وكان يجنى من وراء ذلك أموالا طائلة. وكان إذا أنس من الأمراء المسلمين ضعفا مضى في توسعه لايلى على شىء، فقد هاجمت قواته مدينة قلمرية^(٢)، واستولت عليها، وانصرف صوب الشرق، وهاجم سرقسطة^(٣)، ثم انحدر إلى الجنوب، فحاصر طليطلة، بل هاجم أشبيلية نفسها وحاصر بلنسية، وتمخضت هذه الحملات المتعددة عن توسيع رقعة أملاكه، فلم تعد حدود قشتالة تنتهى عند جبال وادى الرملة بل انبسطت رقعته شرقا وغربا^(٤).

مهما يكن من شىء فإن حركة الاسترداد بلغت الذروة أو كادت فى عهد فردناند، وبدا للناس أجمع أن أيام المسلمين فى شبه الجزيرة معدوات، «ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تسعر إلى أن كلب العدو على جميعهم، ومل من أخذ الجزية، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد^(٥)» ولولا وفاة فردناند سنة ١٠٦٥م^(٦)، وتفرق شمل ملكه عقيب ذلك لدالت دولة المسلمين بالأندلس نهائيا.

ومن أسف أن الإمارات الإسلامية لم تستطع أن تنبذ خلافاتها، أو تتحد منتهزة هذه الفرقة التى أصابت المجتمع النصراني، بل ظلت مفترقة الكلمة يحارب بعضها بعضاً، حتى قدر للإمارات النصرانية أن تنهض من كبوتها، وأن تسترد سابق قوتها ووحدتها حينما آلت الزعامة إلى الملك ألفونس السادس. ويبدو أن حركة

(١) ابن عذارى جـ ٣ ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) يوسف أشباخ جـ ١ ص ٢٠.

(٤) المرجع السابق ص ٢٠.

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٣٨.

(٦) Cambridge Med. Hist. vol. vi. pp. 393-395.

الاسترداد كانت سياسة مرسومة لأمرأ قشتالة منذ عهد شانجة الكبير يتوارثها الخلف عن السلف، إذ ما كاد الأمر يثول إلى ألفونسو حتى أخذ يعمل جاهداً في سبيل التمكن لحركة الاسترداد. واستئناف الجهاد على صورة أوسع وأتم، ولما كانت الوحدة هي سياج حركة الاسترداد وحصنها، فقد استطاع ألفونسو بعد جهود شاقة أن يجمع أطراف ملك أبيه، فاستولى على ليون بعد وفاة أخيه شانجه، كما انتزع غاليسيا، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقعة في وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر تاجه، وبدأ يثب إلى زعامة القوى النصرانية وثبا^(١). فاستطاع أن يجمع كلمة أرغونة ونبرة، فاتفقوا على نبذ خصوماتهم والتعاون في سبيل مدافعة المسلمين، وإتمام السياسة التي رسمت منذ عهد شانجه الكبير^(٢)، ثم عمد إلى الإمعان في التقرب من الكنيسة الرومانية ليستدر عطف الأوروبيين وتأييدهم في كفاحه مع المسلمين. وكانت الكنيسة الغربية في ذلك الوقت قد نهضت نهضة موفقة، وبدأت تبسط سلطانها على دول أوروبا المسيحية، فرأى ألفونسو أنه إذا أفلح في استردار عطفها وتوثيق صلته بها فإنها ستجند القوى النصرانية لتأييده وشد أزره، وكان من أثر ذلك كله أن ألغيت الطقوس القوطية من الكنيسة الإسبانية، وحلت محلها الطقوس الرومانية، وانضوت الكنيسة تحت لواء روما^(٣).

وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد في سير حركة الاسترداد، إذ إن الحروب التي كانت دائرة في شبه الجزيرة أضحت حروبا صليبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتباركها وتدعو لها، وتجنّد المسيحيين من أجل المشاركة فيها. وعند ما دعا البابا أوروبا لإيفاد حملة صليبية إلى الشرق أحب بعض الأسبان أن يشارك فيها، فأبى لأنهم حاربوا المسلمين في الأندلس، فكأنهم قد اشتهروا فعلا في هذه الجهود الصليبية^(٤)، وكما وثق ألفونسو صلته بزوما وثق صلته بفرنسا، وأخرج بلاده من عزلتها الدينية، فتزوج كونستانس ابنة أمراء برجونية، الذين يتمون إلى آل كايه ملوك فرنسا^(٥).

Cambridge Med. Hist. vol. vi. pp. 393-395. (١)

I dem. (٢)

Pidal: op. cit. p.p. 137-139. (٣)

A.Lemmann: L'origine de l'idée de la Croisade, Heep. 1937, t. xxix, p. 139. (٤)

(٥) يوسف أشباغ ج١ ص ١٣٩.

فاستطاع الفونسو إذن أن يمكن لحركة الاسترداد ، وأن يمهّد السبيل أمامها لتتجّ وتحقّق أهدافها، فلنحاول إذن أن نعرف مقدار ما أحرّره من نجاح في هذا السبيل .

الواقع أن الفونسو السادس لم يأت بجديد في وسائله ولا في أهدافه، فقد سار على خطة سنّها أسلافه وأملتّها طبيعة الحياة في الأندلس، فقد كانت الحرب بين المسلمين والنصارى حرب قلاع وحصون وليست لقاء في معارك حاسمة تقرر مصير هؤلاء ولا هؤلاء . ولم يكن في مقدور القوى النصرانية أن تحاصر هذه القلاع والحصون؛ أو أن تقتحمها دفعة واحدة؛ لذلك كان من أهداف الفونسو ألا يعرض جنده لخسائر فادحة بمصارعة هذه الحصون ومحاولة اقتحامها، إنّما كان يرمي إلى استنزاف دماء الإمارات الإسلامية بأن يشهر عليها سلاح الإرهاب ويضطرّها إلى دفع الجزية ويضاعف مقدار هذه الجزية عاماً بعد آخر، حتى إذا عجزوا عن الدفع ضرب عليهم الحصار، وأرغمهم على قبول شروطه إرغاماً^(١).

كان يعتمد أيضاً إلى ضرب الحصار على القلاع والحصون بينما تعمل قواته على إتلاف الزرع وهلاك الضرع، حتى إذا عض الجوع المحاصرين سلموا للطاغية بلا قيد أو شرط، وقد قدر لهذه السياسة أن تنجح نجاحاً تاماً لأن المسلمين لم تكن تجتمع لهم كلمة لمواجهة مثل ذلك الخطر مع أنهم كانوا يعرفون أهداف الفونسو ومشروعاته معرفة تامة.

وكان من أثر سياسة الفونسو السادس هذه أن سقطت مدينة طليطلة في يده كما تسقط الثمرة الناضجة، فقد أثقل على صاحبها بالجزية، وانتزع منه بعض الحصون المحيطة به، ثم انقض على المدينة، وضرب عليها حصاراً طويلاً فت في عضدها وأنكح قواها، فلم يجد المحاصرون بداً من التسليم^(٢). وكان لسقوط طليطلة في يد الفونسو أثر عظيم في حركة الاسترداد، وفي إلهاب حماس القوى النصرانية، فقد كانت عاصمة القوط القديمة، وكان فتحها نذيراً بإحياء ملك القوط

(١) عبدالله بن بلكين: البيان ص ٣٢٠ أعمال الأعلام ص ٢٧٧.

(٢) الذخيرة : القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ . ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٦ ، ابن الأثير ج ١ ص ٥٧ . المقرئ ج ٢ ص ١٢٥ .

القديم، والعمل على طرد العرب من الأندلس نهائياً، وسما قدر ألفونسو السادس فى نظر معاصريه إلى مرتبة رفيعة، فاتخذ لقب إمبراطور^(١)، كما اتخذ لقب «ذى الملتين»، وصار يكتب أمراء المسلمين قائلاً: «من الإمبراطور ذى الملتين الملك المفضل أذفونش بن شانجة^(٢)». وبدأت تراوده الآمال التى راودت أباه من قبل، وهى طرد العرب من الأندلس نهائياً، قيل على لسانه: «إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأبخس البقع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين فى أخذ ظلاماتهم^(٣)».

وإذا كان النصرارى قد تضاعفت آمالهم، فإن المسلمين فى شبه الجزيرة قد فت فى عضدهم وتفشى الرعب فى أوصالهم، وبادروا إلى ألفونسو يخطبون وده ويسترضونه بالمبالغة فى دفع الإتاوة، ولكنه لم يقنع بذلك إذ كان لابد له بعد أن استتفز أموالهم أن يقتحم ديارهم، كان يطمع فى قرطبة حاضرة الخلافة «أشاروا عليه بلبس التاج فقال لا حتى أطأ ذروة الملك وأخذ قرطبة واسطة السلك^(٤)». ثم تفتحت أمامه الآمال، وبدأت الحصون الإسلامية فى شبه الجزيرة تتهاوى أمامه واحداً بعد آخر، فاستولى على بلنسية^(٥)، كما أرسل إلى كل الإمارات الأندلسية نواباً عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه، ويحصلوا الغرامات والإتاوات^(٦)، وضرب الحصار على سرقسطة ورفض الأموال السخية التى عرضها صاحبها^(٧) عليه، وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة، كما استولت على حصن لبيط (Aiedo) بإقليم مرسية، كما سيطرت على ألمرية، وبلغ التوسع النصرانى الأوج^(٨)، وبات الناس يعتقدون أن معركة الاسترداد لن تقف عند حد، بل تمضى كالتيار الجارف تقتلع كل مافى طريقها، فلا تبقى على شىء، وتذهب الروايات فى تصوير

(١) Pidal : op. cit.p. 207.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢٥.

(٣) عبدالله بن بلكين : البيان ص ٣٢٠.

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١.

(٥) Pidal : op. cit.p. 207.

(٦) I bid: p. 205.

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ١٨٦.

(٨) Pidal : op. cit.p. 189.

آمال ألفونسو مذاهب الغلو، فتقول «إنه سار حتى وصل إلى جزيرة طريف في أقصى الجنوب، فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته^(١)»، وسواء أصبح ذلك أم لم يصح فإنه يصورنا لنا كيف أن آمال ملك قشتالة قد تجاوزت كل غاية، واعتقد عن يقين أنه محيي ملك لذريق، وأنه لامعصم للمسلمين من بطشه إلا التسليم، أو الفرار بدينهم إلى بر العدو. ولكن الأيام سوف تخلف ظنه، حين تدلف عصبة مجاهدة مؤمنة إلى الميدان آخلة بناصر المسلمين.

وما دما قد استعرضنا مظاهر القوة التي طرأت على المجتمع النصراني في شبه الجزيرة فقلبت الأوضاع، فلا بد من أن نعرض للأسباب التي أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية هذا الانهيار المفرط، والتي أدت إلى تفرق شمل القوى الإسلامية، وانحلالها على هذا النحو الذي رأيناه، كان انهيار الخلافة الأموية هو الكارثة العظمى التي حطمت الوحدة الإسلامية بشبه الجزيرة، فقد كان الأمويون وهم قرشيون يخلعون على البلاد نوعا من الوحدة الشرعية، وكانوا في الواقع خير من يوحد بين الأحزاب المتنافرة، ويضفي على البلاد لونا من ألوان الاتحاد، حين عملوا على توجيه الجهود المختلفة وجهة واحدة نحو الكفاح المشترك.

وكانت البلاد في الواقع تحكم حكما إقطاعيا، فقد تمخضت طبيعة البلاد الجغرافية، وتنوع بيئاتها عن قيام لون من ألوان الاستقلال المحلي في ظل هذه الوحدة العامة، ويبدو أن ضعف الخليفة أو قوته لم يكن له أثر يذكر في ضعف المجتمع أو قوته. فقد كان هشام المؤيد خليفة ضعيفا، ولكن المنصور بن أبي عامر كان يدير دفة الجهاد باسم الخليفة الأموي في قوة خارقة للعادة، فلما سقطت الخلافة الأموية وعز الأمير الشرعي الذي يؤلف بين القوى المتنافرة انتشر السلك وتفرقت الوحدة، واستردت كل مقاطعة استقلالها كاملا، وهذه الفرقة الشاملة كانت ظاهرة انتابت الشرق الإسلامي كله في مثل هذا الوقت تقريبا، ولكنها في

(١) الذخيرة القسم الرابع، المجلد الأول ص ١٢١.

الأندلس كانت كارثة لامعصم منها، فقد كانت المعركة الدائرة الرحي بين المسلمين والنصارى القاطنين فى ديار متجاورة متلاصقة تتطلب الوحدة ولم الشمل .

ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد استمروا سياسة الاغتصاب، وأكسبوها فى نفوسهم صبغة شرعية ، فقد روى المؤرخون أنهم كانوا يقولون «توارث هذه الإمارة مخرقة وضعتها قریش لاستعباد الناس والناس لأب وأم والفخار باطل أحقهم بالملك من استقل به ^(١)» .

حدث هذا كله فى الوقت الذى بدأت فيه القوى المسيحية تتعش اقتصاديا وتقر الأمن والطمأنينة فى البلاد المفتوحة، فتنوعت مصادر الثروة حين تضاعف عدد المشتغلين بالزراعة والتجارة، وبدأت هذه القوى يستظللها نوع من الوحدة بزعامة ملوك قشتالة، الذين راحوا يعملون على بعث القومية فى نفوس مواطنيهم وتوجيههم نحو هدف مشترك ^(٢)، وقد حدث هذا أيضاً فى الوقت الذى أخذت فيه النهضة تدب فى أوصال أوروبا فى القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر، وظهرت ملكيات جديدة فى الوقت الذى نهضت فيه الكنيسة الرومانية نهضة عظيمة بعد حركة الإصلاح الكلونية، وبدأت تبسط سلطانها على غرب أوروبا، وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة مع الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ^(٣) .

ومن الأسباب التى أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية أيضاً هذه الطائفية البغيضة التى أصابت البلاد، فنخرت فى صرح وحدتها حتى دكته، ونعنى ذلك النزاع الذى نشب بين العرب والبربر، هذا النزاع الذى ظهرت بوادره فى عصر الولاة، ولكن آثاره تضاعفت منذ عهد المنصور بن أبى عامر، الذى كان لابد له ليضطلع بحركة الجهاد على نطاق واسع من ألا يعتمد على المطوعة والمرتقة من جند الأندلس، بل على المجندين من البربر؛ فأكثر منهم، واعتمد عليهم اعتماداً

(١) ابن بسام: الذخيرة، القسم الرابع، مجلد ١ ص ١١٢ .

(٢) Cambridge Med. Hist. vol. vi. p. 393.

(٣) Ibid p. 267.

مطلقاً فى تنفيذ مشروعاته السياسية، ومناضلة الأرستقراطية العربية فى شبه الجزيرة، فلما سقطت الخلافة أوقدوا نار الفتنة وعاثوا فى الأرض، وفرقوا الوحدة الإسلامية شر مفرق^(١).

يضاف إلى هذه الأسباب أيضاً أن سياسة المنصور بن أبى عامر القاضية بالإفراط فى الجهاد أنهكت الدولة. كما أن هذه الحملات العديدة استنزفت أموال البلاد، وحصدت زهرة الجند، وكان باستطاعة المنصور لو كان بعيد النظر أن يحتفظ بحدود الدولة كما هى، وأن يتخذ سياسة الدفاع والتفرغ للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى، ولكن المنصور كان يريد أن يتخذ من الجهاد سلماً يحقق أغراضه وأهدافه، ولاندرى إلى أى هدف كان يسعى ذلك الرجل البعيد الأطماع.

ولم تكن أخطاء المنصور السياسية هى التى أدت وحدها إلى أن تعصف بالوحدة الإسلامية، بل اتخذ المنصور سياسة اقتصادية كانت ذات أثر فيما منيت به الأندلس، فقد كانت الدولة تقطع الجند أرضاً يستغلونها لقاء خدمات حربية يؤدونها فى أوقات معلومة، ويظهر أن هؤلاء الجند كانوا يعنون بالإنتاج الزراعى عناية فائقة «فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه^(٢)». لكن المنصور فى أواخر عهده عمد إلى مصادرة هذه الإقطاعات، ومنح الجند أعطيات شهرية، ورتب على الأرض جباة أساءوا السيرة وظلموا الرعية، «فلما ثقلت الوطأة على الناس بدعوا يهجرون الأرض ويفرون منها حينما اشتد ساعد الفتنة وظهرت ريح المحنة^(٣)».

يضاف إلى ذلك أيضاً مامنيت به البلاد من طائفة المستعربين، وأشباه المسلمين الذين كانوا يعرفون العربية، ويؤلفون جاليات كبيرة انبثت فى طول البلاد وعرضها، فلما انهازت الخلافة كانوا من أشد أنصار الممالك النصرانية إخلاصاً، يفشون أسرار المسلمين، ويكشفون عن عوراتهم، وكان النصرارى إذا تقدموا

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ١٠٤.

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٣.

(٣) Pidal: op. cit. p. 43.

محاربين أو محاصرين، ساروا كأنهم بين أهلهم وقومهم، فكانوا يضربون خيامهم في ظاهر مرسية أو بلنسية دون أن يخشوا شيئا^(١).

مهما يكن من شيء فإن الأوضاع في الأندلس تناهت في السوء، وأصبحت الحياة فيها شاقة عسيرة، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها. تحكمت الذاتية في أطماع الناس شعبا وحكاما، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لا يحسبون حسابا لغدهم، منغمسين في الترف، متهافتين على الملذة^(٢). وكان من الممكن أن تظطلع إمارة أشبيلية بحركة توحيد القوى الإسلامية في شبه الجزيرة، وكانت الظروف ترشحها لمثل هذه الزعامة^(٣)، ولكن أمراءها أعمتهم الأهواء الخاصة، وابتاعوا السلم الزائف بأفدح الأثمان، ومدوا أيديهم للطاغية بحالفونته ليفتك بإخوانهم في الدين، وقد تجلّت هذه السياسة القصيرة النظر فيما رواه المؤرخون على لسان بعض أمراء الأندلس^(٤)، ومنهم المعتمد بن عباد حين قال: «الحال مع العدو - قصمه الله - سيئة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لا تنفكر إلى نعت ولا وصف ومن يمكن مقاومته ومخاشسته فليس إلا مداراته وملايته^(٥)».

وقد اضطرت روح الضعف هذه ملوك الطوائف إلى تسخير المرتزقة من النصراني في تحقيق أغراضهم، والإغارة على إخوانهم في الدين، وقد تفشى في

(١) «بل حلت الفاقة بعد بجماعتهم حين أيقن النصراني بضعف المتن وقوت أطماعهم بافتتاح المدن واضطرت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أستهم وشفارهم ومن أخطاه القتل منهم فإنما هم بأيديهم سبايا يمنحونهم بأنواع البلايا حتى دنوا عما أرادوه من التوب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب وحصلت مدينة قورية أولا في يد العدو إلى عدة حصون وقلاع كلها في غاية الحصانة والامتناع ثم لم يزل التخاذل يتزايد والتدابير يتساند حتى حلت الفاقة وقضيت القضية وتعجلت البلية بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصراني وذلك سنة ٤٧٨هـ وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة واسطة القلادة تدركها من جميع نواحيها ويستوى الإضرار بها قاصيها ودانيها وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

فما المقام بها إلا من الغلظ
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

حشا مطاياكم عن أرض أندلس
فالثوب ينسل من أطرافه وأرى

(الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠١ - ١٠٢).

Dozy: Abbadidarum vol. II, p. 8. (٢)

Gamdrigbe Med Hist. vol. 6 p. 395. (٣)

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد، قسم ٢ ص ١٥٣.

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد، قسم ٢، ص ١٠٣.

الناس شعور بالذلة والمسكنة لم نعهده في أمة عربية من قبل، فقد وسعوا بالجن ولم تقو أجنتهم المهيضة على أن تثبت أمام العدو في زحف أو قتال^(١)، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بأن الدين قد ضعف سلطانه على قلوب الناس؛ على حين أن الجند النصراني يجاهدون من أجل هدف واحد معروف يؤلف بين قلوبهم ويلهب حماسهم ويدفعهم إلى البذل والفداء^(٢). وليس بغريب أن نرى جمهرة الشعب على هذا النحو من التخاذل، مادام أمراؤهم قد خانوا الأمانة على مرأى ومسمع من الناس، فانهارت القوى المعنوية للشعب، وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال، هذا إلى جانب ماكانوا يزرعون تحته من أعباء مالية باهظة، فقد كان الأمراء في سبيل استرضاء ملوك النصارى يغالون في فرض الضرائب، ويتزنون أموال الناس ويثقلون عليهم حتى أصبحوا بين عدو يتربص بهم وأمير يستنزف دماءهم، ويكفي للتدليل على فساد الحياة في الأندلس في ذلك العصر ماصوره ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة من علل اجتماعية خطيرة ومفاسد دبت في جميع مرافق الحياة حين قال: «وبالجملة كان الناس قد فسدت أديانهم وإثما الدنيا الفانية والزمان على آخره، وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم^(٣)».

وكان الفقهاء والمفكرون^(٤) يشاهدون هذه الفرقة الداهية، فيتألمون لما أصاب المجتمع من انحلال، ويصورون هذه الحالة المفجعة بأسلوب مفعم بالآلم والحسرة، كتبوا إلى الأمراء يدعون إلى الوحدة، وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذي استشرى داؤه، فلم يستجب لهم مستجيب، إلا أن جهودهم لم تذهب سدى، فقد أخذوا يزهدون أهل الأندلس في الأوضاع القائمة على الفساد،

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ ص ٢٨٩.

(٢) dozy: Recherches, vol.II, p. 103.

(٣) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢٥١.

(٤) أبو عبد الرحمن بن طاهر (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٧٢).

أبو محمد بن أبي عمر بن عبيد البر النمرى (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٥٥).

أبو عبدالله البزلياني (الذخيرة القسم الأول مجلد ٢ ص ٤٥٧)

أبو الوليد الباجي الأندلسي (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٩)

أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٤)

أبو الوليد محمد بن عبدالعزيز والوزير أبو عامر التاكوتى وأبو الإصمغ بن أرقم.

ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد، ويمهدون السبيل أمام المرابطين الذين خفوا إلى حومة الجهاد منافحين مناضلين.

١٢ - استدعاء المرابطين للجهاد فى الأندلس:

وقبل أن نعرض لقصة الجهاد فى الأندلس، ونكشف عن ذلك الدور الرائع الذى اضطلع به المرابطون يجب علينا أن نبين رأينا فى أمر نعتقد أنه على جانب عظيم من الأهمية. لابد أن نعرف هل لى المرابطون داعى الجهاد فى الأندلس حبا فى الجهاد وخدمة للدين، أم أنهم استدعوا إلى الأندلس، استدعاهم ملوك الطوائف لإنقاذهم مما حل بساحتهم من عدوان النصارى، ومن الغريب أن روايات المؤرخين فى هذا الصدد متناقضة أشد التناقض مختلفة أشد الاختلاف مشوبة بطابع خرافى مبالغ فيه. وكل مايمكن أن نخلص به من هذه الروايات المختلفة ^(١) أنها تحاول أن تظهر المعتمد بن عباد أمير أشبيلية بمظهر صاحب اليد الطولى فى استدعاء المرابطين إلى الأندلس. تبنى الفكرة ودافع عنها، وراسل يوسف بن تاشفين، يصور له سوء الحال، ويلهب حميته وحماسه ويستدر عطفه. بل ذهب المؤرخون ^(٢) إلى أبعد من هذا، فقالوا: إن المعتمد قد عبر البحر إلى المغرب، وسعى إلى مقابلة يوسف شخصيا لاستنهاض همته، فكأن يوسف كان عازفا عن التدخل حتى حمله المعتمد على ذلك حملا، وذكروا أيضا أن ابن الأفطس صاحب بطليموس قد شاركه فى هذه الخطة ^(٣)، وأيده فيها كل التأيد، وبعد أن كان أمراء الأندلس يقفون من هذه السياسة وقفة التردد اضطروا إلى أن يدلوا بدلهم فى الدلاء، وشاركوا فى هذه السياسة، ويستصرخوا بالمرابطين يعدونهم بالنصرة والتأييد إذا هم عبروا البحر إلى الأندلس مجاهدين ^(٤).

ولايمكن أن نمر على هذه الروايات دون أن نرى لنا فيها رأيا، ويبدو أن

(١) الحميرى: الروض المطار ص ٨٥. الحلال الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٣٠ و ٣٢. روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣. المراكشى: المعجب ص ٨١. الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩. المطرب لابن دحية ورقة ٩.

(٢) المراكشى: المعجب ص ٨١. المطرب لابن دحية ورقة ٩ ب.

(٣) الحميرى: الروض المطار ص ٨٦.

(٤) الذخيرة: بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩.

أغلب المؤرخين الأندلسيين حاولوا أن يظهروا أمراء أشيلية بمظهر البطولة وأصحاب الفضل في بعث حركة الجهاد، كما حاولوا أن يغيثوا من شأن أهل المغرب، ويظهروهم بمظهر الذي يلبي نداء أهل الأندلس، ويأتمرون بأمرهم، ومن الغريب أن هذه الظاهرة تشاهد بجلاء واضح فيما يرويها المؤرخون المنحدرون من أصل أندلسي، فهم يحاولون دائما أن يرفعوا من شأن الأندلس، ويعلموا من ذكرها، كما أن بعض المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع كتبوا في عصور متأخرة نوعا، وقد يكون ذلك في عصر الموحدين، أو بعدهم، حين اعتاد الناس أن ينظروا إلى المرابطين نظرة معادية، وأن يشوهوا تاريخهم، ويغيثوا من شأنهم في الوقت الذي يحاولون فيه أن يرفعوا من شأن الموحدين، ويعلموا من ذكرهم فساءهم أن يكون المرابطون البادئون بالجهاد، وهم أصحاب الفضل على الإسلام، وعلى أهل الأندلس.

ومن الغريب أن المؤرخين حين تعرضوا لتوسع المرابطين في المغرب عزوا ذلك إلى ما كان من استنجد بعض فقهاء سجلماسة بقيادة المثلثين وزعمائهم، ثم تعود المراجع^(١) فتعترف بأن دولة المرابطين قامت من أجل الجهاد، وأنها تحله من سياستها محلا رفيعا، وتسخر قوتها من أجل إحياء الإسلام، وإنقاذ العالم الإسلامي مما دهمه من فرقة وتخاذل، يدل على ذلك مارواه صاحب الذخيرة^(٢) على لسان بعض من كتب يستنجد بيوسف، إذ قال: «وقفت على الجهاد عزائمك وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزوة الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعضل من الداء وتستغاث...»، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا أحرصكم على الشرع وبما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدي».

لذلك أخذ يوسف بعد أن تم له فتح بلاد المغرب يجوب أرجاءه محرضا على الجهاد داعيا له مستنفرا للقبائل على أن تنخرط في سلك المجاهدين^(٣)، سواء

(١) الحلل الموشية ص ٣٦. روض القرطاس ص ٩٣. المراكشي ص ٨١ الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩.

(٣) ابن أبي رزع: روض القرطاس ص ٩٣.

أكانت هذه القبائل من أنصاره أم من أعدائه، لأنه كان يعتقد أنه لا بد من أن تتحد القوى الإسلامية كلها للقيام بجهد مشترك موحد، نعم كان الجهاد هو الشعار الذى اتخذه يوسف بن تاشفين لنفسه، حين قال «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا نفسى»^(١)، فكأنه كان ينفذ تعاليم إمامه عبدالله بن ياسين، وابن عمه أبى بكر بن عمر، نعم أقدم يوسف على فتح سبتة وطنجة لاحبا فى التوسع والفتح فحسب، بل ليتمكن دولته الناشئة من أن تتخذ قواعد لأسطولها الناشئ الذى سوف تسخره لمناهضة القوى الفرنجية فى البحر، وحماية القوات المرابطية حين. تعبر إلى الأندلس مجاهدة فى سبيل الله^(٢) إذ لا بد أن يكون يوسف قد وضع أمر الجهاد فى الأندلس نصب عينيه، وهو يسير جيشه لفتح سبتة وطنجة، فقد كان يمكن لقواته ويتخذ العدة لحشد القوى الإسلامية لمواجهة خطر الفرنجة، كما يجب ألا ننسى أن فتح سبتة وطنجة قرب الصلة بين المغرب والأندلس، وأصبح المرابطون وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجرى فيها من أحداث، ويرقبون المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى.

ويجب أن لا نغفل ناحية أخرى هامة هى أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الأندلس إلى المغرب، وكان كثيرون من الأندلسيين ينفرون إلى بر العدو معتصمين بالمرابطين نجا بأنفسهم ودينهم، يروى المؤرخون أن هؤلاء الفقهاء كانوا يروون لشيوخ المرابطين قصصا دامية، وحوادث مفاجئة يهتز لها كيان كل مسلم مخلص لدينه معتز به، وكان بعض هؤلاء الفقهاء يخفون إلى لقاء يوسف بن تاشفين مجهشين بالبكاء لما أصاب بلادهم من بؤس وشقاء^(٣) فتهتز نفسه، وتقوى عزيمته على وجوب التدخل مهما كان السبب.

ويبدو أن توسع المرابطين صوب سبتة وطنجة لم يصادف هوى فى نفوس أمراء الأندلس، فتوجسوا خيفة، وأحسوا أن قوة جديدة بدأت ترقب حركاتهم

(١) المراكشى : المعجب ص ٨١.

(٢) المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ١١٧٥.

(٣) الحميرى : روض المطار ص ٨٦.

وسكناتهم، وتبرم بمبازلتهم ومساخرهم، وتتهيا للأخذ بناصيتهم، يدل على ذلك مارواه المقرئ حين قال: «لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتوني المغرب وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعه البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة تاقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس، فهم بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة وصعبت عليهم مدافعتة وكرهوا أن يكونوا بين عدوين: الفرنج عن شمالهم والمسلمون عن جنوبهم وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم^(١)، كما أن المعتمد بن عباد لما علم بزحف المرابطين أمر بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق».

أما المراجع التي تصور لنا المعتمد بن عباد بأنه بطل الاستنجاد، ومتبنى فكرة استدعاء المرابطين فإنها تعود فتذكر أن ثمة خلافا وقع بينه وبين ابنه الراشد الذي كان يرى ألا يستنجد أبوه بالمرابطين مخافة أن يطمعوا في ملكه ويصرفوه عما بيده من البلاد^(٢)، ويضيفوا إلى ذلك أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من تفكير المعتمد في هذا المشروع، وكان «كلهم يحذره سوء عاقبته وقالوا له: الملك عقيم والسيوفان لا يجتمعان في غمد واحد^(٣)». وأشاروا عليه بمداواة ألفونسو ومصانعته وإجابته إلى ما يطلب^(٤)، بل إن الأمير عبدالله بن بلكين أمير غرناطة الذي شهد هذه الأحداث، وأشترك في هذه الوقائع يشير إلى هذا التوجس، وهذا الخوف من يوسف فيقول: «وأنس الجميع ولما يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انخياش رعيتهم إليه فكل من شكوا إليه ذلك الوقت من رعيته يقول له: لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم^(٥)». إذن لم يكن هنالك إجماع على الاستنجاد بالمرابطين كما يصور المؤرخون، بل كان من

(١) المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ١١٧٥.

(٢) الحلل الموشية ص ٣١. أعمال الأعلام ص ٢٨١.

(٣) الحميري: روض المطار ص ٨٥.

(٤) ديوان ابن حمد يس الصقلي ص ٣٧٧.

(٥) عبدالله بن بلكين: البيان ص ٣٣٩.

رأى بعض زعماء الأندلس أن يستنجدوا بعرب بنى هلال، الذين كانوا قد غزوا إفريقيا، وكادوا يطوحون بملك بنى زيري^(١).

ولكن المراجع كشفت النقاب^(٢) عن ناحية أخرى هامة، كشفت عن الدور العظيم الذى لعبه الفقهاء فى الأندلس، وبينت كيف سعى هؤلاء المخلصون لقضية وطنهم إلى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى، وخصوصا بعد سقوط طليطلة، واستشراء داء النصارى فى شبه الجزيرة، فعقدوا مؤتمرا فى قرطبة تذكروا فيه أحوال البلاد، ومامنيت به من ضعف وتخاذل، وعرضوا لما كان من عجز الإمارات الإسلامية عن الاتحاد والتعاقد، وإمعانها فى التخاذل والتخاصم، ورأوا أنه ليس أحسن من الاعتصام بالمرابطين، وتأييد المشاريع التى كانوا قد بدءوا يعدونها لخوض معركة الجهاد فى الأندلس، ومن أئمة هؤلاء الساعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصر الإسلام، ويروم جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم^(٣)، ولم لا يكون رسل المرابطين من فقهاء المغرب قد انبثوا فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت يؤلبون فقهاءها قادة الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين إذا هى نزلت شبه الجزيرة حتى يخف إليها الشعب مؤيدا ومؤازرا، فلا يجد ملوك الطوائف مناصا من السير مع السائرين. كان باستطاعة يوسف بن تاشفين لو كان عازفا عن التدخل فى شئون الأندلس أن ينصرف إلى غزو إفريقيا والتوسع شرقا، وكانت الأحوال هنالك تمهد لمثل هذا التوسع لو أن المرابطين أقدموا عليه. ولم يكن يوسف يسعى إلى كسب مادی، بل كان يسعى إلى نصر أدبى، هو تحقيق أهداف المرابطين من الجهاد والتمكين للدولة الناشئة، فانصرف إلى فتح سبته وطنجة، وشرع فى بناء السفن واتخاذ الأبهة لخوض معركة الجهاد، والدفاع عن القوى الإسلامية فى المغرب.

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٢. المقري. نفع الطيب ج ٢ ص ١١٧٨.

(٢) الذخيرة مخطوط بغداد الثانى ص ٩٩؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٠، المقري ج ٢ ص ١١٧٨-١١٧٩.

(٣) القاضى عياض: ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٧٢.

ويخيل إلينا أن يوسف كان يعد العدة للتدخل في الأندلس، حتى لو لم يستجد به ملوك الطوائف، وهل كان في تأييدهم له ووقوفهم في صفه غناء مادام الشعب والفقهاء يؤيدونه ويقفون في صفه. ويخيل إلينا أيضا أن ملوك الطوائف في الأندلس قد أحسوا بهذا، ولسوا بأنفسهم مبلغ تهيو يوسف لدخول الأندلس فأحبوا أن يستفيدوا من حركة قائمة قبل أن يكتسحهم تيارها، فيظهروا أمام العالم الإسلامي بمظهر المتقاعسين عن الجهاد^(١)، فكتبوا يوسف بن تاشفين تحت ضغط الفقهاء. وليس ببعيد أن يكون شأن المعتمد بن عباد شأن بعض الأمراء مثل المتوكل ابن الأفطس وعبدالله بن بلكين قد كتب يوسف بن تاشفين في هذا الوقت بالذات حينما أهدت به قوات ألفونسو، وأحس أنه لن ينجو من المصير المحتوم إلا بالسير في ركاب المحبذين لجواز المرابطين إلى الأندلس، والمؤيدين لمشروعات المرابطين في شأن الجهاد^(٢). كما أن تطور الحوادث في الأندلس سنة ٤٧٩هـ قد أظهر لكل ذي عينين أن القوى النصرانية تريد أن تبتلع كل شيء، وأنه لا بد للأمراء إذا أرادوا السلامة أن يؤيدوا الدولة الناهضة التي كانت تستعد للجهاد في ذلك الوقت.

يتبين مثل هذا الاتجاه مما رواه شاهد عيان لما كان في هذا الوقت من حوادث، ذلكم هو الأمير عبدالله بن بلكين الزيرى الذى وصف استيلاء المرابطين على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق، فقد ذكر أن المعتمد بن عباد أخذ يماطل ويسوف في تسليم هذه الجزيرة برغم وعده بتسليمها، وأن المرابطين انقضوا على هذا الموقع، وفوجئت قوات أشبيلية بعساكر المرابطين تحديق بهم «التفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها لم يدر متى أقبلت ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزدون ويترادفون حتى انكمل المعسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة وأحدقوا حوالها يحرسونها^(٣)». وقد عارض الراضى ولد المعتمد في ذلك، فقال له داود بن عائشة: «وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ونحن لم نأت لأخذ بلد إنما أتينا

(١) ابن الكردبوس التورى: كتاب الاكتفا نقلا عن.

Gayangosvol. II.ap. C.p.xxxIII.

(٢) الذخيرة: مخطوط بغداد القسم الثانى ص ٩٨.

(٣) عبدالله ابن بلكين: البيان ص ٣٣٧.

للجهاد فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا فالذى نقدر عليه نصنع» فلم يجد أمير أشبيلية مناصاً من التسليم مادام المرابطون قد وضعوه أمام الأمر الواقع.

كان المرابطون كما قلنا يعدون العدة لخوض معركة الجهاد مهما كلفهم ذلك، فقد قال يوسف: «إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتوكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة . . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لاعهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه^(١)». هذا هو دستور الجهاد فى الأندلس وتلك هى أهدافه وأغراضه فلنحاول أن نتبع قصته حتى نعرف إلى أى حد أفلح يوسف فى تحقيق مآغياه.

١٣ - الدور الأول من أدوار الجهاد فى الأندلس - فكرة الجبهة المتحدة:

ومهما يكن من شىء فقد احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء وبدءوا يتخذونها معسكراً كبيراً تندفق إليه قواتهم فوج يتلوه فوج، كما أخذوا يحشدون القوات ويشترون العدة والسلاح^(٢)، ويتهيئون للخطوة المقبلة، كما بعثوا إلى الجزيرة بأعداد كبيرة من الإبل لتشارك فى معارك الأندلس، وربما كان ذلك للمرة الأولى^(٣)، وقد علت صيحة الجهاد فتردد صداها فى الأندلس والمغرب، وبدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة، وجاءت الوفود المجاهدة من الصحراء وبلاد القبلة والزاب، ولم تتخلف قبيلة عن المساهمة فى هذه الحركة الكبرى^(٤). وكان يوسف ابن تاشفين قد وجد فى معركة الجهاد هذه بلسماً يشفى جراح المغرب ويوحد بين قبائله كلها تحت لوائه، ويقر الأمن والسكينة فى ربوعه، ومادام الجميع ينصرفون نحو هدف واحد لا يلوون على شىء فى سبيل تحقيقه، وقد علت صيحة الجهاد

(١) المراكشى : المعجب ص ١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٢٤ .

(٣) القرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

فى الأندلس، وكان الفقهاء وقادة الفكر يجوبون البلاد، ويستنفرون الناس، ويعملون على توحيد الجهود ليمهدوا السبيل أمام القوات المجاهدة الآتية من المغرب، وقد عبر يوسف البحر ونزل الجزيرة الخضراء «وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتألت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين»^(١).

ويبدو أن الهدف البعيد الذى كان يوسف بن تاشفين يرمى إليه وهو حشد القوات الإسلامية فى صعيد واحد، وتكتل القوى ووقوفها صفا واحدا كالبنيان المرصوص لمجابهة العدو يدا واحدة كان قد شارف النجاح، إذ كان لقدمه فعل السحر فى نفوس الناس، وخصوصا حين أخذت قواته بعد احتشادها فى الجزيرة الخضراء تتجه صوب أشبيلية بقيادة أبى سليمان دواود بن عائشة^(٢)، فما كادت قواته تقترب من هذه المدينة حتى خف إليه الناس من سائر الجهات متطوعين للمشاركة فى الجهاد^(٣)، وانضمت إليه قوات المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وبعض قوات ابن صمادح صاحب ألمرية، وصاحب غرناطة. والشغر الأعلى، وابن ذى النون وابن عزون^(٤)، حتى «لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج»^(٥). وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وبدأت وفود المطوعة من سائر الأقطار تفد إلى أشبيلية^(٦)، فلم يجد يوسف بدا من جعل القوات معسكرين : معسكر الأندلسيين فى ناحية، ومعسكر الصحراويين فى ناحية أخرى، حتى لا يختلط المعسكران^(٧).

وبدا للناس كأن المعجزة التى طالما انتظروها قد تحققت. فاجتمع شمل أهل الأندلس بعد تفرق، وتوحدت جهودهم بعد طول تحاسد، وبدا كأن جهود يوسف ابن تاشفين قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ وفاة المنصور بن أبى عامر، حين كان المجتمع الأندلسي عبارة عن معسكر كبير يعج بالمجاهدين والمطوعة من كل

(١) الحميرى: الروض المعمار ص ٨٧.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٧.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٧.

(٤) المقرئ: نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٧٩.

(٥) الضبى: بغية الملتبس ص ٣١.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٧.

(٧) المقرئ: نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩.

فج. لم يكن من المستطاع أن يوحد الأندلسيون أنفسهم بأنفسهم، فكان لابد من قوة خارجية تلم شملهم، وتنظم وحدتهم، وتحملهم على الوقوف صفا واحدا.

وبدا المجتمع الإسلامي في الأندلس وكأنه أفاق فجأة من هجعة طويلة، وبدأ ينتفض انتفاضة القوة والحياة على يد هؤلاء القوم الغلاظ الأشداء الذين لم توهن عزائمهم ملذات الحياة، ولم تصرف قلوبهم عن خشية الله، بل تألفت قلوبهم على الإيمان، واجتمعت على الجهاد، يدل على ذلك ما قاله أمير معاصر هو عبدالله ابن بلكين صاحب غرناطة. الذي اشترك في حركة توحيد القوى هذه، فقد كتب يقول: «وطننا أن إقباله على الأندلس منة من الله عظمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة وللذي شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق فنعمل بأنفسنا وأموالنا في الجهاد بعد كل عام فمن عاش منا كان عزيزا تحت ستر وحماية. ومن مات كان شهيدا. والعجب في تلك السفارة من حسن النيات وإخلاص الضمائر كأن القلوب إنما اجتمعت على ذلك، ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجيوشه، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ولقينا المتوكل بن الألفطس محتفلا بعسكره كل يرغب في الجهاد قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه^(١)».

وقد أراد يوسف أن يبقى على هذا الشعور الفياض، وأن يؤثّل لهذه الوحدة الفريدة، فعاقده ملوك الطوائف على أف يكونوا يدا واحدة، وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بمعاونته على ألا «يعرض لأحد في بلده ولا يقبل عليه رعيته ممن يروم الفساد عليه^(٢)».

وقد أحسن المعسكر النصراني بهذا الخطر الداهم، وأدرك أن ثمة تغيراً وقع في الجبهة الإسلامية، وأن الوحدة قد شملت صفوف المسلمين، وشدت من أزرهم، وأتت الأنباء للملك ألفونسو السادس، وهو يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار، وبدأ يحشد القوى النصرانية، ويستنفر همم الأمم المسيحية

(١) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ٣٨٨.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧-٣٣٨.

ودوت أصوات الاستغاثة والاستنجاد في أرجاء أوروبا، ولا بد أن الكنيسة الرومانية التي كانت قد تمت سيطرتها على كنيسة أسبانيا قد عملت على إذكاء الحماس في نفوس المتطوعين «رفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم»^(١) وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرغونة وجليقية كما استعان بابن ردمير Sancho Ramirez صاحب أرغونة وبنبلونة والكونت برنجار ريموند، وكان حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونيا وأشترويس وقشتالة^(٢)، ورفع الحصار عن بلنسية وخف إليه البرهانس var Hanez.

كانت الأحوال إذن تنذر بأن الصدام بين الإسلام والنصرانية سيكون صداما عنيفا، وأن المعركة التي سوف يشترك الطرفان في خوض غمارها ستكون من المعارك الفاصلة في تاريخ جميع القوى المشتركة فيها، فقد كانت القوى النصرانية في شبه الجزيرة قد بلغت الأوج، كما كانت الروح التي بثها مجي المرابطين وحركة الوحدة التي تفشت بين أمراء الأندلس قد جددت العزائم وقوت القلوب وأحييت موات الآمال، ونحن إذ نعرض لوصف ذلك الصراع الموشك أن يحدث بين الفريقين يجب أن نلتزم نهجاً واضحاً لانحيد عنه، فلا نغرق في التفاصيل ولا نلم بكل دقيقة من دقائق المعركة، إنما الذي يعيننا هو أن نعرض للآثار التي تركتها هذه المعركة في حركة الجهاد بالأندلس. والذي يعيننا قبل غيره هو نتائج هذا الصراع وآثاره في سير حركة الجهاد، وفي التمكين لدولة المرابطين.

من الغريب أن جل ماكتبه المؤرخون المسلمون في موضوع هذا الصراع يشوبه غموض وتناقض ومبالغة، إذ تحاول بعض هذه الروايات أن تبرز المعتمد بن عباد بأنه فارس الحلبة وبطل الصراع، وأنه ساهم في النضال بجهد مشكور، وتحاول بعض الروايات الأخرى أن تغالى في النتائج التي أحرزها المرابطون مغالاة تخرجها عن طابع الحقيقة، حتى لقد نشأ حول هذه المعركة مايمكن أن نسميه أدب الزلافة. فهناك شعراء معاصرون كانوا في بلاط المعتمد شهدوا المعركة عن كثب، وسجلوا نتائجها في شعرهم، مثل الشاعر عبدالجليل بن وهبون، الذي مدح

(١) القرى: نفع الطب ج ٢ ص ١١٨٠.

(٢) أشباخ ج ١ ص ٨٣.

المعتمد، ووصف النصر الذى أحرره المسلمون، وابن حمديس الصقلى، الذى رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ^(١)، وتقرب إلى المعتمد بن عباد، وأقام بأشبيلية حتى شهد معركة الزلاقة، ومدح المعتمد كما مدح يوسف بن تاشفين، وقد جاء ابن بسام بنماذج من أدب الكاتب أبى بكر بن القصيرة، الذى خدم ابن عباد ثم خدم المرابطين، ووصف المعركة فى أسلوب رفيع، وهنالك مرجع آخر بالغ الأهمية يكشف لنا بعض الغموض الذى شاب حوادث ذلك الصراع، هو كتاب التبيان للأمير عبدالله بن بلكين أمير غرناطة، الذى اشترك فى هذه المعركة، وسجل مشاهد وماعين، هذه الروايات المعاصرة سنعتمد عليها كل الاعتماد فى دراسة هذا الصراع والإلمام بدقائقه.

ولكن يجب علينا أن نوضح أهداف طرفى النزاع، وندرس تحركات المرابطين بعد دخولهم أشبيلية، وتحركات القوى النصرانية بعد أن غادرت مضاربها حول سرقسطة. أقام المرابطون وحلفاؤهم بأشبيلية بعض الوقت^(٢)، ثم أخذت قواتهم تتحرك صوب بطليوس^(٣)، ولأندرى لماذا تحرك الحلفاء المسلمون صوب بطليوس التى تقع إلى الشمال الغربى من مدينة أشبيلية؟ هل كان فى نيّتهم أن يتقدموا صوب مدينة قورية على نهر تاجة^(٤)، ثم ينقضوا منها على مدينة طليطلة^(٥)، فيضربوا عليها الحصار، ويتزعموها من أيدي النصارى، ويردوا هذه المدينة إلى السيادة الإسلامية مرة أخرى؟.

لم يكن من المعقول أن تعمد القوى المتحالفة فى ذلك الوقت إلى المغامرة والتقدم صوب طليطلة رأساً، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فعلوا ذلك اشتد توغلهم فى ديار النصارى، فطالت خطوط مواصلاتهم، وسهل على ألفونسو وحلفائه أن ينقضوا عليهم من الخلف، فيقطعوا صلتهم، بالجنوب، ويقضوا

(١) المكتبة الصقلية ج٢ ص ٦٦٦.

(٢) الحلل الموشية ص ٣٩.

(٣) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٨-٣٣٩. الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩. الروض ص ٩٠. المطرب لابن دحية ورقة ١٢٠ (١).

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩.

(٥) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا نقلا عن Gayanges, ap. C. p. xxxv.

عليهم قضاء مبرما، ثم إن المسلمين كانوا قد سمعوا وهم في أشبيلية أن ألفونسو حين علم نبأ قدوم المرابطين ألقع عن حصار سرقسطة، وبدأ يستنفر القوى النصرانية ويتهيا ليوم اللقاء، فكيف يقبل المرابطون على مثل هذه المخاطرة ؟ وهم حديثو عهد ببقاء النصارى لا يطمثون إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان، على حين كان الفقهاء الأندلسيون يشككون في أهل الأندلس، ويحذرون المرابطين مغبة الثقة بهم ثقة كاملة، فعمد يوسف بن تاشفين من قبل إلى فصل معسكره عن معسكر الأندلسيين عقب رحيله عن أشبيلية.

ونحن نستبعد أن يكون المرابطون قد فكروا في السير إلى طليطلة في ذلك الوقت، إنما إلى بطليوس لأن أميرها المتوكل بن الأفطس دعاهم للإمام بمدينته لتنضم قواته إليهم^(١). ثم يفكرون في وضع خطة مشتركة لمحاربة قوات ألفونسو المتهيئة للقائهم، يخيل إلينا أن الحلفاء المجتمعين ببطلبيوس لم يفكروا في مغادرة هذه المدينة، بل إنهم آثروا أن يعسكروا قريبا منها في انتظار لقاء الفرنجة، حتى إذا باءت جهود المسلمين بالإخفاق استطاعوا أن يلوذوا بأسوارها، ويعتصموا بقلعتها فلا تكون الخسارة فادحة، وقد أشار عبدالله بن بلكين^(٢) إلى ذلك، وروايته رواية شاهد صدق، وليس بعيدا أن يكون في نية الحلفاء التقدم إلى مدينة قورية، إذا وثقوا من الغلبة في هذا الصراع، أو إذا أبطأ ألفونسو في الزحف إليهم.

وقد أشار عبدالله بن بلكين إلى ناحية هامة تلقى ضوءا على موقف يوسف ابن تاشفين في تلك الأيام العصية، فقد أشار إلى أن يوسف تلقى وهو ببطلبيوس أنباء من المغرب شغلت عقله، واضطرب لها فؤاده، وأنه «لولا ذلك لكان في أرض النصارى مدوخا لها»^(٣)، كما أشار الضبي إلى مثل ذلك فقال: «إن يوسف تلقى خبر وفاة أكبر بنيهِ وهو بمدينة بطليوس»^(٤). إذن فقد قرر الحلفاء البقاء قرب بطليوس بسبب هذه الظروف، التي أملت بأمير المرابطين، وبسبب ماتواتر من أنباء

(١) ابن دحية : المطرب ورقة ١٢٠ (١).

(٢) عبدالله بن بلكين : البيان ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) الضبي : بغية المنتس ص ٣١.

تدفق قوات النصارى صوب بطليوس ذاتها لملاقاة المسلمين، نعم كان بوسع ألفونسو لو كان بعيد النظر أن يرقب تقدم المرابطين، ويتحصن حول طليطلة حتى إذا نالت منهم متاعب السفر ومشقة الطريق انقض عليهم من مكانه، ولكنه أثر أن يكون البادئ بالهجوم، فانقض على قورية، وسبق المسلمين إليها^(١). وقد أخذت قوات ألفونسو تتقدم حتى صارت على مبعدة ثلاثة أمثال من معسكرات المسلمين فى فحص الزلاقة، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس^(٢).

فى بطاح فحص الزلاقة إذن نشب ذلك الصراع العنيف بين القوى النصرانية والإسلامية، ذلك الصراع الذى انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون، حين قهروا ألفونسو السادس، وفرقوا شمل جموعه، وشتتوها كل شتت، فماهى الظروف التى جعلت يوسف يبرز إلى مصاف أعظم قواد المسلمين، ويمكن لدولته الناشئة من نفوس المعاصرين سواء فى الأندلس أم فى المغرب أم فى العالم الإسلامى كله؟. ليس من شك فى أن يوسف وجيشه من المثلثين خاضوا غمار معركة غير متكافئة، فقد كان العدو يفوقهم فى العدد والعدة، كما كانت دياره قريبة من الميدان يستطيع أن يجلب إليها المؤن والذخائر والمقاتلة فى أى وقت شاء كما أن خلفه سلسلة من الحصون يستطيع إذا انسحب أن يعتصم بها، ويصمد لآى عدو تحدته نفسه بالتقدم صوب بلاده، على حين كان يوسف يعتمد على قواته وحدها، ولم يكن باستطاعته أن ينقل من المغرب إلى الأندلس إلا أعدادا محدودة، ولم يكن يثق بأهل الأندلس.

وقد حدث ماتوقع يوسف بن تاشفين، فقد هزم أهل الأندلس لأول لقاء خارت قواهم، ووهنت عزائمهم، وفروا لايلوون على شىء معتصمين بأسوار بطليوس، تاركين المرابطين فى الميدان وحدهم يصطلون بنار القتال، ويتجرعون كأس البأس والشدة^(٣). اضطلع المرابطون إذن بالعبء كله، وأصبح مصير الأندلس ومصير المغرب متعلقا إلى حد كبير بتصرف ذلك القائد العظيم.

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩. الروض المعطار ص ٨٨.

(٢) ابن أبى روع: روض القرطاس ص ٩٤.

(٣) الحلل الموشية ص ٤٧. الروض المعطار ص ٩٢.

وأول ما يجب أن نوضحه من نواحي القوة في موقف هذا القائد في هذا اليوم. الخالد، أنه لم يؤخذ على غرة كما تصور بعض الروايات ^(١)، لأن المعتمد بن عباد كان يعرف مكاييد الفرنجة وحيلهم، فبث العيون لتربح حركات العدو ^(٢)، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يبيتون ليلتهم على أهبة واحتراس يترقبون ساعة بدء الهجوم ^(٣). أما يوسف بن تاشفين فقد كان يربح تحركات العدو ^(٤) بعين القائد المجرب، الذي حنكته وقائع الصحراء، وصهرته معارك المغرب، فما كاد الليل يجن حتى عمد إلى تغيير موضع قواته دون أن يشعر أحد، كما قضى الليل يرتب الصفوف، ويعد العدة لكل احتمال ^(٥)، فما كادت طلائع العدو بقيادة البرهانس ^(٦) (Alvar hanes) تبدأ الهجوم، حتى تبين ليوسف أن ألفونسو قد بدأ بمهاجمة معسكر أهل الأندلس، وحمل رجاله عليهم حملة منكرة، فقد كان يريد إذا تم له القضاء على أهل الأندلس أن ينصرف إلى جموع المرابطين، فيحلق بهم ويوردهم موارد التهلكة ^(٧).

ولكن يوسف ما كاد يعلم بنبأ تراجع أهل الأندلس، حتى أرسل فرقة من القوات المغربية بقيادة داود بن عائشة لتشد أزهم، وتحول دون تحقيق الأهداف الأولى للمهجوم النصراني ^(٨). ولما عرف أن قوات داود لم تستطع أن تسد الشجرة سير إليهم سير بن أبي بكر على رأس زناته ومغراوة ^(٩)، إذن لم يتباطأ يوسف بن تاشفين، أو يتلأأ في مد يد العون للقوات الأندلسية عن عمد بغية إضعافهم، وكسر شوكتهم كما يقول بعض الرواة ^(١٠)، إنما كان الرجل يهدف إلى غرض بعيد

(١) عبدالله بن بلكين : التيان ص ٣٣٩. الروض المعمار ص ٩٠.

(٢) الحميري : الروض المعمار ص ٩٠.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق ص ٩٧.

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٤.

(٦) Pidal: The Cid and his. Spain, p. 219.

I dem. (٧)

(٨) ابن أبي زرع ص ٩٥. الروض المعمار ص ٩٢.

(٩) ابن أبي زرع ص ٩٥.

(١٠) ابن الكردوبس : كتاب الاكتفا، Gayangos, ap. C. p. xxxv.

واضح، يهدف إلى أن تستمر المعركة دائرة الرحي لأطول أمد ممكن، حتى تشغل على النصارى تفكيرهم، وتستغرق جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبر ابن تاشفين ومايدخره من عنصر المفاجأة.

وقد حدث ماتوقعه يوسف، ذلك أن النصر شجع القوات النصرانية فتركت مواطنها الأصلية، وأخذت تتعقب أهل الأندلس، وهم يتقهقرون^(١)، فلم يكن من يوسف إلا أن سار بنفسه على رأس جيش لمتونة، ليضرب عساكر ألفونسو من الخلف، فهاجم معسكر النصارى، واستولى عليه، وأضرم فيه النار^(٢)، فاضطرت قوات ألفونسو إلى أن ترتد صوب المعسكر تريد أن تنقذه من الوقوع فى يد المرابطين^(٣)، وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك، حتى انقلبوا من الفرار إلى الهجوم، وأطبقوا على النصارى من الخلف، فأصبحوا بين شقى الرحي^(٤)، وهنا يطيب لبعض المؤرخين الأندلسيين^(٥) أن يصوروا المعتمد بن عباد بصورة المنتصر الصامد لهجمات العدو الثابت الجنان، الذى لم يهلع للهزيمة التى لحقت به، بل وقف كالطود يصد العدوان، وهذا قول مبالغ فيه إلى حد كبير ذلك أن المعتمد إذا كان قد صمد حقاً، فإن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى شجاعته بقدر ما يرجع إلى استبسال داود بن عائشة، وسير بن أبى بكر، ولما حمى وطيس القتال أنزل يوسف إلى الميدان فرقة من السودان المسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط^(٦)، انقضت على قوات النصارى انقضاض الصاعقة، وشقت طريقها إلى حيث ألفونسو نفسه^(٧)، فعجلت بالنهاية، وحاقت الهزيمة بالقوات النصرانية، وجرح ألفونسو، وفر فى جنح الظلام لایلوى على شيء^(٨).

(١) ابن أبى ذرع: روض القرطاس ص ٩٥.

(٢) Pidal: op. cit. p. 218.

Idem. (٣)

(٤) ابن أبى ذرع: روض القرطاس ص ٩٦.

(٥) الفتح بن خاقان: قلاند العقيان ص ١٣. المطرب لابن دحية ورقة ٩١ ب..

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧.

(٧) ابن بسام: الذخيرة (بغداد) قسم ٢ ص ١٠٠.

(٨) الروض المعطار ص ٩٦-٩٨.

ولم تكن خطة يوسف وحدها هي التي قررت مصير هذه المعركة الحاسمة، وأنقذت القوى الإسلامية مما أريد بها من شر، بل يرجع الفضل - لذلك الفن الجديد الذي أدخله يوسف بن تاشفين، هذا الفن الذي لم تعرفه الأندلس من قبل - على مانعهم - ولم يشهده النصارى في المعارك التي خاضوا غمارها مع القوات الأندلسية المستضعفة^(١). فقد كان النصارى يعتمدون في فن الحرب على الشجاعة الفردية أكثر من اعتمادهم على أى شيء آخر، كانوا يهتمون بالفارس كفرد، ولا يهتمون بالفرسان كمجموعة تحركها إزادة واحدة^(٢)، لذلك كانوا يغالون في لبس الزرد والدروع، التي تغطي الفارس من الرأس إلى القدم، فكأنه حصن يتحرك «تحصنوا بالحديد من قرونها إلى أقدامهم واتخذوا من السلاح مايزيد في جرأتهم وإقدامهم»^(٣)، وقد جربوا هذا الفن في قتالهم مع أمراء الأندلس، فحقق لهم ماشاءوا من الأهداف، أما في الزلافة فقد التقوا بجيوش منظمة على أسس جديدة نظمتها عبقرية قائد فذ، فقد كانت الجيوش المرابطية على ما يبدو تستعين بلون من الفن البدوي في القتال، تقيم صفًا من الإبل تصبح بمثابة درع يتقدم القوات المهاجمة، فيوقع الرعب في صفوف الأعداء، فتجمع خيلهم، ويضطرب فرسانهم. وقد استعان المرابطون إلى جانب ذلك بصفوف متراصة من الجند مدربة أتم تدريب تخضع لراية واحدة، وتتحرك كأنها رجل واحد في نظام رتيب^(٤)، كما استعانوا بفرق من المشاة السودان مسلحين بالسهم، ومزاريق الزان، ودرق اللمط^(٥)، يتقدمون في خطى رتيبة، يلقون بقذائفهم من السهام والرماح وفق حركات مرسومة، وقد استطاع هؤلاء الرماة أن يطعنوا الخيل برماحهم، ويرموها بسهامهم، فجمحت بالفرسان، وولت الأدبار^(٦). وهناك ناحية أخرى أشار إليها المؤرخ

Pipal: The Cid and his Spain, p. 219. (١)

Idem. (٢)

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩.

Pipal: op.cit, p. 219. (٤)

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧

(٦) نفس المرجع والصفحة.

بيدال، وهى أن المرابطين كانوا يستعينون بطبول هائلة تدق دقا فتتهتر لها الأرض، وترتعد لها فرائص الفرسان هولا ^(١) فتصم آذانهم بدويها المزعج ^(٢). ويخيل إلينا أن المرابطين استمدوا هذا النوع من الطبول من الدول الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال، لأن الطبول تلعب فى الفن الحربى عند الزنوج دورا عظيما.

غير أن هنالك سلاحا آخر لا يقل عن هذه الأسلحة مضاء، ونعنى به هذه الروح الجديدة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين، والتسابق إلى الاستشهاد. وكان يوسف يركض بجواده بين الصفوف يحض رجاله على القتال، ويرغبهم فى الموت فى سبيل الله ^(٣)، وقد اشترك كثيرون من الفقهاء فى الموقعة يعظون الناس، ويشدون عزائمهم ^(٤).

وفى ختام التعرض لهذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام يجب أن نحدد التاريخ الصحيح الذى حدث فيه، ومن الغريب أن المراجع التى تفيض فى وصف المعركة، وتكشف عن آثارها ونتائجها، وتتعرض لكثير من التفاصيل الدقيقة تختلف فى تحديد هذا التاريخ، فالنويرى ^(٥) مثلا يذكر أنها حدثت فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٧هـ، على حين نجد ابن خلدون ^(٦) وابن الكردبوس التوزرى يذكران أنها حدثت سنة ٤٨١هـ، ويظهر أن ابن خلدون وصاحبه يخلطان بين الجواز الأول ليوسف، والجواز الثانى، أما بقية المؤرخين فيجمعون على أن المعركة حدثت فى شهر رجب ٤٧٩هـ ^(٧)، وليس من شك فى أن تدخل المرابطين فى شئون الأندلس جاء تاليا لاستيلاء النصارى على مدينة طليطلة، فقد استولوا

(١) Pipal: op. Cit. p. 219.

(٢) الحلال الموشية ص ٤٨.

(٣) Pipal: op. Cit. p. 219.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٤٥٧ و ٤٧١. ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٦٢٠.

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١١.

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦.

(٧) المطرب لابن دحية ورقة ٢ : (١) جامع تواريخ فاس ص ٣٠. الجلدة ص ٣٤٣ بغية الملتمس ص ٣١. الحلال الموشية ص ٤٦. ابن الأبار ص ٦٣. ابن بشكوال ص ٧١. ابن الأثير ج ١ ص ٦٣.

على هذه المدينة فى المحرم سنة ٤٧٨هـ^(١)، وهذا التاريخ صحيح إلى حد كبير لأن مجموعات السكة تذكر أن آخر النقود الإسلامية التى ضربت بالمدينة كانت مؤرخة سنة ٤٧٨هـ^(٢)، ثم أخذت النقود تضرب بهذه المدينة وعليها طابع ألفونسو السادس وخاتمه^(٣)، إذن فلا بد أن معركة الزلاقة حدثت بعد سنة ٤٧٨هـ. ومن محاسن الصدف أن ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة^(٤) جاء بنص يعد على جانب عظيم من الأهمية. فقد نقل للكاتب أبى بكر بن القصيرة رسالة على لسان المعتمد ابن عباد إلى ولده بأشبيلية يصف فيها المعركة، وما أحرزه المسلمون من ظفر، كما يصف ما حل بألفونسو، ويذكر أنه لا يدرى ماذا أصابه أحمى هو أم ميت، مما يدل على أن الرسالة كتبت صبيحة المعركة بالذات، حينما اكتشف المسلمون أن الملك فر فى جنح الظلام لا يلوى على شىء، ولم يكونوا يعرفون أحمى هو أم ميت، وقد أرخ ابن القصيرة هذا الكتاب بصبيحة السبت الثالث عشر من رجب ٤٧٩هـ^(٥)، مما يدل على أن رأى الفريق الأخير من المؤرخين صحيح كل الصحة.

بقى علينا كى نتم القول فى معركة الزلاقة أن نعرض للآثار التى تركها هذا النصر العظيم فى موقف يوسف بن تاشفين من حركة الجهاد فى الأندلس وفى موقف أهل الأندلس أنفسهم، وفى الكتلة النصرانية والقوى الصليبية المتحفزة للنضال. ليس من شك فى أن المرابطين قد انفردوا بإحراز النصر فى يوم الزلاقة،

(١) التكملة لابن الأبار (القسم المفقود) ص ٢٩.

(٢) Prieto et Vives: Loes. Reyes de Taifas, p. 241 Catalogo de. (٢) Monedas Arabigos Espanolas, p. 105 (Driham 441).

(٣) انظر القطعة رقم ١١٢٧ بتاريخ ١٠٨٨ م. Lavoix (op. cit.) p. ٥٢٤ ونقوشها كما بلى:

أمير ٥٢٤

القتولين

ألفونس بن شامجه.

أيده الله ونصره.

بسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد.

من آمن وتعهد يكون سالما.

أمام البيعة المسيحية بابا رومية.

(٤) الذخيرة. مخطوط بغداد. قسم ٢ ص ٩٨-٩٩.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

أما أهل الأندلس فقد حاقت بهم الهزيمة، ولم يستطيعوا الصمود في وجه قوات الفونسو الزاحفة للقائهم، فعرف يوسف عن يقين أن أمراء الأندلس لا غناء فيهم، فقد تركوه في الميدان وحده أمام الفونسو وجها لوجه، فأخذ يدرك أنه لا بد من أن يضطلع بالعبء كله وحده، إذا كان يريد لحركة الجهاد في الأندلس أن تنجح، وأن تحقق النتائج المعقودة عليها، كما لمس بنفسه هذه الفرقة الضاربة أطنابها في صفوف الرؤساء الذين لم ينسوا أنفسهم حتى في ساعة المحنة، لذلك ماكادت تنجلي المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق وإطراح التناوب والتخاصم، حتى لا يضيعوا بحماقتهم ثمار هذا النصر^(١).

ولكن نصيحة أمير المرابطين لم تجد صدى في قلوب ملوك الطوائف، إذ ماكاد يعبر المضيق إلى بر العدو، حتى ساروا سيرتهم الأولى من الفرقة والبغضاء^(٢). ويظهر أن بوادر الانقسام في الرأي بين يوسف والمعتد بن عباد أمير أشبيلية قد ظهرت في صبيحة المعركة، فقد كان المعتد يود لو تعقب المرابطون العدو الفار ليجهزوا عليه، فلا يستشرى داؤه بعد^(٣)، ولكن يوسف الذي كان النصر قد كلفه كثيرا، وأرهق جنده وقواده، لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف في التكنيل بالعدو المقهور^(٤)، في الوقت الذي كان عليه أن يعبر إلى المغرب لمواجهة الفتنة التي بدأت تطل برأسها، ويذكر المؤرخون في معرض التدليل على وقوع البغضاء بين يوسف وبين المعتد بعيد الزلاقة أن أنصار المعتد عللوا إغراض يوسف عن تعقب العدو بأنه «خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعى فيقع الاستغناء عنه^(٥)»، كما أن أنصار يوسف رأوا في إصرار المعتد على تعقب العدو مايوحى بأنه يريد قطع جبال يوسف من العودة إلى الجزيرة^(٦) مرة أخرى؛ على حين يذكر آخرون أن يوسف ورجاله طمعوا في امتلاك الأندلس بعد أن رأوا وهم بأشبيلية ذلك الترف والنعيم الذي يرفل فيه الأمراء والنبلاء^(٧).

(١) عبدالله بن بلكين. التيان ص ٣٣٩.

(٢) ابن الكردابوس : كتاب الاكتفا . نقلا عن Gayangos: Ap.C.p xxxvii

(٣) الحميري : الروض المطار ص ٩٣.

(٤) الحلل المشية ص ٤٩.

(٥) الحميري : الروض المطار ص ٩٣.

(٦) نفس المرجع والصفحة.

(٧) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٨.

وقد أيقن أهل الأندلس أن طائفة الرؤساء لا غناء فيهم، وآمنوا بأن نصر الزلافة يرجع الفضل فيه إلى يوسف وشيعته من المرابطين، فوثقوا به واعتقدوا عن يقين أن إنقاذهم مما تردوا فيه من محنة لن يكون إلا على أيدي هؤلاء الصحراويين الغلاظ، فتألق نجم يوسف، وعلا ذكره في بلاد الأندلس، كما علا في المغرب من قبل ^(١)، كما أن هذا النصر الذي لم يكن يخطر على بال أحد من أهل الجزيرة قد هز مشاعر يوسف هزاً، وملكت الفرحه عليه زمام نفسه، فأرسل الكتب إلى العدو يشرح فيها سير المعركة، ويكشف عن الدور الذي لعبه فيها ^(٢)، ويغلو في وصف ذلك الظفر الذي أصابته قواته، حين أبلت البلاء الحسن، فقرئت الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب ^(٣)، بل قيل أنه بعث برءوس القتلى إلى مدن الأندلس والمغرب وإفريقية، حتى يرى الناس رأى العين مبلغ ما أحرزه من نصر وتوفيق ^(٤)، إذ يبدو أن خسارة النصارى يوم الزلافة كانت فادحة حقاً، فقد اعترف مؤرخوهم بهول الفادحة، لم ينكروا آثارها، ولا غضوا الطرف عن نتائجها ^(٥).

وكان لهذا النصر صدى عظيم في الشعور الإسلامي العام، إذ سرعان ماتناقله الناس في الأندلس والمغرب، واحتفلوا به أبلغ احتفال ^(٦)، وراح المؤرخون يشبهون يوم الزلافة بيوم القادسية واليرموك ^(٧)، وعمت الفرحه بلاد المشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي هنا يوسف بهذا النصر، واعتبره الأمير المثالي الذي كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهتين مباركين ^(٨).

وقد ترك هذا النصر آثارا لا يستهان بها في الأوضاع القائمة ببلاد المغرب،

(١) المراكشي : المعجب ص ٨٤.

(٢) الحميري : الروض المعطار ص ٩٦.

(٣) الحلال الموشية ص ٤٩ . الإحاطة ج ٢ ص ٧٩.

(٤) الروض المعطار ص ٩٦.

(٥) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩١.

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٧) الحلال الموشية ص ٤٩.

(٨) الحميري : الروض المعطار ص ٩٦.

فقد ساعد يوسف على حل جميع المشاكل الداخلية التي كانت تعترض سبيله، وأيقن الناس أن القوة المرابطية الفتية محفوفة بالنصر لا يستطيع دفعها أو مغالبتها، فاستكانت القبائل، وسارت طائعة أو مختارة في ركب الدولة الجديدة. كما ارتفع قدر يوسف بن تاشفين بين أمراء لمتونة، وأصبح بعد هذا الفوز العظيم أحق الأمراء بأن يخلف أبا بكر بن عمر في زعامة دولة المرابطين، كما يجب ألا ننسى أن هذا النصر الذي أحرزه المرابطون في الأندلس كان نصرا للمبادئ الجديدة التي دعا لها عبدالله بن ياسين، وتوارثها الأمراء من بعده، وأحلوها المحل الأول من نفوسهم. نعم، انتصرت مبادئ عبدالله بن ياسين في الأندلس كما انتصرت في المغرب والصحراء من قبل^(١).

وقد تمخض هذا النصر أيضا عن آثار بعيدة المدى في الشعب الأندلسي نفسه، فقد ارتفعت روحه المعنوية أكثر من أي وقت مضى، وأيقن أن العدو النصراني الذي كان يجوس في شبه الجزيرة دون منازع من الممكن أن يقهر، وأن يرد على أعقابها إذا اجتمعت الكلمة، وتضافرت القوى، واتحدت الجهود^(٢)، ذلك أن الضعف والتخاذل واليأس والقنوط قد أدى إلى القضاء على الروح المعنوية للشعب، أما الآن فقد أصبح أهل الأندلس يؤمنون بأن العهد الزاهر الذي مرت به البلاد في عهد المنصور بن أبي عامر قد عاد من جديد، فاهتزت نفوسهم وقويت روحهم المعنوية^(٣)، كما شهدوا عن كثب ماسمعوا به من عدل المرابطين وتمسكهم بالسنة وعملهم على إحياء الدين، ورأوا رأى العين كيف أن هؤلاء الصحراويين ينشرون مبدأ المساواة بين الناس، ويخفون عن كواهلهم أعباء الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم الأمراء^(٤) فرضا، فكأن المرابطين في الواقع قد انتصروا على الفرنجة وانتصروا على الأمراء، واحتلوا من نفوس الشعب الأندلسي محلا رفيعا.

وكان لانتصار الزلافة أثر واضح في نفسية المعسكر النصراني، ذلك أن

Pidal : op. cit. p. 221. (١)

Gayanos: ap p. xxxll. كتاب الاكتفاء نقلا عن (٢)

الذخيرة بخطوط بغداد القسم الثاني ص ٩٩. (٣)

Pidal : op. cit. p. 222. (٤)

الفونسو كان الزهو والغرور قد أغراه بركوب المركب الصعب، فلم يعرف لأطماعه حداً، ولا لأغراضه نهاية، بل كان يأمل أن يسط ظله على شبه الجزيرة كلها، فلما قدم المرابطون وتغلبوا عليه أحس لأول مرة بأنه أمام جبهة متحدة من المغرب والأندلس، تقف له بالمرصاد، وتهده تهديداً خطيراً، وأيقن أن هذا النظام الجديد الذي بعث في الأندلس قوة بعد ضعف، ووحدة بعد تخاذل لن ييسر له تحقيق أهدافه، بل إن المعسكر الإسلامي سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصون^(١)، فلا عجب إذا رأينا الأمراء الذين كانوا يدينون له بالطاعة يتألبون عليه، ويكفون عن دفع الجزية التي كانوا يدفعونها في صغار وذلة، أما المعسكر الصليبي بزعمارة كنيسة روما، فقد أذكى هذا النصر الحماس في صفوفه وبدأت القوى النصرانية المختلفة تعقد العزم على مدافعة المسلمين، والاستعداد للمعركة القادمة.

ولكن يوسف رجع إلى المغرب، وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم، ويجهز عليه، وقبل أن يسترد قوته، ويجمع جموعه، ويلم شعثه، ويتهيا للنضال من جديد، فهل رجع يوسف إلى المغرب لأن ولده الأكبر أبا بكر قضى نحبه^(٢)؟، ليس ببعيد أن يكون أبو بكر بن يوسف قد قضى نحبه قبل أن يشتبك أبوه مع الفرنجة، أو بعد ذلك بقليل، ولكن وفاة ابنه على ما اعتقد لم تكن لتزعجه إلى المغرب إزعاجاً تاركاً ثمار النصر الذي أحرزه تحت الأقدار، ومعركة الجهاد ماتزال دائرة الرحي مؤذنة بصراع رهيب، قد يقال إن أبا بكر هذا هو ولي عهده فخاف أن يضطرب الأمر بموته، ولكن قد يقال إنه كان في استطاعته أن يولى غيره ولاية العهد، ويظل هو بالأندلس يتابع معركة الجهاد.

يخيل إلينا أن سبب رحيل يوسف إلى المغرب أهم من ذلك بكثير، ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين كان عامل أبي بكر بن عمر على المغرب، وأن المرابطين درجوا على نوع من الحكم الإقطاعي، يولون أميراً من الأمراء على إقليم بعينه، ويطلقون يده فيه يتصرف كيف يحلو له على الأيتازع صاحب السيادة حقه في

(١) Pidal : op. cit. p. 222.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٨.

الملك ^(١)، فكان يوسف عبر البحر إلى الأندلس، وهو لم يزل أميراً للمغرب من قبل أبي بكر بن عمر، ولكن حدث أن توفي أبو بكر زعيم المرابطين وأميرهم سنة ٤٨٠هـ ^(٢)، على نحو ما يذكر المؤرخون. وقد بلغت يوسف أبناء وفاة الأمير، وهو بالأندلس، فأحب أن يعجل بالعودة إلى المغرب ليُريث ملك أبي بكر، ويأخذ البيعة لنفسه، وإلا اغتصبها بعض الأمراء الآخرين منتهزين فرصة تغيبه بالأندلس، واشتغاله بمعركة الجهاد.

وليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين فقالوا إنه رحل لوفاة أبي بكر ابن عمه؛ فقالوا ابنه خطأ في النقل أو الرواية. ومما يؤيد هذا القول أن النقود ظلت تضرب باسم الأمير أبي بكر بن عمر من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة ٤٧٩هـ، ثم نجد ضرب هذه النقود يتلاشى فجأة، ثم تضرب رسمياً باسم يوسف ابن تاشفين، اعتباراً من سنة ٤٨٠هـ ^(٣)، وهي سنة وفاة أبي بكر بن عمر، وتولى يوسف السلطة، وتدلنا مجموعات النقود أيضاً على أن إبراهيم بن أبي بكر كان أميراً على سجلماسة، وكانت النقود تضرب باسمه، فليس ببعيد أن يكون إبراهيم

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos : A.P. C.P. xxxvii

(٢) يذكر دى لاشابل أن قبر أبي بكر بن عمر بمكان يقع بين جبل البيعة وجبل أمكيرى على مسيرة خمسة وخمسين كيلو مترا جنوبى تاجيله فى إقليم تاجانت ونقوش قبره كما يلى :

رحم الله
سيدى أبا
بكر بن
عامر

De la Chapelle (op. cit.) hesp. 1930. xi.

Lavoix (op. cit.) pp. 536- 552: pieces 507, 508, 510, 511, 512, Menedas Arabiogr (٣)

Espanoias : 1425 1441, 1446

نقوش دينار أبي بكر بن عمر كما يلى :	
لا إله إلا الله	الإمام
محمد رسول الله	عبد
الأمير أبو بكر	الله
بن عمر	أمير المؤمنين

ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين بسم الله ضرب هذا الدينار بسجلماسة سنة ٤٥٠.

Menedas Arabigo. Espanolas p. 235.

قد طمع في الملك بعد وفاة أبيه منتهزا فرصة غياب يوسف، فلما عرف يوسف الحقيقة هرع إلى المغرب ليقطع عليه خط الرجعة.

هذا إلى أمور أخرى أشار إليها صاحب الذخيرة، فقد نقل رسالة بعث بها يوسف إلى أمير بني حماد^(١) يعاتبه على الاستعانة بعرب بني هلال في الوقت الذي يجب أن تتضافر فيه جهود الأمراء المدافعة الفرنجة ورد عدوانهم، فلا بد أن بني حماد حاولوا اغتنام فرصة غياب يوسف، وانقضوا على المغرب الأوسط مستعينين بالأعراب^(٢).

ولكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن غاية الاطمئنان، فقد استولى على الجزيرة الخضراء فوثق الصلة بين المغرب والأندلس، وعمل على توحيد جهود البلاد، وترك سير بن أبي بكر على رأس جيش من المرابطين لمواصلة معركة الجهاد^(٣) ريثما يصلح من شأن المغرب، ويعد العدة لمرحلة أخرى من الجهاد لا تقل أهمية عن مرحلة الزلافة، أما سير بن أبي بكر فقد شارك أمير بطليوس في الإغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلي نهر تاجة، وأثنى في تلك الأنحاء تخريبا ونهبا، كما زحف المعتمد أمير أشبيلية على ولاية طليطلة. واستولى على أقليم وقونقة، ثم نفذ إلى أرض مرسية^(٤)، حيث كانت جموع كبيرة من فرسان النصارى تغير على المدن الإسلامية هناك، فاشتبكوا مع المعتمد، وارتد على أعقابهم خاسرا، ولولا اعتصامه بقلعة لورقة لقضى عليه، ثم غادر لورقة إلى قرطبة تاركا مرسية لمصيرها المحتوم^(٥).

وبدا للناس كأن معركة الزلافة لم تكن حاسمة في تاريخ الجهاد في الأندلس، لأنها لم تحسم الداء، ولم تقض على القوى النصرانية قضاء مبرما، فقد أخذ العدو يفتق من أثر المعركة، ويسترد قوته، ويعمل على مواصلة العدوان،

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد القسم الثاني ص ١٠٦.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٨.

(٤) يوسف أشباح ج ١ ص ٩٣.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

والثأر لما ناله على يد المرابطين . فأخذ ألفونسو ينظم قواته، ويزيل مالحق بجيشه في موقعة الزلاقة، وقد انتهز فرصة رحيل يوسف إلى المغرب، وأخذ يعاود الكرة من جديد، فذكرت الرواية أنه خرج غازيا حتى وصل إلى قرب أشبيلية، كما كانت قوة من الجند القشتاليين توارر فرسان حصن لسيط (Aledo)، وتعيث في منطقة مرسية، وتقلق بال المعتمد ^(١)، وتهدد أشبيلية من الشرق، وتثير الذعر في نفوس أهلها .

أما في شرق الأندلس فقد أخذت الأحوال تسوء والأوضاع تتغير، فقد ظهر السيد القمبياطور ، الذى ظل سبع سنوات يعيث في منطقة لاردة، ويغير على منطقة بلنسية ^(٢)، وأصبحت دانية، وشاطبة، ومرسية مهددة بالوقوع فى قبضة العدو ^(٣)، وقد استجابت القوى النصرانية فى أوروبا لنداء ألفونسو، وأخذ الجيش الذى كان منذ وقت طويل يتجمع فى فرنسا يصل إلى شبه الجزيرة، اشترك فيه دوق برجانيا، وهنرى أخوه، وابن عمه رايموند، وصاحب طولون، ومعهم فرق من بروفانس ولانجدوك، وبعض الفرسان من نورماندى، وراح البابا إسكندر الثانى يشد أزر هذه الجهود، ويباركها، ويعلق عليها الآمال الكبار ^(٤)، ولكن هذه الحملة وقفت عند نهر الإيرو لم تجاوزه إلى المغرب، وأخذ المتحالفون ينصرفون إلى محاربة صاحب سرقسطة، وبدءوا فى الواقع يهاجمون مدينة طليطلة ^(٥).

حدث هذا فى الوقت الذى انفض فيه جمع الأمراء الأندلسيين عقب معركة الزلاقة، وانصرف كل أمير إلى بلده ^(٦)، واضطر المعتمد بن عباد أن يضطلع بالعبء كله فى الشرق، وكان الجيش الذى تركه يوسف بقيادة سير بن أبى بكر مشغولا فى الجهاد فى الغرب، والعبء الذى يضطلع به أكثر من أن يحتمله

(١) يوسف أشباخ ج١ ص ٩٤.

(٢) Pidal: The cid and his Spain p. 240.

(٣) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. xxxvll.

(٤) Pidal : (op. cit.) p. 226.

(٥) Idem.

(٦) كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. xxxvll

وحده، مادام أمراء الأندلس قد انصرفوا عن الجهاد إلى منازعاتهم الخاصة، فاضطر سير إلى أن يكتب إلى يوسف «يعرفه أن الجيوش بالشغور مقيمة على مكيدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهلهم في أرغد عيش وأطيبه^(١)»، وأصبحت البلاد في الواقع في حالة لاتملكها من الدفاع عن نفسها^(٢).

وهل كان من المعقول بعد ذلك كله، وبعد هذه الأوضاع المضطربة التي كانت تهدد بالقضاء على الجهود التي بذلها المرابطون من أجل الجهاد الأيبادر يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس مرة أخرى، حتى لاتضيع الجهود التي أنفقها والدماء التي أهرقها، ولكن الرواية تعود مرة أخرى فتصور يوسف متقاعساً عن مواصلة الجهاد، وأن المعتمد بن عباد صاحب الفضل في دفع يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس^(٣) مرة أخرى، ليس ببعيد أن يكون ما ذكر من رحيل المعتمد إلى المغرب لمقابلة يوسف صحيحاً، وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد عبر البحر إلى العدو، ومعه بعض وجوه أهل بلنسية ولورقة ومرسية ليطلعوا يوسف على الأوضاع السيئة في شرق الأندلس والمؤذنة بخطر جسيم إن لم يتداركوه اتسع الرق، وخاصة أن المعتمد كان أكثر الأمراء خوفاً من هذا الخطر النصراني المحدث به من الشرق، وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة، ولكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة، وأن يخف إلى ميدان الجهاد بعد فراغه من مشاكل المغرب وتجنيد الجند، واتخاذ العدة، ويخيل إلينا أنه كان سيعبر البحر إلى الأندلس سواء أحضر المعتمد إليه، أم لم يحضر، فقد ذكر المؤرخون أنه عبر البحر إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٤٨١هـ^(٤).

وكانت أهداف يوسف في هذه المرة تختلف اختلافاً واضحاً عن أهدافه في المرة الأولى. كان يهدف في المرة الأولى إلى أن يسير القوات المتحدة كلها إلى

(١) المقرئ: نفع الطيب جـ ٢ ص ١١٨٤.

(٢) Dezy: hist des Musul. vol IvP. 212.

(٣) ابن أبي ررغ: روض القرطاس ص ٩٩.

(٤) الحلل الموشية ص ٥٤، روض القرطاس ص ٩٩.

طليلة قلب الجزيرة النابض لاستنقاذها من براثن العدو، أما هذه المرة فقد اتجه صوب الشرق حيث اشتد ساعد القوى النصرانية، فبدأت تمكن لنفسها وتستعد للدفاع المسلمين عن هذه البلاد.

وما كاد يوسف يستقر به المقام بالجزيرة الخضراء حتى كتب للملك الطوائف يستنفرهم ويستنهض همهم^(١)، ويوحد جهودهم للقيام بجهد مشترك للانقضاء على حصن ليط معقل المقاومة النصرانية في الجنوب الشرقي، وقد غادر الجزيرة الخضراء إلى مالقة^(٢)، ثم اتجه صوب ألمرية، ثم دخل لورقة^(٣) حيث لحقت به قوات المعتمد بن عباد، واتجهت جموع القوى المتحدة صوب هذا الحصن الذي يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة^(٤)، ولا ندري لم اختص الحلفاء حصن ليط بهذا الاهتمام البالغ؟ كان في مقدورهم أن يطوقوه ويقطعوا صلته بما جاوره من البلاد، ثم يتقدموا صوب الشرق، ويخفوا إلى مناجزة القوى المتحدة من الصليبيين والقشتاليين، فيحولوا بينهم وبين ما يتوه من الاستيلاء على بلنسية.

ولكن يخيل إلينا أن المعتمد بن عباد هو صاحب خطة الهجوم على هذا الحصن^(٥) لأن الجنود القشتاليين الذين اعتصموا به^(٦) كانوا يغيرون على ما جاوره من البلاد، فيسلبون وينهبون، ثم يأوون إليه معتمدين إذا أحرق بهم الخطر^(٧) وقد ذاق المعتمد من رجال ليط الأمرين، فقد استعان بهم صاحب مرسية ليرد كيده ويحبط مشروعاته.

وقد لبى الأمراء نداء يوسف، وتوافدوا إلى ليط للاشتراك في هذه المعركة الجديدة^(٨) جاء عبدالله بن بلكين صاحب غرناطة^(٩)، وأخوه تميم صاحب مالقة

(١) عبدالله ابن بلكين : التبيان ص ٣٤٠. الحلل الموشية ص ٥٥ روض القرطاس ص ٩٩.

(٢) الحلل الموشية ص ٥٥.

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧.

(٤) الحلل الموشية ص ٥٤.

(٥) Pidal (op. cit.) P. 243.

(٦) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٩.

(٧) الحلل الموشية ص ٥٤.

(٨) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٨٦. الحلل الموشية ص ٥٥.

والمعتصم بن صمادح أُلرية وأصحاب شقورة وبسطة وجيان وصاحب مرسية ^(١)، فلم يتخلف غير ابن الأفطس صاحب بطليوس ^(٢).

وقد أطبق المسلمون على الحصن من كل ناحية، ولم يتركوا فنا من فنون الحصار إلا استعانوا به ^(٣)، وشنوا الحرب ليل نهار، واختص كل أمير بناحية يشدد عليها النكير ويهاجمها هجوما مستمرا ^(٤)، كما قطعوا الماء عن المحاصرين ^(٥) وأذاقوهم البأس والشدة، ودامت المعركة أربعة أشهر ^(٦)، واستبسل المعتصمون بالحصن استبسالا منقطع النظير، فكانوا يخرجون من حصنهم في بعض الأحيان، وينقضون على المهاجمين، فينالون منهم، ثم ينسحبون إلى معقلهم من جديد ^(٧).

ولكن هل أفلح المسلمون في تحقيق أغراضهم بعد هذا الجهاد الشاق والاستعداد الطويل؟ تذكر الرواية العربية أن القوى المتحالفة انصرفت عن ذلك الحصار، وارتدت قوات المرابطين إلى مدينة لورقة ^(٨)، واختلف المؤرخون أيما اختلاف في تعليل هذا الارتداد، وتقدير أسبابه ونتائجه، فصور بعضهم الانسحاب على أنه هزيمة للمرابطين وحلفائهم ونصر للجهة النصرانية، وصوره البعض الآخر على أنه فوز وظفر، وحجتهم في ذلك هذه الكتب المتبادلة بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح، التي تصف هذا الفوز وتشد بهذا الظفر ^(٩) كما أن ابن حمديس الصقلي وهو شاعر معاصر هنا المعتمد بهذا الفتح، وأنشد بين يديه قصيدة تصور هذا الظفر وهذا الفوز ^(١٠)، وحاول بعض المؤرخين أن يعلل هذا الانسحاب بحلول الشتاء ويأس المحاصرين من الغلبة، وكان المعتمد بن عباد هو

(١) الحلل الموشية ص ٥٥.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٣) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ٣٤١.

(٤) الحلل الموشية ص ٥٥-٥٦.

(٥) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٧) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٥.

(٨) الحلل الموشية ص ٥٦. الروض ص ٩٩.

(٩) الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٣ ص ١٠٧.

(١٠) ديوان ابن حمديس ص ١٦٤.

صاحب فكرة الارتداد عن الحصن فأغضب الحلفاء، وأوغر صدورهم إذ خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم، فيقعوا لقمة سائغة في يد النصارى^(١).

لكن يخيّل إلينا أن السبب المعقول لهذا الارتداد صوره عبدالله بن بلكين أصدق تصوير، حين ذكر أن الارتباك ساد صفوف الحلفاء، وكانت الرعية لاتفتأ تتوافد على يوسف شاكية متظلمة من جور الأمراء وعسفهم، فكان ينصت لهم، ويعطف على مطالبهم، ويؤيد ماينادون به من إصلاح فأوغر صدور الأمراء وغير قلوبهم عليه^(٢).

ثم عصفت ريح الفرقة بالقوى الإسلامية المجتمعة حول لبيط بسبب النزاع الذى احتدم بين صاحب مرسية وبين المعتمد بن عباد، فقد اتهم المعتمد ابن رشيق بمؤازرة الفرنجة، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وسجنه، فتفرق شمل شيعته، وانسحب جنده من المعركة، وقطعوا الميرة عن القوم، ف وقعت المجاعة وغلت الأقوات، وخشى الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق^(٣)، ويصور عبدالله بن بلكين هذه الأوضاع المؤسفة أصدق تصوير، حين يقول: «... ونحن أحوج ماكنا إليه للاتفاق ولاسيما فى تلك المرحلة التى عذمت فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك الحملة الملعونة فكأنها مثلق أبان الطيب من الخبيث، وكشف العداوات فلم يزد الرؤساء إلا توحشا ولا الرعية إلا تسلطا، وكانت مقدمات سوء وزمانا على السلاطين عسيرا^(٤)».

وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف مرتبكون أشد الارتباك، وردت الأنباء بتقدم ألفونسو صوب لبيط لإنقاذ المدافعين عنها^(٥)، فخاف يوسف أن تتكرر مأساة الزلافة فيرتد الأندلسيون على أعقابهم تاركين المرابطين يصلون نار القتال^(٦)، كما خاف أن يشتبك فى صراع مع جند قشتالة والفرقة تعصف بالقوى المتحدة

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٦٤.

(٢) عبدالله بن بلكين : البيان ص ٣٤١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٣. الحلل الموشية ص ٥٦. أعمال الأعلام ص ٢٩٥.

(٤) عبدالله بن بلكين : البيان ص ٣٤١.

(٥) الحلل الموشية ص ٥٧. روض القرطاس ٩٩.

(٦) Dozy, Vol. IV, p. 224. pidal: op. cit, p. 243.

عصفاً، وتفرقها أيدي سبأ، فارتد إلى لورقة، ولم يكن ارتداده ضعفاً ولا خوراً، إنما كان حكمةً ويعد نظراً، فلم يشأ أن يشتبك في قتال لا تؤمن مغيبته من أجل بضع مئات من الفرسان اعتصموا بلييط، وأوشكوا على الموت جوعاً وعطشاً.

وقد حدث ماتوقعه يوسف، فقد تقدم ألفونسو صوب ليط، واقتحم الحصن، وأنقذ المحصورين فيه، ثم دك الحصن دكاً، وانسحب صوب طليطلة لايلوى على شيء،^(١) لأنه كان يخشى أن يشتبك بالمرابطين فتتكرر هزيمة الزلافة، ومن الغريب أن الرعب من لقاء المرابطين ظل يتحكم في ألفونسو حتى وفاته، فكان يتردد طويلاً قبل أن يشتبك معهم في صراع سافر، ولولا هذا الخوف لانقض بجموعه على لورقة، وأرغم يوسف على القتال، لذلك حق للمعتمد بن عباد أن يعتبر ذلك نصراً له، وتحقيقاً لأهدافه الخاصة فقد قبض على ابن رشيق، كما قضى على حصن ليط، ورحل المعتصمون به، وبات في مأمن من شرهم لا يخشى عدوانهم بعد أن أمن جانبهم.

ولكن يوسف بن تاشفين لم يكن ينظر إلى الأمور نظرة المعتمد، فلم يكن همه أن يحقق أطماعاً مادية فحسب، بل كان همه الأول أن يوحد بين القوى الإسلامية المختلفة، وأن يجند المجتمع الإسلامي كله في صراع مع النصارى لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة، فأمن بإخفاق ملوك الطوائف في تحقيق الآمال التي عقدها على التوحيد بين صفوفهم، وحدث ما كان يخشاه، فقد تفرق شملهم وهلعت قلوبهم حينما أقبلت قوات العدو تريد مناجزتهم.

واعتقد يوسف عن يقين بإخفاق سياسة توحيد القوى إخفاقاً ذريعاً، وبقي عليه ألا يعتمد على ملوك الطوائف في مواجهة العدو، بل عليه أن يعتمد على نفسه إذا أراد مواصلة الجهاد في الأندلس، ولم يكن ضعف الجبهة الإسلامية المتحدة بسبب افتقارها للمدد أو العدة، بل بسبب هذه الفرقة التي عصفت بوحدة الجهود، وهذه الأطماع التي فرقت هؤلاء الملوك شيعاً^(٢).

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٢) Cambridge. Med. Hist. vol vi. p. 399.

وقد اعترف عبدالله بن بلكين بذلك كله، فقال: «فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الروم فكيف على المسلم مع حرب .. وقيام أهل البيت»^(١). فلم يتردد يوسف فى أن يصارح هؤلاء الملوك برأيه فيهم، حين قال: «أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم»^(٢). لذلك تعتبر معركة ليوط فيصلا فى قصة الجهاد فى الأندلس، أنهت فكرة الجبهة المتحدة، وأذنت ببدء عهد جديد. وكان على يوسف إما أن ينسحب من الميدان ويترك أهل البلاد لمصائرهم يقعون غنائم فى أيدي العدو، فيغضب ضمير المجاهد الصادق العزم، وإما أن يضطلع بالجهاد اعتمادا على قواته وحدها، ويلقى العدو وجها لوجه، فيرضى ضمير المجاهد، ويحقق الأهداف التى وضعها إمامه عبدالله بن ياسين، وقد رأى يوسف أن يلقي النصارى وجها لوجه، وصح عزمه على أن يقضى على هذه الفرقة الضاربة أطنابها فى صفوف أهل الأندلس بخلع ملوك الطوائف، واستزالهم من صياصيتهم، كى يفرغ للجهاد الأكبر، فهل من أسباب نلتمسها لنعلل هذا الاتجاه الجديد، الذى اتجهه يوسف فى سير حوادث الجهاد فى الأندلس، هذا الاتجاه الذى ينذر بتتائج بعيدة المدى فى تاريخ الأندلس وتاريخ المغرب؟.

٤١ - الدور الثانى من أدوار الجهاد فى الأندلس - التدخل المباشر:

اختلف المؤرخون فى تعليل الأسباب التى أدت إلى تغير يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف حلفائه بالأمس، وأسرف كثيرون منهم فى لومه، بل لم يتورعوا عن اتهامه بالغدر والخيانة، وأخذ الملوك على غرة منهم بعد أن آووه، ونصروه، وأعانوه فى جهاده، ووقفوا بجانبه فى نضاله مع ألفونسو السادس، وقد انساق المؤرخ دوزى وراء هؤلاء المؤرخين، وحمل على المرابطين حملة شعواء، بل لم يتردد فى أن يسم أميرهم بميمس الجهل والتعصب^(٣)، والسرف فى ذلك كله واضح كل الوضوح، ذلك أن دوزى اعتمد على مؤرخين أندلسيين يعطفون على المعتمد بن عباد عطفًا خاصًا، ويرون فى قصته مأساة تستدر العطف والثناء،

(١) عبدالله بن بلكين: البيان ص ٣٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٩.

(٣) Dozy: Hist. des Musul. Vol iv, p. (٣)

ويصورون مأساة خلعه فى صورة تظهر يوسف بمظهر الغادر الخائن. ومن هؤلاء الكتاب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان، على حين نجد المراجع المعاصرة تشيد بموقف يوسف من ملوك الطوائف، وترى أن إقدامه على خلعهم والتخلص منهم عمل فريد يسجل له بالحمد والثناء. وقد قال صاحب الذخيرة (١) «ولم يزل إدبارهم على ماذكرت يستشرى وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن الله للأمير المسلمين رحمه الله فى إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم، فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال، واستمر ينثر نجومهم ويطمس رسومهم (١)».

ولن نتأثر بأية حال بأقوال هذا الفريق أو ذاك، بل سننظر إلى الحقائق نظرة مجردة، ونحاول أن نفرس موقف يوسف من ملوك الطوائف تفسيراً مقبولا. تبين ليوسف أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم، وأنهم غير مقبلين على هذا الجهاد إقبالا لاتشوبه منفعة، ولا توحى به مصلحة ذاتية. فقد تخلى الأندلسيون عن المرابطين يوم الزلاقة، ولولا صدق إيمان المثلثين، وتفانيهم فى القتال لذهبت ريحهم، ولحقت عليهم الغلبة. كما تخلوا عنه يوم لبيط، وانصرفوا عن الجهاد وشغلوا بمنازعاتهم، واتهم بعضهم بطلب المعونة من ألفونسو السادس، مما أدى إلى القبض عليه وخلعه.

وما كاد أمير المرابطين يعود أدراجه إلى المغرب بعد غزاة لبيط حتى وجد ألفونسو أن الوحدة التى كانت تستظل بها الجبهة الإسلامية وتكسيها القوة والمنعة، قد انتثر عقدها، وعاد الملوك إلى سابق عهدهم من التنازع والتباغض والتحاسد، فأثر أن يأخذ كل واحد منهم على انفراد، كما كان يفعل من قبل، فبعث صاحبه البرهانس إلى عبدالله بن بلكين صاحب غرناطة يهدد ويتوعد ويطالب بالجزية المتأخرة (٢)، كما عاثت قواته فى أرض المعتمد بن عباد (٣)، وراحت تهدد أشبيلية كما هددت غرناطة من قبل، فهل اتحدت كلمة الأمراء لمواجهة هذا الخطر، وحماية

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩.

(٢) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٨٩ - ٩٠.

(٣) المرجع السابق ٨٩ - ٩٠.

الجبهة الإسلامية من التصدع ريثما يستعد يوسف بن تاشفين للعودة مرة أخرى، ليمد يد المعونة، فيشتركوا جميعاً في نضال جديد ويستطيعوا جميعاً أن يدفعوا النصارى إلى الشمال، كما دفعوا من قبل؟. كلا، وقف الأمراء من هذه الحملات موقفاً سلبياً ينطوى على الخيانة والجبن والتكرار لحركة الجهاد، يتبين ذلك من هذا الموقف الذى وقفه عبدالله بن بلكين من عدوان ألفونسو واستعلائه، فقد كان يخشى أن يحمى ظهر المرابطين ويقاوم القوات النصرانية الزاحفة فيغضب ألفونسو، كما كان يخشى أن يمد يد العون للقوات الفرنجية، فيغضب المرابطين فاتخذ لنفسه موقفاً وسطاً لا يغضب هؤلاء ولا هؤلاء^(١).

وكانت أنباء هذه المواقف الشائنة تبلغ يوسف^(٢)، فيتألم ويأسف ويعتقد عن حق أن هؤلاء الملوك خانوا الأمانة، وحق عليهم العقاب، بل إن عبدالله صاحب غرناطة أخذ يعد العدة، ويجند الجند، ويصلح الحصون لا ليدفع غارات العدو، بل ليحتاط لنفسه من المرابطين إذا هاجموا قلاعه وحصونه^(٣). ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية أكثر إخلاصاً لحركة الجهاد من عبدالله بن بلكين، وعرف يوسف أن صاحب أشبيلية لا يختلف عن صاحب غرناطة، أو صاحب مرسية فى كثير أو قليل، فقد استغل نوايا المرابطين الطيبة وإخلاصهم لحركة الجهاد فى تحقيق مآربه الشخصية، والتوسع على حسابهم، فوجه الحملة المرابطية الثانية نحو حصن لبيط لا لشيء إلا ليتخلص من ابن رشيق، ويضع يده على إقليم مرسية بعد أن يتخلص من فرسان لبيط، وقد أدرك يوسف أنه انساق وراء أطماع المعتمد دون أن يقدر العواقب، فكاد يرتد على أعقابهِ لولا مبادرته بالانسحاب صوب لورقة على النحو الذى رأيناه، وقد تسبب المعتمد بسياسته الخرقاء فى إغضاب ابن رشيق، بل ألّب عليه يوسف حتى قبض عليه، فكان ذلك سبباً فى تفريق صفوف المسلمين وتشيت جموعهم. نعم، عرف يوسف ما بيته له المعتمد فقال: «قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعه، وأن بلاده ذات معازل صعبة»^(٤).

(١) المرجع السابق ٨٩ - ٩٠.

(٢) عبدالله بن بلكين ص ٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ٨٨.

(٤) Dozy: Abbadidarum, vol. II, p.9.

وقد أخذ المعتمد يدل على غيره من ملوك الطوائف ويتعالى عليهم فتجاوز الحدود في استعلائه وتكبره، يتبين ذلك من الكتب التي تبودلت بينه وبين المعتصم ابن صمادح غداة الزلاقة^(١)، والتي حاول فيها أن ينسب لنفسه الفضل كله فيما أحرزه المسلمون من نصر وتوفيق، وقد ظهرت أطماع المعتمد سافرة بعدما أن استولى يوسف على غرناطة، فقد روى المؤرخون أنه كان يطمع فيها^(٢) لتعوضه عن فقد الجزيرة الخضراء، نعم كانت أطماع هذا الأمير بعيدة لاتقف عند حد، ومن يدرى ربما كان يهدف إلى بسط سلطانه على الأندلس الإسلامية، حتى إذا تم له ذلك تنكر للمرابطين وقلب لهم ظهر المجن واستعان بالفرنجية على إخراجهم من الجزيرة. نعم كان يوسف يعرف أن هؤلاء الأمراء لا يؤمن جانبهم، وأنهم قد يتنكرون له حينما يستشعرون القوة أو يطمثنون من جانب الفرنجة، فقد روى المؤرخون أنه بث أصحاب الرباط في الحصون والشغور المصاوبة للروم ليمدوا يد العون للجيش المرابطية الزاحفة^(٣). قد تكون هذه الرواية غير صحيحة، ولكنها تصور لنا أن المرابطين كانوا قد أخذوا حذرهم وعقدوا العزم على مواجهة ملوك الطوائف إذا ماحدثتهم نفوسهم بالعدوان^(٤).

وهناك ناحية أخرى لعبت دورا كبيرا في تغير يوسف على ملوك الطوائف، وهى أن المرابطين لم يكونوا دعاة جهاد فحسب، بل كانوا دعاة إصلاح أيضا، وكانت الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية تسير في أعقاب الجيوش الغازية الفاتحة، وكانوا أينما حلوا يأمرهم بإلغاء الضرائب الجائرة، ولا يأخذون إلا مايأمر به الكتاب والسنة، وقد كان لهذه الإصلاحات صدى بعيد في الأندلس انتشرت بين الناس انتشار النار في الهشيم، وكانت الرعاية الأندلسية لاتفتأ ترد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمة، تريد أن تنعم بما نعم به شعب المغرب من عدل وإصلاح^(٥).

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٨٣.

(٣) المراكشي المعجب ص ٨٧.

(٤) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ٣٤٣. الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ مجلد ٢ ص ٢٣٩. Dozy: Reche-

rches, vol I ap, xxi.

(٥) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ٣٤٠.

وكان الإصلاح لايتأتى إلا بالقضاء على هذه المغارم التى كان الأمراء يجلبونها من الناس، ويثقلون بها كاهلهم ليستطيعوا دفع الجزية للتصارى والعيش عيشة المترفين الناعمين، وكان على يوسف إما أن يصانع الأمراء فيخسر ولاء الرعية، وتأييد الرأى العام، ويستنكر لمبادئ الإصلاح التى سارت عليها الدولة الجديدة، أو يصانع الرعية فيخسر الأمراء. وقد اختار أن يصانع الرعية وأن يتقرب منها، فبدأ يصنعى للشاكين ويطلب من الأمراء التخفيف عن الناس، وإلغاء المغارم الظالمة، وقد عبر عبدالله بن بلكين عن ذلك أحسن تعبير، وصور هذه الأوضاع أصدق تصوير، حين قال: «وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجًا شاكين لما وجدوا، الراضى منهم يلتمس الزيادة والساخط يرجو الانتقام، ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم عليهم وامتناعهم عن مغارم الإقطاع التى كانت عليهم مع احتياجهم إلى الإنفاق ماقلق به وساء الظن من أجله. . فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامة توجب عقوبة، أو امتناع يؤدى إلى استئصال^(١)». كان على يوسف إذن إذا أراد أن يأخذ بيد الشعب ويخفف عنه بعض مايجد من عنت وإرهاق أن يحول بين ملوك الطوائف وبين مايتربسون فيه من ظلم ويغى. كانت المبادئ الجديدة إذن تفرق بين الشعب والأمراء وكان الصراع على أشده بين الجديد والقديم.

وقد لعب الفقهاء دورًا كبيرًا فى قصة خلع ملوك الطوائف، لأن الرعية كانت تلوذ بهم وتلتمس معونتهم وتتوسل إليهم أن يشفعوا لها عند أمير المرابطين^(٢). وكان يوسف يحترم الفقهاء ويعتز بهم ويصغى إليهم ويشاورهم فى كل أمر، ويستعين بهم فى كل مايعرض له من شئون، وقد انقلب الفقهاء على أمراء الأندلس، ولاسيما بعد مأساة حصن ليط، وأخذوا يكشفون ليوسف النقاب عن مكرهم وسوء رأيهم، ويحسنون له الإيقاع بهم وخلعهم^(٣). وقد لعب القاضى ابن القليعى الدور الأول فى إفساد ما بين يوسف وبين عبدالله صاحب غرناطة،

(١) عبدالله بن بلكين ص ٣٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٠.

(٣) Dozy :op. cit. vol. Iv, ap. 225.

فقد عبر البحر إلى العدو ، ولاذ بيوسف فبدأ يطلعه على مكر عبدالله وخداعه^(١) ، ولم يتردد فقهاء الأندلس الذين ارتفعوا في نظر الشعب إلى منزلة القادة والزعماء في أن يحسنوا ليوسف استفتاء فقهاء المشرق في خلع هؤلاء الملوك ، فأفتى هؤلاء الفقهاء ومنهم الغزالي بأنهم خانوا الأمانة وجاوروا الحدود^(٢) ، وأنه لا بد من خلعهم لتبرأ البلاد من إثمهم وطغيانهم . كل هذه الظروف مجتمعة حملت يوسف على خلع هؤلاء الملوك والاضطلاع بعبء الجهاد وحده .

كان على يوسف كي يحقق أهدافه في هذا الدور الجديد من أدوار الجهاد أن يخوض معركتين عنيفتين: معركة ضد ملوك الطوائف ، وأخرى ضد القوات النصرانية كي تقف بمنعزل في صراعه مع أمراء الأندلس ، فلا تتدخل لشد أزهم فأخذ يستعد لهذا الدور العظيم من أدوار الجهاد . أخذ يجمع الرجال والأقوات حول مدينة سبتة^(٣) ، حتى إذا اكتمل له الاستعداد عبرت قواته المضيق دفعة واحدة بقيادة طائفة من أعلام قواد لمتونة وأنجادها^(٤) ، فاستولت على جزيرة طريف^(٥) .

ويخيل إلينا أن يوسف كان يحسب للقوات النصرانية ألف حساب ، إذ كان يخشى أن يقبل على قتال ملوك الطوائف فتطعنه القوى الفرنجية من الخلف ، وتفسد عليه خطته ، فلم يبدأ بالعدوان على ملوك الأندلس إثر عبوره ، بل ظل يصانعهم ويترفق بهم ، ولم يكشف عن أغراضه^(٦) ، ولكنه كان يترصد أخطاءهم ويرقب مسلكهم ، حتى إذا أحس بتقربهم من النصارى اتخذ ذلك ذريعة لخلعهم والقضاء عليهم^(٧) . ويبدو أن ملوك الطوائف كانوا بدورهم يحسون بازورار يوسف وإغراضه عنهم . فباتوا يرقبون عن كثب نذر المعركة التي ستقرر مصائرهم

(١) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٣٤٠ و ٣٤١ و ٤٨٧ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٩٥ .

(٣) ابن خلكان ح ٢ ص ٣١ . التويرى ج ٢ ص ١٨٢ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٨٨ . الإحاطة ج ٢ ص ٨١ . الحلل الموشية ص ٥٨ . قلاند العقيان ص ٢٠ . أعمال

الأعلام ص ١٨٩ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٨٨ .

(٦) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٧) عبدالله بن بلكين ص ٢٧٣-٣٧٤ .

لم يدعهم يوسف للمشاركة فى الجهاد كما فعل فى المرات السابقة^(١)، بل أثر أن يعتمد على نفسه مخافة أن يتكرر ما حدث فى معركتى الزلاقة ولييط.

ولم يبدأ يوسف بالإطباق على مدينة غرناطة رغم أن خيانة صاحبها كانت واضحة جلية لاحتاج إلى برهان، إنما أقدم على غزو طليطلة وحصارها ليقوع الذعر فى نفوس القوى النصرانية قبل أن يكشف عن خطته حيال ملوك الطوائف فلا يحدث ألفونسو نفسه بطعنه من الخلف متتهزاً فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك.

وقد أطبق المثلثون على طليطلة^(٢) وحاصروها، وعاثوا فى نواحيها، ووصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود مما يلى شمالى طليطلة، ثم حاصروا رباح التى تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة^(٣)، لكن المرابطين لم يشتركوا مع القوات الفرنجية فى معركة حاسمة، إنما كانوا يهدفون إلى إرهاب العدو وإرهاب ملوك الطوائف على السواء.

وبعد أن تم للمرابطين ما أرادوا، وحققوا الأهداف التى وضعوها نصب أعينهم، وقطعوا الصلات بين النصارى وملوك الطوائف، زحفت بعض قواتهم إلى غرناطة فدخلتها فى ١٣ رجب سنة ٤٨٣هـ^(٤)، كما استولوا على ألبيرة^(٥) وجيان ومالقة^(٦)، والمنكب^(٧)، فقصوا على ملك بنى زيرى بالأندلس. بدأ يوسف بعبد الله بن بلكين لأنه تبين أنه اتصل بالفرنجة وصانعهم ودفع الجزية لهم، ولم ينكر عبد الله نفسه هذه الصلة، ولم يحاول أن ينفىها، بل حاول أن يبرر موقفه بحجج واهية ملتوية^(٨)، كما أراد يوسف أن يجعل من أمير غرناطة عبدة لملوك الطوائف، ففت فى عضدهم، ويوقع الرعب فى صفوفهم.

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٢) يوسف أشباخ ج ١ ص ١٠٠.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩. الضبى: بغية الملتبس ص ٣٢.

(٥) مفاخر البربر ص ٤٤.

(٦) التويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٣.

(٧) مفاخر البربر ص ٤٤.

(٨) عبد الله بن بلكين: التبيان ص ٩١، ٩٢.

وقد فزع المعتمد بن عباد والمتوكل بن الألفطس لما أصاب صاحب غرناطة واعتقدا أن النهاية آتية لاريب فيها، وخصوصاً بعد أن أبى يوسف أن يعطى غرناطة للمعتمد، وصعد عن رسل المتوكل^(١)، فأوى كل من الرئيسين إلى بلده يحصنه ويستعد للدفاع عنه^(٢)، وقد وضحت نية المعتمد بن عباد سافرة حين أبى أن يلبي دعوة يوسف بالقدوم للقائه، بل أثر أن يبقى بأشبيلية^(٣). وأوصى ولده المأمون بتحسين قرطبة والدفاع عنها بقدر ما يستطيع^(٤). كما أقدم المعتمد فى هذه الأوقات العصبية على الاتصال بالفرنجة يطلب منهم العون والتأييد لمداغة المرابطين والقضاء عليهم^(٥)، ويروى المؤرخون أنه زوج ألفونسو ابنته^(٦) تعزيزاً لأواصر الصداقة بينهما^(٧).

وكان المرابطون للمعتمد بالمرصاد، فما كادوا يعلمون نبأ اتصاله بالفرنجة حتى استفتوا الفقهاء فأفتوا بخلعه^(٨)، وأطبقت عليه جيوشهم بقيادة سير بن أبى بكر فاستولت على أشبيلية فى رجب سنة ٤٨٤هـ^(٩)، كما اقتحم الأمير أبو عبدالله محمد بن الحاج أسوار قرطبة، واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد ووزيره^(١٠) ودخلت قوات المرابطين قرمونة ورندة^(١١)، وهوجمت ألمرية وتم الاستيلاء عليها^(١٢).

وما كاد سير بن أبى بكر يفرغ من أمر ابن عباد حتى خف إلى بطليوس،

(١) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ١٢١.

(٣) عبدالله بن بلكين ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ١٠٠.

(٦) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٧) حاول بروفنسال أن يثبت أن التي تزوجها ألفونسو لم تكن ابنة المعتمد بل هى زوج ولده المأمون التي لا ذت

بألفونسو بعد سقوط قرطبة. Provençal: Mora zaida Hesp. 1934, t. xviii, pp. 68 8.

(٨) عبدالله بن بلكين ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٩) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٩. المطرب ورقة ١٢ (I) الجريدة ج ١١ ص ١٤٥.

(١٠) عياض : المدارك ج ٤ ص ٤٤٧. قلائد العقيان ص ١٩.

(١١) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٤٧: قلائد العقيان ص ٢٠.

(١٢) التبيان ص ٢٧٢.

لأن المتوكل صاحبها حاول بدوره أن يتحالف مع النصارى بعد أن نزل لهم عن مدينة شترين^(١)، وقد حوصرت بطليوس، ثم سقطت في أيديهم آخر الأمر^(٢)، كما سقطت شلب ويابرة. حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه قوات داود ابن عائشة تستولى على السهلة وألبونت ومرسية، كما زحف على دانية وشاطبة وأخذ يهدد مربيطر وبلنسية وشتمرية الشرق والبراسين^(٣)، كما استولى المرابطون على بياسة وأيدة وحصن ليط وشقورة^(٤)، فسطوا لواءهم على أملاك الرؤساء بالأندلس، وتم لهم تحقيق ما أرادوا من توحيد الجبهة الإسلامية بتوحيد الشعب الأندلسي بزعامتهم، بعد أن أخفقوا في التآليف بين ملوك الطوائف والجمع بين صفوفهم في جبهة متحدة.

ولكن المرابطين لم يحققوا هذا النصر على ملوك الطوائف في سهولة ويسر، فقد كان عليهم أن يقاوموا النصارى مقاومة جبارة، إذ إن ألفونسو لم يستكن ولم يفزع من حصار طليطلة، ولم يهلع لما أظهره المرابطون من ضروب البأس والشدة. فما كاد المعتمد بن عباد يستنجد به حتى اعتقد أن الفرصة قد حانت، وأن ثغرة قد حدثت في صفوف المسلمين، ولم يكن بد من أن يتدخل ليحجى الثمار، ولكن المرابطين كانوا قد أعدوا لكل احتمال عدته، لأنهم كانوا يعلمون أن مصير الأندلس كلها ومصير معركة الجهاد متوقف على مدى ثوفيقيهم في منع الاتصال بين المعتمد وألفونسو، فما كادت القوات النصرانية بقيادة البرهانس تدرك حصن المدور حتى خف المرابطون للقائهم بقيادة الأمير إبراهيم بن إسحاق اللمتوني، ونشبت معركة دامية لاتقل في أهميتها عن الزلاقة أو ليط، استبسل المرابطون وثبتوا ثباتاً جديراً بهم، وأوقعوا بالقوات القشتالية ففرق شملها وحلت بها الهزيمة^(٥)، وبذلك أفلحوا في قطع اتصال الأمراء بألفونسو، وقدر لهم أن يهزموا القوى الأندلسية مجتمعة. هزموا الأمراء، وهزموا قوات قشتالة.

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٤.

(٢) المطرب ورقة ٢٠ (ب).

(٣) أشباخ جـ ١ ص ١٠١.

(٤) روض القرطاس ص ١٠٠.

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٠.

١٥ - الجهاد في شرق الأندلس - يوسف والقمبياطور:

ولكن ماكاد يوسف يظفر بهذا التوفيق ويسيطر على القسم الجنوبي من بلاد الأندلس، ويقهر قوات ألفونسو، حتى تهيأ للنضال في ميدان آخر من ميادين الجهاد في الأندلس، أو بمعنى آخر بدأت معركة الجهاد تدخل في دور جديد لا يقل في أهميته أو في النتائج المترتبة عليه عن الأدوار السابقة، ذلك أن شرق الأندلس بدا كأنه وشيك السقوط في أيدي القوى الصليبية، التي كانت منذ معركة الزلاقة تتقدم صوب حوض الإيبرو، وتشدد النكير على سرقسطة، وتصارع بنى هود. وراحت سفن جنوة وبيزة تغير على موانئ الشرق وتنال منها^(١).

شغل يوسف بالجهاد في جنوب الأندلس بمداخلة ألفونسو حيناً، ومناجزة ملوك الطوائف أحياناً أخرى، فلم يتب له إلا والخطر قد أحرق بهذا الإقليم من كل صوب، فقد بلغ الخطر المسيحي أوجه في مأساة بلنسية الدامية، وقصة حصارها ثم سقوطها. فقد حوصرت بلنسية سنة ٤٨٥هـ، ودام حصارها عشرين شهراً، ثم سقطت في أيدي المحاصرين في أواخر سنة ٤٨٧هـ وأوائل ٤٨٨هـ^(٢). فما قصة بلنسية، وكيف تطورت، فأصبحت مأساة هزت العالم الإسلامي المعاصر هذا عنيقاً، وأفزعت المسلمين في المغرب والأندلس؟؟.

كانت إمارة بلنسية لأبي عمرو بن أبي بكر محمد بن عبدالعزیز حتى سنة ٤٧٨هـ^(٣)، حين طمع ألفونسو في طليطلة، ولكنه لم يشأ أن يأخذ هذه المدينة غصباً، فисمى إلى صاحبها القادر بن ذى النون الذي آواه ونصره إبان اختلافه مع أخيه شانجه، لذلك آثر أن يعرضه عن طليطلة فيوليه بلنسية. وقد استطاع ألفونسو أن يقهر ابن عبدالعزیز، وأن يولى صاحبه القادر على بلنسية^(٤)، فبقى فيها يدين

(١) Cambridge Med. Hist. Vol. vi, p. 401.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٣٠. المطرب لابن دحية ورقة ١٥٨ (١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٦. لابن الأبار ج ١ ص ٤٨.

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩. أعمال الأعلام ص ٢١٠. البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٤.

(٤) المراجع السابقة.

بالولاء لألفونسو تارة، ويستنجد بالمستعين بن هود أو يخضع لتهديد صاحبه القمبياطور، ويؤدى له الجزية اتقاء لشره ودفعاً لخطره^(١).

وقد ظل أمر القادر بلنسية يسير على هذا النحو، حتى تقدم المرابطون صوب مرسية، فاستولوا عليها، ثم تدفقوا صوب دانية وشاطبة، وأصبحت قواتهم تطل إقليم الشرق وتتصاقب إمارة بلنسية^(٢).

ثم رأى أصحاب بلنسية المتبرمون بالأعباء الفادحة التى كان القادر يثقل بها عليهم استرضاء لأصدقائه من أمراء النصارى أن الفرصة قد سنحت لاطراح هذا العبء الثقيل، فدخلوا فى طاعة المرابطين^(٣)، وثاروا على القادر فقتلوه^(٤)، وولوا عليهم القاضى جعفر بن جحاف، هذا القاضى الذى أراد أن يكون له مثل ماكان لرؤساء الأندلس وأمرائها من الصيت ووفرة النفوذ^(٥). كان ابن جحاف يخشى القمبياطور^(٦)، ويخشى المرابطين، فأراد ألا يغضب المرابطين، ولا يغضب القمبياطور، فلم يرض أحداً منهم، فضيق القمبياطور الخناق على المدينة، وضرب عليها الحصار^(٧)، ونكل بأهلها شر منكل.

كان حصار بلنسية فى الواقع صورة دامية من الصور التى حفل بها تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية فى شبه جزيرة إيبيريا، وقد سجل هذه المأساة وصورها أصدق تصوير المؤرخ ابن علقمة الذى عاصر الحوادث، ورأى ذلك البؤس والشقاء والخوف الذى أهاض جناح مواطنيه وأذلهم وأفناهم، كما هزت مأساة بلنسية مشاعر المعاصرين جميعاً^(٨)، وكان لها وقع سيئ فى نفوس المسلمين فى المغرب والأندلس، سجلها الشاعر ابن خفاجة^(٩)، كما سجلها أبو عبد الرحمن

Dozy: Recherche, vol II. p 137. (١)

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢١٠.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢١٠. كتاب الاكتفاء، نقلا عن R. cherches, vol. II, p. 142.

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٣ ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٥) ابن الأبار : التكملة (القسم المفقود) ص ٢٨١. الضى ص ٢٤٠.

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤.

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٨) الذخيرة - مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٣١.

(٩) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٣.

ابن طاهر حين كتب إلى بعض إخوانه يقول «كتبت منتصف صفر، وقد حصلنا في قبضة الأسر بخطوب لم تجر في سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية نظر الله إليه وعاد بنوره عليه، وما صنع الزمان به وأهله، لكنت تنديه وتبكيه، فلقد عبث البلى برسومه، وعدا على أقماره ونجومه، فلا تسأل عما في نفسي وعن نكدي ويأسي^(١)»، فلما اشتدت بالناس الضائقة، وأكلت المحنة الأخضر واليابس استسلموا للعدو المحاصر^(٢) وبلغ التنكيل بهم مداه، فروى المؤرخون أن الفاتح أحرق القاضي ابن جحاف^(٣)، وأسر أبا عبدالرحمن بن طاهر في سنة ٤٨٨هـ^(٤)، كما أحرق أحمد بن عبدالمولى بن أحمد البتي^(٥)، وتناقل المسلمون أخبار هذه الفاجعة، وارتفع ابن جحاف رغم مساوئه إلى مرتبة الشهداء الأبرار «وأضرم هذا المصاب الجلل أقطار الجزيرة يومئذ نارا وجلل سائر طبقاتها حزنا وعارا»^(٦).

كان بطل بلنسية وصانع مأساتها فارساً قشتالياً يدعى لذريق، ولد في برغش بقرية بيبار قرب حاضرة قشتالة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، ظهرت بواكير نجده وشجاعته في أواخر أيام فردناند الأول، فلما توفي وخلفه ولده شانجه كان لذريق ساعده الأيمن، فلما مات شانجه انتقل إلى خدمة ألفونسو أخيه^(٧). ولكن قصة لذريق الفارس المغامر الجريء تبتدئ منذ أن غضب عليه ألفونسو، فخرج من قشتالة طريداً سنة ١٠٧١م^(٨). وكان من يمن طالعه أن التجأ إلى شرق الأندلس، إلى ولاية سرقسطة في عهد أميرها يوسف المؤمن، وكانت هذه الإمارة إذ ذاك بين شقي الرحي، بين صاحب قطلونية وبرشلونة، وأرغونة من ناحية، وصاحب قشتالة من ناحية أخرى، وكانت في حاجة إلى قائد ماهر،

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٠٩.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) الضبي: بغية الملتبس ص ٢٤٠. أعمال الأعلام ص ٢٣٤. كتاب الاكتفا. vol. II. Recherches, ap xxix.

(٤) الذخيرة: بغداد قسم ص ٢٩.

(٥) ابن دحية: المطرب ورقة ١٤٥ (ب) و ١٤٦ (ل) بغية الوعاة ص ١٤٤ الضبي: بغية الملتبس ص ١٨٢.

(٦) الذخيرة: بغداد قسم ٣ ص ٣١.

(٧) Cambridge: Med, Hist. vol. VI, pp. 399-400.

Idem. (٨)

ومغامر شجاع، فوجد أميرها طلبته فى ذلك الفارس القشتالى المتمرد لذريق، فاستقدمه، وأسلم له قياده^(١). وقد قاد لذريق جيوش المؤتمن إلى النصر، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب قطلونية عند المنارة وأسره، ثم أطلق سراحه، فعلا نجمه، وتناقل الناس قصص بطولته^(٢)، ولولا يقظة يوسف المؤتمن وصاحبه لذريق لأنخن ألفونسو فى سرقسطة ولنالها مانال طليطلة فيما بعد.

عاد لذريق إلى قشتاله مرة أخرى، ولكنه غادرها مغضبا، وعاد إلى أمير سرقسطة^(٣)، وشرع فى ظل بنى هود يبسط حمايته على الولايات الإسلامية الواقعة إلى الجنوب من قطلونية، حتى لقد انتشر نفوذه من جنوب أرغونة حتى بلنسية ومرسية^(٤)؛ ثم كان أن انسحبت القوات القشتالية التى كان تحمى القادر بن ذى النون صاحب بلنسية بعد معركة الزلاقة، فلم يجد القادر بدا من أن يطلب العون من صاحب سرقسطة خوفاً من المنذر بن هود صاحب طرطوشة ولاردة^(٥)، فخف القمبياطور إلى بلنسية، وأعان القادر، وهزم صاحب طرطوشة وألوبنت، وألبرسين، وفرض على أمير بلنسية جزية قيل إنها بلغت مائة ألف دينار^(٦)، فلما قامت ثورة ابن جحاف التى أشرنا إليها اعتبرها لذريق انتقاصا من قدره، واعتداء على حلفائه^(٧) فاستولى على المدينة على النحو الذى عرضنا، له وأصبحت بلنسية قلعة المسيحية الحصينة فى الشرق؛ ووقفت فى وجه المرابطين تحول دون توسعهم صوب الشمال^(٨).

هذه هى قصة السيد القمبياطور، وهى القصة التى اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة بصورة غير مألوفة بسبب ذلك العصر الذى عاش فيه ذلك الفارس

(١) الذخيرة م. بغداد قسم ٣ ص ٢٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) Cambirdge: Med. Hist. vol. vi, p. 401.

فى دائرة المعارف الإسلامية - ماد سيد ص ١٠٤ (Provençal)

(٤) Cambridge, vol vi, p. 401.

I dem. (٥)

Dozy: recherches, vol. II. op. II. P. xvII-xx. (٦)

(٧) ابن الخطيب - أعمال الأعلام ث ٢٣٤.

Cambridge, vol. vi. p. 401. (٨)

الجرىء، عصر الحروب الصليبية، عصر الصراع العنيف بين الإسلام والنصرانية، وكان السيد يحاصر بلنسية، وينكل بأهلها فى نفس الوقت الذى كانت فيه قوات صليبية أخرى تنهياً لاسترداد بيت المقدس، لذلك لانعجب إذا اعتبره الأسبان مجاهدا صليبيًا، وبطلا من أبطال الاسترداد^(١) اقترن اسمه بالظفر والنجاح، فى الوقت الذى اقترن فيه اسم إمبراطور قشتالة بالإخفاق والخذلان، فلا بدع إذا بالغت الرواية النصرانية فى تصوير قصة السيد، وإعطائها لوناً زاهياً براقاً. يتبين ذلك مما كتبه المؤرخ بيدال، الذى جعل من لذريق بطلا من أعظم أبطال أسبانيا، وحاول أن يثبت أن السيد القمبياطور كان على حق دائماً^(٢)، على حين كان السيد هذا مجرد مغامر من الغامرين، الذين امتلأت بهم بلاد الأندلس فى هذا العصر الحافل بقصص الكفاح والحرب^(٣)، ولم يكن ملوك الطوائف إلا مغامرين من هذا القبيل، وكان من الممكن أن تمر سيرة السيد دون أن تلبسها الرواية ثوب الأسطورة، لولا هذا العصر الصليبي الذى جعل من لذريق «أخيل» عصره.

ولكن سيرة لذريق القمبياطور تركت فى المعاصرين من الكتاب المسلمين أثرا غريباً، هو مزيج من التقدير والكرهية، يتمثل ذلك فى قول ابن بسام: «وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى قدح التهام والنجود وأخاف القريب والبعيد. بلغنى أنه كان يقول وقد طمى طمعه، ولج به جشعه على لذريق: فتحت الأندلس ولذريق يستنقذها، كلمة ملأت الصدور وخيلت وقوع المحذور، وكان هذا البائقة فريد وقته فى درب شهامته، واجتماع حزامته وتناهى صرامته، آية من آيات الله، كان لعنه الله منصور العلم مظفراً على طوائف العجم لقي زعماءهم فقل حد جنودهم وقتل بعده السير كثير عديدهم»^(٤).

كان على يوسف بن تاشفين وقد أضحي بطل الجهاد فى الأندلس أن يخف إلى ثجدة بلنسية، وأن يجاهد فى الشرق ويصارع ذلك المغامر الجرىء والمحارب

(١) أشباخ ج ١ ص ١١٥-١١٦.

(٢) Pidal: op cit. p. 280.

(٣) Dozy: Le Cid des Nouveaux textes, Recherches vol. II, p. Isuir.

(٤) الذخيرة م. بغداد قسم ٣ ص ٣١

الفد، وأصبحت قصة الجهاد فى هذا الدور صراعاً سافراً بين بطلى الجهاد الإسلامى والنصرانى، أى بين لذريق وبين يوسف. ذلك أن الحوادث جعلت نجم لذريق يعلو على نجم ألفونسو، ويبرز فى مخيلة المعاصرين كبطل معركة الاسترداد، بعد أن تخلى عنها ملك قشتالة، بسبب هزائمه المتتالية فى المعارك التى خاض غمارها مع المرابطين.

ولكن يجب أن يكون واضحاً أن الروايات تتضارب أشد التضارب حين تعرض لقصة النضال بين يوسف وبين القمبياطور، فالمراجع الأسبانية تظهره بمظهر الذى لا يقهر أبداً، وتحاول بصفة خاصة أن تروى قصة صراعه مع يوسف على أنها ظفر خالص وبطولة خالصة، لتتال من شهرة يوسف قاهر ألفونسو ومبدد خرافة الاسترداد^(١).

على كل حال بدأ المرابطون يتطلعون إلى بلنسية بعد استيلائهم على مرسية ودانية، وظهر ابن عائشة فاتح حصن ليط أمام أهل شرق الأندلس بمظهر المنقذ الذى أرسلته العناية^(٢) لتخلصهم مما كانوا يرزحون تحته من أعباء ثقال، من العسف والجور والاضطهاد، وكانت جيوش المرابطين أينما حلت تثير فى الناس الأمل فى حياة أفضل تتوافر فيها العدالة والإنصاف، ويبدو أن أهل بلنسية قبل أن يحاصرهم السيد سنة ٤٨٥ هـ^(٣)، قد تطلّعوا إلى الإصلاح الذى ظفرت به المدن الأندلسية التى استولى عليها المرابطون، وبخاصة أن الجزية التى فرضها القمبياطور على المدينة كانت باهظة حقاً تثقل كاهل الناس وتثير سخطهم وتبرمهم وقد انتهز القاضى ابن جحاف هذه الفرصة المواتية، واستغل تقدير المرابطين للفقهاء والقضاة، كما استغل هذا التذمر الذى بدت نذره، وتسلم مقعد الرئاسة بالمدينة^(٤)، وبدأ يتصل بالمرابطين فى مرسية يطلب العون والمساعدة^(٥).

(١) Pidal: P. 295, 296, 297, 298, 299, 302, 312, 313, 315, 316, 318, 319, 352.

(٢) Pidal: op. cit. P. 295

(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٤٨.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤-٢٣٤.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ١٠١.

ولم يستطع ابن عائشة أن يغادر دانية، فبعث أحد قواده إلى بلنسية على رأس خمسمائة من رجاله ^(١) تلبية لنداء ابن جحاف. وقد شقت عصبة المرابطين طريقها إلى المدينة، واستولت على القلاع الواقعة في الطريق، ففر سليمان بن هود إلى طرطوشة، وما كادوا يقتربون من المدينة حتى لاذ أعوان القمبياطور بأذيال الفرار، ولم يستطيعوا الصمود أمام هذا النفر القليل من المثلثين ^(٢). وإن دل هذا على شيء، فلنما يدل على أن القوة الخارقة التي نسبها المؤرخون الفرنجة إلى أتباع القمبياطور حديث خرافة. ومن الغريب أن المؤرخين الأوروبيين يعترفون بفرار الجند النصراني ^(٣) أمام هؤلاء المرابطين، الذي دخلوا المدينة دون مقاومة، واستطاع القاضي الداهية أن يحقق أغراضه كاملة، فقتل القادر بن ذى النون، وبويع له بالرياسة والقمبياطور بسرقسطة بعيد عن مسرح الحوادث ^(٤). ولاندرى لم لم ينقض القمبياطور في هذه اللحظة بالذات على المدينة، فيطرد جند المرابطين؟، كما لاندرى لم قنع بتهديد ابن جحاف، ومحاولة التقرب إليه ^(٥)، ليس من شك في أن السيد القمبياطور كان يخشى المرابطين، ويخاف أن يشتبك معهم في معركة سافرة، قد تتمخض عن هزيمته، كما كان يعرف أن القوات المرابطية قريبة في دانية ومرسية تحمي ظهر بلنسية، وتخف إلى نجدتها عند الحاجة، فاستطاع بدهائه وحكمته أن يجب ما بين ابن جحاف وبين عصبته من المرابطين، وحمله على أن يصرفهم عن بلنسية صرفاً ^(٦). وأوهمه أنه قد يجد في محالفته ومحالفة ابن هود ما يعوضه عن محالفة المرابطين ^(٧)، وبعد أن تم للقمبياطور عزل ابن جحاف عن حلفائه المرابطين، حاصر المدينة على النحو الذي عرضنا له، واستنجد أهل بلنسية بالمرابطين، كما استنجدوا بغيرهم من الأمراء المسلمين، وكان يوسف يود أن يلبي نداء أهل بلنسية، وأن يخف إلى نجدتهم، لولا أن الظروف قد أقعدته عن تحقيق

(١) Dozy: recherches vol. ;, P. 142.

(٢) Pidal: op. cit. P. 297.

(٣) Idem.

(٤) Pidal: op. cit. P. 297.

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣.

(٧) المرجع السابق ص ٢٩

ذلك الرجاء، وكتب إلى القمبياطور يهدده ويتوعده، ويطلب إليه أن يكف عن حصار المدينة، فرد عليه السيد ساخرًا متهمًا مندداً بتقاعسه عن الجهاد وخوفه من اللقاء^(١).

ولكن يخيّل إلينا أن هذه الرواية مبالغ فيها إلى حد كبير، فالمراجع العربية لم تشر إلى مكاتبات من هذا القبيل، كما أن يوسف لم يكن بحاجة إلى أن يعبر البحر ليلقى للذريق، فقد كان قواده بالأندلس كثيرين، وكان باستطاعته أن يسير الجيش المعسكر بمرسية ودانية، دون أن يجشم نفسه مشقة العبور لإرضاء غرور القمبياطور. هذا في الوقت الذي تصور فيه الرواية الأوروبية القمبياطور بصورة الخائف المرتاع لقدم المرابطين، وتذكر أنه اتصل سرا بابن جحاف ليعاونه، ويشد أزره، ولكنهما خافا مغبة الأمر، واكتفيا بأن يكتبوا إلى الأمير أبي بكر بن إبراهيم القائد الذي أوفده يوسف لاستنقاذ بلنسية يخوفانه لقاء القمبياطور الذي حالف صاحب أرغونة، وجند ثمانية آلاف من خيرة الفرسان^(٢)، وينصحانه بالعودة من حيث أتى مخافة أن تحقيق به الهزيمة، ولكن قائد المرابطين سار يمينا شطر مرسية، وطرب المحاصرون، واعتقدوا أن يوم الخلاص بات قريبا، وقرروا خلع ابن جحاف، وتنصيب ابن طاهر^(٣)، ثم تقدم الجيش المرابطي حتى أدرك شاطبة، ثم اتجه صوب بلنسية، وبات على مرأى الناظر من أسوار المدينة، وما كاد الصبح يسفر عن وجهه، حتى كان جيش المرابطين قد اختفى عن الأبصار، وانسحب من مواقعه قرب بلنسية.

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل انسحاب القائد أبي بكر، فقد ذكر ابن علقمة^(٤) أن يوسف كتب إليه يؤنبه وغضب عليه وعزله^(٥). ولكن لم نساق وراء ابن علقمة، ونسم أبا بكر بميسم الجبن والخور؟ فلو كان الخوف هو

Pidal: op. cit. P. 312. (١)

Pidal: p. 315. (٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٢٣.

Dozy: Recherchs, vol II, P. 158-159. (٣)

Pidal: cp. cit. p. 319. (٤)

Provençal: Al Andalus, vol. XIII 1948 ص ١٢٢-١١٣ (٥) ابن علقمة

الذى رد المرباطين على أعقابهم، لما تقدموا من مرسية إطلاقاً، ولتركوا بلنسية تقع فريسة فى يد القمبياطور. على حين نجد رواية المؤرخين الأسبان تؤيد وجهة نظرنا فى أسباب انسحاب المرباطين، فتذكر أن السماء قد أمطرت مطراً غزيراً، فى أمسية المعركة، وأصبحت الطرق غير مأمونة للسالك، فأثر أبو بكر أن ينسحب إلى مرسية^(١)، وكتب ابن عائشة إلى بنى طاهر أنصار المرباطين يذكر أنهم لم يتراجعوا جبناً أو خوفاً، ولكن لنقص الأوقات ووعورة الطريق^(٢)، فلم يجد أهل بلنسية مفراً من التسليم^(٣)، وسقطت فى يد القمبياطور، فكان وقع سقوطها فى نفس يوسف عظيماً^(٤)، وجاء حرق القمبياطور لابن جحاف وسومه أهل بلنسية سوء الخسف والعذاب ضغناً على إبالة^(٥).

ومن الغريب أن المؤرخين المسلمين لم يعرضوا لقصة الصراع بين يوسف والقمبياطور عقيب استيلائه على بلنسية، لم يعرضوا إلا للحملة التى أعدها يوسف سنة ٤٩٥هـ لاسترجاع المدينة نهائياً، فهل من المعقول أن يغفل المرباطون عن بلنسية طيلة هذه السنوات السبع، ويتركوها فريسة للسيد القمبياطور؟ وهل من المعقول أيضاً أن تظل القوات المرباطية تحتل مرسية، ودانية وشاطبة سبع سنوات، تواجه قوات السيد دون أن تلتحم بها أو تناوشها؟. لكن المراجع الإفرنجية لم تسكت كما سكنت المراجع العربية، بل ذكرت أن صراعاً عنيفاً نشب بين القمبياطور الذى اتخذ بلنسية مركزاً لأعماله العدوانية، وبين المرباطين فى دانية ومرسية، ولكن هذه المراجع تلون سيرة القمبياطور فى هذه الفترة باللون الأبيض، وتصور المواقع التى خاض غمارها على أنها نصر كلها، وتصور كفاح المرباطين فى هذه الفترة على أنه هزائم متلاحقة يأخذ بعضها بتلاييب بعض، فقد ذكر كل من بيدال ودورى^(٦) أن محمد بن عائشة حاول أن يسترد بلنسية لأنه سار إليها على

(١) حسين مؤنس : السيد القمبياطور ص ٦١.

(٢) Dozy: Recherchs, vol II, P. 158-15

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥.

(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣١.

(٥) ابن الكردبوس : الاكتفا نقل عن Rechl: hes, vol. II, ap,xxlx

(٦) Dozy: Recherchs, vol II, P. 186-195.

رأس ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وعسكر عند مدينة (Cuerta)، وأن القمبياطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام، وكبده خسائر فادحة، فهل يعقل أن يهزم القمبياطور جيشاً قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، من فرسان المرابطين^(١) بقيادة ابن عائشة مدوخ الفونسو؟ لو صح ذلك أكان القمبياطور يقنع أو تقف أطماعه عند حد؟. يخيل إلينا أنه لو صحت هذه الرواية لانقض القمبياطور على دائية ومرسية، بل لعمل على إخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائياً!.

ليس ببعيد أن تكون هذه القوات التي اقتربت من بلنسية قليلة العدد، وربما كانت فرقة صغيرة أو مجرد كتيبة بقيادة أحد رجال ابن عائشة، بدليل أن القمبياطور عندما أراد أن يتوسع خارج بلنسية بعد ذلك لقيته قوات بقيادة ابن عائشة فناوشته وقاومته^(٢). هذا إذن يؤيد ما قلناه من أن هذه الحروب التي وقعت هي مجرد مناوشات لا أكثر ولا أقل، فالمرابطون كانوا يستعدون ويطيلون الاستعداد، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه المعارك ستقرر مصير شرق الأندلس كله، بل مصير معركة الجهاد في الأندلس بأسرها، كما أن القمبياطور نفسه كان يخشى أن يشتبك في صراع سافر مع المرابطين فيصيبه ما أصاب ألفونسو فتسقط هيئته.

وتعود المراجع الأفرنجية فتروى قصة نصر آخر أحرزه القمبياطور وحليفه بيدرو ملك أرغونة على قوات محمد بن عائشة على مقربة من بلدة بيرين، استطاع القمبياطور بعده أن يستولى على مريطر^(٣). وبكفى المرابطين فخراً أنهم استطاعوا طوال هذه السنوات السبع أن يحدوا من نشاط القمبياطور، وأن يحتفظوا بقواعدهم في ألزية ومرسية، وأن يشغلوا عدوهم بهذه المناوشات المتصلة، حتى أتم يوسف الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، التي بدت نذرها تلوح، فقد أطبق محمد بن الحاج على قوات ألفونسو عند (Consuegra)، فأنزل بها هزيمة ساحقة

Pidal: cp. cit. p. 354. (١)

Dozy: Recherchs, vol II, P. 186-195. (٢)

Pidal: cp. cit. p. 373. (٣)

وقتل ولد القمبياطور الوحيد^(١)، كما هزم البرهانس عند كونكه، وأوقع ابن عائشة بفرقة من جيش القمبياطور عند جزيرة شقر^(٢)، ثم سار محمد بن مزدلي أعظم قواد المرابطين إلى بلنسية لخوض المعركة الفاصلة. ولكن القمبياطور كان قد توفي قبل ذلك بقليل، ولم تستطع أرملة أن تقاوم طويلا، فسقطت مدينة بلنسية في يد المرابطين في منتصف رجب سنة ٤٩٥ هـ^(٣).

واستطاع المرابطون بعد كفاح متصل، وجهاد مستمر في شرق الأندلس دام عشر سنوات أن يحرزوا هذا الظفر، الذي لا يقل أثرا في تاريخ معركة الجهاد عن نصر الزلاقة، فقد كان له دوى هائل في العالم الإسلامي كله، خلده الشعراء والكتاب^(٤)؛ كتب أبو الفضل جعفر بن شرف يقول: «وحياك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين فأسفر، وزهق حصن الملحين فنقر، وأقبل الفتح في لمة التأيد يرفل في ثوب النصر الجديد، وجاء الوعد الناجز ببلنسية. فالآن قد نشر الميت من لحده، وعاد الحسام إلى غمده، فهبت ريح النصر، ومد بحر الظفر بغد حسر». فلاتعجب بعد ذلك كله إذا كان شرق الأندلس قد انفتحت أبوابه أمام المرابطين يوغلون فيه كيف شاءوا.

كان لسقوط بلنسية في أيدي المرابطين أثر بالغ في سير معركة الجهاد في شرق الأندلس، فقد مات القمبياطور، وانهارت الجبهة النصرانية في الشرق، ووأغلت القوات المرابطية في إمارة بلنسية، فاستولت على مريبطر والمنارة والسهلة وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة في هذا الإقليم، كما تمخض هذا التوسع عن حماية ظهر إمارة سرقسطة، وتوثيق الصلات بينها، وبين المرابطين ليتعاونوا في صد التيار النصراني، الذي يهدد الجزيرة من الشمال الشرقي. فقد كانت إمارة سرقسطة معرضة لخطر جسيم، إذ تتصل اتصالا مباشرا بحدود ممالك أسبانيا النصرانية

(١) Pidal:op. cit, p. 376.

(٢) كتاب الاكتفا نقلا عن Reherches, vol II, ap. II p. xxi

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ٣٠٦ Dozy: vol, IV p245

(٥) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٣.

وإماراتها، تصاقبها من الشمال إمارات قطلونية وأرغونة، وتتصل حدودها من الشرق بمملكة نبرة وليون^(١)، فاضطرت أن تقف من جيرانها النصارى موقف المصانع المدارى لتخلص من شرهم، ولما عبر المرابطون البحر لأول مرة تخلف بنو هود، ولم يدخلوا فيما دخل فيه غيرهم من الأمراء، ولهم عذرهم فلم يكن باستطاعتهم أن يغفلوا ساعة واحدة عن هذه القوى النصرانية التى تتحفز للقضاء عليهم، بل لعلهم نجحوا من حيث لا يريدون فى الحيلولة بين القوات التى كانت تندفق من فرنسا وغيرها من بلدان أوروبا، وبين شد أزر ألفونسو فى كفاحه مع المرابطين، فقد وقفت القوى الصليبية عند الإيرو لم تستطع أن تجاوزه خوفا من بنى هود^(٢)؛ ولكنهم رغم التظاهر بصداقة المرابطين كانوا يعملون فى الخفاء على وقف توسعهم فى شرق الأندلس خشية أن يصيبهم ما أصاب ملوك الطوائف الذين انتزع يوسف ملكهم، ووقفوا وقفة المتخاذل المتردد من حصار بلنسية، ومن جهاد المرابطين وكفاحهم من القمبياطور^(٣)، لأنهم كانوا يتبنون السيد الذى كان يعمل لحسابهم.

كان بنو هود يطمعون فى بلنسية، أو على الأقل يأملون أن يقيم القمبياطور إمارة صديقة تحول بينهم وبين المرابطين^(٤)، ولكن المثلثين صمدوا للقمبياطور على النحو الذى رأيناه، وفتحت بلنسية، وانسابت قوات المرابطين تتوسع صوب الشمال، فاضطر بنو هود إلى أن يغيروا من موقفهم، وأن يقفوا من يوسف بن تاشفين وقفة المؤيد المناصر، وهل كانوا يستطيعون غير هذا، والعدو ينوشهم من الشمال، ويهددهم فى عقر دارهم؟ لذلك عمد المستعين بن هود إلى أن يصل يده بيد يوسف قبل أن يكتسحه التيار، ويجبر على الدخول فيما دخل فيه غيره، فروى المؤرخون أنه اتصل به مرتين، فقد كاتبه غب عبوره الأندلس غداة الزلاقة يبرر له

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٢٠٠.

(٢) الحلل الموشية ص ٦٠.

(٣) الذخيرة : قسم ٣ ص ٢٩.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٦.

تقاعسه عن نصره المجاهدين^(١)، واتصل به في المرة الثانية عقب سقوط بلنسية^(٢)، وأثر يوسف أن يصفح عن مواقف السابقة إيثارا للعافية وإبقاء على وحدة الجهود، ورغبة في إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة، تمتد من حدود قطلونية إلى أقصى الجنوب، لذلك أبقى على بنى هود يمددهم بالعون والمساعدة، ليدفعوا عادة الفرنجة ويصدوا تيارهم^(٣).

وبتعاون بنى هود والمرابطين على الجهاد نستطيع أن نقول دون تردد إن المرابطين قد أتموا الجهاد في شرق الأندلس، أو على الأقل وضعوا أسسا دائمة ثابتة لتعاون وثيق لم تره الأندلس منذ وفاة المنصور بن أبي عامر، وإذا كان المرابطون قد شغلوا بالجهاد في الشرق، فإنهم لم يغفلوا عن ألفونسو السادس، بل وقفوا له بالمرصاد، وفي الوقت الذي كانوا فيه يوطدون أقدامهم في منطقة مرسية ودانية، ويتشوفون إلى بلنسية كانت قواتهم تشتبك مع جند قشتالة عند بلدة جيان، وأوقعوا بقوات ألفونسو، ومزقوها شر ممزق، وفرت لاتلوى على شيء، وذلك سنة ٤٨٥هـ^(٤)، بل يذهب المؤرخون إلى حد تشبيه معركة جيان بالزلاقة. وكان الأقدار قد شاءت ألا يقرن اسم ألفونسو في صراعه مع يوسف إلا بالهزيمة، فما كاد يعاود الكرة مرة أخرى سنة ٤٩١هـ، حتى خف المجاهدون إلى مناجزته، وأوقعوا الهزيمة به عند (Consuegra)^(٥)، وهي الموقعة التي قتل فيها ابن السيد القمبياطور، كما هزموا قائده البرهانس عند كاونكة، وصاحب برجندية عند (Malagon) سنة ٤٩٤هـ^(٦)، وشاء الله ألا يرى يوسف نهاية عدوه ألفونسو، إنما قدر لولده على أن يجنى ثمار هذا النضال، الذي استمر عشرين عاما، حين هزم قوات ألفونسو عند إقليش^(٧)، قتل ولده، وفيت زهرة رجاله، ومات غما وكمدا

(١) الحلل الموشية ص ٦٠.

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء ص ٢٢٥.

(٣) الحلل الموشية ص ٥٩-٦٠.

(٤) ابن الأثير ح ١٠ ص ٨٣.

(٥) Pidal: op. cil, p.414.

Idem. (٦)

Duruy: Hist. des Moyen Ages P. 330. (٧)

بعد ذلك بعام واحد، وفقدت حركة الاسترداد بطليها السيد القمبياطور والفونسو السادس في سنوات متلاحقة، هذا في الوقت الذي اتحدت فيه كلمة المسلمين تحت لواء واحد هو لواء يوسف بن تاشفين.

عبر يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الأخيرة سنة ٤٩٧هـ متوج الهامة بالظفر والنصر تخفق أعلامه وبنوده على ربوع البلاد، وقد عبر في هذه المرة ليضع أسسا ثابتة للدولة الجديدة التي ألقت بين المغرب والأندلس، نعم في هذه السنة بالذات أحس يوسف بأنه قام بواجبه، وأرضى ضميره، وعفر جبهته بتراب الجهاد، وأجج الحرب المقدسة بعد أن كادت تعصف به الخطوب، فرأى أن يبايع لولده على بن يوسف بولاية العهد، إحساسا منه بقرب الخاتمة، وقد روى أنه عاد إلى المغرب في آخر سنة ٤٩٨هـ^(١) فمرض وتوفي بمراكش سنة ٥٠٠هـ^(٢).

١٦ - أثر معركة الجهاد في دعم قيام الدولة:

ظلت معركة الجهاد في بلاد الأندلس في عهد يوسف دائرة الرحي مستعرة الأوار عشرين سنة كاملة، فإلى أي حد استطاعت هذه الحركة أن تحقق آمال يوسف بن تاشفين التي كان العالم يرقبها ويتطلع إليها؟. تمخضت معركة الجهاد عن تبديد خرافة الاسترداد، هذه الخرافة التي تبنها ملوك قشتالة منذ أيام فردناند الأول متهزين الفرقة الضاربة أطناها بين ملوك الطوائف في الأندلس، فقد قهر الفونسو، وتحطمت أحلامه، وتبددت آماله، ووقف حائرا أمام هذه القوى التي تكتلت، واتحدت بصورة لم يشهدها الناس منذ أيام المنصور بن أبي عامر، كما أن القوى الصليبية وقفت عاجزة أمام هذه الدولة الجديدة، فلم تستطع أن تجاوز سرقسطة إلى الجنوب، كما مات القمبياطور مقهورا، ولم تغن عنه شجاعته شيئا، وأصبح يوسف بن تاشفين في الواقع أعظم شخصية في المغرب الإسلامي، ويكفي أن يقال إن من أهم نتائج معركة الجهاد في الأندلس أنها حققت وحدة البلاد، هذه الوحدة التي عزت منذ سقوط الخلافة، وتفرق كلمة المسلمين في الأندلس سنة ٣٩٩هـ.

(١) ابن الأبار: التكملة ج٢ ص ٤٥٧، روض القرطاس ١٠١. الحلال المشوية ١٧

نعم تمخضت جهود يوسف طوال الأعوام العشرين عن التوحيد بين المغرب والأندلس، واستطاع أن يؤسس دولة المرابطين بالصورة التي عرفها الناس موحدة بين المغرب والأندلس، جامعة بين تقاليد هذين البلدين. نعم كان الرباط والجهاد متلازمين دائما، وكان الجهاد من أهم الأركان التي اعتمد عليها عبدالله بن ياسين في بث دعوته بين الناس، كما كان من أهم الدعائم التي اعتمدت عليها الدولة في تكوين شخصيتها، وتوسيع رقعتها، وقد تأثر المعاصرون بهذا الدور الرائع الذي قامت به الدولة الناشئة من إنقاذ الإسلام مما تردى فيه من ضعف وتخاذل وفرقة، وأصبح الناس في المشرق يرقبون في شغف واهتمام ذلك التوفيق والظفر الذي اقترن باسم يوسف، حتى أن الإمام الغزالي^(١) رأى في هذا الأمير الإمام الأمثل الذي طالما تمنى أن يراه، كما رأى في الدولة الجديدة مدينته الفاضلة، وروى أنه أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليرى رأى العين هذه المعجزات التي تحققت في هذا العصر عصر الضعف والتخاذل والفرقة، ليشهد عن كثب ما ترددته الرواية من عدل الأمير ورهده وتقشفه، ولكن قيل أنه ماكاد يبلغ الإسكندرية حتى علم بوفاة يوسف، فعاد من حيث أتى^(٢). وقد كاتب الفقيه أبو بكر الطرطوشي يوسف مبدئيا إعجابه بما تواتر من أنباء بطولته^(٣) وتقواه، كما اهتزت الخلافة العباسية بهذا الجهاد الموفق، فاعترفت بيوسف أميرا يحكم من قبل الخليفة العباسي^(٤) بعد وفاة أبي بكر بن عمر، وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور الذي اضطلع به في معركة الجهاد، ويبين مدى ما أصاب من توفيق، وما تحمل من جهد^(٥). وتردد اسم يوسف مقترنا باسم الخليفة العباسي على منابر الأندلس والمغرب، كما نقش اسم الخليفة على السكة، وبذلك تكون دولة المرابطين قد قامت واقعا ونظريا بعد اعتراف الخلافة العباسية بها.

نعم وضح للناس أجمعين أن دولة جديدة قامت بالمغرب، تحمى تراث

(١) ابن خلكان ج٢ ص ٣٧٠. مفاخر البربر ص ٤.

(٢) Goldziher: Mohammied ibn Toumart, p12.

(٣) ابن خير الفهرسة : ص ٢٩٩.

(٤) ابن خلكان ج٢ ص ٣٧٠.

(٥) النويري ج٢٢ ص ١٨٥.

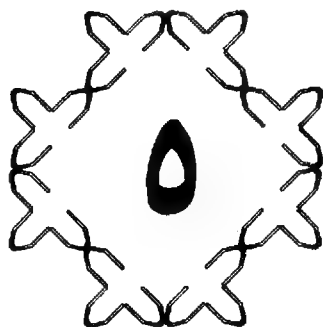
الإسلام وتقهر أعداءه، وتوحد بين المسلمين، وتشد أزرهم، ولولا الجهاد في الأندلس - على ما نعتقد - لكان من الممكن ألا يختلف تاريخ المرابطين عن تاريخ هذه الدويلات التي قامت بالمغرب، وانتهت دون أن تثير اهتمام الناس. نستطيع إذن أن نقول إن هذه الدولة قد أقامها رجلاان: عبدالله بن ياسين صاحب الدعوة ويوسف بن تاشفين صاحب السيف ومنفذ تعاليم الإمام، ومخرج فكرة الجهاد إلى حيز الوجود في معارك متلاحقة دامت قرابة خمسين عاما، تؤيده شيعته من المرابطين المخلصين لمعركة الجهاد، بل إن بعضهم لم يتردد في أن يتطوع لخوض معركة الجهاد في الشرق، والمساهمة بنصيب في وقف التيار الصليبي المتدفق على بيت المقدس^(١).

كان يوسف من صنّاع التاريخ في المغرب الإسلامي، فقد أعاد إلى الأذهان سيرة موسى بن نصير، وعبدالرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر، وغيرهم من أبطال الإسلام، كان يوسف معجزة حققها الإسلام، إذ استطاع ذلك الدين أن يجعل من هذا الرجل الصحراوي بطلا ظل النصر يقترن باسمه مدى نصف قرن في معارك المغرب والأندلس، فقد صارح ألفونسو والقمبياطور، والبابوية الناهضة، والقوى الصليبية المتحفزة، ووضع أسسا للجهاد ونظم الحكم ظلت باقية بعده مدة طويلة. كان يوسف زاهدا متقشفا عادلا صادقا تتمثل في شخصه سيرة السلف الصالح^(٢).

(١) ابن الأثير ح ١٠ ص ١٧٣.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٠٢.

الباب الخامس



نتائج قيام دولة المرابطين

١ - أثر قيام الدولة في الأوجاع السياسية:

الآن وقد فرغنا من ترسم الخطا التي أدت إلى قيام الدولة، وتتبعنا الأدوار التي مرت بها منذ أن كانت مجرد رباط عند مصب نهر السنغال، حتى بسطت رواقها ومدت ظلها على المغرب الأقصى والأندلس، يحسن بنا أن ندرس الآثار التي تركها قيام هذه الظاهرة البارزة في أحداث المغرب الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، وأن نستنبط الحوادث، ونلمس مدى مآثره قيام الدولة من أثر فى تاريخ المغرب وحضارته.

وأول ما نلاحظه أن قيام هذه الدولة يختلف عن قيام دول البربر التي سبقتها، فقد قامت دولة الأدارسة مثلاً على أساس البيعة لعلوى فر بنفسه، وأوى إلى المغرب معتمداً به من بطش العباسيين وانتقامهم، وقامت دولة بنى زيرى بعد أن حالفت صنهاجة كتامة، وآزرت الدعوة الإسماعيلية بالمغرب وظلت تدين للفاطميين بالتبعية والولاء دهرًا طويلاً، أما دولة المرابطين فقد قامت على أسس مختلفة كل الاختلاف، فقد قامت على أساس نشر مذهب مالك فى صحراء المغرب، ومحاولة بعث القوى الإسلامية والعودة بالمجتمع الإسلامى إلى عهد السلف الصالح، ورسمت لنفسها طريق الإصلاح واضحاً جلياً، واعتمدت فى سبيل التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأعلنت على البدع والمنكرات التي شاعت فى البلاد فى أواخر القرن الخامس الهجرى حرباً لارحمة فيها ولاهودة، حطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وفرضت صلاة الجماعة على الناس فرضاً، وعممت الزكاة، واقتصرت فى فرض الضرائب على ما أوجبه الشرع، فلقيت ترحيباً أينما حلت، وكانت المدن تفتح أبوابها لهؤلاء القوم المخلصين فى جهادهم وفى إصلاحهم.

كما أن الدولة الجديدة توسعت فى مبدأ الجهاد بصورة لم تعهدها دول المغرب من قبل، عاشت من أجل الجهاد وذهبت ريعها فى سبيل الجهاد. لاننكر أن الدويلات المغربية التي سبقت دولة المرابطين فى المغرب قد وضعت مبدأ الجهاد نصب أعينها، وعملت بقدر طاقتها على مدافعة الفرنجة، ونشر الإسلام، ولكن

لأول مرة فى تاريخ المغرب نجد دولة تجند المجتمع كله من أجل الجهاد، وتسخر موارد الدولة كلها له، وتجعل من البلاد معسكراً ضخماً يتجاوب بأصداء القتال.

ويعتبر قيام دولة المرابطين من ناحية أخرى متوجاً للجهود التى بذلها البربر منذ القرن الثانى للهجرة، بعد أن رسخت فيهم قواعد الدين، وظفروا بالمساواة المطلقة بالفاتحين من العرب، حتى آل الأمر إليهم آخر الأمر، وأصبحوا أصحاب الكلمة الأولى فى المغرب يشكلون تاريخهم حسبما يريدون. وقد قامت دولة المرابطين فى وقت انتهى فيه نفوذ العرب فى المغرب وإفريقية بانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ويسقط الدولة الأموية، فخلا الجو أمام البربر، وانتهى الأمر بأن أقاموا خلافة مغربية فى عهد الموحيدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين.

ويعتبر قيام الدولة من وجهة النظر القبلية انتصاراً لشعب البرانس، فقد استطاعت صنهاجة بشقيها بعد جهود متواصلة أن تصرع أعداءها من البتر، وأن تقهرهم، وأن تبسط ظلها على بلاد المغرب كلها، فقد كانت صنهاجة الشمال تسيطر على إفريقية والمغرب الأوسط، وكانت صنهاجة الجنوب تسيطر على المغرب الأقصى، والأندلس، فارتفع شأن البرانس، وعلت كلمتهم، وتفوقوا على أعدائهم البتر.

على أن قيام هذه الدولة قد ترك آثاراً أخرى بعيدة المدى عميقة الأثر فى تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، ذلك أن الدولة الجديدة استطاعت لأول مرة أن توحد فى المغرب الأقصى بين المنطقتين الساحلية التى تسود فيها المؤثرات الحضارية الأندلسية، والتى ينزل بها قوم يشتغلون بالزراعة، وبين المنطقة الأخرى الهضبية والجبلية التى كانت فى الواقع بربرية لحما ودما لم تنفذ إليها المؤثرات الثقافية الأجنبية، ويحيا أهلها حياة النقلة والترحال^(١). كان يحدث أن تبسط الدول التى قامت بإفريقية سلطانها حتى ساحل المحيط الأطلسي، ولكنها كانت تتوغل فى المنطقة الساحلية، أما المناطق الداخلية فقد بقيت فى معزل عما كان يجرى من

M.L.De Mas Latrie : Traites de paix et de commerce et documents divers concernant (١) les relations des Chretiens avec les Arabes de L'Afrique Septentrionale au moyen age :P.27.

الحوادث، حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها، ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى، فقد كانت الأقاليم السودانية تكاد تعيش بمعزل عن حوادث المغرب، حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة، ومكنوا للثقافة الإسلامية من أن تتسرب إليها، وتنتشر بين ربوعها. كما أن قيام الدولة وتوسعها في الأندلس يمثل ظاهرة فريدة في تاريخ المغرب الإسلامي، ذلك أن أهل الأندلس ظلوا يتفوقون على أهل المغرب، ويتحكمون في مصائرهم دهرًا طويلًا، وكانت جيوش الناصر والمستنصر وهشام المؤيد تجوس في أرجاء البلاد، ترفع لواء الأمويين وتبسط ظلهم، وتمكن للحضارة الأندلسية حتى قامت دولة المرابطين، فقلبت الأوضاع، وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب، وكتبت لهم السيادة على أهل الأندلس، وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها مراكش حاضرة هذا الملك الجديد.

وقد ترك قيام الدولة أثرًا واضحًا في ناحية أخرى بعيدة الأثر، ذلك أن المغرب شهد ظاهرة جديدة وفدت عليه، فقد غزا عرب بنى هلال إفريقية، وخرّبوا القيروان، ونالوا من الحضارة، وقوضوا ملك بنى زيري، ثم طوقوا باب المغرب الأوسط، وهددوا الدولة الحمادية. وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، فيمثلوا فيه نفس الدور، ويعيشوا فيه فسادًا، كما عاثوا في إفريقية من قبل، لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الأوسط، ووضعها حامية قوية في تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الأقصى شر بنى هلال^(١). وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط لأنهم كانوا يعلمون أنه يتحكم في الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى، ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الإقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتوني الشهير مزدلى فاتح بلنسية ليرعى شئونه ويحرس مسالكه^(٢) فلا ينفذ إليه العرب، ويطوقون باب المغرب الأقصى.

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الأوسط، وعملهم

(١) G.Marcais: Les Arabes en Berberberie du xi Au xiv siecle P.116.

(٢) ابن خلدون ج٦ ص ١٨٨.

على مدافعة عرب بنى هلال إلى اصطدامهم ببني حماد أصحاب القلعة بعد أن كانوا قد آذروهم حين فتحوا المغرب الأقصى، لأن بنى حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين في المغرب الأوسط نظرة الارتياح والرضا، بل ظلوا يترقبون فرصة مواتية حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس، وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد. فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين^(١). مما حمل يوسف على مغادرة الأندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم^(٢)، ويبدو أن المرابطين قد أقروا السكينة في ربوع المغرب الأوسط، وحالوا بين بنى حماد وحلفائهم من العرب، وبين ما يريدون، بل جاست قواتهم فيه، وهددت مدينة أشير^(٣)، ويخيل إلينا أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط، وعملهم على تحصينه وإقرار السكينة في ربوعه لم يكن يقصد به مجرد مناهضة بنى حماد والكيد لهم، بل لرد العرب عن المغرب وتجنيب البلاد ما أصاب إفريقية من قبل، بدليل أن يوسف سالم بنى حماد^(٤) بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط قد نجا من الوقوع في قبضة العرب، فنجت حضارته وسلم تراثه.

وقد ترك قيام دولة المرابطين أثراً بعيد المدى في توازن القوى في الجزء الغربي من البحر الأبيض. ذلك أنه في ذلك الوقت بالذات ظهر النرمان بجنوب إيطاليا وبدءوا يتشوفون إلى صقلية ويمكنون لأنفسهم فيها، في الوقت الذي عمدت فيه أساطيل جمهوريات إيطاليا إلى تهديد حرية الملاحة في هذه المنطقة، وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط ظلها على الأندلس، وتستذل ملوك الطوائف، وتحاول أن تنتزع منهم القلاع والحصون. وكانت البابوية قد نهضت نهضة موفقة، وبدأت تبسط ظلها على أوروبا، وتنهى الأذهان لمعركة صليبية حامية الوطيس، فلما قامت دولة المرابطين، وبسطت ظلها على الساحل المطل على بحر الروم، اهتمت بالبحر، وبدأت تنشئ أسطولا بعد فتح سبتة وطنجة. وقد خف المرابطون إلى معركة الجهاد في الأندلس، واستطاعوا بعد جهود متصلة دامت عشرين عاما

(١) المرجع السابق ج٦ ص ١٨٨.

(٢) الذخيرة (م. بغداد) القسم الثاني ص ١٠٥.

(٣) ابن خلدون ج٦ ص ١٧٦.

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨.

أن يوقفوا توسع الفرنجة فى الأندلس، وأن يبددوا خرافة الاسترداد وأن يؤخروا سقوط شبه الجزيرة فى يد النصارى بضعة قرون، وقد استولى المرابطون على الساحل الشرقى لبلاد الأندلس، كما استولوا على جزيرتى ميورقة ومنورقة^(١)، واتخذوا من موانئ الأندلس قواعد لأسطولهم الناشئ، الذى أخذ ينشط فى حوض البحر الأبيض، ويظهر تفوقه، ويغير على بلاد الفرنجة محاولا أن يستعيد السيادة الإسلامية التى كان قد انتهى أمرها. ومن آيات تفوق أسطول المرابطين فى البحر أن بنى زيرى وهم يصارعون روجر صاحب صقلية استعانوا بهم فلم يترددوا فى مساعدتهم، واشترك أسطول المرابطين فى مهاجمة صقلية.^(٢)

نعم استطاعت هذه الدولة الناشئة أن تقضى على السياسة التى سارت عليها البابوية لإثارة حرب صليبية فى المغرب، بل لعبت دورا فى غاية الأهمية فى تاريخ المعركة الصليبية التى كانت توشك أن تضطرم نارها فى الشرق، فقد نجحوا فى الحيلولة بين ممالك الأندلس وبين المساهمة فى الحملات الصليبية التى نظمت للاستيلاء على بيت المقدس، ولأن المرابطين كانوا يقفون لهم بالمرصاد، إذ كانوا يناوشونهم، ويهددون بلادهم، ولا يكفون عن غزوهم ومحاربتهم. ويخيل إلينا أنه لولا قيام دولة المرابطين فى ذلك الوقت بالذات؛ لكان النجاح الذى أحرزته الحملات الصليبية فى الشرق أبعد أثرا، ولا استطاعت القوى الأوروبية كلها أن تنصرف بكليتها إلى معركة الشرق، ومن يدري ربما كان وجه التاريخ الصليبي قد تغير. ولم لانقول إن قيام دولة المرابطين ونجاحها فى المعركة الصليبية الدائرة الرحى فى المغرب قد أحيا موات الآمال، وهز مشاعر المعاصرين فى الشرق فأدركوا أن فى المغرب قوة إسلامية ناشئة استطاعت حين وحدثت القوى المتنافرة أن تحرز النصر الرائع وأن تذيق أعداءها البأس والشدة، وقد اهتم المرابطون بالجهاد فى الشرق اهتماما عظيما، وكان يحز فى نفوسهم أن يروا إخوانهم فى الشرق قد تفرقوا وتباغضوا غافلين عن الداء الذى بدأ يستشرى فى بلادهم ويهددهم تهديدا

(١) التادلى : التشوف ص ١٥٦.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٣، ٢٦٠.

خطيراً. يدل على ذلك مارواه ابن الأثير ^(١) من أن بعض هؤلاء الملتزمين رحلوا بعد الحملة الصليبية الأولى إلى بغداد، وخطبوا في الناس، يستنهضون الهمم، ويلهبون الحماس في النفوس، ويدعون إلى الجهاد في الشرق كما دعوا إليه في الغرب ^(٢).

استطاعت هذه الدولة إذن أن تجمع بين المغرب والأندلس، وأن تبسط نفوذها حتى إقليم السنغال والنيجر، وجمعت بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية، وألفت بين التراث الأندلسي والمغربى والسودانى، وسنرى كيف أن ذلك كله سترك في الحضارة في عهد المرابطين آثارا باقية وسمات واضحة. كما استطاعت أن ترفع من شأن مذهب مالك، وأن تنشره في المغرب والسودان وأن تعلى كلمته في الأندلس، وعملت على إقامة مجتمع مثالى فاضل على أسس من إحياء السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع، والتوسع في الجهاد بصورة لم تكن معهودة من قبل، كما عملت على القيام بإصلاحات اقتصادية واسعة النطاق.

وقد تركت هذه الأسس التي قامت عليها الدولة أثراً واضحاً في وضع الدولة الشرعى، وفي ألقاب ولى الأمر، وفي السكة، ونظم الحكم وفي النظام الحربى، وفي فن القتال، وفي الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفي الحياة الثقافية، وفي جميع مقومات الحضارة. وواجبنا الآن أن نبرز هذه الآثار، وأن نكشف عنها النقاب، وأن نوضح إلى أى حد استطاعت هذه المؤثرات أن تشكل مجتمعاً جديداً يختلف اختلافاً واضحاً عن غيره من المجتمعات السابقة.

وقد أثرت الأسس التي قامت عليها الدولة في وضعها الشرعى. فنحن نعلم أن الدعوة التي بثها عبدالله بن ياسين في ربوع المغرب كانت تهدف إلى إحياء

(١) ابن الأثير ج ١ ص ١٧٣.

(٢) قال ابن الأثير: وفي سنة ٤٩٩ ورد إلى بغداد إنسان من الملتزمين ملوك المغرب قاصداً إلى دار الخلافة فأكرمه وكان معه إنسان يقال له الفقيه أيضاً فوعظ الفقيه في جامع القصر واجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو مثلثم بل روى ابن الأثير أيضاً أن بعض هؤلاء الملتزمين قد شارك الأفضل في حربه مع القوى الصليبية في الشرق، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على هذه الغيرة للإسلام التي كان تضطرم بها قلوب رجال هذه الدولة.

السنة، وبعث التقاليد الإسلامية الصحيحة، ومحاربة العقائد الضالة، وكان عبد الله - كما رأينا - مجرد فقيه من فقهاء المالكية في المغرب اضطرم فؤاده بحب الإصلاح بسبب الانحلال والتفرق الذي أصاب العالم الإسلامي في عصره، فأراد أن يعود العالم الإسلامي إلى وحدته، وأن يعود الناس إلى السنة القويمة، وأن تقوم الدولة كل معوج، وأن تعلى كلمة الحق والفضيلة في مجتمع فشا فيه الفساد، ولم يكن يدور بخلد عبدالله عقب نجاحه في توحيد قبائل صنهاجة الجنوب، وتوجيهها نحو المغرب لفتحه أن يقيم دولة يرثها أبنائه من بعده، بل قنع بإرساء قواعد الإصلاح، وتوجيه المجتمع الجديد الوجهة التي يريدها دون أن يطمع في ملك أو سلطان.

ولما كانت مذاهب السنة تنادى بأن الإمامة لقريش^(١)، وترى أنه «لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها وتجري السنن عليها»^(٢)، ولما كانت رسالة الدولة الجديدة هي إحياء تعاليم السنة كان من الطبيعي أن تعترف بإمامة قريش، وتعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكها مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية، ولما كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية في ذلك الوقت إلا بنو العباس في بغداد، كان طبيعياً أن تتجه الدولة صوب العباسيين تلتمس العون وتستمد التأييد وتطلب الاعتراف. ولم يكن طبيعياً أيضاً أن يعترف المرباطون بإمامة الشيعة، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون بنى عبيد، ويرمونهم بالزندقة والإلحاد، «كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر أراد إصلاحهم فلم يملوا إليه ولاقاربه»^(٣)، وقد تمثل إيمان المرباطين بأحقية بنى العباس في الإمامة والخلافة فيما نسب إلى يوسف بن تاشفين، حين طالب قومه بأن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال: «حاشا لله أن نسمى بهذا الاسم، إنما تسمى به خلفاء بنى العباس، لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣.

(٢) الذخيرة قسم ٢ مجلد ص ١٤٨.

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ١٧٣.

والقائم بدعوتهم^(١)». وهذه صورة واضحة للعقلية الإسلامية فى العصور الوسطى، فقد كان الناس لا يفهمون حكما لا يعترف به خليفة، لا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة. ويتمثل هذا الرأى فيما رواه النويرى على لسان الفقهاء بالأندلس، حين قالوا لـيوسف بن تاشفين: «إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة»^(٢).

كانت الدولة إذن لا تكاد تختلف فى وضعها الشرعى عن الدويلات المستقلة التى قامت فى الشرق والغرب معترفة بالخلفاء العباسيين تخطب لهم على المنابر، وتنقش أسماءهم على السكة. فمتى اتصل المرابطون ببغداد يطلبون الاعتراف بهم ولاية شرعيين، يدينون للخلافة بالطاعة؟. ينسب بعض المؤرخين إلى يوسف بن تاشفين أمر الاتصال بالخليفة العباسى فى بغداد يطلب الاعتراف به، وإرسال التقليد والخلة، ويذكر بعضهم أن هذا الاتصال تم بعد معركة الزلاقة، أعنى بعد سنة ٤٧٩هـ، كما يذكر البعض الآخر أنه راسل الخليفة أبا العباس أحمد المستظهر بالله^(٣)، والمستظهر كما نعلم ولى الخلافة سنة ٤٨٧هـ، أعنى بعد الزلاقة بثمانى سنوات ويذهب فريق آخر^(٤) أنه اتصل بالخليفة المقتدى بأمر الله الذى ولى الخلافة كما نعلم من سنة ٤٦٧هـ إلى ٤٨٧هـ، فكان معاصرا لمعركة الزلاقة. وتؤكد مراجع أخرى هذا الاتصال، وتقول إن يوسف كان يفخر «بأنه معيد دعوة أمير المؤمنين»^(٥). ولم يكن من المعقول أن يتصل يوسف بالخليفة العباسى قبل سنة ٤٨٠هـ، وهى السنة التى توفى فيها أبو بكر بن عمر، وتمت البيعة لـيوسف رسميا، فلا يبعد أن يكون يوسف قد اتصل بالمقتدى يطلب الاعتراف بشرعية

(١) الحلل المشوية فى الأخبار المراكشية ص ١٨.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٤. النويرى ج ٢٢ ص ١٩٥.

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٤.

(٥) الحلل المشوية: نقلا عن Dozy : Abbadidarum, vol. II. p.189, 192

يذكر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ مانصه (وتسمى بأمر المسلمين وخاطب المستنصر العباسى الخليفة لعهد ببغداد وبعث إليه عبدالله بن محمد بن العرب الغامى الأشيلى وولده القاضى أبا بكر فتلف فى القول وأحسن فى الإبلاغ وطلب من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك فى إيدى الناس وانقلبوا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم).

حكمه، فلما توفي المستظهر سنة ٤٨٧هـ، وخلفه المقتدى اتصل به يوسف يطلب تجديد الاعتراف، فقد كان التقليد يتجدد كلما مات خليفة وخلفه آخر، وهذا يفسر التناقض الظاهر في رواية المؤرخين. كما أن السكة في عهد يوسف بن تاشفين قد نقش عليها اسم (عبدالله) أمير المؤمنين، إشارة للخليفة العباسي^(١).

ولكن كتب النقود تظهر لنا أن المرابطين دعوا للخليفة العباسي قبل فتح الأندلس بوقت طويل، فنقشوا أسماءهم على السكة منذ سنة ٤٥٠هـ، وذلك في عهد الأمير أبي بكر بن عمر^(٢)، وظل اسم الخلفاء العباسيين يذكر مقرونا باسم أبي بكر بن عمر حتى توفي سنة ٤٨٠هـ، وخلفه يوسف بن تاشفين، فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسي، وفي هذا تأييد لما قلناه من أن الدولة الجديدة قد دعت للعباسيين من أول الأمر، وليس بعد الزلافة كما يذكر المؤرخون الذين سبقت الإشارة إليهم^(٣).

وهناك ملاحظة أخرى هي أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطية هو (عبدالله أمير المؤمنين)، وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة، فكان ذلك سببا في أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبدالله المنقوش على السكة، فقالوا إنه قد يكون اسم عبدالله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين، ولكن عبدالله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب، وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة، كما أن الرجل

(١) Katalog der Orientalischen Munzen, Zweiter band, p.124.

رقم ٥٦٤ بتاريخ ٤٩٧. انظر : ابن الوقت المراكشي : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج٢ ص ٩٠.

M. H. Lavoix: Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, p. (٢) 198.

Vivesy Escudero: Monedas de los Dinastias Arabigo- Espanolas, p. 235.

Katalog der Orientalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.123.

قطعة رقم ٥٦٣ : نقوش القطعة كما يلي : باسم عبدالله أمير المؤمنين «قطعة رقم ٤٨٥».

Catalogo de Monede Arabigos, P.125.

Katalog der Orientalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.128. (٣)

القطعة رقم ٥٨٢ و ٥٨٣ و ٥٨٤ و ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٥٨٩

لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه، وترك أمر الحكم ومسئوليته ليحيى بن عمر وأبى بكر ابن عمر. كما أن الخليفة المعاصر لقيام الدولة هو أبو جعفر أبو القاسم عبدالله القائم بن القادر، الذى ولى من سنة ٤٦٢هـ إلى ٤٦٧هـ، ثم خلفه أبو القاسم عبدالله عدة الدين المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم، الذى ولى من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٤٨٧هـ، وكلا الخليفين يسمى عبدالله، كما أن صاحب شذور العقود^(١) يفسر النقوش التى ذكرت على السكة المرابطية هكذا «فى دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب فى الدائرة ومن يتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبدالله أمير المؤمنين العباسى، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة»^(٢). ويرى ماكس فان برشم أن الخلفاء العباسيين والأمويين كانوا يكونون عن أنفسهم بلفظ عبدالله فى النقوش أو النقود، وخصوصا فى عهد عبدالملك بن مروان وهشام، والمأمون، والمقتدر، ويرى أيضا أن اسم عبدالله كان يخلع دائما على من يجهل اسمه المجرد، ويضيف إلى ذلك قوله أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الأسماء المجردة، إنما اكتفت بالكنى والألقاب^(٣). لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة المجرد على السكة، واكتفوا بقولهم (عبدالله)، وهى كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة عباسى، كما أضافوا قولهم أمير المؤمنين، وهو لقب لا يلقب به إلا الخلفاء^(٤).

وهناك ناحية أخرى تسترعى الانتباه، وهى ما قيل من أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم، لأن أعلام العباسيين وأشعرتهم كانت سوداء، فقد ذكر التيجانى^(٥) صاحب الرحلة المعروفة حينما عرض للقتال بين الموحدين وبين بنى غانية المثلثمين أن شعارهم كان أسود اللون على حين كان شعار الموحدين أخضر

(١) المقرئى: شذور العقود فى ذكر القود ص ٦٦.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

M. Max van Berchem: Titres Califien d' Occiden (journal asiatique, d;xieme Serie (٣) t,ix, 907, p. 1264.

Idem. (٤)

(٥) الرحلة التيجانية ص ١٥٨.

اللون لأنهم كانوا يميلون للدعوة العلوية^(١). ولكن يجب ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة هامة أشرنا إليها في الباب الأول من هذا الكتاب، وهى أن الطوارق فى الوقت الحاضر فريقان: فريق النبلاء، وفريق العامة، ورداء الفريق الأول أسود اللون تمييزا لهم عن الفريق الآخر، الذى كان يرتدى الملابس البيضاء، فليس بعيد أن يكون الطوارق الحاليون، ورثوا هذا الرداء عن أسلافهم الصنهاجيين، وظلوا يستعملونه حتى اليوم. ويؤيد هذا القول ماروى من أن المعتصم صاحب المرية أراد أن يتقرب من المرابطين، فارتدى ثوبا مرابطيا أسودا فكان كما يصفه بعض الرواة العرب «كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض»^(٢).

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن السواد كان شعار المرابطين قبل أن يدعوا للعباسيين على منابر بلادهم، كما يدل على أن بعض التقاليد القبلية للملثمين قد أثرت فى نظم الحكم، ولعل ما ذكرناه ينهض دليلا على أن طابع الدولة قد أثر فى وضعها الشرعى، وأن التزامها أحكام السنة قد جعلها تعترف بالخلافة العباسية الشرعية، وقد ظل المرابطون يدعون للعباسيين^(٣) حتى دالت دولتهم، فانتتهت الدعوة العباسية من المغرب بانتهاهم.

٢ - أثر قيام دولة المرابطين فى نظم الحكم:

هذه الروح التى أملت على المرابطين أن يخطبوا للخلفاء العباسيين على منابرهم، وأن يكتبوا لهم يطلبون الاعتراف بشرعية حكمهم هى التى أملت عليهم أيضا ألا يتخذوا من الألقاب ما يتعارض مع هذه التبعية، فالمعروف أن من ألقاب الخلافة لقب أمير المؤمنين، جرى العرف على هذا، واصطلح عليه الناس، فكان من الطبيعى ألا يتخذ المرابطون لقب أمير المؤمنين، وقد وضحت هذه الروح بجلاء فى ذلك الحدث الذى نسبه صاحب الحلل المشوية^(٤) إلى يوسف بن تاشفين

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج١ ص ٢٤٠.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص ٩٥.

(٣) التيجانى: الرحلة التيجانية ص ٤٤ المراكشى ص ١٣٢.

Katalog der Orientalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.130. (٤)

حين أراد قومه أن يلقبوه باللقاب الخلافة فأبى، وقال بأن هذا اللقب من ألقاب الخلفاء العباسيين القرشيين الهاشميين أئمة الحرمين، وأصحاب الحق المشروع في إمامة العالم الإسلامي.

فما هي إذن الألقاب التي خلعتها المرباطون على أنفسهم؟ اتخذ أولو الأمر من المرباطين لقب الأمير أول الأمر، وظل هذا اللقب ينقش على السكة منذ سنة ٤٥٠هـ، طوال حكم أبي بكر بن عمر^(١)، فما كاد الأمر يثول إلى يوسف بن تاشفين حتى روى المؤرخون أن تغيرا حدث في ألقاب الأمراء، ذلك أن يوسف اتخذ لقب أمير المسلمين، فمتى اتخذ يوسف هذا اللقب، وماهى الظروف التي هيات له أن يتخذ لقباً هو أقرب شيء من الألقاب الخلافة؟

يميز المؤرخون في حياة يوسف بين فترتين: فترة ظل يتخذ فيها لقب أمير شأنه شأن أسلافه، وفترة أخرى اتخذ فيها لقب أمير المسلمين، وقد أشار صاحب الحلل الموشية^(٢) إلى أن يوسف ظل يتخذ لقب أمير حتى تضخمت مملكته، واتسعت أعماله، فاتخذ لقب أمير المسلمين سنة ٤٦٧هـ، قبل أن يعبر البحر إلى الأندلس^(٣)، هذا إلى أن ابن بسام صاحب الذخيرة ذكر طائفة من الكتب بعث بها المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وغيره من ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين يستجدون به وينعتونه بلقب أمير المسلمين^(٤). ومن الغريب أن ماكس فان برشم^(٥) يذهب هذا المذهب ويؤيد هذا الرأي، ولكن يجب ألا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن بسام صاحب الذخيرة شرع في كتابة موسوعته سنة ٥٠٠هـ، أعنى في أواخر أيام يوسف وأول العهد بعلی بن يوسف، وفي هذا الوقت بالذات كان قد تأكد للمعاصرين صدق يوسف في الجهاد، وتوفيقه قى مدافعة الفرنجة عن بلاد الأندلس، وانتشر صيته في الآفاق وأصبح لقب أمير المسلمين شائعاً على كل لسان، فليس بغريب أن نجد ابن بسام حين يؤرخ للفترة السابقة على سنة ٥٠٠هـ،

(١) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية.

(٢) Katalog der Orientalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.123.

(٣) الحلل للموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧.

(٤) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص ٩٨ و ٩٩.

(٥) M. Van Berchem L Titres Califiens, p>273.

يقرن اسم يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وناصر الدين، لأن ابن بسام وهو
يؤلف كتابه الذخيرة كان يطمع في أن يظفر بتقدير على بن يوسف، أو على الأقل
كان يعلى من ذكر يوسف إرضاء لولده على صاحب الأمر في البلاد. كما يجب
ألا يفوتنا أن يوسف بن تاشفين ظل لأعمال أبي بكر على المغرب حتى سنة
٤٨٠هـ، حين مات أبو بكر وآل الأمر إليه رسمياً، فكيف يتسنى ليوسف أن يتخذ
لقب أمير المسلمين، وهو لم يزل عاملاً من عمال الدولة، ومجرد أمير لا أكثر ولا
أقل؟

بما تقدم يتضح أن يوسف بن تاشفين لم يكن في مقدوره أن يتخذ هذا
اللقب قبل سنة ٤٨٠هـ، فلما عبر البحر إلى الأندلس بقصد الجهاد، وخالط أهل
الأندلس وخالطوه شاع ذكر ذلك اللقب على السنة الناس، كتابهم وشعراتهم،
مدحه الشاعر عبد الجليل بن وهبون فقال ^(١):

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن مؤيد الدين ليلا ماله سحر

كما أشار شاعر آخر هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى في رثائه ليوسف
ابن تاشفين إلى هذا اللقب فقال ^(٢):

ملك الملوك وماتركت لعامل عملاً من التقوى يشار إليه

اسمع أمير المسلمين وناصر الدى الذى بنفوسنا نغديه

وقد ورد في رسائل المعاصرين التى ذكرها ابن بسام فى ذخيرته هذا اللقب
مفتراً باسم يوسف بن تاشفين. ورد ذكره فى رسائل كتبها ابن القصيرة عن
المعتمد بن صمادح ^(٣)، وفى رسالة أخرى كتبها ابن طاهر بعد سقوط بلنسية ^(٤)،
ورسالة ثالثة كتبها أبو بكر محمد بن ذى الوزارتين المشرف أبو مروان بن عبدالعزيز
إلى المستعين بن هود ^(٥)، وفى كل هذه الرسائل لا يكاد يذكر اسم يوسف بن
تاشفين مجرداً من لقب أمير وناصر الدين.

(١) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١٠٤.

(٢) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧.

(٣) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧.

(٤) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١٨.

(٥) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١١٦.

لذلك يخیل إلینا أن یوسف بن تاشفین لم یتخذ هذا اللقب إلا بعد اشتراكه فی معركة الجهاد فی الأندلس، بل یخیل إلینا أن الأمراء الأندلسیین والفقهاء وذوی الرأی خلعوا علیه هذا اللقب، اعترافا بفضله، وإشادة بالجهود الموفقة التی بذلها فی محاربة الفونسو السادس، وانتصاره للمسلمین. أشار صاحب شذور العقود إلى ذلك فقال: «فلما فتح یوسف بن تاشفین الأندلس، وصنع غزاة الزلاقة بايعوه وسلموا علیه بأمر المسلمین، وهو أول من تسمى بأمر المسلمین من ملوك المغرب^(١)».

وقد درج الکتاب المعاصرون وغير المعاصرين علی أن یذكروا اسمه مقترنا بهذا اللقب^(٢)، ویخیل إلینا أن یوسف كان أول الأمر یتخرج من ذکر هذا اللقب فی مكاتباته الرسمية لأنه كان متواضعا لایحب أن یدل علی الناس بفضل الجهاد فی سبیل الدین^(٣)، فلما اعترف الخلیفة العباسی به أمر بأن یدکر فی الخطبة^(٤). ولكن عدم إشارة النقود المضروبة فی عهد یوسف بن تاشفین^(٥) إلى هذا

(١) المقریزی: شذور العقود ص ٦٦.

(٢) مشیخة عیاض ورقة ١٠ (١) و ٦٥ و ٦٦ (١). المطرب لابن دحیة ورقة ١٩ (ب) و ٩٠ (ب).

(٣) یدل علی ذلك ما ذکره صاحب الحلل الموشیة حین قال (بسم الله الرحمن الرحیم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أدام الله كرامتهم بشقواهم ووقفهم لما يرضى وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر. وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل وأتم التسليم رأينا أن نخص أنفسنا بهذا الاسم لثباته به على سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى» انظر الحلل الموشية ص ١٧.

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧.

Katalog der Orientalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.124. (٥)

pieces no. 565,567,568,569, 570, 571,572, 573,574,575,577,578,579,580,581,

Lavoix: catague des monnaies de la Bibiotheque Nationales, p.202.

pieces no. 516,527,534,535, 536, 567,538, 540,542,575,543,

Monedas de las Dinatias Arabigo- Espanolas.

pieces no. 5504,1505,1510,1512,1512,1513,1521,1522,1526.

اللقب لايعنى أنه لم يخلع على يوسف فعلا^(١) لأن النقود التى حفظتها المتاحف المختلفة ليست هى كل النقود المنسوبة إلى عهد يوسف بن تاشفين، وليس ببعيد أن تكون هنالك دنانير قد نقش عليها هذا اللقب، ولكنها ضاعت، ولم يعثر عليها بعد، بدليل أن صاحب كتاب شذور العقود فسر الكتابات المنقوشة على عملة يوسف بن تاشفين بقوله: «ونقش فى دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب فى الدائرة ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبدالله أمير المؤمنين العباسى، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته»^(٢). ومن الغريب أن هذه القراءة تطابق النقوش الموجودة على الدنانير المرابطية التى تحت أيدينا، مما يدل على أن صاحب الكتاب قد قرأ فعلا نقوش أحد هذه الدنانير المرابطية. مهما يكن من شىء فإن على بن يوسف قد ورث هذا اللقب عن أبيه وأنه ظهر على السكة مقرونا باسمه منذ توليه سنة ٥٠٠ هجرية، واستمر ملوك المرابطين يتخذون هذا اللقب ولقب ناصر الدين حتى آخر العهد بهم^(٣)، بل إن على بن يوسف اتخذ لقب ولى الله ونقشه على السكة أيضا^(٤).

وقد أثرت طبيعة قيام الدولة فى طريقة اختيار ولى الأمر، ذلك أن دولة المرابطين قد أقامها شعب صنهاجة الجنوب من المثلثين، فكان من الطبيعى أن تكون الرئاسة فى صنهاجة الجنوب، وأن يكون ولى الأمر صنهاجيا، وقد أشرنا فى الباب الأول من هذا الكتاب إلى أن القبيلة الغالبة فى المجتمع المغربى كانت تستأثر بالنفوذ والسلطان كله، وتستذل القبائل المغلوبة على أمرها، وتحاول أن تستفيد من النصر بقدر ماتستطيع، وتختص أبناءها بالغنم كله وبالشمار كلها، وقد رأينا كيف أن

(١) M. van Berchem: titres Califiens d'Occident, J. A. Xeme serie. S.t. ix. 1907, p.273.

(٢) المقرئى : شذور العقود ص ٦٦.

(٣) Cataloge de Monedas Arabigos espanolas qui se conservan en el Museo Arquelogico Nacional.

pieces no. 551,552,593,569, 592, Lavoix: Catalogue des Monnaies.

Monedas de las Dinastias Arabigo- Espanlaas: pieces: 1552. 1706.

Don Francisco Codera y Zaidin : tratado de Numismatica at igo Espanola.p. 199.

قبيلة لمتونة كانت سيدة شعب الملثمين، وصاحبة الكلمة فيه وصاحبة الفضل الأول فى إقامة الدولة، فكان طبيعياً أن يكون ولى الأمر لمتونيا من القبيلة الغالبة، كما أشرنا إلى أن القبائل صاحبة السيادة كانت تؤلف طبقة أرستوقراطية فى المجتمع الملثم تختص نفسها بالشرف وبالرئاسة، ولما كانت رئاسة لمتونة فى بنى ورتنطق كان لابد أن يكون ولى الأمر من بنى ورتنطق هؤلاء، كان منهم يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وعلى بن يوسف وجميع خلفائه.

إذن لم تكن البيعة عامة، ولم يكن حق الاختيار مطلقاً، بل كان على الشعب أن يختار أميره من هذا البيت بالذات، ومن قبيلة لمتونة، ومن شعب صنهاجة. ولكن الدور الذى اضطلعت به الدولة فى إحياء السنة، والسير وفق تعاليمها قد جعلها تعتمد إلى نوع من الشورى فى اختيار الأمير، فكانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة، ثم الأمراء من بنى ورتنطق، ثم سادة لمتونة، ثم سادة القبائل الأخرى، ثم زعماء القبائل الخاضعة لنفوذ المرابطين، حتى إذا اكتملت هذه البيعة تلى العقد فى المساجد وقرئ على الناس، ثم يخطب للأمير على المنابر إلى جانب خلفاء بنى العباس، وينقش اسمه على السكة والطرز والبندود^(١).

وإذا كنا قد عرضنا لولى الأمر وألقابه وطريقة اختياره وأخذ البيعة له فيجب علينا أن نعرض لنظام ولاية العهد، وأن نبين إلى أى حد تأثر المرابطون بتقاليدهم البدوية، وبالمذهب الذى أحيوه، ورفعوا لواءه وعملوا بتعاليمه، ليس من شك فى أن المجتمعات البدوية لم تكن تعرف مبدأ التوريث الذى يقضى بأن يرث الابن أباه فى السؤدد وفى مشيخة القبيلة، لأن القبائل البدوية عادة لم تكن تعقد لواء المشيخة إلا لمن توافرت فيه صفات خاصة من حكمة ونجدة وشجاعة وكثرة بذل وعطاء، لذلك قلما كانت المشيخة تنتقل من الأب إلى ولده، إنما كانت تنتقل إلى الأصلىح من أقربائه وأهل أسرته.

وقد تجلت هذه التقاليد البدوية بوضوح وجلاء فى طريقة اختيار الأمراء فى

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٧٣.

أول العهد بالدولة، فقد بايع عبدالله بن ياسين الأمير يحيى بن عمر لتحمسه للدعوة وصدق جهاده، فلما مات يحيى بويح لأبى بكر بن عمر، وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة، ولم نسمع أن يحيى قد ولى أحدا عهده، كما لم نسمع طوال حكم أبى بكر بن عمر الذى امتد من سنة ٤٥٠هـ إلى ٤٨٠هـ أنه ولى عهده أحدا.

لأنكر أن بعض النقود ظهر عليها اسم إبراهيم بن أبى بكر، وأن هذه النقود ضربت بسجلماسة^(١)، ولكن سك النقود باسم إبراهيم بن أبى بكر لايعنى أنه كان ولى عهد، إنما كان أميرا على سجلماسسة فى الوقت الذى كان فيه يوسف بن تاشفين أميرا على المغرب، وقد قضت التقاليد بأن يتمتع كل أمير بشبه استقلال محلى فى ولايته، وأن يكون له حق سك النقود باسمه.

أما يوسف بن تاشفين الذى خلف أبا بكر بن عمر، فقد اختير بسبب إحرازه النصر فى معارك المغرب والأندلس. اختاره المثلثون لما أسداه للدولة من خدمات جليلة، من ذلك يتبين أن الدولة حتى عهد يوسف لم تكن تعرف نظام ولاية العهد بالصورة التى ترسمها النظم الإسلامية، إنما كان المجتمع اللمتونى يولى الأصلح، ويعقد لواء الإمارة للقادة الشجعان الذين يتوسمون فيهم الإخلاص للمبادئ الجديدة. وقد ظهر فى طريقة اختيار هؤلاء الأمراء صدى التقاليد البدوية والتقاليد الإسلامية، التى تقول بالشورى واختيار الأفضل والأصلح.

لكن عهد يوسف بن تاشفين تمخض عن تطور جديد، إذ ظهر نظام ولاية العهد فى النظم المرابطية لأول مرة، فقد رأى يوسف أن الدولة قد اتسع نطاقها وانبسط ظلها فشمّل المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال والنيجر، فأراد أن يضع للدولة نظاما يكفل لها الوحدة، ويعصمها من الفرقة، ويحسم داء الخلاف^(٢) الذى قد يهدد الدولة الناشئة بانقسام خطير، فأدخل نظام ولاية العهد، وأصبح تقليدا سار عليه خلفاؤه، فقد روى المؤرخون أن يوسف قدم إلى الأندلس

Lavoix: Catague des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque Nationales, picc- (١) es514.515.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٥٦-٥٧.

سنة ٤٩٦هـ أو ٤٩٧هـ، وكانت بلنسية قد سقطت منذ سنة أو أكثر، وكان المرابطون قد أحرزوا نجاحا في المعركة الصليبية، وهدأت الأحوال في البلاد، وبدأت الأمور تستقر، وقد أحضر معه ولده عليا وأخذ له البيعة بقرطبة ^(١) حاضرة الأندلس، كما أخذها بمدينة مراكش ^(٢) حاضرة المغرب حتى يشترك الأندلسيون والمغاربة في مبايعة الأمير الذي سيحكم القطرين ويوحد بين الشعبين.

وقد أتى صاحب كتاب الحلل الموشية بنص عقد البيعة ^(٣)، وهي وثيقة هامة تلقى ضوءاً على نظام ولاية العهد كما وضعه يوسف بن تاشفين، إذ تبين أن أمير المسلمين حين نزل بقرطبة دعا أمراء لمتونة، وأشياخ البلاد والفقهاء وقادة الرأي في البلاد، ثم تلا عليهم عقد البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على اختيار ولي العهد، ويضع الشروط التي يجب أن تتوافر فيه، ويوضح المبادئ التي يسير عليها في حكم البلاد، ثم أخذت البيعة من الحاضرين الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء، ثم وقعوا على العقد، وتقدم ولي العهد فأقسم أمام الجماعة بالتزام شروط العقد، وترسم السياسة التي وضعها أبوه، لايحيد عنها قيد أنملة، ثم أشهد الكتاب، وأخذ توقيعه على الوثيقة ^(٤).

يتبين من عقد البيعة هذا أن يوسف قد خضع لمؤثرات قبلية ومؤثرات مستوحاة من طابع الدولة وسياستها القاضية بإحياء السنة، ورفع لواء مذهب مالك

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠١ . مفخر البربر ص ٥٣.

Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque Nationales, p. 210
piece: 536.

(٢) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج ١ ص ١٢٢.

(٣) نص عقد البيعة وهو من إنشاء الفقيه أبي محمد بن عبدالعزيز : «أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباد الله المؤمنين خاف أن يسأله غدا عما استرعاه كيف تركه هملا لم يستتب فيه سواء، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة كيف في هذه الأمور . . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة، قد أعز الله رماحه، وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالي، واهتزازا وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا فاستتابه فيما استرعى ودعا إلى ما كان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، وراوه أهلا أن يسترعى في ما استرعاه فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين الشروط قبل رضى . . .».

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٥٦-٥٧.

والتمسك بأهداب تقاليد السلف الصالح، لأن يوسف لم يغفل مبدأ الاختيار الذى تفرضه التقاليد البدوية، فكان له أبناء كثيرون، ولكنه اختار أصلحهم وأقدرهم على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل، برغم أن عليا كان أصغرهم سنا، لأن الدولة بطبيعتها المزدوجة فى حاجة إلى أمير يؤلف بين قلوب أبناء الأندلس والمغرب، لا يغفل أمر الجهاد، ولا يتنكر لمبادئ عبدالله بن ياسين، يبدو هذا كله بجلاء من نصوص الوثيقة إذ تقول «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرهم ارتياحا إلى المعالى واهتزازا وأكرمهم سجية وأنفسهم اعتزازا فاستنابه فيما استرعى ودعاه إلى ماكان إليه دعى^(١)».

وتكشف لنا الوثيقة عن أمر آخر هو تمسك يوسف بالشورى، وحرصه على استشارة أهل الرأى تحقيقا للتقاليد الإسلامية والبدوية معا، «ودعاه إلى ماكان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى، فرضوا لما رضىه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه^(٢)». وكانت البيعة مشروطة بشروط خاصة، إذ كان على الأمير المبايع له أن يلتزم سياسة معينة لايحيد عنها، لأنه أقسم أمام الملائ أن يلتزمها وألا يتعدها، فإذا أحس أهل الرأى ووجوه القوم أنه قد خرج على نصوص عقد البيعة، وحاد عن المبادئ التى أقسم على احترامها كان لهم أن يتحللوا من أيمانهم، وأن ينقضوا العهد، وكان باستطاعة أمير المسلمين إذا شاء أن يخلع هذا الابن من ولاية العهد، إذا آنس منه تغييرا أو تبديلا، ويولى من أبنائه أكثرهم صلاحية لهذا المنصب الخطير، جاء فى الوثيقة «ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه فأحضروه مشروطا عليه الشروط الجامعة بينه وبين المشروط، فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخير والاستعانة بالله الذى من آمن به شكره^(٣)».

وكان ولى العهد يتخذ لقب أمير، كما يتبين من عقد البيعة ومن الألقاب

(١) الحلال الموشية ص ٥٦-٥٧.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

المنقوشة ^(١) على السكة، وكان اسمه ينقش على السكة إلى جانب اسم أبيه فيقال «الأمير على بن الأمير يوسف»، ويقال أحيانا أخرى «الأمير يوسف وولى عهده الأمير على». وقد ظل اسم على بن يوسف يكتب على السكة إلى جانب اسم أبيه من سنة ٤٩٧هـ إلى سنة ٥٠٠، كما ظل اسم سير بن يوسف يكتب على السكة، حتى استبدل به الأمير تاشفين بن يوسف، وقد اختار تاشفين ولده إبراهيم وليا لعهد، ونقش اسمه على السكة أيضا، وكان يدعى للأمير ولى العهد على المنابر بعد أبيه، كما يختص بالولاية على الأندلس، يقيم في قرطبة ^(٢)، حتى إذا مات أبوه انتقل إلى مراكش، وبويع أميرا للمسلمين.

وهناك ناحية أخرى تركت في نظم الحكم في عهد المرابطين أثارا بعيدة المدى، هي أنه لابد للقائمين على الدولة والمهيمنين على شئونها من أن يحولوا بين الحلف المؤسس للدولة وبين التفرق، لأن الدولة تستمر قوية فتية متساندة طالما كانت القبائل مؤسسة الملك متألّفة وأبناء القبيلة الواحدة متحالفين متآزرين؛ فإذا دب النزاع بين قبائل الحلف الواحد أو بين أفراد القبيلة الواحدة تفرق الشمل ^(٣)، وتقدمت القبائل المعادية من مضاربها تنال من الدولة، وتذك صرحها، لذلك يجب أن تختص القبيلة المنتصرة بثمار النصر، وتحرص على أن يكون لها الامتياز في جميع مرافق الحياة، وتؤلف طبقة حاكمة مهيمنة.

فطن إلى هذه الحقيقة المؤرخون الذين تعرضوا لدراسة النظم الإسلامية في المغرب والأندلس على الخصوص، مثل ابن خلدون ^(٤)، والطوطوشى صاحب كتاب سراج الملوك حين قال: «ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو أن تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن إلى حملة القرآن والعلم، وحفاظ الشريعة وتدنى مجالسهم وتقرب

Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulman p.210.(١)

لا إلا الله

محمد رسول الله

الأمير على بن الأمير

يوسف بن تاشفين

(٢) لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج١ ص ٣٩.

Rodd: people of the veil p. 343. (٣)

(٤) ابن خلدون : المقدمة.

الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين، وكذلك فلتفعل بالأشراف من كل قبيلة والرؤساء المتفرعين من كل غط، هؤلاء هم أئمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة أن تبقى على كل ذي رياسة رياسته، وعلى كل ذي عز عزته وعلى كل ذي منزلة منزلته^(١).

وقد وضع أمراء المرابطين هذه السياسة نصب أعينهم، فقد روى ابن خلدون أن يوسف «اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه»^(٢)، فلننظر إلى أى حد يصدق قول ابن خلدون، وإلى أى حد طبق يوسف هذه السياسة القبلية سواء فى الأندلس أم فى المغرب.

كان ولاية المغرب جميعهم من قبيلة لمتونة على الخصوص، أو من صنهاجة على العموم، وقد كان يوسف بن تاشفين نفسه قبل أن يصير إليه الأمر عاملاً على المغرب من قبل أبى بكر بن عمر، أما مدينة فاس وسبته، فقد وليهما الأمير أبو بكر بن إبراهيم^(٣) وولى تلمسان تاشفين بن تينامر^(٤)، والأمير مزدلى^(٥)، وولى أبو بكر بن محمد اللمتونى بلاد السوس^(٦)، وكان أبو بكر بن إبراهيم قبل أن يولى على فاس عاملاً على إقليم الصحراء^(٧)، أما سجلماسة فقد وليها إبراهيم ابن أبى بكر بن عمر^(٨)، وأبو عبدالله بن أبى زنفى^(٩)، كما كا عامل دكالة من قبيلة لمتونة^(١٠).

ولم يختلف الحال فى الأندلس عنه فى المغرب، فقد ولى يوسف على غرناطة عليا بن يوسف، وأبا الحسن على بن الحاج، وموسى بن الحاج، وأبا بكر ابن إبراهيم، ويحسى بن أبى بكر بن إبراهيم، وأبا الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، وأبا محمد مزدلى، وأبا محمد تاشفين بن على بن يوسف، وأبا بكر بن

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١١٤.

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥.

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٢.

(٤) rcais: Les Arabes en Berberies du xle au xiv siecles.

(٥) التادلى : التشوف ص ١٠٩.

(٦) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٤.

(٧) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣.

(٨) Lavocx: Cat. des Monnaies. Musul. p. xlii

(٩) الفتح بن خاقان : القلائد ص ٢٩٤.

(١٠) ابن فرحون : الدياج المذهب ص ٤٩.

أبي محمد، وأبا طلحة الزبير بن عمر، وعثمان بن بدر السملتوى^(١). أما قرطبة فقد وليها محمد بن الحاج بن عمر الصنهاجي، وولده المنصور، وأبو محمد تاشفين بن علي، والزبير بين عمر المثلث^(٢)، وولي مرسية أبو عبد الله بن عائشة، وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين^(٣)، وأبو عبدالله محمد بن تاشفين، وأبو بكر بن تيفويت، وأبو عبدالله بيتان بن علي، وأبو عبدالله بدر بن ورقاء، وإبراهيم بن تاعياشت، وأبو زكريا يحيى بن غانية^(٤) وولي إشبيلية سير بن أبي بكر، ويحيى ابن سير بن أبي بكر، وعبدالله بن فاطمة، وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وأبو حفص عمر، وعبدالله بن أبي بكر بن جنونة، ويحيى بن علي بن منصور، وأبو يعقوب بن علي، وأبو بكر بن علي بن يوسف، ويحيى بن إسحق، وأنجمار، وأبو بكر بن مزدلي، والأمير آسنجور، وطلحة بن العنبر، والمنصور بن الحاج^(٥)، وولي سرقسطة أبو عبدالله محمد بن الحاج وأبو بكر بن إبراهيم، وابن تيفلويت^(٦)، وولي ألمرية عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجي، وتاشفين بن علي^(٧)، وولي بلنسية الأمير مزدلي بن سلكمان، وأبو عبدالله بن فاطمة^(٨) ثم الأمير علي ابن مجون، ثم القائد أبو عبدالله محمد بن الحاج، ثم الأمير أبو بكر بن إبراهيم ابن تيفلويت، ثم الأمير أبو الطاهر بن تميم بن يوسف، ثم الأمير إبراهيم بن تاعياشت، ثم القائد أبو زكريا يحيى بن تاسورة، ثم القائد بدر بن ورقاء، ثم القائد أبو يعقوب بن بيتان بن علي، ثم القائد أبو زكريا يحيى بن علي^(٩).

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص٣٩.

(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ص٥٩٤. ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج١ ص١٩٣، ١٩٤. ابن الخطيب الإحاطة ج١ ص٢٨١.

Dozy: Recherches sur L histoire et la litterature del. espagne pendant le Moyen- age. vol. I. ep . xxviii p. lxxiv.

(٣) ابن الأبار التكملة ج١ ص٥٥. ديوان ابن خفاجة ص٢٠. الضبي : بغية الملتبس ص١٧، الفتح : المطح ص٩٨.

(٤) مفاخر البربر ص٨٢.

(٥) ديوان ابن خفاجة ص٧٩ و٨١.

Levi-provençal: introduction p. 181.

(٦) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٣٠٢، المقرئ : أزهار الرياض ج٢ ص٢٠٩.

(٧) ابن الأبار : التكملة ج١ ص٢٦٩.

(٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ص٢٢٥.

(٩) مفاخر البربر ص٢.

من هذا يتبين كيف كانت الدولة أمينة على تراثها القبلي، حريصة عليه، عاملة بقدر الطاقة على أن تؤلف بين قلوب الأمراء والأشراف وشيوخ العشائر والقبائل، حتى يظل الحلف قويا متماسكا لاتذهب ريحه، ولايتفرق شمله، وليس عجيبا أن تثير هذه السياسة نائرة أهل الأندلس الذين كانوا يطمعون في أن يصيبوا من الدولة الجديدة نفعا وغنما.

ولما كانت الأحلاف القبلية المؤسسة للدول تتألف من قبائل عدة تربط بينها رابطة القرابة والمصلحة المشتركة، تتمتع كل قبيلة باستقلال ذاتي في نطاق هذه الوحدة العامة، لكل شيخها وأشرافها الذين يصرفون شئونها، ويتمتعون بنفوذ مطلق على أفرادها، كان طبيعيا أن تتسم هذه الحكومات القبلية بسمة اللامركزية، لايستبد ولي الأمر برأيه، بل يشاركه النبلاء والأمراء في كل ناحية من نواحي الإدارة.

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح القبلية تأثرا عظيما، حتى إنه ليبدو للمتأمل في نظام الحكم في عهد المرابطين، أنه نظام إقطاعي لامركزي،^(١) يتمتع حكام الأقاليم في ظلّه بسلطة محلية مطلقة لاتربطهم بولي الأمر، إلا رابطة الولاء من ناحية، ورابطة القرابة من ناحية أخرى.

وقد تجلّى هذا النظام اللامركزي بوضوح في الأندلس، وفي المغرب فكانت بلاد الأندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين، مطلق السلطة، ولا يولي في هذا المنصب الخطير، إلا أقرب المقربين من ولي الأمر من ذوى قرباه^(٢)، وكثيرا ما كان ولاية العهد يولون على الأندلس في حياة أبيهم، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولي أكبر إخوته في هذا المنصب الخطير، ومن حظى بالولاية على الأندلس القائد الشهير سير بن أبى بكر، الذى أخضع ملوك الطوائف، ووسط سلطان المرابطين في البلاد^(٣)، وقد خلفه أبو عبدالله محمد بن

Terrasse :Hist du Maroc p. 248. (١)

(٢) الحلل الموشية ص١٣.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص٤٩ و٥٤ الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٦٦ الحلل ص١٣.

عائشة^(١)، ثم على بن يوسف وقت أن كان وليا للعهد فلما أصبح أميراً للمسلمين
ولى أخاه أبا الطاهر تميم^(٢).

وكان نائب أمير المسلمين فى الغالب يتخذ غرناطة أو قرطبة أو أشبيلية مقرا
لحكمه^(٣). وكانت سلطة هؤلاء النواب فى الواقع تكاد أن تكون مطلقة، فكانوا
يولون الولاية ويعزلونهم ويراقبونهم مراقبة دقيقة، يتبين ذلك من كتاب ليوسف بن
تاشفين بعث به إلى أحد هؤلاء النواب، جاء فيه «واستعمل عليها من يرفق بها،
ويعدل فيها، وأخرج كل من يحيف عليها، ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك
زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما
ظلما، فاعزله عن عمله وعاقبه فى بدنه^(٤)»، بل كانوا يولون القضاة وينقلونهم
ويعزلونهم، فقد روى أن الأمير سير نقل القاضى ابن شبرين إلى قضاء أشبيلية^(٥).
وكان القضاة خاضعين لنائب أمير المسلمين^(٦).

وكانت تعقد للوالى القيادة العليا على جيوش المرابطين بالأندلس، حتى تظل
معركة الجهاد مستمرة لا تتوقف، لذلك كان أغلب أعوانه من رجال الحرب
والقواد، قال يوسف لثائبه سير بن أبى بكر: «كل بلد أخذته فول عليه أميرا من
عساكرها»^(٧)، فكانت الحكومة ذات صبغة عسكرية بحتة، وكان الأمير يحرص أشد
الحرص على تزويد الحرب بما تحتاج إليه من عدة وسلاح: «قوى الحصون وسد
الثغور وأذكى العيون واتخذ مخازن السلاح وعمل التراس ونسج الأدرع وفصل
البيضات والسيوف وربط الخيل»^(٨).

ويبدو أن الأمير كان يتخذ دور ضرب فى عواصم الأقاليم لسك النقود باسم
أمير المسلمين، يدل على ذلك ما ذكرته كتب السكة من تعدد دور الضرب فى

(١) المراجع السابقة.

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤.

(٣) مفاخر البربر ص ٨٢.

(٤) الفتح : قلانة العقيان ص ١١٣.

(٥) المقرئ : أزهار الرياض ص ١٥٦.

(٦) Dozy: Historia Abbadidsrum, voll p.242.

(٧) ابن عبدون : رسالة فى الحبة ص ١٩٧.

(٨) ابن الخطيب الإحطة ج ١ ص ٢٨١.

لأندلس، فقد اتخذ الأمراء دور ضرب في أشبيلية، وبلنسية، والجزيرة، ودانية وقرطبة، ومالقة، ومرسية والمرية، وسرقسطة، وسنلوكة، وقونكة^(١).

كما اتخذوا دورا للضرب في أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا^(٢). وكان الأمير فوق ذلك كله يجلس للنظر في المظالم، ويقرأ الرقاع، ويجب عنها، ويكتب التوقيعات. ويتفرغ للمناظرة في يوم الجمعة^(٣)، فكان قصره في الواقع عصب الحكومة في بلاد الأندلس.

ويبدو أن ماكان يتمتع به نائب أمير المسلمين في هذه الحدود العامة قد تمتع به الأمراء المحليون في حدود ضيقة، فقد كان نائب أمير المسلمين يولى على مقاطعات الأندلس رجلا من أمراء البيت اللمتوني^(٤)، وكان هؤلاء بدورهم يولون في حدود اختصاصاتهم ولاية من أهل اللشام، وكان العامل الصغير يدين بالولاء لقائد المنطقة، وقائد المنطقة يدين بالولاء لنائب أمير المسلمين الذى يدين بالولاء لأمير المسلمين صاحب السلطة العليا في الإمبراطورية كلها.

وكان نائب أمير المسلمين ومعاونوه من أمراء الأقاليم يتخذون كتابا يخلع عليهم بعض المؤرخين لقب وزراء^(٥)، يتولون الأعمال الإدارية، فيحررون الرسائل، ويعرضون على الأمير مايعن لهم من أمور لأخذ رأيه فيها، فقد اتخذ سير بن أبى بكر أبا محمد عبدالمجيد بن عبدون^(٦)، واتخذ أبو عبدالله محمد بن الحاج محمد بن عبدالمملك بن عبدالعزيز، وأبا عبدالله بن أبى الخصال^(٧)، واتخذ

(١) Lavoix: Catague des Monnaies Musulman de Bibl nat. (١)

Monedas de las Dinastias. Arabigo- Espanolas.

Catalogo de monedas araabigo sespanlas.

Lavolxx: Catalogue des Monnaies Musulmanes de Bib. nat. (٢)

Monedas de las Dinastias. Arabigo- Espanolas.

Catalogo de Monedas . Arabigo- Espanolas.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص ٢٨٤.

(٤) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٤.

(٥) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج١ ص ٢٤٣.

(٦) المراكشى: المعجب ص ١٠٤.

(٧) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ١٣٢.

أبو بكر بن إبراهيم أبا بكر بن الصائغ^(١)، وأبا جعفر بن البني^(٢)، واتخذ تميم بن يوسف عليا بن عبدالعزيز بن الإمام الأنصاري^(٣)، وعبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم^(٤)، واتخذ تاشفين بن علي الزبير بن عمر اللمتوني، وأغلب هؤلاء من فحول البلاغة وأعلام الأدب في الأندلس، وكان كل أمير من هؤلاء كأنه ملك مستقل له قصره وله حاشيته وله بطانته. وصف ابن الأبار مجلس الأمير تميم بن يوسف حين أناخ بظاهر مرسية، فقال: «كان معه فقهاء قرطبة وعميدهم أبو الوليد ابن رشيد فيهم، وهم حوله وقد استداروا به حلقة مع من حضرهم من الرؤساء^(٥)».

ويبدو أن المغربين الأوسط والأقصى قد نظما على هذا النمط، مصداق ذلك هذه السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين، وهو لم يزل أمير المغرب، نائبا عن أبي بكر بن عمر، حتى خيل إلى المؤرخين أنه صاحب الكلمة الأولى في البلاد، فكان يولى العمال ويعزلهم ويؤسس المدن ويجند الجند، ويتصرف كأنه حاكم مطلق السلطة لاتربطه بالأمير الشرعى إلا رابطة الولاء.

وكان لأمير المسلمين نائب في الأندلس وأكثر من نائب في المغرب، كان نائبه في إقليم مراكش الساحلية يتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته^(٦)، ويذكر بروفنسال في مقدمته لكتاب البيدق أنه كان يسمى سلطان المغرب^(٧)، وقد لعبت إمارة فاس دورها في تاريخ المرابطين، حتى لقد حاول بعض أمراء آل تاشفين أن يستقلوا بها استقلالا تاما^(٨) فلم يفلحوا. وكان أمير المسلمين لا يولى على إمارة فاس إلا أقرب الناس إليه وأدناهم منه^(٩).

ويخيل إلينا أن إقليم المغرب الأوسط كان يتمتع باستقلال لا يقل عن

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص ١٣٢.

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٣٠١.

(٣) ابن الزبير : كتاب صلة الصلة ص ٨٢.

(٤) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٢٤١.

(٥) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٥٧.

(٦) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢.

(٧) أبو بكر الصنهاجى البيدق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت : مقدمة بروفنسال.

(٨) يوسف أشباح : بلاد الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص ٢٢٤.

(٩) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢.

استقلال الولايات الأخرى، بل كانت أهمية المغرب الأوسط تفوق أهمية غيره من أقاليم المغرب، فقد كان يحرس المغرب الأقصى، ويوقف بنى حماد وحلفاءهم عند حدهم، ويرد كيدهم عن المغرب الأقصى، ومن تولوا إمارة تلمسان تاشفين بن تينامر ومزدلى فاتح بلنسية^(١). ومن الولايات الهامة أيضا ولاية سجلماسة، فقد كانت تحرس حدود الدولة من الجنوب لأنها تحف بإقليم الصحراء، وقد وليها أول الأمر يوسف بن تاشفين، واتخذها حاضرة للدولة، ثم وليها إبراهيم بن أبى بكر^(٢)، وكانت هذه الإمارات الكبرى تتألف من وحدات صغرى يتولاها رجال من قبل النواب والأمراء، ولا يبعد أن تمثل دور ضرب النقود في المغرب قواعد هذه الإمارات الصغرى، مثل أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا^(٣).

وكان الأمراء سواء في المغرب أو في الأندلس يعيشون في مقاطعاتهم شبه مستقلين كأنهم الملوك، ويمنحون سلطانا واسعا، ولكنهم يدينون بالولاء لأمير المسلمين، ويخيل إلينا أن أمير المسلمين لم يكن يتيح لهؤلاء النواب فرصة البقاء في إماراتهم مدة طويلة مخافة أن يستقلوا بالأمر، كما حدث في قرطبة حينما أراد صاحبها أبو عبدالله محمد بن الحاج أن يستقل بها عن أمير المسلمين على بن يوسف^(٤)، فنقل أبو بكر بن إبراهيم من سجلماسة^(٥) إلى سبتة ثم الأندلس^(٦)، ونقل مزدلى من بلنسية إلى تلمسان، ولا بد أن تكون ثمة تنقلات كثيرة من هذا القبيل قد حدثت، ولكن لانعرف عنها الشيء الكثير.

وكان أمير المسلمين يقظا عينه ساهرة لاتغفل، يراقب هؤلاء الولاة مراقبة دقيقة، ويرقب سير الأمور عن كثب مخافة أن يستبد أمير بالأمر أو يسئ السيرة، فإذا ولى أمير وانصرف إلى مقر إمارته أرسل إليه أمير المسلمين يرسم له السياسة

(١) التادلى: التشوف ص ١٠٩.

(٢) Lavoix: (op. cit.) P.xLii.

Ann-les L'institut des etudes orietales (faculte des letters de L'universite d'alger) T. I, (٣) P. 187.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ١٩٣.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣.

(٦) الفتح بن خاقان: القلائد ص ١١٢.

التي يسير عليها في حكم الرعية، ويضع له قواعد لا يتعدهاها، ويبين له أموراً لا يغفل عنها.

ومن حسن الحظ أن صاحب قلائد العقيان^(١) جاء بنص في غاية الأهمية، وهو كتاب وجهه يوسف بن تاشفين إلى أحد هؤلاء الأمراء يعتبر في الواقع دستوراً في الحكم يطبق في عصره، يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويضع مصلحة الرعية في المقام الأول، وقد جاء فيه: «وكتب عنه أبو القاسم بن الجد أيداه الله ونصره إلى أبي محمد عبدالله بن فاطمة رحمه الله: كتابنا أطال الله في طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد فيما تتولاه أزرِك وعُضد بالتسديد أَمرك من حضرة مراكش حرسها الله وقد رأينا والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق أن نجد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرفق لما نرجو من ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه في قول وعمل وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بلمحة التبصرة لما تأوى إليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك وملك يده زمامك وأصر عليه في القوى والضعيف أحكامك وارفَع لدعوة المظلوم حجابك ولا تسد في وجه المضطهد بابك ووطن للرعية أحاطها الله أكتافك وابذل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها وأطح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سدّد عليها من عمالك زيادة أو خرق في أمرها عادة أو غير رسماً أو بدل حكماً أو أخذ لنفسه منها درهما ظلماً فأعزله من عمله وعاقبه في بدنه وألزمه ما أخذ متعدياً إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولي تسديدك والملقى بعضدك وتأيدك لا إله غيره ولا خير إلا خيره^(٢)».

هذا الكتاب يشف في الواقع عن هذه المؤثرات الجديدة التي أحيتها دعوة عبدالله بن ياسين إمام المرابطين، بل هي أبلغ دليل على ما يستطيع الإسلام أن يفعله حين يهدى أمثال هؤلاء البدو إلى صراط الحق وطريق العدل.

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص ١١٣.

(٢) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص ١١٢.

وكان أمير المسلمين يعين هؤلاء الأمراء لفترات محدودة، ويضعهم تحت الاختبار حتى إذا ثبتت صلاحيتهم، ورضى عنهم الكافة ثبتهم في مراكزهم ومنحهم سلطة الأمير كاملة غير منقوصة،^(١) وكان أمير المسلمين يخطر أهل الولاية ويبلغهم نبأ تعيين الأمير، ويبين لهم محاسنه، ويرغبهم في طاعته، ويؤلف قلوبهم على محبته^(٢) فقد كتب إلى أهل سبته بولاية الأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر يقول: «كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وأسبغ عليكم نعماء وقد رأيت والله فضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولا يخلينا في كافة أعمالنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبى بكر محل ابننا الناشئ في حجرنا أعانه الله وسدده فيما قلده إياه من مدينتي فاس وسبته وجميع أعمالهما حرسهما الله على الرسم الذى تولاه غيره قبله فأنفلنا ذلك له لما توسمناه من مخايل النجاة قبله ورضيناه بما نرجو أن يحتديه ويمثله ويجرى عليه قوله وعمله ونحن من وراء اختباره والفحص عن أخباره لأننى بحول الله فى امتحانه وتجريبه والعناية بتخريجه وتدريبه والله عز وجل يحق مخيلتنا فيه ويوفقه من سداد القول والعمل إلى ما يرضيه، فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعه جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره وامثلوا فى كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره^(٣)».

وكان الأمير أو النائب برغم هذا السلطان الواسع الذى يتمتع به يشاور أمير المسلمين فى كل أموره، ويكتب إليه بكل ما يجد فى ولايته، لا يقطع بأمر جليل إلا بموافقته، كما كان يكتب إليه بالفتح ويواليه أولا بأول بأخبار الجهاد فى الأندلس^(٤).

كما تقدم يتبين لنا فى وضوح وجلاء أن الأمور العسكرية كانت وقفا على أشراف لمثون على وجه الخصوص، وأشراف صنهاجة على العموم، أو بمعنى أوضح كانت السلطات العليا وقفا على رجال القبيلة الذين أقاموا الدولة بجهادهم

(١) المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) Marinus Hoogliet: Specimen elitteris orientalibus (exhibens) diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia ibn abduno poeta (ex. mss. codicibus biliothecae leidensis editos latine redditos et annotatione illustratos. P.134.

وكفاحهم، لكن يبدو أن الوظائف المدنية الأخرى من الكتابة والحسبة وجباية الأموال والبريد^(١) والقضاء لم تكن وقفا على رجال القبيلة مؤسسة الدولة، فقد روى المؤرخون أن المرابطين استخدموا في هذه الوظائف رجالا من غير قبيلة صنهاجة، استعانوا في المغرب بأهل القبائل الأخرى التي دانت لهم بالطاعة، كما استعانوا بالأندلسيين الوافدين على المغرب والمقيمين فيه وخصوصا بعد أن وحدت الدولة بين العدوتين.

نعم، بدأ المؤرخون يتحدثون عن طائفة من الكتاب والوزراء دخلت في خدمة الدولة الجديدة، وبدأوا يتحدثون عن الكتابة والوزارة كنظام قائم وطيد الأركان له تقاليده، وهنا يطيب لنا أن نسأل متى استخدم المرابطون الكتاب والوزراء، ومتى جعلوا من الكتابة والوزارة نظاما ثابتا، وإلى أي حد تأثرت طبيعة هذا النظام بالظروف التي لا بدت قيام هذه الدولة؟.

يتحدث بعض المؤرخين^(٢) عن الكتابة في عهد المرابطين كأنها نظام لم تعرفه الدولة قبل يوسف بن تاشفين، فيذكرون أنه ماكاد يعبر بقواته إلى الأندلس للمشاركة في معركة الجهاد حتى اتخذ دواوين ولى عليها كاتباً من رجال الأدب في الأندلس يدعى أبا بكر بن القصيرة^(٣)، فهل معنى ذلك أن الدولة لم تعرف هذا النظام قبل فتح الأندلس؟.

لقد قضى يوسف في المغرب عشرين عاما قبل أن يفتح الأندلس يجاهد ويتوسع، ويرسى الدولة على قواعد ثابتة، ينظم الجيش، ويضع للبلاد نظاما إداريا دقيقا، فليس بعيدا أن يكون قد اتخذ دواوين للكتابة والإنشاء يتولاها رجال من أهل المغرب باسم الأمير أبي بكر بن عمر.

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه في الأندلس معينا لا ينضب من هؤلاء الكتاب، الذين تألق نجمهم في سماء الأدب، وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة، فقد بلغت الحياة الأدبية الأوج في عهد ملوك الطوائف، وعملت

(١) ابن عبدون التجيبى : رسالة في الحسبة ص ١٢٢ و ٢٠١ و ٢٠٦.

ابن عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار من ١٩٧. الفتح ابن خاقان القلائد ص ١٨٠. التادلى : النشوف ص ١١٧. المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) يذكر دورى في مجموعته (Abbadidarum. vol.II) نقلا عن الحلل المشوية أن يوسف اتخذ كتابا من أهل الأندلس يدعى عبد الرحمن بن أسباط.

(٣) الذخيرة : (م. بغدا) قسم ٢ ص ٩٨. الفتح بن خاقان : قائد العقيان ص ١٠٤ و ١٠٥.

الإمارات التي تنافست في التقرب من الأدباء وتشجيعهم على إذكاء شعلة الأدب، حتى بلغت الذروة في ذلك العصر، وكان كل ملك من ملوك الطوائف يتخذ له بطانة من الكتاب والشعراء والفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر يسامرونه وينادونه ويتبارون في فنون القول، فلما قضى المرابطون على ملك الرؤساء تفرق هؤلاء السمار، واضطر كثيرون منهم إلى الدخول في خدمة المرابطين.

وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدو ويصحبهم الأمراء عندما ينقلون إلى المغرب، فعلت كلمتهم على كلمة أدباء العدو، وكادوا يحتكرون صنعة الكتابة والإنشاء، وخصوصاً لأن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعاً من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب، ومع الخلفاء وأمراء المشرق، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيّد فن القول، وكان كتاب الأندلس يعرفون لغات النصراني، ويستطيعون أن يتفاهموا معهم، وأن يقوموا بالترجمة عنهم^(١).

(١) ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم المرابطون يحيى بن همام السرقسطي وعبد الملك ابن أبي مسعود بن فرج بن خبطة الغافقي وطلحة بن عبدالعزيز بن سعيد البليوسي وأحمد بن أبي جعفر بن محمد القضاعي، وأبو القاسم بن الجند المعروف بالأحذب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وعبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري، وأبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وعبد الرحمن بن جعفر بن أحمد المعافري أبو محمد بن الحاج وأبو جعفر بن إبراهيم، وعلى بن عبدالعزيز بن الإمام بن يوسف الأنصاري، ومحمد بن سليمان الكلاعي المعروف بأبي بكر بن القصيرة، ويحيى بن يوسف الأنصاري ويكنى أبو بكر بن الصيرفي وأبو الحسن غدام السكري، وابن الصائغ ومحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن السقاط وأبو جعفر بن عطية القضاعي.

اشتغل أغلب هؤلاء بالأدب، وبرعوا فيه، وتفوقوا وغدوا من فرسان الكلام وحملات السيوف، والأقلام على طريقة القدماء، من إثارة جزل الألفاظ وصحيح المعاني، واشتغل بعضهم بالتأليف مثل ابن أبي الخصال الغافقي. فقد روى أنه ألف كتاب المنهج في معارضة المبهج وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة في مناقب من خصه رسول الله ﷺ بالكرامة كما اشتهر بالسمع والرواية فروى الناس عنه سيرة رسول الله للمحمد بن إسحق والمستصفي لابن الجارود والشماليل للترمذي وعرف برواية الحديث. حتى لقد حدث عنه خمسون شيخاً منهم قاضي القضاة. كان آدب أهل الأندلس بالإجماع والإحفاق مع التقيّد للحديث والاشتغال بعلمه في القديم والحديث. ومنهم من كتب في التاريخ وبرع فيه مثل أبي بكر بن الصيرفي، ومنهم من اشتغل بالفلسفة والتأليف في الموسيقى. مثل ابن باجة الذي ظلّ عشرين سنة يكتب لأحد أمراء غرناطة وسرقسطة، ومنهم من اشتغل بالتاريخ والأدب ورواية الشعر وغريب المنثور والمنظوم مثل الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون وكان المرابطون يفخرون ويدلون على سائر الأمراء بأبوانهم هؤلاء الأعلام ييرون بهم ويسيطون عليهم ظلّ حياتهم.

انظر: ابن الأبار ج ٢ ص ٧٢١ و ٦١١ وج ١ ص ٢٣٣. ابن الخطيب الإحاطة ج ١ ص ٣٣٩ و ص ١٣٢ : المراكشي، المعجب ص ١١-١٢ مشيخة عياض ورقة ٥٧ (١)، ابن خير الفهرسة ص ٤٥٠. صلة الصلة لابن الزبير ص ٨٢. ابن بشكوال ص ٥١٢. قلانة العقيان ص ٢٩٠، الأنيس المطرب ص ٣٤٩، الجذوة ص ١٥٩.

وهذا يكشف لنا عن النتائج البعيدة المدى التى تمخض عنها قيام دولة المرابطين وجمعها بين المغرب والأندلس، فتدفقت ينابيع الثقافة الأندلسية حتى عمت المغرب، وعملت عملها فى سبيل خلق تراث فكرى جديد، كما يبين فى وضوح وجلاء كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تصقل عقول هؤلاء الصحراويين، وأن تجعلهم يشاركون فيما شارك فيه العالم الإسلامى، من نعمة هذه الحضارة الإسلامية الوارفة الظل.

وإذا كنا قد فرغنا من الحديث عن الكتابة، فيجب أن نسأل هل عرف المرابطون نظام الوزارة كما عرفوا نظام الكتابة وديوان الإنشاء، وإذا كانوا قد عرفوا نظام الوزارة فماهى اختصاصات الوزير، وما مقدار مطابقتها للاختصاصات التى رسمتها النظم الإسلامية؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين اكتفى بطائفة من الكتاب أول الأمر يصرفون شئون الأندلس بإشرافه، حتى قدر له أن يضم بلاد الأندلس للملك المرابطين، فتأثر بالنظم السائدة فى هذه البلاد، وقبس منها ماوافق أحوال الدولة، ومادام ملوك الطوائف قد اتخذوا الكتاب فلا بد أن يوسف قد حذا حذوهم، واتخذ لنفسه كتابا ووزراء، كتاب يشرفون على ديوان الإنشاء يذيعون المراسيم والبراءات، ويحررون الرسائل، ويختتمونها بخاتم الأمير بعد اعتمادها منه، ويراجعون الرسائل الرسمية ويضعونها فى الصيغة النهائية، ويختتمونها بخاتم الدولة^(١)، ووزراء أرفع من هؤلاء رتبة وأدنى منزلة من أمير المسلمين يجالسونه ويشاورونه فيما يعن من مختلف الشئون.

وقد تطور هذا النظام وأصبحت له معالمه واختصاصاته محددة فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين، وفى عهد على بن يوسف على وجه التحديد^(٢). وقد صور ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة الوزير فى صورة واضحة جلية. فهو الشخص المقرب من السلطان الذى يحضر مجلسه، ويطلع على كل كبيرة وصغيرة فى شئون

(١) حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٠.

(٢) كتاب أعز ما يطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت ص ١٧، ابن خير : الفهرسة ص ٤٥٠. ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٣٣. ابن الزبير : صلة الصلة ص ٨٢. ابن خاقان : المطمع ص ١٠٦ العلمى : الأنيس المطرب ص ٢٤٩. أبو بكر الصنهاجى : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ٦٧. ابن دحية المطرب ورقة (ب)، الذخيرة (م). بغداد قسم ٢ ص ١١٨.

الدولة، ويشرف على تصريف الشئون الإدارية والمالية، وهو الواسطة بين السلطان والقاضى، أو بين السلطتين التنفيذية والتشريعية «إذا اتفق الوزير والقاضى صلحت الدولة وصلاح العالم»^(١).

ويصور ابن عبدون هذا روح العصر تصويراً واضحاً، ويكشف النقاب عن هذا المركز الممتاز الذى كان الوزير يحتله فى نظم المرابطين، وفى المجتمع الإسلامى فى أواخر القرن الخامس، وأوائل القرن السادس، ويؤيده فى ذلك الطرطوشى الذى يرى أن الوزير يأتى فى المرتبة التالية بعد الخليفة، إذ يقول: «أشرف منازل الأدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، والوزير عون على الأمور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة، الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه وفى الأمثال نعم الظهير الوزير»^(٢). نعم احتل الوزير فى النظم المرابطية مكاناً ممتازاً ومجلاً رفيعاً «كان من سمو الهمة بحيث يجلو الظلام العاكر ويخجل الموسم الباكر»^(٣).

كان المرابطون يثقون بوزرائهم ثقة كبيرة، ويطلقون أيديهم فى الشئون المالية والإدارية، فقد أطلق على بن يوسف مثلاً يدى الوزير أبى محمد بن مالك «فأقطع ماله فى الأندلس من خطة وأقعده على تلك المنصة وجد فى صرف الشوائب عن حماه ووجه أموالاً لرم خلله وحسم عله وإقامة ميله وانتعاش رجله وخيله ثم خاف أن ينهبها العمال وتتعدر تلك الآمال فقلده فوقها وحمله أوقها ووجهه لبناء الأقطار ونهبه لقضاء تلك الأوطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم معالمها نظم اللآل»^(٤).

وقد تركت الظروف التى نتجت عن قيام الدولة أثراً عظيماً فى ناحية أخرى من نظم الحكم فى العهد المرابطى، ونعنى بها نظم القضاء، يرجع الفضل الأول فى التمهيد لقيام الدولة لعبد الله بن ياسين فقيه المرابطين، وقاضيه، وإمامهم،

(١) ابن عبدون التجيبى: رسالة فى الحسبة ص ٣٠٤.

(٢) الطرطوشى: سراج الملوك ص ٧٠.

(٣) الفتح بن خاقان: قلاند العقيان ص ٢٩٧.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠.

وزعيمهم، فكان طبيعيا أن يحتل الفقهاء والقضاة في الدولة الجديدة محلا رفيعا ومكانا مرموقا، فقد كان فقهاء المغرب الأقصى هم الذين مهدوا الطريق لفتح المرابطين لبلاد المغرب، فقد حببوا الشعب فيهم ومدوا لهم يد العون، وساروا في ركابهم. كما ظهر تأييد الفقهاء والقضاة للدولة الجديدة واضحا في معركة الجهاد في الأندلس، فقد كانوا في الواقع زعماء الشعب الحقيقيين المعبرين عن آماله وآلامه، في الوقت الذي انصرف فيه ملوك الطوائف إلى حياة اللهو والترف، فما كادت أقدام المرابطين تطأ أرض الأندلس حتى هب الناس يلوذون بهم، منفسين عن كربهم، متذمرين من ملوك الطوائف، وكان الفقهاء هم المدافعين عن حقوق الناس العاملين على رد الظلم عنهم، ولما وضحت خيانة ملوك الطوائف، وتنكرهم لمعركة الجهاد كانوا أول من أفتى بخلعهم وظاهرهم يوسف ووقفوا بجانبه^(١)، يشدون أزره، ويؤيدونه، ويباركون أعماله، وقد لعب القاضي^(٢) ابن القليعي دورا كبيرا في القضاء على ملك بنى زيرى أصحاب غرناطة، كما ألّب فقهاء أشيلية المرابطين على بنى عباد، لهذا اعتقد المرابطون عن يقين أنهم مدينون بنجاحهم في المغرب والأندلس لجهود الفقهاء.

هذا إلى أن الدعوة التي بثها عبدالله بن ياسين في نفوس القوم، وتشبث الملتزمين بأهداب الدين جعلهم ينظرون إلى القضاة والفقهاء نظرة تجلة وتقدير واحترام^(٣)، فلا نكون مغالين إذا قلنا إن الدولة كانت في الحقيقة دولة الفقهاء^(٤). فقد كان ما اتصف به ملوك الدولة من تقوى وورع وخشوع وإقبال على التفقه في الدين والإلمام بدقائقه سببا في تقريب الفقهاء والعلماء وإدناء مجالسهم والوثوق بهم.

وضح ذلك منذ عهد أبى بكر بن عمر، فقد ذكر المؤرخون^(٥) أنه كان يقرب الفقهاء ويصنئ إليهم ويدنى مجالسهم، ولكن يوسف بن تاشفين ذهب في تقربه

(١) النباهي: المرقبة العليا ص ٩٧. الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص ٣٩.

(٢) عبدالله بن بلكين: التيان عن الحادثة الكاتبة بدولة بنى زيرى في غرناطة ص ٣٤١.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥.

(٤) Dozy: His oire des Musulmanes d' espagne. vol Iv, P. 248.

(٥) المقرئ: أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦١.

من الفقهاء والقضاء والقضاة إلى أبعد من هذا، فكان لايسير إلا وهم فى ركابه، ولايجلس إلا وقد حفوا به، ولايكاد يقطع برأى إلا بعد استشارتهم، فروى المؤرخون: «أنه رد أحكام البلاد إلى القضاء وأسقط مادون ذلك من الأحكام الشرعية^(١)».

وهذا القول فى الواقع يصور لنا ذلك الإصلاح الخطير الذى لجأ إليه يوسف حين جعل القضاء أصحاب الأمر فى البلاد، وقادة الشعب، وحكامه القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية التى أصبحت دستورهم الأول، يطبقون أحكامها، ويهتدون بهديها، إذ يبدو أن القضاء والفقهاء لم يكن لهم على المجتمع مثل ذلك السلطان الواسع الذى آل إليهم فى عهد المرابطين، كما أن أحكام الشريعة لم تكن - على ما أعتقد - الدستور الأول الذى يعتمد عليه الولاة فيها يصدر عنهم من أحكام، ومادام الفقهاء هم حفظة الشريعة والملمون بخفاياها كان طبيعيا أن يصبحوا أصحاب الكلمة الأولى فى المجتمع^(٢)، لأنه لن يصدر حكم إلا إذا أقروه وأفتوا بأنه لا يخالف الشريعة ولا يناقض أحكامها.

وبلغ من بر يوسف بالفقهاء والعلماء أنه أجرى عليهم الأرزاق، ورتب لهم الأعطيات من بيت المال^(٣). وكان على بن يوسف أكثر من أييه انصرافا إلى مخالطة الفقهاء ومجالستهم، فقد كان أميرا ورعا متزهذا متبحرا فى الدين^(٤)، حتى لقد اتخذ لنفسه لقب (ولى الله)، ونقشه على السكة، وأصبح الفقهاء فى عهده سواء فى المغرب أم فى الأندلس أصحاب الكلمة الأولى فى البلاد، يفزع إليهم الناس كلما تعرضوا لخطر أو أصابهم مكروه.

وهناك ناحية أخرى جعلت المرابطين يعتمدون على الفقهاء والقضاة اعتمادا عظيما وهى توسعهم فى تطبيق مبدأ الشورى، هذا المبدأ الذى يحتل من النظم الإسلامية مكانا مرموقا ومحلا رفيعا، جعله الطرطوشى أساسا من أهم أسس

(١) النويرى: نهاية الأرب ج٢٢ ص ١٨٥. السعادة الأبدية ج٢ ص ٨٩.

يوسف أشباح: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج١ ص ١٢١.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج٢٢ ص ١٨٥. السعادة الأبدية ص ٨٩.

(٣) مشيخة عياض ورقة ٦٧ ().

(٤) الحلال الموشية ص ٦٩.

الحكم حين قال «سياسة الملك ثلاثة : اللين وترك الفظاظة والمشاورة وأن لا يستعمل على الأعمال والولايات راغبا فيها ولا طالبا لها، ولما علم الله تعالى مافيهما من انتظام أمر الملة واستقامة الأمر نص عليها سبحانه ورسوله أعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قال بها رسول الله ﷺ . والإشارة الثانية قال وشاورهم فى الأمر، فإذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم وواجب عليهم مشاورته وألا يفعلوا أمراً دونه قلنا هذا أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مادبة لسائر الملوك والأمراء والسلطين لما علم الله تعالى مافى المشاورة من حسن الأدب مع المجلس ومساهمته فى الأمور، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتحيل إليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة نبيه عليه السلام ومن أقبح مايوصف به الرجال ملوكا كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة^(١) .

نعم حقق المرابطون آمال الطرطوشى كاملة وتوسعوا فى المشاورة توسعا عظيما^(٢)، فكان يوسف وخلفاؤه لا يقطعون فى أمر إلا إذا استفتوا الفقهاء، واستشاروا القضاة، وقد وضع ذلك من سياسة يوسف فى الأندلس^(٣)، بل بلغ من تزمته وتشبثه بالشورى فى أوسع نطاق أن أرسل يستفتى فقهاء مصر والعراق والشام^(٤) خوفا من أن يتورط فى خطأ لا يرضى عنه الله، ويبدو أن قاضى الجماعة بمراكش كان أكثر هؤلاء القضاة اتصالا بولى الأمر^(٥)، بل كان يشترك فى مجلس الأمير ويؤخذ رأيه فى كثير من الأمور، وكان أمراء الأندلس أيضا يستفتون قاضى الجماعة بقرطبة فى كل مايترتب بهذه البلاد من شئون^(٦)، هذه إذن هى الظروف التى مهدت لسيطرة الفقهاء والقضاة على الحياة العامة، سواء فى المغرب أم فى الأندلس، ويسرت لهم أن يستمتعوا بسلطان واسع، وكلمة مسموعة فى

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٥٠ و ٥٣ .

(٢) ابن الأبار التكملة ج ١ ص ٥٦ .

(٣) عبدالله بن بلكين ص ٢٧٤ و ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٤) Dozy : (op. cit.) vol. iv, p. 235 .

(٥) مشيخة عياض ورقة ٩ (ب) و ١٠ (ل)

(٦) مفاخر البربر ص ٥٣ . معجم ابن الأبار ص ٥٦ . الإحاطة ج ١ ص ٣٠ . Dozy, iv, p. 219 .

شئون البلاد، فما هي ألوان ذلك السلطان الذي تمتع به القضاة في كنف الدولة المرابطية وما هي نتائجه في الحياة العامة؟.

وقبل أن نعرض لهذا السلطان الواسع الذي تمتع به القاضى في الحياة العامة في المغرب والأندلس، يجدر بنا أن نشير إلى ذلك النظام الدقيق الذى وضعه المرابطون للقضاء فى العدوتين، والمتأمل فى كتب الطبقات التى أرخت للقضاة فى عهد المرابطين يستطيع أن يتبين أنه كانت هنالك مراتب للقضاة أو درجات فهنالك قاض يتمتع بسلطان القضاء فى مدينة صغيرة أو فى قرية، وهنالك قاضى الجماعة بمدينة كبيرة مثل قرطبة أو أشبيلية أو غرناطة ^(١)، وهو بالطبع أرفع درجة وأعلى رتبة لأنه كان ييسر سلطانه على المدينة وأحوالها. ثم هنالك قاضى الإقليم كله، ذلك أن بلاد الأندلس كما نعلم كانت مقسمة إلى أقاليم جغرافية ثلاثة: إقليم الشرق والموسطة، وبلاد الغرب. ويبدو أنه كان لكل إقليم من هذه الأقاليم الكبرى قاضى جماعة ييسر سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى إقليمه، فقد روى أن المرابطين قلدوا محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغسانى قضاء شرق الأندلس ^(٢)، كما روى أيضا أن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عصام بن أمية كان قاضى قضاء الشرق فى عهد المرابطين ^(٣). وهنالك قاض أسمى من هؤلاء قدرا وأرفع مكانة ييسر سلطانه على بلاد الأندلس كلها، ويخيل إلينا أن قاضى الجماعة بقرطبة ^(٤) هو الذى يشرف على القضاء فى بلاد الأندلس قاطبة.

أما بلاد المغرب فكانت منظمة على غرار بلاد الأندلس، وكانت زعامة القضاء بالمغرب كله معقودة لقاضى الجماعة بمراكش، الذى كان يسمى فى بعض الأحيان بقاضى الحضرة ^(٥)، وكان هذا القاضى أقرب الفقهاء إلى قلب أمير المسلمين، وأدناهم منه مجلسا ^(٦)، فقد كان عضوا بمجلس الشورى يستفتيه ولى الأمر فى كل ما يعرض له من شئون.

(١) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٦٢ و ٧٤ و ١١٤ و ٢٥٣ وج ٣ ص ٦٢ و ٧٤.

Provençal : Lcriptions Arabes d'epagne p. 124.

ابن الأبار : التكملة ج١ ص ١٢٦.

(٣) المرجع السابق ج١ ص ٥٦.

(٤) مثل أبو الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة. انظر مشيخة عياض ورقة ١٠ (٩١ و ١١٠ ب).

(٥) مشيخة عياض ورقة ١٠ أو ١١ ب. و ٥٦ أ ابن بشكوال : الصلاة ص ٢٨٤ و ٥٥٤.

(٦) مشيخة عياض ورقة ١٠ أو ١١ ب.

ويخيل إلينا أن المرابطين قطعوا في سبيل تنظيم القضاء شوطا أبعد من هذا، إذ اتخذوا فقيها له السلطة العليا على قضاة المغرب والأندلس على سواء، بمثابة وزير العدل في النظم الحديثة، وقد تولى هذا المنصب العظيم أبو عبد الله مروان ابن عبد الملك بن إبراهيم بن سحنون اللواتي قاضى طنجة، الذى انصرفت إليه جميع أمور الأندلس والمغرب، فوض إليه أمير المسلمين يوسف فى كبارها^(١).

ويبدو أن مشيخة القضاة بالعدوتين كانت تعطى تارة لقاضى الحضرة أو قاضى سبتة وطنجة، وتارة أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة، وكان أبو الوليد بن رشد أول من ولى هذا المنصب من الأندلسيين^(٢) ثم خلفه محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المعروف بابن الحاج^(٣).

وكانت سلطات القاضى متعددة ومهامه متنوعة، وكان عليه أن ييسط إشرافه على عدة خطط أو عدة وظائف. يشرف على خطة الشورى والفتيا، وخطة الأحكام والصلاة والخطبة، أما خطة الشورى فكان يتولاها فقهاء يختارهم القاضى من أهل المدينة المعروفين بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه يشاورهم فى الأحكام. وكان عدد هؤلاء الفقهاء المشاورين فى العادة أربعة: اثنان يشتركان فى مجلس القاضى، واثنان يعقدان فى المجلس الجامع، ليدليا بالشورة لطلابها^(٤)، وكان لهؤلاء الفقهاء المشاورين رئيس منهم يتزعمهم وينظم شئونهم^(٥).

أما الفتيا فكانت تضاف فى بعض الأحيان إلى الصلاة والخطبة، فكان القاضى فى بعض الأحيان يولى فى كل خطة من هذه الخطط فقيها، يستقل بشئونها ويختص بها كخطة الأحكام مثلا، فقد كان القاضى يولى عليها فقيها يجلس للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم بينهم ويفض المنازعات التى طالما كانت تنشب بين العوام والسوقة، والتى كان القاضى يستثقل أن يتولى أمرها بنفسه فكان ينيب عنه صاحب

(١) مشيخة عياض ورقة ٦٧ أ.

(٢) المرجع السابق ورقة ١٠ (١) و ١٠ (ب).

(٣) ابن الأبار : التكملة ص ١١٤.

(٤) ابن عيرون : رسالة فى الحسبة ص ١٩٧.

(٥) مشيخة عياض ورقة ٣٧ (١). ابن الأبار ج ١ ص ١١٣. المرقبة العليا من ٩٧. ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٧٥.

الأحكام على ألا ينظر في رقاب الأموال وأن لا حكم له على الأيتام ولا فيما فيه أمر من أمور السلطان والعمال^(١).

أما المهام الكبيرة التي يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لا يعرف في الله لومة لائم فكانت تترك للقاضي نفسه لينفذ حكمه على جميع الناس سواء كانوا حكاما أو عمالا أو قوادا أو أشرافا.

وتتضح هذه السلطة الواسعة التي كان القاضي يسطرها على جميع الأفراد دون تمييز مما ورد في عقد تولية قاضي الجماعة ابن حمدين، إذ جاء فيه على لسان أمير المسلمين: «ولا تبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم، فأس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى في حيفك، ولا ينأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولنا ولجماعة المسلمين، وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه...»^(٢).

وكثيرا ما كان القاضي يولى أحد معاونيه خطة الصلاة والخطبة مجتمعين^(٣)، وأحيانا أحكام السوق أو الجلسة^(٤)، وكان يستعين بطائفة من الشرطة يسميهم ابن عبدون (الأعوان)، وقد اشترط ابن عبدون أن يكونوا عشرة «أربعة سودان بربر لحقوق المرابطين وغيرهم من المثلثين والباقي أندلسية فهم أوثق وأخوف»^(٥) لأن المرابطين كانوا قد استقروا في مدن الأندلس وبدأوا يكونون جاليات مستقلة تستعلى على الناس، وتختص نفسها بمكانة فريدة في المجتمع، أما في المغرب فلم يكن القاضي بحاجة إلى هؤلاء الأعوان لأن سكان المدن كانوا جلهم من البربر وكان الشرطة جلهم من أهل البلاد.

(١) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ١٩٧، ابن الأبار ج ١ ص ٣٨٤. السيوطي بغية الوعاة ص ٣٩. السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣.

(٢) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦. السيوطي: بغية الوعاة ص ٣٩.

(٣) ابن الأبار: التكملة ج ٢ ص ٥٥٣.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٥) ابن عبدون رسالة في الحسبة ص ٢٠٠.

وكان القضاة يتخذون الكتاب، فقد استكتب ابن حمد بن أخيل بن إدريس الرندى ^(١)، كما استكتب القاضى أبو موسى بن الملقوم محمدا بن عيسى بن القاسم الصدقى ^(٢)، ومن كتب للقضاة أيضا عبدالله بن على بن محمد بن عبيد المعافى ^(٣)، وعيسى بن سهل بن عبدالله الأسدى ^(٤)، وأحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الأنصارى الخزرجى ^(٥)، ويبدو أن القضاة كانوا يبدؤون حياتهم العملية بالكتابة، ثم يتولون خطة الشورى وخطة الأحكام أو الصلاة أو الخطبة، ثم يرتقون إلى مصاف القضاة بعد أن يكونوا قد اكتسبوا خبرة ودربة تؤهلهم لتولى ذلك المنصب الممتاز.

وكان القضاة أيضا يتخذون الحجاب على أبوابهم ليحولوا بين الناس وبين أن ينالوا من هبة المجلس ووقاره ^(٦)، وكان القاضى إلى جانب هذا السلطان الواسع يشرف على بيت المال وموارده من أموال الأعباس أو الأوقاف، فكان يصلح المساجد ^(٧)، ويقيم الصوامع ^(٨)، ويصنع المنابر والمحاريب، وينفق على خدام المساجد. ويبدو مما ذكره ابن عبدون أن هذه الأموال كانت تستغل فى الجهاد، وسد الثغور ^(٩).

كما يبدو أن موارد بيت مال المدينة كانت تعبث بها أيدي العابثين لأن ابن عبدون شدد النكير على القاضى قائلا «يجب على القاضى أن لا يمكن من بيت مال المسلمين أحدا وأن يحافظ عليه جهده، وأن يخدمه ولا يتصرف فى أبوابه إلا

(١) ابن الأبار: الحلة السراء ص ٢٢٢.

(٢) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ١١٧.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ص ٢٩٤.

(٤) المرجع السابق ص ٤٣١.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٦٨.

(٦) ابن عبدون: رسالة فى الحبة ص ٢٢٣.

(٧) ابن الأبار: التكملة ج ٢ ص ٥٣٥.

(٨) Levi-Provenal: inscriptions Arabes d' E agne, P. 124. الجزائى: زهرة الآس ٤٢.

(٩) ابن عبدون: رسالة فى الحبة ص ٢٠٠.

رجل غنى عدل، حتى لا يترك أحدا يتصرف فى شىء منه إلا برأى من القاضى^(١).

وكان القضاة فوق ذلك كله يشتركون فى الغزو والجهاد، يخرجون مع الجند ويحضورونهم على التفانى فى القتال، ويحضرهم مجالس الأمير، يشاورونه فى كل ما يعرض له من شئون^(٢)، فلا نعجب إذا كان القضاة فى الأندلس أو المغرب قد عظم نفوذهم، وكثر مالهم وجاههم، وارتفعت مكانتهم، ويتبين ذلك مما كتبه ابن عبدون الذى كشف عن سلطة الفقهاء وصور سطوتهم ونفوذهم أصدق تصوير، وذكر أنهم كانوا يسيطرون على الحياة العامة، حتى أضحوا حكام البلاد الحقيقيين، وأضحت سلطة الأمراء المثلثين لا تتجاوز الشئون العسكرية^(٣).

وكان كاتب الأمير أو وزيره حلقة الاتصال بين القاضى وبين الأمير صاحب السلطة العليا، فقد كان القاضى يمثل السلطة الفعلية والأمير يمثل السلطة العليا التى تسيطر وتهيمن من بعيد، فإذا تعاونت السلطان صلحت الأحوال، وإذا تضاربنا وتعارضتنا فسد حال المدينة، ونشب الخلاف بين أهلها^(٤).

كان القاضى فى الواقع يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون المدينة، حتى فى شئون أرباب الحرف والصناعات، فكان يولى على كل حرفة رجلا من أهلها يفض ما ينشأ بينهم من خلاف^(٥)، ويحرص ابن عبدون - وهو من الفقهاء - على أن تظل أزمة الأمور بيد القاضى، فلا يتدخل الأمير فى شئونه، إذ يقول: «إذا وقع بينهم الخلاف فى شىء من أمورهم لا يبلغون الحاكم، بل يحدهم القاضى، ذلك أن يرجع إلى حكمه ورأيه فهو أرفق لهم وأستر لانكشافهم»^(٦).

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٧.

ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٥٩ وج ٢ ص ٢٦٠. أزهار الرياض ج ٣ ص ١٥٧.

levi- provençal : seville Musulmane au debut du xlle siecle ltaite d' ibn adbun sur laa vie urbain et les corps de metiers, P.XII.

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٠٤.

(٥) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣١٤.

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة

وكان من أثر هذه المكانة الرفيعة التي تمتع بها الفقهاء أن كثرت أموالهم، وارتفع قدرهم، وعظم سلطانهم، والتف الناس حولهم متزلفين متقربين، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة^(١)، وحسدهم كثيرون من أهل الأندلس بسبب هذا الجاه العريض، وهذه الأموال الجمة التي حازوها، يتبين ذلك من قول الشاعر أبي جعفر بن محمد المعروف بابن البني يهجو القاضي أبا عبدالله محمد بن محمد بن قاضي قرطبة ويعرض به:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك
وركبتمو شهب الدواب بأشهب
وبأصبغ صيغت لكم في العالم^(٢)
كالذئب أولج في الزمان العاتم
وقستمو الأموال بابن القاسم

فما بالك بقضاة الحاضرة المقربين من أمير المسلمين المتصلين به مباشرة .
يروى المؤرخون أن قضاء سلا كان في بنى عشرة ، وكان هؤلاء القوم مقربين من
السلطان ، كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع ، قصدهم الشعراء من الأندلس
يمدحونهم ويلوذون بحماهم (٣) .

ومع هذا السلطان الواسع الذى تمتع به القضاة كانوا يخضعون لأمير المسلمين خضوعا تاما، بل كان أمراء المقاطعات يعزلون القضاة أو ينقلونهم فى بعض الأحيان، ويخيل إلينا أن أمير المسلمين كان يعين كبير القضاة ببلاد الأندلس وكبيره ببلاد المغرب، ويترك للأمراء المحليين أمر تعيين القضاة فى المدن والقرى بعد مشاورة قاضى الجماعة فى قرطبة أو مراكش.^(٤)

كان أمير المسلمين إذا ولى أحد هؤلاء القضاة كتب له عقد توليته ويبعث به إليه ^(٥)، فيصبح بمثابة دستور على القاضي أن يحترم نصوصه، ويعمل بموجبه فإن جار أو يدل أو خالف ما أشار به ولى الأمر تعرض للعزل، كان ولى الأمر يوصى

(١) المراكشي: المعجب ص ١١٠.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص ١٩٧ .

(٤) أحمد بابا التميمي: نيل الانتهاج بتطريز الديباج ص ١٨٧. المرقبة العليا ص ٩٧

(٥) النباهي: المرقية العليا ص ٩٨.

القاضى بأن يكون حازما لا يشتد فيمقته الناس، ولا يلين فيستضعفونه، وأن يكون عادلا لا يميل به الهوى عن جادة الحق، وأن يسوى بين الناس بين أميرهم وحقيرهم، لا تأخذه في الله لومة لائم، يؤدب كبيرهم قبل صغيرهم، إذا أخطأ كبير ضربه وسجنه أو عزله.

يتضح ذلك كله من هذا الكتاب الذى بعث به يوسف بن تاشفين إلى الفقيه قاضى الجماعة بقرطبة أبى عبد الله بن حمدين، جاء فيه «فاستهدى الله يهدك واستعن بالله يعنك فى صدرك ووردك وتول القضاء الذى ولاكه الله بجدة وحزم وجلد وعزم وأمض القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنن نبيه ولا تبال برغم راغم ولا تشفق من ملامة لائم، فأس بين الناس فى عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى فى حيفك ولا يأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولنا ولجماعة المسلمين. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين، أن يسلموا لك فى كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه، ونحن أول وكلهم آخر، قد صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين فى حق عليك. والعمال كافة سواء فى الحق فإن شكت إليك بعامل من رعية خلافا فى الواجب فاشكه منها وقومها له ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه وإن استوجب العزل فاعزله واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه والأمر فى استكفاء من يكفيك^(١)».

(١) الذخيرة (م). بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦ وقد أورد النباهى فى كتابه المرقبة العليا عقد بيعة القاضى موسى بن حماد جاء فيه: وبعد فلما قد فرغناك برهة من الدهر لشأنك وأرسلنا على جهة الترضية زمانا وحينما علمنا أنك قد أخذت لحظك من الإجماع ودار بتودعك وراحتك دور الأيام خيرناك لحظة القضاء ثانية بزعمك وأعدناك إلى سيرتك الأولى من لزامك وقلدناك بعد استخارة القضاء بين أهل غرناطة وأعمالها - أمنهم الله وحرسها - للثقة المكيبة بإيمانك والمعرفة الشاقبة بمكانك فتقلد معلنا مسددا ماقلدناك، وانهض نهوض مستقبل بما حملناك، وتلق ذلك بانسراح من صدرك وانسباط فى نفسك وفكرك وقم فى الخطبة مقام مثلك ممن استحكمت منه ورجع حلمه وليس هذه بأول ولايتك لها فنبئت بوضعك ونعيد وتأخذ بالقيام بحقها العهد الموفق السديد، بل قد سلفت فيها أيامك، وشكر فيها مقامك، واستمرت على سن الهدى أحكامك فذلك الشرط عليك مكتوب وأنت بمثابة من إقامة الحق مطلوب وإن على مانعك من جميع نظرك واعتدال سيرك . . . فلا تنظر فيها إلا من كثر الشاء عليه، وأشير بالثقة إليه، ولتكن رقبيا على أعمالهم وسائلا عن أحوالهم، فمن بطؤ به سعيه وساء فيما تولاة نظره ورأيه أظهرت سخطتك وأعلنت فى الناس جرحتك، فذلك يعدل جانب سواء ويشربه النصيحة فيما تولاة. انظر المرقبة العليا ص ٩٨.

من ذلك يتضح أن القاضى لم يكن عليه سلطان لغير القانون، يحكم وفق الشرع لا يخالفه أو يخرج عليه، ينفذ حكمه على الناس فهم سواء أمام القانون، يحكم حتى على ولى الأمر نفسه إذا جاز أو بدل. ألم يقل يوسف «نحن أولا وكلهم آخرا». انظر كيف استطاعت هذه التقاليد الإسلامية السمحة التى بشها عبدالله بن ياسين فى مجتمع المثلثين أن تجعل من هؤلاء البدو الذين كانوا يضربون فى مجاهل الصحراء حكاما متواضعين مخلصين يأمرون بالمعروف وينادون بالمساواة بين الناس ويحترمون القضاء.

٤ - إثر قيام دولة المرابطين فى النظم الحربية:

وكانت الأسس التى قامت عليها الدولة ذات صدى بعيد فى النظم الحربية التى عرفها المرابطون، ذلك أن الدعوة التى بثها عبدالله بن ياسين قد عملت فى القوم عمل السحر، فقد ألفت بين قلوبهم، وفتحت أمامهم آفاقا جديدة، بل لانكون مغالين إذا قلنا إنها بثت فى هؤلاء روحا جديدة لم تكن مألوفة لديهم من قبل، فقد نفخ عبدالله بن ياسين فى نفير الجهاد، وهى الأذهان لمعركة طويلة الأمد من الكفاح فى سبيل الدين، وهى النفوس للاستشهاد فى سبيل الله فى غير ما خوف ولا تردد. لانكر أن شعب المثلثين كان شعبا محاربا من الطراز الأول، امتاز بالشجاعة الفائقة والجرأة والإقدام والصبر على تحمل مشاق الحرب وتضحياتها، ولكن الدعوة الجديدة كانت بمثابة الوقود الذى ألهب فيهم هذه الصفات، وجعل المرابطين قوة يخشى جانبها فى المجتمع المغربى فى القرن الخامس، ولسنا بحاجة لأن نوضح أن الروح المعنوية أبلغ أثرا فى الحروب من أمضى الأسلحة وأشدّها فتكا، وأن الجند الذين يقاتلون وقد وحدثهم آمال واحدة، وجمعتهم أهداف سامية جند لا يعرفون التراجع أو التقهقر، إنما يتقدمون إلى حياض الموت غير هيايين.

ظهرت هذه الآثار واضحة جلية منذ اندفعت جيوش المرابطين من رباط السنغال متجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة انقضت على المغرب الأقصى. وتجلت هذه الروح واضحة جلية فى معارك المغرب الأقصى التى خاضوها «كان للمتونة

فى قتالهم شدة وبأس ليس لغيرهم وبذلك ملكوا الأرض^(١). كما تجلت هذه الروح الجديدة فى معركة الجهاد بالآندلس^(٢)، إذ لم يهن المرابطون ولم يضعفوا فى جميع المعارك التى خاضوها، كان لهم «فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من رحف»^(٣).

وإذا كان عبدالله بن ياسين هو صاحب الفضل الأول فى بعث المرابطين وخلق هذه الروح الجديدة، فإن يوسف بن تاشفين صاحب الفضل الأول فى تنظيم هذه الطاقة العظيمة، وتسخيرها فى معركة الجهاد بحنكة ودرية وشجاعة، فقد أدرك أن الخطوة الأولى فى سبيل النجاح فى معركة الجهاد هى تنظيم قوى المرابطين لتصبح أداة فعالة فى كفاح ينقر مصير المسلمين فى المغرب والآندلس، فقد اشتهر نصارى الآندلس وحلفاؤهم بأنهم محاربون أشداء ومقاتلون مهرة، تفوقوا على ملوك الطوائف، وأصبحت جيوشهم تسيطر على شبه جزيرة إيبيريا دون منازع، فكيف يستطيع المثلثون أن يلقوا هذا العدو الذى تفوق عليهم فى العدد والعدة دون أن ينظم صفوفهم، ويكمل استعدادهم، لهذا كان العمل الذى

(١) البكرى: المغرب ص ١٠٦.

(٢) من شعر ابن حمديس فى الإشادة بشجاعة المرابطين:

ألفت قلوبهم الخضوع لربهم	وبأس فى أسيافهم متكبر
يرمون أغراض المحتوف بأنفس	ووجوهها لعيونهم تنمر
وتغور فى هام العلوج جداول	للضرب من أعمادهم تنفجر
من كل وحش الطباع كأنه	بين القنا الخطى ليث مخدر

ومن قصيدة أخرى:

وأذنت عمار القفار بحربهم	فيا قرب ماشقوا إليك الخضارما
بنو الحرب غدتهم لبان ثديها	ولم يستطيعوا منها إلا العلاقما
يحثون للهيحاء جرذا سلاها	ويثقون فى البيداء بزلا صلاها
إذا طعنوا بالسامرة خلتهم	ضراغم تفرى فى القلوب أراقما

(٣) ويقول المقرئ «... مع مظاهر لأبطال المثلثين ومشايخ صنهجة فى المعارك من ضربات السيوف التى بيد الفارس والطعنات التى تنتظم الكلى فكان لهم بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المتوئين لقتالهم» انظر المقرئ نقلا عن .

Dozy : Abbadarum, II. p> 236. vide: pidal op. cit. P. 280

انظر كذلك يوسف أشباخ ج ١ ص ٦٩، وابن الأبار الحلة السيرة ص ٢٠٩.

قام به يوسف لايقبل فى أهميته وخطورته عن جهاد عبدالله بن ياسين ، فكلاهما صاحب فضل فى إقامة صرح هذه الدولة .

وكان يوسف وهو يحاول تنظيم هذه القوى المحاربة وتوجيهها نحو الهدف الذى حدده عبدالله بن ياسين متأثرا بطبيعة الدولة التى جمعت بين المؤثرات السودانية والمغربية والأندلسية ، لذلك جاءت النظم التى وضع أساسها خليطا من هذه المؤثرات الثلاثة ، فلنحاول إذن أن نعرض لأوجه الإصلاح التى أدخلها يوسف على جيش المثلثين ، وأن نتلمس صدى هذه التأثيرات المتعددة فى النظام الذى وضعه .

اعتمد المرابطون فى فتح المغرب على جهودهم الخاصة ، وكانت فرق المثلثين من لتونة وجدالة وحلفائهم هى التى اضطلعت بعبء الكفاح كله ، وكانت مهمة يوسف بعد إتمام فتح المغرب أثقل من مهمته قبل هذا الفتح ، إذ كان عليه أن يحتفظ بشمار هذا النصر لتحقيق أهداف الدولة فى الجهاد ، فكان عليه قبل كل شئ أن يؤلف بين القبائل وأن يحببها فى النظام الجديد ، لأن المغرب إذا اتحدت شعوبه وتآزرت أصبحت قوة بعيدة الأثر فى معركة الجهاد ، وقد استطاع يوسف بوسائله الخاصة أن يحقق هذه المعجزة وأن ينجح حيث أخفق من سبقه من الولاة ، فقد أقر السكينة فى ربوع البلاد ، فأمنت القبائل بالنظام الجديد ووثقت به .

وكان من أهم الوسائل التى استعان بها يوسف على تحقيق هذا الهدف إشراكه أهل المغرب من غير الصنهاجيين فى معركة الجهاد ، لأن وحدة الجهاد والكفاح من أجل غرض واحد تؤلف بين القبائل المتباغضة ، فتتسى خلافاتها إلى حين ، وتلتف حول قائد المعركة ، فقد روى أن يوسف استعان بفرق من قبائل المغرب ظهرت فى معارك الأندلس ، فاشترك الزناتيون والمصامدة مع الصنهاجيين فى معركة الزلاقة جنبا لجنب ، ومعنى هذا أن يوسف وضع تحت تصرف الدولة طاقة بعيدة الأثر ، فقد كان المصامدة وأحلافهم يمتازون بشدة البأس ، ووفرة العدد ، وقد أقبلوا على التطوع فى الفرق الجديدة كسبا لأجر الجهاد ، وطلبا للغنم ، فقد كانت الغنائم والأسلاب تورع على المحاربين فى الميدان .

ولكن الروح القبلية ظهرت بوضوح وجلاء فى معاملة المثلثين لأفراد هذه الفرق، فكانت صنهاجة تؤلف فرقا مستقلة تشترك فى القتال مستقلة بنفسها لاتدخل المعركة إلا بعد أن تكون الفرق الأخرى قد نالت من العدو وأنهكته. كان المرابطون ينظرون إلى الفرق غير الصنهاجية على أنها فى مرتبة أدنى من فرق لمتونة، تجلّت هذه النظرة بوضوح فى الاسم الذى أطلقه المرابطون على هذه الفرق، فقد سموها فرق الحشم أو الاتباع^(١)، ويبدو أن أهل الأندلس كانوا يفرقون أيضا بين هؤلاء الحشم، وبين غيرهم من جند المثلثين، يتبين ذلك من قول ابن عبدون: «يجب ألا يتلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيئونهم»^(٢). وكانت الفرق من الحشم لها أعلامها الخاصة وبندوها، وكان يقودها رجال من لمتونة مثل القائد جرور الذى لقبته المراجع باسم جرور الحشمى^(٣)، وقد أسدت هذه الفرق للمرابطين يدا طولى فى معركة الجهاد، لأن صنهاجة لم تكن تستطيع أن تعتمد على مواردها الخاصة.

استعان يوسف أيضا بفرق من السودان^(٤)، فقد كانت دولة المرابطين تمتد من حوض السنغال فى الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط فى الشمال، وكانت تستطيع أن تحصل على حاجاتها من هؤلاء العبيد، إما بالشراء^(٥) وإما بإغرائهم بالاشتراك فى معركة الجهاد، ولم يكن يوسف بن تاشفين فى هذه الناحية مبتدعا ولا مجددا، فقد كان أمراء المغرب السابقون يعمدون إلى تجنيد فرق من هؤلاء السود يتخذون منهم حرسا خاصا يدين لهم بالولاء.

استعان بهم الأغلبة ثم استعان بهم الزيرون، وقد اشتركوا مع صنهاجة فى قتال عرب بنى هلال^(٦)، وكانت هذه الفرق فى جيش المرابطين بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر، كان أفرادها يسلحون بأسلحة خفيفة من درق اللط

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص ٢٨٣.

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحبة ص ٢١٨.

(٣) الحلل الموشية : نقلا عن Abbaidarum, vol. II p. 204.

(٤) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٥.

(٥) يوسف أشباخ : ج١ ص ٧١.

(٦) Marcais (op.cit.) P.155.

وسيوف الهند ومزاريق الزان^(١)، ويبدو أنهم كانوا يدخلون المعركة في آخر لحظة لانتزاع النضر من الأعداء انتزاعاً؛ إذ ينقضون كالصاعقة على العدو المهزوم، فيدخلون الرعب في قلبه، ويحملونه على الفرار ويندفعون كأنهم القذائف. وقد وضع ذلك يوم الزلافة حين أطلق يوسف هؤلاء العبيد في ختام المعركة، فارتبك جند ألفونسو وانقض أحدهم على هذا الملك فقتل جواده وطعنه في ساقه.

وقد أشار المؤرخون^(٢) إلى أن المرابطين استخدموا طائفة من الجند الصقلب، ولاندرى بالضبط إلى من يرجع الفضل في استخدام هؤلاء الجند؟ أيرجع ليوسف ابن تاشفين أو إلى ولده علي؟ ذلك أن المؤرخ يوسف أشببخ^(٣) يذكر أن علياً بن يوسف كان أول من استخدمهم وأكثر منهم واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً، ولكنه يعود مرة أخرى^(٤) فيذكر أن يوسف بن تاشفين هو البادئ باستخدام الصقلب في حرسه الخاص.

ليس من شك في أن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدم هذا النوع من الجند، وخصوصاً بعد أن اشترك في معركة الجهاد بالأندلس، وبعد أن أدال المرابطون ملك الرؤساء، وبسطوا نفوذهم على بلاد الأندلس. فهل كان هؤلاء الجند من الصقلب أو من المعاهدين أو من المتطوعين من أهل الأندلس؟ ويذكر أشببخ أن يوسف استخدم طائفة من فتيان النصارى المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام، وأنه كان يحبوهم بعطفه، ولا يفتأ يغدق عليهم من صلاته وأعطياته كلما اشتد إخلاصهم وتفانيهم في تحقيق أغراضه^(٥)، ويشير دي ماس لاتري^(٦) إلى أن هؤلاء الجند كانوا من المتطوعين المرتزقة طلاب المغامرات، لأن أهل الأندلس

(١) المقرئ: نفع الطيب جـ ٣ ص ١١٨٢.

(٢) أعز ما يطلب ص ١٩. أبو بكر الصنهاجى البيدق ص ٨٦ و ٩٥.

Levi- Provencal: p.30

De Mas Latrie, P. 320 Recherches vol. II. p. 437.

Terrasse (op. cit.)P. 248.

(٣) يوسف أشببخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢٢.

(٤) يوسف أشببخ في ج ١ ص ١٢٢.

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٥.

De Mas Latrie: traites de Paix p.320 (٦)

المسيحيين لم يجدوا بأسا من خدمة المرابطين، فقد خدموا ملوك الطوائف من قبل^(١). لكن يخيل إلينا أنهم كانوا من الأسرى، لأن معارك الأندلس المتعددة كانت تتمخض عن وقوع أعداد لاحصر لها من النصارى فى أيدي المرابطين، فلم يجدوا بدا من تجنيدهم فى الجيش، وتسخيرهم لتحقيق أغراضهم. ويبدو أن اللواء كان يعقد لرجل منهم، فقد كان قائدهم فى عهد تاشفين بن على رجلا يدعى الريبير^(٢) (Riverter)، كما يبدو أن طائفة كبيرة من هؤلاء الجند كانت مازال على دينها الأول، بدليل ما يروى من أن المرابطين قد تركوا لهم حرية العقيدة، وأباحوا لهم بناء الكنائس^(٣).

فما هى الظروف التى اضطرت المرابطين إلى أن يستخدموا هؤلاء الجند؟. نجن نعلم أن المرابطين سخرُوا جميع القوى فى معركة الجهاد فى الأندلس، وكانوا لا يفتأون يقذفون إلى أتون المعركة بالفرقة تلو الفرقة، فكانوا بحاجة إلى طائفة من الجند تملأ هذا الفراغ الذى خلفته الفرق المشتبكة فى القتال، وكانوا بحاجة إلى نوع من الجند يسخرون لحماية مدن المغرب، ويتشرون فى القلاع والحصون التى أقامها المرابطون فى بلاد المصامدة لحراستهم وإرهابهم^(٤). استعان المرابطون بالمغاربة فى مقاتلة النصارى، واستعانوا بالنصارى فى حراسة أهل المغرب وإخضاعهم.

ولم يقنع المرابطون بهذه الموارد المتعددة من الجند سواء من الزناتيين أو المصامدة أو الأسرى المسيحيين أو الزنوج، بل اضطرتهم المعركة التى شنوها فى البر والبحر إلى تسخير جميع الموارد، والاستعانة بجميع طوائف المجتمع لإدارة دفة الحرب فى الأندلس، فإلى جانب هذه الفرق النظامية استعان المرابطون بطائفة

(١) Terrasse: Hist. du Maroc, P. 248.

(٢) أبو بكر الصنهاجى اليدق ص ٨٦.

Levi- Provencal: (Introduction) p. 130

Dozy: Recherches vol. II. p. 437.

Terrasse (op. cit.) P. 248.

Terrasse (op. cit.) P. 248. (٣)

Terrasse (op. cit.) P. 248. (٤)

كيسرة من المطوعة من أهل الأندلس والمغرب^(١)، الذين كان تدفعهم حميتهم إلى الانخراط في سلك المجاهدين طلبا للشهادة في سبيل الله، وكانت أعداد المتطوعين في بعض الأحيان تعد بالآلاف،^(٢) يجتمعون إذا لاحت نذر المعركة. ثم يفترون بعد انتهائها، ويبدو أن طائفة من عرب بني هلال قد اشتركت في معركة الجهاد، يتبين هذا من قول صاحب القلائد: «وفيه من أجناده رنجها وعربانها»^(٣).

وإذا كان يوسف بن تاشفين قد عمد في إصلاح النظم الحربية إلى إدخال نظام التجنيد الشامل لكافة طبقات المجتمع على الصورة التي عرضناها، فإنه عمد إلى إصلاح ناحية أخرى، عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش، وطريقة إعداده للقتال، ذلك أن أسلحة الملتحين كانت في الواقع أسلحة بدوية، وكان شأنهم شأن بدو الصحراء يعتمدون على الإبل اعتمادا كبيرا، ولا يكثر من الخيل، ويفضلون القتال وهم راجلون^(٤)، وضح ذلك كله حين أخذت جموعهم تطرق أبواب المغرب، إذ روى المؤرخون أنهم «دخلوا المغرب في ثلاثين ألف جمل مسرج»^(٥)، ولكن الإبل إذا كانت تصلح للقتال في الصحراء فإنها ليست صالحة للقتال في المناطق الجبلية والهضبية في المغرب الأقصى، كما أن فرق الأباله لا تستطيع أن تصمد أمام فرق الخيالة الممتازة من الزناتيين والمصامدة، لذلك عمد يوسف إلى الإكثار من الخيل، وكون فرقا من الفرسان، ودربهم على هذا اللون من ألوان القتال، ويخيل إلينا أن يوسف استعان بالفرسان الزناتيين على نطاق واسع، وكانت لهم في فنون القتال شهرة واسعة، ولكن يوسف لم يغفل شأن الإبل فكان يجعلها تحديق بمعسكره، حتى إذا احتدم القتال سيقت الإبل للحرب فتدخل الرعب في قلوب الفرنجة، وتجنح لمرآها خيلهم فيقع الارتباك في صفوفهم^(٦) كما أن

(١) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٩.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) الفتح ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٥.

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٦.

(٥) جامع تواريخ فاس ص ٢٤.

(٦) المقرئ : نفح الطيب ج٢ ص ١١٧٩.

الملثمين لم يألفوا السلاح الثقيل ^(١) من لبس الخوذات والدروع والزرر، كما كان يفعل أهل الأندلس في حربهم وقتالهم. كانوا في الواقع قد اعتادوا على التسلح بأسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البدوية البسيطة، وكانوا يتسلحون بدرق اللمط والقنا الطوال ^(٢) والمزاريق المسنونة ^(٣)، ويحمل الرجل منهم عدة مزاريق في آن واحد ^(٤).

ولم يغير يوسف من هذا النظام في التسلح، بل أبقاء على ماهو عليه، ولكنه استعان بفرق من الرماة بالسهم والنشاب ذاع صيتها في شدة الفتك وإتقان الرماية ^(٥)، ويخيل إلينا أنه استعان بمقاتلة من المغرب، ولما التحم المرابطون بالفرنجة ووجدوا أنهم يعتمدون اعتمادا مطلقا على التسلح الثقيل لم يغفل المرابطون هذه الناحية، وبدءوا يسلحون فرقههم بالتروس، وينسجون الدروع، ويلبسون البيضات ^(٦)، وأصبح الجيش المرابطي تتمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة في عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية أم أندلسية.

أما مسألة استخدام طبول هائلة تصحب الجيش الزاحف فلا ندرى بالضبط أكثر المرابطون من الطبول متأثرين بالتقاليد السودانية أم بالتقاليد المغربية؟ وكل مايمكن أن يقال في هذا الصدد أن المؤرخين رروا ^(٧) أن طبول المرابطين كانت إذا ضربت اهتزت لها الأرض، وتجاوبت الآفاق، وارتاع العدو، وهم يتحدثون عن هذه الطبول حديث من لم يشاهد مثلها من قبل، ولعل أهل الأندلس لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا في جيوش شبه الجزيرة عادة استخدام مثل هذه الطبول الكبيرة.

أما نظام إمرة الجيش فإن يوسف بن تاشفين لم يدخل عليه تعديلا يذكر، إذ ظلت التقاليد القبلية تتحكم في هذه النظم وتسيرها، إذ كان على القبيلة الغالبة أن

(١) حسين مؤنس: الثغر الأعلى ص ١٤١.

(٢) الحلل الموشية في الأخبار الراكشية ص ١١.

(٣) الطرطوشي: سراج الملوك ١٧٩.

(٤) البكري: المغرب ص ١٦٦.

(٥) Terrasse (op. cit.) P. 223

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٢٨١.

(٧) Dozy: Abbadidarum, vol. II, P.247.

تخص أبناءها بالقيادة، فلا تستعين بسواهم، وكانت القيادة العليا لزعيم القبيلة المنتصرة يوسف بن تاشفين^(١)، أما فرق الجيش المختلفة فكانت إمرتها تعقد لقواد من أفراد البيت الحاكم ممن يثق بهم أمير المسلمين، ويطمئن إلى إخلاصهم^(٢) حتى قوات الحشم وهى قوات غير صنهاجية^(٣) كانت قيادتها لرجال من لتونة، ويبدو أن أبناء لتونة كانوا يؤلفون فرقة قائمة بذاتها يقودها أمير من المقربين من السلطان^(٤).

وكان طبيعيا بعد أن فتحت الأندلس، وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة فى معركة الجهاد، أن توحد القيادة فى الأندلس، وأن يعقد لواؤها لقائد واحد هو حاكم الأندلس من قبل أمير المسلمين^(٥)، وهو حر التصرف يحرك قواته فوق رقعة شبه الجزيرة كيف يشاء. وكان قواد الفرق المختلفة وولاة الأقاليم من رجال لتونة يجتمعون بالأمير على هيئة مجلس حرب للمشاورة فى مختلف الشئون العسكرية، ولاتخاذ خطة موحدة فى معركة الجهاد^(٦).

ويبدو أن السياسة التى كانت تملئ على أمير المسلمين أن يجرى تنقلات مستمرة بين ولاة الأقاليم حتى لا يستأثر أمير بالسلطة أو يفكر فى الخروج على ولى الأمر هى نفس السياسة التى أملت عليه أن يحدث تنقلات مستمرة فى قيادة فرق الجيش، حتى لا يطول بقاء القائد فى منصبه فيستبد بالأمر، ويؤلب الجند على أمير المسلمين.

ويبدو أن قيادة فرق المرابطين كانت فى غاية الدقة والتنظيم، مما يدل على أن اليد القابضة على السلطة العليا كانت يد مجرب حكيم، فكانت الجيوش تتحرك صوب أهدافها فى وقت واحد، تقاتل فى شرق الأندلس، وفى وسطها، وفى

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص ٢٣٤.

(٢) الفتح بن خاقان: المطمع ص ١٩٧. الحلل الموشية ص ٥٩. أعمال الأعلام ج٣ ص ٢٠٠، ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤. البندق ص ٧٩، ابن الأثير ج١ ص ٣٦.

(٣) الحلل الموشية ص ٥٩.

(٤) أعز ما يطلب ص ٤٥.

(٥) ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤.

(٦) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص ٢٣٤.

غربها، وفي المغرب الأوسط، وفي كل منطقة يشتد فيها الخطر، وكان المغرب بمثابة المعسكر الكبير يرسل منه الجند المعدون للقتال لمختلف أرجاء الجبهة، ويخيل إلينا أن مدينة سبته وطنجة كانتا بمثابة مراكز أمامية مهيأة لكل طارئ، يربط فيها الجنود على استعداد لتلبية أى نداء بالعبور إلى الأندلس، وقد رأينا كيف أن يوسف بن تاشفين كان ينقل مقر قيادته إلى سبته وطنجة ليرقب المعركة في الأندلس عن كثب، ويرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة.

وقد نجحت سياسة ابن تاشفين نجاحا بعيد المدى، واستطاع أن يشغل العدو بقتاله في أكثر من جبهة واحدة في البر والبحر، وأن يشل حركته، ويوقع الارتباك في صفوفه. والفضل في تنظيم هذه القيادة، ووضع أسسها يرجع إلى يوسف الذى كان خبيرا باختيار الرجال واكتشاف المواهب، فما من قائد أمره على الجيوش إلا وظهرت مواهبه، وأظهرت الحوادث أنه من أكفأ القواد وأشجعهم وأقدرهم، وقد أظهرت معارك المغرب والأندلس طائفة من هؤلاء الأبطال الذين عصفروا جباههم بغبار الجهاد، وجادوا بدمائهم فوق بطاح الأندلس، وكانوا مصدر رعب وفزع للعدو، نذكر من هؤلاء سير بن أبى بكر^(١)، وداد بن عائشة^(٢)، وعبدالله ابن فاطمة^(٣)، وأبا محمد مزدلى فاتح الشرق^(٤)، وابن ميمون قائد الأسطول وغيرهم كثير^(٥). وكان للعسكر قضاة يقضون بين الجند ويعظونهم ويحضونهم على الجهاد ويؤمنونهم فى الصلاة^(٦).

والآن نعرض لفن القتال كما عرفه المرابطون، وما يتضمنه من طريقة إعداد الجند وتجهيزهم للمعركة، وترتيب الصفوف، وتنظيم الفرق المقاتلة، وطريقة السير إلى المعركة، وتقاليد الملتزمين فى خوض غمار الحرب، كانت للملتزمين قبل عهد يوسف بن تاشفين تقاليد معروفة فى إعداد الجند للقتال، إذ كانوا يعتمدون على صنفين من المقاتلة: يعتمدون على الرجالة، وعلى الأباله الذين يقاتلون على

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٥٩.

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٠٣.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) Dozy: Abbadidarum, vol. II, P. I.

(٥) انظر الملاحق.

(٦) الذخيرة (قسم ٤) ص ١٢٥.

النجب التى تقوم فى القتال مقام الخيل، كانوا يجعلون من المشاة صفوفًا، يجعلون فى الصف الأول فريقًا من المقاتلة مسلحين بالقنا الطوال، ويجعلون خلفهم صفًا آخر من المشاة يتألف من رجال بيدهم المزاريق. وكان هؤلاء عادة من مهرة الرماة وحقاقهم «لا يكاد الواحد منهم يخطئ أو يشوى، يتسلحون بأكثر من مزارق، ويتناوبون الرماية فى سرعة خارقة ودقة عجيبة، وبلغ من حسن إعدادهم، ودقة تنظيمهم أنهم كانوا يجعلون فى مقدمة الصفوف صاحب الراية يرتهن المقاتلون بإشارته، إذا انتصبت الراية وقفوا وإن أمالها جلسوا^(١)»، لأنه يرقب تحركات العدو بعين ساهرة يقظة، يشير بهذه الراية كلما أحس بإقبال الخطر أو ذنوه، وتقف خلف هؤلاء الرجال فرق من الفرسان الأباله على ظهور النجب، يتحفزون للهجوم إذا آنسوا من عدوهم ضعفًا أو أحسوا تخاذلًا.

فهل أبقى يوسف بن تاشفين حين تسلم قيادة الجيش على هذا النظام البدوى فى فن القتال. أم غيره واستبدله بنظام آخر؟ يخيل إلينا أن يوسف لم يدخل على هذا النظام تعديلًا يذكر، إذ لم يكن باستطاعته أن يغير طبائع الناس، ومادرجوا عليه من أساليب القتال، نقف على ذلك من وصف الطرطوشى لفن القتال فى بلاد الأندلس فى عصره، فقد قال: «فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن تقدم الرجال بالدرك الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون فى الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبتة اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدورع والخيل خلف الرماة فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجال عن هياتهم، ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجال بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجال فتتال منهم ماشاء الله»^(٢).

(١) البكرى: المغرب ص ١١٦.

(٢) الطرطوشى: سراج الملوك ص ١٧٩.

والطرطوشى كان معاصرا لقيام دولة المرابطين ولتدفقهم إلى الأندلس، كما أن تقاليد الحرب وفنونها في عهد ملوك الطوائف كانت لاتكاد تختلف عن تقاليد النصارى في هذا المضمار، من الاعتماد على القلاع الحصينة، وإتقان فن الحصار، والاعتماد المطلق على الشجاعة الفردية، وعلى فرق من الخيالة الثقيلة المسلحة بالزرد والدروع والسيوف^(١) مما يجعلنا نعتقد بأن الطرطوشى في وصفه ذلك إنما كان يصف نظام القتال في بلاد الأندلس في أوائل عهد المرابطين، وفي أيام يوسف ابن تاشفين بوجه خاص، وتكاد روايته تطابق رواية البكرى في هذا الصدد^(٢).

إذن أبقى يوسف على هذه التقاليد، لم يغير منها، ولكنه عمد إلى التجديد، فأعاد تقسيم الجيش على أسس جديدة لم تكن معروفة من قبل، إذ جعل أساس تقسيمه قبليا محضاً، بمعنى أن تؤلف الفرق من أفراد القبيلة الواحدة، حتى تتألف قلوبهم ويكونوا متآلفين متحابين، يقاتلون وفق نظام واحد، ويستوحون تقاليد واحدة^(٣)، فكان الحشم وهم من الزناتيين والمصامدة يؤلفون قسماً مستقلاً بذاته، وكان الأندلسيون والمطوعة يؤلفون قسماً آخر مستقلاً بشأنه، وكان المجاهدون من أهل الثغور يؤلفون قسماً آخر مستقلاً، أما فرق لمتونة وغيرها من أهل اللثام، فكانت مستقلة عن الفرق الأخرى، وكانت هذه الفرق جميعها تقاتل على الطريقة البدوية التي عرضنا لها، كانت فرق الحشم في مقدمة الصفوف، وكانت فرق المثلثين تصطف في القلب، وكان المحاربون من أهل الأندلس يصطفون في الساقة، وأهل الثغور وغيرهم يؤلفون جناحى الجيش^(٤). وتقديم فرق الحشم يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير، فقد وضعت في موضعها ذاك لتصطلى بنار المعركة وتذوق طعمها، وتكون بمثابة درع يقي زهرة شباب لمتونة وخيرة فرسانها ولايتقدم المثلثون إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكته وأضعفته^(٥)، حيثئذ يتقدمون ليجهزوا عليه، وينهوا المعركة لصالحهم، ولكن يوسف لم يعتمد

(١) Pidal: The cid and his Spain, P. 219.

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٦.

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣.

(٥) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥

على المشاة وحدهم، بل أعد طائفة من الفرسان الشجعان من جند لمتونة، ولابد أنه سلحهم بالأسلحة الثقيلة، شأنهم شأن فرسان النصارى^(١)، وكان يجعلهم في القلب خلف صفوف المشاة من الحشم^(٢)، وقد أبقى نظام الأباله، فكان يقيم منهم صفوفًا تحديق بالمعسكر وتحف به، تحمى مؤخرتهم وتؤمن طرق مواصلاتهم^(٣)، فلا يعتمد العدو إلى قطعها، وتهديد الجيش المهاجم فإذا اتخذت كل فرقة موضعها، وتهايا الجيش للقتال دقت طبول الحرب، وتردد صوتها المدوى فى جنبات المعسكر إيدانا بيداء الهجوم، فتتقدم فرق الحشم، ثم تتلوها الفرق الأخرى فى دقة ونظام، كلما أنهكت فرقة تقدمت إليها فرقة أخرى وهكذا دواليك^(٤). أما فرق لمتونة فهى لاتخوض المعركة إلا فى المرحلة الأخيرة لأن المرابطين كبانوا يخشون دائما أن يبدؤوا بالقتال، فتفر الفرق الأخرى من خلفهم وتتركهم لسيوف الأعداء، تعمل فيهم عملها، لذلك كانوا يقدمون الفرق الأخرى حتى لاتنكص على أعقابها، ثم يتقدمون هم لجنى ثمار النصر والإجهاز على العدو.

على أن الجديد فى فن القتال أن يوسف بن تاشفين كان يحسن تدريب هؤلاء الجند وتنظيمهم، ويعد كل فريق للدور الذى يصلح له، وكان يخضع هذه الجموع الزاخرة لإرادة رجل واحد، تتحرك وفق مشيئته فى نظام رتيب كأنها قطع الشطرنج، فتضرب هذه الكتل البشرية المتراسة ضربة رجل واحد، فتنازل من العدو وتخلخل صفوفه فيرتبك ويتعثر. وقد كان لهذا الفن الجديد أثر هائل فى معارك الأندلس، لأن النصارى كانوا يعتمدون كما قلنا على الشجاعة الفردية، وعلى الخيالة الثقيلة، وتتحرك الفرق تحركات مستقلة لا أثر لنظام يجمع شملها أو يوائم بين حركاتها، لذلك كانت أجنحة العدو تهاض وتتكرس أمام هذا النظام الدقيق^(٥).

وكان المرابطون يعتمدون على عنصر المفاجأة، وعلى الحرب الخاطفة السريعة لمواجهة هذه الحصون المتحركة من الخيالة الثقيلة، كانوا يعتمدون على الصفات

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٢٨٣.

(٣) Gautier (op. cit.) P. 170.

(٤) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٧١.

(٥) Menendez Pidal: The Cid and his Spaaain, P. 219.

الفردية المتمثلة في سرعة الحركة، والثبات والشجاعة، فكان الجند ينقضون على العدو كالصاعقة في حركات مرسومة ونظام رتيب، تنوشه رماحهم ومزاريقهم وتمطره سهامهم، ثم يخرج فرسانهم في هجوم جريء مفاجئ^(١)، وقد عمد المرابطون إلى ذلك لأنهم لم يكونوا يعتمدون على السلاح الثقيل، فكانت خسارتهم في الساعات الأولى من القتال خسارة فادحة، فكان من مصلحتهم أن يعجلوا، وأن ينهوا المعركة بأسرع ما يستطيعون، لذلك كان عنصر السرعة وعنف الهجوم طابعا مميزا لهم في جميع المعارك التي خاضوا غمارها.

كانت تقاليد الملثمين تقضى بأن يثبت الفارس في موضعه لا يتقهقر أو يلقي حتفه^(٢)، لأنه يجد في الفرار من الزحف عارا وأى عار، فما بالك إذا اعتقد أن هذا الثبات سبيله إلى الاستشهاد في سبيل الله، وكان من تقاليدهم المعروفة حتى في مجتمعاتهم البدوية ألا يتعقبوا العدو المهزوم الفار، لأنهم كانوا يأنفون من أن يطعنوا عدوا من الخلف، وهو يولى الأدبار^(٣)، بل يفضلون أن يقاتلوا العدو في مواجهته. وقد ظهرت هذه التقاليد بوضوح في معركة الزلاقة، حين أبى يوسف أن يتعقب ألفونسو الذى فر في جنح الظلام، وكان ذلك موضع عجب أهل أهل الأندلس ودهشتهم، لأنهم درجوا على أساليب الخيانة والغدر في القتال، يأخذون العدو من مأمته، وينالون منه إذا أدبر أو فر.

ولم يكن المرابطون يعرفون فن الحصار، وكيف يتأتى لهم أن يلموا به، وهم البدو الرحل الذين لم يكن لهم بالحصار عهد، ولكن يخيل إلينا أنهم بعد أن أخفقوا في معركة لبيط تعلموا فن الحصار، وأتقنوه، واستعانوا به، فقد روى صاحب الحلل «أن يوسف شرع في بناء الأسوار ورم ماتشعث من الأبراج، وحفر الحفير حولها، وشحنها بالأطعمة والأسلحة، ورتب فيها عسكريا نقييا من نخبة رجاله وأسكنهم بها»^(٤).

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ١٤٩.

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤.

(٣) اليكرى : المغرب ص ١٦٦.

(٤) الحلل المشوية ص ٦٧-٧٨.

وقد ازداد إتقانهم لهذا الفن فى عهد على بن يوسف، فبرعوا فيه وظهر أثر ذلك فى حصارهم مدينة شترين واستيلائهم عليها، فقد كتب سير بن أبى بكر إلى أمير المؤمنين يتيه بهذا الظفر، ويصف له ملاقاه العدو من آلام الحصار ومتاعبه^(١).

وكانت جيوش المرابطين إذا تحركت من موضع إلى آخر سارت وفق نظام خاص. كانوا يسرون متاهبين للقتال كأنهم على وشك خوض المعركة، وكانت الأقوات والخيام تحمل على ظهور الإبل، تسير فى مؤخرة الصفوف، يتلوها الرماة، يقودون قطعان الماشية من كل صنف، فإذا حط الجيش رحاله أقاموا معسكرا تحف به الخنادق والتحصينات^(٢).

وإذا كنا قد فرغنا من التحدث عن الجيش، فلا بد من أن نعرض للأسطول فى عهد المرابطين، وأهم ما يلاحظ فى هذا الصدد أن المرابطين، وهم من بدو الصحراء لم يكن لهم عهد بركوب البحر، حتى قدر لهم أن يفتحوا المغرب الأقصى، وأن يتدفقوا صوب السهول الساحلية، وأن يستولوا على الموانئ الساحلية المطلة على حوض البحر المتوسط الغربى، فبدأت تواجههم مشاكل لم يكن لهم بها عهد، وكان يتعين عليهم أن يجدوا لها حلا ذلك أن ساحل إقليم المغرب الأوسط والأقصى الممتد من وهران حتى طنجة كان فى حاجة إلى قوة بحرية تحرسه وتحميه وتقيه شر غارات القراصنة التى بدأت تشتد فى ذلك الوقت عقب اختلال التوازن فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى.

(١) رسالة من سير بن أبى بكر إلى أمير المسلمين «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه؛ نافذة فى السبعة الأقاليم أقالمه من داخل مدينة شترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك وعين نفسك على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمدا يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الإحاطة الطامحة... وكانت قلعة شترين أدام الله أمر أمير المسلمين من أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاهد على المسلمين فلم تزل يسعك الذى اقتضيناه وهديك الذى اكتفينا به تخضد شوكتها. وتنحت أثلاثها، نتناولها عللاً بعد نهل... ونشن الغارات على جميع الجهات، فرد جيوشنا عليهم خفافاً، وتصدر إلينا ثقلاً فتعلا صدور الأعداء أوجالا، وأيدى الأولياء أموالا... فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركبها لنا عن صهوتها...»

Hoogoliet: Specimene Litteris diversorum Scriptorum Locos de Regia Aphtasidarumpp. 134-136.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٦.

ويخيل إلينا أن المرابطين أفادوا من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر، كما أفادوا من دور الصناعة المنتشرة في هذه الموانئ، فبدءوا يبنون أسطولا في عهد يوسف بن تاشفين، وهو لم يزل أميراً على المغرب. ويبدو أن النواة الأولى للأسطول المرابطين الجديد قد اشتركت في حصار سبتة، ومد يد المعونة للقوات البرية التي كانت تقاتل سفوت البرغواطى^(١).

وقد أدرك يوسف بن تاشفين بعد انتصاره في معركة سبتة أهمية العامل البحرى في كسب المعارك، فبدأ يهتم بأمر الأسطول، ويولي من رعايته الشيء الكثير، ولعله استعان ببشارة الأندلس ودور صناعتها في تدعيم الأسطول وتنظيمه، وقد استطاع الأسطول الجديد أن يمد يد العون لقوات المرابطين وهى تجتاز البحر لأول مرة^(٢).

ثم أخذ المرابطون يتوسعون في بلاد الأندلس، فاتجهوا صوب الشرق، ففتحوا ألمرية وبدءوا يبسطون نفوذهم على كثير من الموانئ الساحلية، وكان هذا الفتح بداية عهد جديد في تاريخ البحرية في عهد المرابطين، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على أهم الموانئ في حوض البحر الأبيض المغربى، واستولوا على دور صناعة كانت ذات شهرة عالمية في فنون البحر وصناعة السفن. وكان ثغر ألمرية على الخصوص ودار صناعتها ذات شهرة لاتبارى في هذا السبيل.

كان من أثر ذلك أن بدأ الأسطول المرابطى يظهر كعنصر فعال في معركة النضال من أجل السيادة على بلاد الأندلس، وبدأ يتخذ موقف المهاجم، وبدأ المرابطون يعدون السفن لا لمجرد نقل القوات بين العدوتين، بل للحرب والتزال، فاشترك الأسطول في معركة بلنسية التى احتدمت بين القمبياطور والمرابطين، إذ روى المؤرخون أن بعض سفن المرابطين عاونت القوات البرية فى شرق الأندلس^(٣).

(١) الذخيرة (م . بغدا) قسم ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ١٢٣٧ .

Pascualde Gayangos: The History of the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p. (٣)

517, Note 4.

ومن أسف أن المراجع لا يتحدث بالتفصيل عن نشاط البحرية المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، مما يحمل على الظن أنها كانت ماتزال في دور البناء والتكوين، والمستشرق جايانجوس^(١) في ترجمته لكتاب نفح الطيب أشار إلى أن عيسى بن ميمون والد أمير البحر على بن ميمون كان يقود أسطول المرابطين في قádiz، مما يحمل على الظن بأن عيسى هذا كان أمير البحر في أواخر أيام يوسف ابن تاشفين، وقد غدت إمرة البحر وقيادة الأساطيل وراثية في بني ميمون هؤلاء.

ومهما يكن من شيء فإن البذور التي غرسها يوسف بن تاشفين أينعت وقطف ولده على ثمارها كاملة، فقد ازدهر الأسطول في عهده، وبدأت المراجع تتحدث عنه، وتسجل له نشاطا بعيد المدى في معركة البحر المتوسط. ويبدو أن أسطول على بن يوسف كان يتألف من سفن عدة، وأنه كان يتألف من جملة أقسام يختص كل قائد بقيادة قسم منها، ويدين بالطاعة لأمر البحر، فقد روى الإدريسي أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز «كان واليا لأمر المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله»^(٢).

وقد ظهر تفوق أسطول المرابطين في عهد على بن يوسف في معركة ميورقة، ذلك أن صاحب برشلونة كان قد حاصر جزر البليار عشرة أشهر، واستولى عليها فاستغاث صاحبها بمشتر بعلى بن يوسف، فخفت أساطيل المرابطين لنجدته، وأحدقت بالجزيرة، وأزلت بالفرنجية هزيمة ساحقة، وبسطت عليها سيادة المرابطين، فأصبحت من أهم قواعدهم في البحر الأبيض المتوسط، وولوا عليها عاملا من قبلهم دعى وانود بن أبى بكر^(٣)، كما ظهرت شهرة على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين، وبدأ المؤرخون يتحدثون عنه حديث المعجب بجرأته وشجاعته، ومن الغريب أن بني ميمون هؤلاء ملثمون من لمتونة، فكأن لمتونة لم تشأ أن تولى على أسطولها رجلا من غير أبنائها^(٤).

وباستيلاء الأسطول المرابطى على جزيرة ميورقة يتبدى عهد جديد في تاريخ

(١) الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٥٤-٥٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧.

(٣) Pascualde Gayangos: The History of the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p.4

النضال بين المسلمين والفرنجة، إذ بدأ المرابطون بعد أن عقد لهم لواء النصر في البر يدخلون معركة البحر بقلوب مطمئنة وأقدام ثابتة، وأصبح أسطولهم قوة هائلة يحسب لها الأعداء ألف حساب. وكان من آيات تفوق المرابطين أنهم دخلوا حومة الصراع بين الترمانيين أصحاب صقلية والزييريين أصحاب إفريقية، حين استنجد الحسن بن علي بن يحيى بأسطول المرابطين، فخف إلى صقلية، وأغار على سواحلها، وعاث في مدنها، وقد تعددت غارات المرابطين على صقلية، حتى ضج روجر بالشكوى، واعتقد أن بنى زيري هم الذين يحرضونهم، ويدفعونهم لاتخاذ هذا الموقف العدواني، فأعدوا العدة لتأديب الزييريين بالاستيلاء على المهديّة، وقد اشترك أسطول المرابطين في معركة المهديّة، وبدأت سفنه تجوس في أحواز صقلية، تقتل، وتأسر وتفتك^(١).

ويبدو أن دائرة نشاط أسطول المرابطين بدأت تتسع، وبدأت غاراتهم تمتد إلى سواحل إيطاليا وسواحل فرنسا، بل دخلت ميدان البحر الأبيض الشرقي، وبدأت تصارع أساطيل بيزنطة^(٢). ومن أدلة ذلك النشاط الجرم أن المراجع الإفرنجية بدأت تؤرخ لغارات المرابطين، وتحدث عنها في شيء من الإسهاب، وهذه المراجع لا تسجل من أخبار المسلمين إلا الأحداث البارزة ذات الأثر، فقد خلدت أغنية رولان نشاط المرابطين في البحر^(٣)، وبدأت تتحدث عن علي بن عيسى بن ميمون، كما أن مدونة ألفونسو السابع اختصت هذا الأمير باهتمام كبير^(٤)، فذكرت أنه أخذ يغزو جنوب إيطاليا، بل وصلت غاراته إلى بلاد الشام، كما وردت إشارات عن نشاط أسطول المرابطين وإغاراته على شواطئ بروفانس وإحراقه كل ما يصادفه من قرى وقصور وكنائس^(٥)، بل إن مدونة ألفونسو السابع تمنع في تسجيل نشاط علي بن ميمون، فتقول أن الجالية المسيحية ببلاد علي بن يوسف قد أسرها علي بن ميمون أثناء إغاراته بحوض البحر الأبيض، وأنه قد نقلها إلى

(١) رحلة التيجاني، ورقة ١٤٧ و ١٤٩.

(٢) Dozy : Recherches, vol. II, P. 410

Idem (٣)

I bid. P. 437 (٤)

I bid. P. 410 (٥)

مراكش لتدخل فى خدمة أمير المسلمين^(١)، فكان المرابطون قد أبو إلا أن يجاهدوا فى البحر والبر على حد سواء.

ولكى يتم القول فى النظم الحربية فى عهد المرابطون وأثر قيام الدولة فى نموها، وتطورها لآبد من أن نعرف بناحية أخرى من نواحي هذه النظم، وهى ناحية طريفة ظهر فيها صدى التأثيرات القبلية ظهورا واضحا. هذه الناحية هى نظام القلاع والحصون التى انتشرت فى جميع أرجاء المغرب الأقصى، وخصوصا حول المنطقة الجبلية فى الجنوب والشمال^(٢)، وفى المغرب الأوسط^(٣)، وفى أطراف الصحراء، حتى لقد عدد البيدق منها مايقرب من عشرين حصنا منبثة فى أرجاء البلاد^(٤)، وذكر مارسيه أن آثار هذا القلاع والحصون ماتزال باقية حتى اليوم^(٥).

فهل عمد المرابطون إلى هذا النظام، وأكثروا من هذه القلاع والحصون فى عهد على بن يوسف حتى وضع خطر الموحدين، وبدءوا يهددون الدولة تهديدا خطيرا، أم أن يوسف بن تاشفين وضع أساس هذا النظام كما وضع أساس النظم المرابطية كلها؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين هو الذى وضع أساس ذلك النظام حينما أراد أن ينظم بلاد المغرب الأقصى على أسس سليمة، وأن يقر السكينة فى ربوعه توطئة للاشتراك فى معركة الجهاد. يدل على ذلك مارواه المؤرخون من أن يوسف أقام الحصون فى بلاد الأندلس، وشحنها بالأطعمة والأسلحة «ورتب فيها عسكريا نقيما من نخبة رجاله وأسكنهم بها»^(٦).

وإذا كان قد فعل مثل ذلك ببلاد الأندلس أ يكون من المعقول أن يهمل بلاد المغرب، ويتركها عرضة للفتن والاضطرابات. كما روى المؤرخون أيضا أن يوسف

(١) I bid, P. 437

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, P.249.

(٣) E. Lavust: L'H aditation chez les Transhumants du Maroc Centrale, Hesp. 934, T. (٣) xvii.

(٤) أبو بكر الصنهاجى البيدق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص١٢٨ و١٢٩.

(٥) G. Marcais: Manuel d' art Musulmans: Ladhitecture, vol.I, 346.

(٦) عن الحلل الموشية : نقلا عن : Dozy : Abbadidarum, vol. II, P. 193.

ابن تاشفين بنى فى المغرب الأوسط قرب تلمسان مدينة جديدة سميت تآكرارت^(١) وتآكرارت فى لغة البربر معناها المحلة أو المعسكر^(٢)، كما بنى فى مراكش قلعة حصينة يعتصم بها الجند إذا لاحت نذر الخطر^(٣). إذن وضع يوسف أساس هذا النظام الفريد، وكان يستوحى التقاليد البدوية الصحراوية، ذلك أن البدو كانوا إذا أناخوا بموضع عمدوا إلى إقامة معسكر يضعون فيه دوابهم وأثقالهم، ثم حصنوه وحرسوه مخافة أن ينتهبه مغير أو يطمع فيه عدو^(٤).

وقد وضحت هذه السياسة منذ فجر الدعوة المرابطية، فما كاد المرابطون يستولون على أودغشت حتى ابتنوا معسكرا على مقربة منها يكون مركزا لعملياتهم الحربية، ومستودعا لأثقالهم وأموالهم، فلما تدفقوا صوب المغرب الأقصى، وتخطوا مدينة سجلماسة اتخذوا معسكرات من هذا القبيل قرب أغمات جعلوها مركزا لعملياتهم الحربية فى إقليم السوس الأقصى، بل إن بناء مدينة مراكش كان لتحقيق مثل هذه الأغراض الحربية، فكانت كالقيروان بنيت لتكون معسكرا للقوات الزاحفة، ونقطة مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال أطلس، ترقب تحركات قبائل مصمودة، وترصد لها^(٥).

ثم سيطر المثلثمون على إقليم المغرب الأقصى كله، وأخضعوا المصامدة والزناطين والبرغواطيين، ودانت لهم جميع شعوبه بالطاعة والغلبة، وأحسوا منذ اللحظة الأولى أنهم أقلية حاكمة تسيطر على أغلبية محكومة، وأنهم قبيلة فاتحة تسيطر على قبائل لاحصر لها، تعترف بقوتهم وتفوقهم، فكان طبيعيا أن تعتمد القبيلة الغالبة إلى أن تصون ما أدركته بعد تضحيات وبعد جهاد، وأن تضمن ولاء هذه القبائل المسودة، فلا تنقض من مضاربها فى الجبال والهضاب، فتغصب منها ثمار النصر، وكانت الدولة المرابطية تنهيا لجهاد أكبر، فكيف يتم لها ذلك إلا إذا

E. Lavust: L'H aditation chez les Transhumants du Maroc Centrale, Hesperis. (١)
1934, vol. xvii.

(٢) عبدالرحمن بن زيدان: الإنحاف ج١ ص ٨٥.

(٣) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج١ ص ٧١.

Terrasse: Histoire du Maroc, P.248. (٤)

G. Marcais: Manuel d' art Musul. vol.1, 346.(٥)

أمنت ظهر الجيوش المجاهدة، وضمنت ألا تنكص القبائل الموالية على أعقابها،
متهتزة فرصة انشغال رهرة شباب لمتونة فى معركة الأندلس لتطعنهم من الخلف، ثم
إنه لأبد من التوحيد بين إقليم الساحل وإقليم الهضاب والصحراء فتتعاون هذه
الأقاليم الثلاثة فى سبيل الاستقرار لينصرف الناس إلى الإنتاج ويعم الرخاء. كل
هذه العوامل دفعت يوسف بن تاشفين إلى أن يقيم سلسلة من الحصون، تحف
بمضارب قبائل مصمودة فى الجنوب، وغمارة فى الشمال، وزناطة بالمغرب
الأوسط، لترقب تحركاتها، وترصد حركاتها، وتحول دون عبثهم بالأمن، حتى
تشدد القبيلة المتغلبة قبضتها على البلاد.

ويبدو أن نذر خطر الموحدين قد لاحت لعلى بن يوسف، وأحسن أن
الحصون التى ابتناها أبوه لم تحقق الغرض المنشود، وأنها من القلة بحيث لم تحل
دون وثوب الفتنة فى صفوف المصامدة، فروى المؤرخون أنه استعان ببعض
الأندلسيين فى إقامة سلسلة أخرى من هذه القلاع الحصينة^(١)، أو بمعنى أدق إقامة
خط دفاع يوقف هذه القبائل العاصية عند خدها، ويمحق خطرها الوليد^(٢) فى
وقت كانت فيه كل جهود الدولة منصرفة لمعركة الجهاد، التى جندت فى سبيلها كل
مرافق البلاد، يتضح ذلك كله من قول البيدق الذى أرخ لبواكير حركة الموحدين
«أخذ المجسمون الحصون وبنوها فى مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات
لكى ينتصروا بها على الموحدين^(٣)». وكانت هذه القلاع تبنى من الحجر فى مناطق
وعرة لا يستطيع التطرق إليها فى يسر وسهولة، فتصبح كأنها أبراج مراقبة^(٤)، وكان
المرابطون يشحنون هذه الحصون بالأقوات حتى تصمد للحصار مدة طويلة، وكانوا
يعهدون بالدفاع عنها لأحد قواد لمتونة، تعاونه قوة تتألف فى الغالب من مائتى
فارس وخمسمائة راجل.

Levi-Provençal: Traduction du Baidac, P. 142 (١)

Terrasse : Histoire du Maroc, P.249. (٢)

أبو بكر الصنهاجى البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٨ - ١٢٩. (٣)

GMarçais: Manuel de L' art Musul. vol.I, 346. (٤)

٥ - أثر قيام دولة المرابطين في الحياة الاقتصادية:

وقد تركت الأوضاع التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين آثارا بارزة في الميدان الاقتصادي، ولانكون مغالين إذا قلنا إن الأحوال الاقتصادية في البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التي أدت إلى قيام الدولة من أي ناحية أخرى من نواحي الحياة في المغرب في القرن الخامس الهجري وأوائل السادس، فقد كان التوحيد بين السودان والمغرب والأندلس ذا نتائج بعيدة الأثر في تاريخ التجارة الداخلية والخارجية، فقد عرفنا كيف أن تجارة السودان كانت تمر بديار المثلثين، وكيف أن هؤلاء المثلثين كانوا يجنون من وراء هذه التجارة أرباحا ضخمة، حاولت القبائل الزناتية الضاربة في المغرب الأقصى والمسيطرة عليه أن تقتسم هذه الأرباح، وأن تأخذ نصيباً من هذه التجارة الرباحة، لأن طرق القوافل كان لا بد لها من أن تسلك المغرب الأقصى، إذا أرادت أن تبلغ الموانئ الساحلية، وكانت زناتة تتحكم في هذه الطرق، وفي هذه التجارة المارة بالمغرب الأقصى، فكان ذلك من أسباب العداء العنيف الذي ثار بين صنهاجة الصحراء، وبين زناتة المغرب الأقصى، ذلك العداء الذي أدى إلى تدفق المثلثين صوب المغرب الأقصى، والاستيلاء عليه، وطردهم الزناتيين إلى المغرب الأوسط، فكان معنى ذلك أن طريق المغرب الأقصى قد فتح أمام تجارة السودان على مصراعيه، وأصبحت القبائل المثلثة حرة طليقة، تستطيع أن تنقل متاجر السودان إلى موانئ البحر الأبيض دون رقيب أو حسيب، وأن يشتد تدفق متاجر السودان إلى أسواق المغرب، وأن تقوم في هذه البلاد حركة تجارية نشيطة، وأن تتضاعف بذلك أرباح المثلثين ويعظم ثراؤهم.

ثم تدفق المثلثون إلى الأندلس على النحو الذي تقدم وتمخض ذلك كله عن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان، كما فتحت أسواق المغرب من قبل، وأصبحت هذه التجارة تستطيع أن تتدفق إلى الأندلس كما طاب لها، تحميها الدولة وتشد أزرها مادامت بلاد الأندلس أصبحت خاضعة لحكومة مراكش، وغدت في الواقع مجرد ولاية من الولايات التابعة للمرابطين، كما أن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان معناه تمهيد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانئ شرق الأندلس، إذ أصبح بمقدور السفن أن ترد موانئ الشرق وأن تحمل من تجارة المغرب والسودان ما شاء لها أن تحمل.

وكان من أثر هذا النشاط الجرم الذى تمتعت به التجارة فى عهد المرابطين أن ظهرت فى بلاد السودان والمغرب والأندلس أسواق ذات شهرة طبقت الآفاق، قصدها تجار العالم من كل صوب، فقد أصبحت سجلماسة مركزا من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء، قصدها التجار من البصرة والكوفة وبغداد، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرق عن طريق موانئ المغرب، أو تحمل عبر الطريق البرى المؤدى إلى إفريقيا^(١) كما برزت مدينة أودغشت عند الطرف الجنوبى من الصحراء كسوق تجارى عظيم نافست سجلماسة فى هذا المضمار، وحفلت بطائفة من التجار المياسير^(٢)، وأصبحت تجارة مدينة نول لا تقل عن سجلماسة أو أودغشت، إذ أضحت سوقا تجارية عظيمة تزد أسواق المغرب بكثير من السلع الهامة، فقد كانت تشتهر بصناعة درق اللط ونسيج الكتان والصوف، ولعل مما يدل على أهمية هذه المدينة فى ذلك العصر أنها أصبحت دارا لسك النقود بسبب وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان^(٣).

أما فى بلاد الأندلس فقد نهضت مدينة ألمرية لتنافس أسواق المغرب فى ميدان التجارة الدولية، قصدها مراكب التجارة من الإسكندرية والشام^(٤)، فلم يكن بالأندلس أكثر منها مالا^(٥)، بل أصبحت فى أيام المثلثمين «مدينة الإسلام»^(٦)، حيث ازدهرت فيها صناعات الحرير وآلات النحاس والحديد، كما كانت فواكهها تحمل إلى بلاد إفريقية والمغرب^(٧).

ولعل مما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية فى عهد المرابطين نمو البحرية المرابطية، وظهورها فى ميدان الصراع الدولى، حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا، كما أصبحت تنافس النرمان، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانئ شرق الأندلس وجزر ميورقة ومنورقة أن يسيطروا حمايتهم على الحوض الغربى من

Terrasse : Hist. du Maroc, P.203. (١)

Idem. (٢)

Annales de L'Institut d'Etudes.Orient (Facul. des Lettres Univer. Alger,t.II,1936,p186(٣)

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص:١٨٤.

(٥) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٦) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.

البحر المتوسط، وقام أسطولهم بدور عظيم فى تأمين تجارة المغرب المذهب إلى الأندلس، أو إلى الأسواق العالمية الأخرى، ذلك لأن البحرية القوية كان فى مقدورها أن تعلن على القراصنة حرباً شعواء، فكانت تؤمن الطرق البحرية وتسهر على حراستها.

وهناك عامل آخر ساعد على نمو تجارة المغرب الأقصى وازدهارها، وهو أن بلاد إفريقية فى ذلك العصر منيت بغارات عرب بنى هلال، الذين نشروا الرعب والفرع فى البلاد، وهددوا السبل، فأصبحت القوافل المسافرة بين السودان وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط، لاتكاد تسلك سبيلاً غير هذه السبل التى تحف بالبحر المحيط، والتى تمر بديار جدالة وملتونة فى طريقها إلى إقليم الريف.

استطاعت الدولة بعد أن نجحت فى التوحيد بين أقاليم المغرب الأقصى أن تقرر الأمن والسكينة فى ربوعه، وأن تسهر على حماية الطرق، وتأمين المسالك^(١)، والضرب على يد العابثين بالأمن، فأمن التجار على أنفسهم، واطمأنوا، وأقبلوا بتجارهم على أسواق البلاد فى طمأنينة وثقة، وخصوصاً أن الحكومة الجديدة التى نهضت لحماية تراث الإسلام، وبسط سلطان الدين، بإحياء السنة القويمة، وبسط لواء العدل والقانون على الناس على سواء قد كسبت ثقة الناس فى جميع البلاد^(٢)، وعرف ملوكها بالأمانة، والاستقامة والعدل، وإذا وثق التجار بحكومة بلد أقبلوا عليه لا يخافون ظلماً، ولا يخشون عدواناً.

وهناك عامل آخر بعيد الأثر فى تشجيع التجارة الداخلية على الخصوص، هو أن دولة المرابطين قد ألغت المكوس^(٣) التى كانت حكومات زناتة تفرضها على

(١) ابن أبى رزق: روض القرطاس ص ١٠٠.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ص ٨٧، جذوة الاقتباس ص ٣٤٢، السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩. يقول الإدريسي: «وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمغازل، وكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره» كما أشار البيهقي (ص ٦٧) إلى أن المكوس فرضت على المتاجر فى عهد المرابطين فقال: «فأردنا الجوار فممنعونا حتى نعطى المكس وهو المكروى، وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا» ونحن نعرف أن الإدريسي كتب بعد سقوط دولة المرابطين، كما أن البيهقي أرخ للفترة الأولى التى أدت إلى قيام دولة الموحدين، ومعنى هذا أن المكوس قد أعيد فرضها فى أواخر عهد المرابطين، وإلا فكيف يستقيم ذلك مع ما ذكره الأمير عبد الله بن بلكين وهو معاصر «ورفع أنواع القبالات والحراج إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع».

المتاجر التي تسلك أقاليم المغرب الأقصى، والتي أثقلت بها على الناس، حتى أدى ذلك إلى كساد سوق التجارة، وانصرافها عن بلاد المغرب الأقصى ملتزمة موانئ أخرى، وكانت الحال في بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف لاتكاد تختلف عنها في المغرب في عهد دولة زناتة، ذلك أن ملوك الطوائف أثقلوا على الشعب، وفرضوا المكوس الجائرة على التجارة الداخلية حبا في المال وحبا في الترف، وإرضاء لنزواتهم الخاصة، وقد ألغى المرابطون هذه المكوس في المغرب والأندلس على سواء^(١). وأصبح في مكنة التاجر أن يحمل تجارته من إقليم إلى آخر، لا يخشى إرهاقا ولا عسفا مادام يؤدي عن أرباحه ما يفرضه الدين من زكاة، فكان طبيعيا أن تؤدي هذه السياسة الحكيمة إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة والمخاطرة وارتداد الأسواق عن طيب خاطر، كما أن شيوع الاستقرار في البلاد، وانصراف الناس إلى الهدوء والطمأنينة والإنتاج قد رفع من المستوى المادي لأفراد الشعب، وليس من شك في أن ارتفاع المستوى المادي للناس يمكنهم من أن يقبلوا على الشراء، وإذا كثر الإقبال على الشراء راجت التجارة فلا تتكدس في الأسواق.

ويبدو أن التجارة الدولية في عهد المرابطين بلغت شأوا عظيما، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطي، فطار ذكره في الآفاق: في المغرب، والأندلس، والشرق. وليس من شك أيضا في أن إقبال الناس على نقد الدولة إنما يدل على حسن ثقتهم بها، كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة بسبب كثرة المعاملات والتداول، حتى لقد قيل إن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطينية، وكاد أن يصبح عملة دولية، بل أصاب من الشهرة مثلما أصابه الفلورين عملة مدينة فلورنسا فيما بعد^(٢).

هذا وقد تضافرت عوامل عدة على زيادة الإنتاج ومضاعفته في الميدانين الزراعي والصناعي، ذلك لأن الدولة المرابطية حين بسطت ظلها على المغرب

(١) المقرئ: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨.

(٢) Lavoix (op. cit.) P. xxx, xxxv.

والفلورين مازال عملة هولندية حتى اليوم.

الأقصى جميعه قد وجدت بين منطقتى الإنتاج فى البلاد، وجدت بين منطقة السهول، وبين منطقة المراعى، أعنى أنها نظمت العلاقات بين المستقرين أهل السهول، وبين البدو الضاربين فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية، وقد أدى وجود هذا التعاون، وتنظيم هذه العلاقات على هذا النحو إلى شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس، والاستقرار والطمأنينة من شأنهما أن يطمئنا الناس على أن ثمرة الجهد لاتضيع عبثاً، فيعمدون إلى التوفر على الإنتاج، ينمون ويضاعفونه، وقد عملت الدولة جاهدة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب حينما طردت زناتة وشتت جموعها، وأقامت القلاع والحصون فى ديار المصامدة لترقيهم حتى لايعبثوا بالأمن والطمأنينة، أو يغيروا على مواطن الخصب والإنتاج الوفير.

أما فى بلاد الأندلس فقد اطمأن الناس إلى أن الخطر القشتالى قد تضاءل، وأن النصارى فى الأندلس لم يعودوا بحيث يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديم، هذه السياسة التى أشاعت فى البلاد جوا من القلق والاضطراب^(١). كما هدأت الأحوال فى بلاد الأندلس بعد أن قضى المرابطون على ملوك الطوائف وأراحوا البلاد من هذه الفتن والمنازعات، التى كانت لاتفتأ تثور بين هذه الدويلات المتحاسدة المتباغضة، لتجعل المجتمع الأندلسى كالمحموم فى حالة فزع ورعب دائمين.

وهناك ناحية أخرى عملت على مضاعفة الإنتاج وارتفاع مستوى الرخاء فى البلاد، ونعنى بها قلة الضرائب المفروضة^(٢)، ذلك أن المرابطين قد اكتفوا بالزكاة، وألغوا غيرها من المغارم التى كانت تثقل كاهل الناس فى المغرب والأندلس، وليس من شك فى أن تخفيف عبء الضريبة على المنتج يساعد على مضاعفة الإنتاج من ناحية، وعلى زيادة دخل الأفراد، ويشيع بين الناس لونا من الرخاء والرفاهية.

وقد لجأ المرابطون فى الأندلس إلى تطبيق سياسة كانت ذات أثر بعيد فى مضاعفة الإنتاج، وإنعاش الزراعة فى البلاد، ذلك أن المنصور بن أبى عامر

(١) Dozy: Hist. de Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 258.

Idem (٢)

وخلفاءه عمدوا إلى انتزاع الإقطاعات الزراعية، التي كانت قد منحت للجند مقابل خدماتهم العسكرية ^(١)، «وكان هؤلاء الجند يستغلونها ويرفقون بالفلاحين يربونهم كما يربى التاجر تجارته، فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه» ^(٢)، فلما انتزع المنصور هذه الأرض من أصحابها من العسكريين فرض عليها الجباة، وتولت الدولة إدارتها والإشراف عليها، فلم يحسن العمال معاملة الناس، بل ساموهم الخسف، وأنقلوا عليهم، فضعف إنتاجهم، «فتهاربوا وكفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد» ^(٣) وساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد، وأمعنت في السوء في عهد ملوك الطوائف بسبب الحروب المستمرة والفتن التي لاتكاد تنقطع، والضرائب الباهظة التي كانت تقصم ظهور الناس.

فلما آل الأمر إلى المرابطين عادوا إلى السياسة القديمة، ^(٤) وأقطعوا الجند أرضا يفلحونها ويستثمرونها، ويستولون على غلتها، «فمن ظهرت نجدته وشجاعته وإعانتة أكرموه بولاية موضع يتتفع بفوائده» ^(٥)، وكانت هذه السياسة الحكيمة بعيدة الأثر في تاريخ الحياة الاقتصادية في البلاد، فقد أقبل الفلاحون على الأرض التي كانوا قد هجروها، وأكبوا على الكد والعمل بقلوب مطمئنة، بعد أن شاع في البلاد الاستقرار والأمن والطمأنينة وخف عبء الضرائب.

ولاندري أطبق المرابطون هذه السياسة في المغرب، كما طبقوها في الأندلس أم لا، ويخيل إلينا أنهم فعلوا بالمغرب مثل ما فعلوه بالأندلس، وأقطعوا جنودا لمتونة بوجه خاص وجنود المثلثين بوجه عام أرضا يفلحونها ويتتفعون بغلتها، ويعملون على مضاعفة إنتاجها، وقد ذكرنا من قبل أن يوسف بن تاشفين أرسل إلى المتخلفين من قومه بالصحراء يدعوهم إلى الاستقرار بالمغرب، وكان يقطع الوافدين

(١) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٢٣.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٥) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٦٧.

منهم إقطاعات يشرفون على إدارتها، وكان من أثر هذه السياسة الحكيمة أن تضعف الإنتاج الزراعى فى بلاد المغرب والأندلس.

ويبدو أن الصناعة قد أصابت الازدهار والرواج بقدر ما أصابت الزراعة، فقد توافرت المواد الخام، وتدفقت من أسواق الأندلس والسودان بعد رواج التجارة ونفاق سوقها، ولا بد أن سعرها قد رخص بسبب كثرة المعروض فى الأسواق، كما أن نشاط التجارة بين موانئ المغرب والأندلس يساعد بدوره على رواج الصناعة التى أصبح من الميسور تسويقها وتصديرها إلى أسواق الاستهلاك فى الخارج، فأقبل الصناع على مضاعفة الإنتاج، وظهرت فى المغرب والأندلس مراكز صناعية ذاع صيتها وارتفع نجمها، مثل مدينة نول لمطة^(١) التى اشتهرت بصناعة الجلد والمنسوجات، ومدينة مراكش التى عرفت بصناعة الصابون والمغازل^(٢)، وفاس التى اشتهرت بصناعة الدباغة وتسييك الحديد والنحاس وصنع الزجاج والكاغد^(٣)، وكذلك ألمرية التى اشتهرت بصناعة الحرير وآلات النحاس والحديد^(٤)، ويبدو أن تقدم الصناعة ورواجها فى أواخر عهد المرابطين دفع الأمراء إلى التماس المال عن طريق فرض الضرائب على أهل الحرف والصناعات «فكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سنوق الدخان والصابون والمغازل فكانت القبالة على كل شىء يباع دق أو جل، كل شىء على قدره»^(٥).

ومما ساعد على ارتفاع مستوى الدخل بين الأفراد أن فتح الأندلس فتح آفاقا جديدة أمام أهل المغرب، فوجدوا فيها ميدانا يظهرون فيه تفوقهم ونشاطهم كما فتح ميدان المغرب أمام المجيدين من أهل الأندلس، ينشرون فيه علمهم وفنهم وثقافتهم، ويعرضون على الأمراء خبرتهم ومهارتهم، وقد تجمعت الثروات الضخمة على الخصوص فى أيدي اللمتونيين خاصة والملمثيين عامة. فقد روى

Annales des L'Institut d'Etudes.Orient (Facul. des Lettres) d'Alger)t. II,Annee (١) 1935,p>186

(٢) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . ص ٧٠.

(٣) الجزنائي : زهرة الأس ص ٧٠.

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٤.

(٥) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ص ٧٠.

صاحب أزهار الرياض أن أبا بكر بن باجة غنى فى حضرة ابن تيفلويت أحد أمراء المثلثين، فلما سمعه «صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وماخمت وحلف بالأيمان المغلظة ألا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب»^(١) فكيف يستطيع مثل هذا الأمير البدوى الصحراوى أن يفعل ذلك إلا بسبب وفرة الثراء وتكدس الأموال.

وقد ظهر أثر المبادئ التى قامت عليها دولة المرابطين واضحا جليا فى جانب آخر من جوانب الحياة الاقتصادية فى البلاد، ونعنى به السياسة الضريبية للدولة. ذلك أن المرابطين وقد التزموا أحكام السنة أحبوا أن يطبقوا أحكامها فى الشئون المالية بدقة متناهية^(٢)، فكان معنى ذلك إلغاء مالم يرد به نص فى الكتاب أو السنة. وقد كان المجتمع المغربى أو الأندلسى يحفل بألوان متعددة من الضرائب الجائرة، التى لا يقرها الشرع، ولا يرضى عنها الدين، فقد كان ملوك الطوائف بالأندلس وملوك زناتة فى المغرب يفرضون على الناس المعونة^(٣)، وهى ضرائب وقتية يفرضها العامل متى شاء، وكانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم^(٤)، وهنالك ألوان شتى من المغارم يسميها عبدالله ابن بلكين «مغارم الإقطاع»، وهى الضرائب التى كان ملوك الطوائف يفرضونها على الناس، إرضاء لنزواتهم، وتحقيقا لشهواتهم، وأطماعهم. قد كانت القبالات^(٥) شر أنواع الضرائب، وكان المتقبل هو شر جباة المال جميعا، يرميه ابن عبدون بكل نقيصه حين يقول «المتقبل هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبور الذى خلق للضرر لا للنفع فهو يجرى ويسعى لضرر المسلمين، فيجب للقاضى أن يستخلفه ويحد له مايمنع من تصرفه ولا يتركه يتحكم فى أموال الناس باختياره على مايراه أنه صواب»^(٥).

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٤٩. أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩.

(٢) ابن القاضى: جلوة الأقباس فى من حل من أعلام مدينة فاس ص ٣٤٢.

(٣) ابن أبى روع: روض القرطاس ص ١٠٠.

(٤) عبدالله بن بلكين: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى ص ٣٤٠.

Al-Andalúe (vol. III, Fasc. 2, Madrid-Granada. 1935, vol. vi Fasc L. 1941

(٥) المرجع السابق ص ١٢٧.

فلما فتح المرابطون المغرب والأندلس، ونادوا ببطلان هذه الجبايات الجائرة كان لعملهم ذاك وقع عظيم، وصدى بعيد الأثر في الحياة، بل كان إقدامهم على ذلك ثورة بعيدة المدى، إذ كان معنى ذلك تحرير جمهرة الناس من هذه الأعباء المالية القاصمة، التي كانت تقصم ظهورهم وتستذلهم وتستنزف أموالهم، فلا تكاد تبقى في أيديهم ما يمسك الرق، فظهر المرابطون في كل مكان حلوا فيه بمظهر المنقذ^(١)، فالتف الناس حولهم طائعين، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة كانت من أهم العوامل التي مهدت لهم السبيل، وفتحت أمامهم أنواع القلاع والحصون على مصاريحها، فقد ظهر ملوك الطوائف في نظر الناس بمظهر المتعسفين الجائرين، فلما خلعهم المرابطون ونفوههم تنفس الناس الصعداء، وباركوا ما فعله المرابطون، وكان الفقهاء أول من مهد السبيل حين أفتوا بخلعهم، لم يفرض المرابطون على الناس «إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة»^(٢) من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة، وأحماس غنائم المشركين»^(٣).

(١) Menendez Pidal: The Gid and his Spain, p. 265.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٧.

(٣) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ١٢٧. ابن أبي زرع ص ١٠٠.

والأنواع التي تجب فيها الزكاة خمسة أشياء:

١ - زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيهما إذا بلغا النصاب فنصاب الذهب عشرون مثقالا ونصاب الفضة عشرون مثقالا.

٢ - زكاة السوائم وهي الإبل والغنم فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة وهكذا في كل خمس شاة فإذا بلغ خمسين وعشرين ففيها بنت مخاض.

٣ - زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول.

٤ - المعدن والركاز وما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة.

٥ - زكاة الزرع أو الثمار وحكم زكاتها هو أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء.

انظر: حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص ٢٧٧-٢٨٠.

أحكام الجزية : فرض الشرع الجزية على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد وذلك على النحو الآتي،

١ - أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما.

٢ - متوسط الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما.

٣ - فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما.

٤ - ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ولا من لا قدرة له على العمل ولا من الأعمى، أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ومن المترهبين في الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء ولا تجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأة ولا صبي.

ولكن برغم قلة الضرائب على هذا النحو، ورغم إلغاء هذه الألوان المتعددة من الجبايات غير المشروعة، فإن الأموال قد تضاعفت، وتدفقت على بيت المال وانتشر الرخاء، وعم اليسر، وأصبح الأمراء فى الأندلس وفى المغرب يحيون حياة ميسورة، يسرفون فى بذلهم، وفى عطائهم، فيغدقون على الفقهاء والعلماء^(١) وعلى وجوه البر، ينشئون المساجد، وينفقون فى سبيل الله^(٢)، وعظم ثراء يوسف بن تاشفين وكثر ماله، «فقد جبى من المال على وجهه مالم يجب أحد من قبل»^(٣)، فلما مات وجدوا فى بيت ماله «ثلاثة عشر ألف ربيع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ريعا من دنائير الذهب»^(٤)، حتى لقد قال يوسف أشباخ إن هذه الثروة الطائلة من الذهب والفضة تقوم بعدة ملايين^(٥).

وهذه فى الواقع ظاهرة اقتصادية تحتاج إلى تفسير وتعليل، ولعل أولى الأسباب التى نسوقها لتفسيرها أن قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها خير من كثرتها مع العجز عن الوفاء بها، إذ لايجدى أن تفرض الدولة ضرائب جائرة تثقل بها على الناس فيتبرمون بها، ويعجزون عن سدادها والوفاء بها، بل الخير كل الخير فى أن تفرض ضرائب فى حدود طاقة الناس فلا يتبرمون بها، إنما يدفعونها عن رضى وطيب خاطر. ويبدو أن هذه السياسة قد احتلت من تفكير المرابطين محلا رفيعا، فعنوا عناية فائقة بتحصيل الزكاة والعشور، وحرصوا على ألا يفلت منها أحد، ولجأ لهذه الدقة أو لهذه المغالاة فى ضمان تحصيل الزكاة والعشور صدى فيما كتبه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة يندد بالوسائل التى اتخذها المرابطون فى تحصيل أعشار ثمار الزيتون وغيره من المحصولات التى تتوافر فى منطقة أشبيلية^(٦).

وقد عهد المرابطون إمعانا فى ضمان تحصيل هذه الضرائب إلى اليهود فى

(١) ابن الزبير : صالة الصلة ص ٨٢. الديباج المذهب ص ٤٩. أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩.

(٢) مفاخر البربر ص ٥٣.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٨٨.

(٤) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩.

(٥) يوسف أشباخ ج ١ ص ١١٩.

(٦) E.Levi-Provencal: Seville Musulmane du debut du xli Siecle: Le Traite d'ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. xl.

بلاد الأندلس بأعمال الجباية^(١) ، كما جعلوا أعمال الجباية بالمغرب للتصاري
المقيمين في البلاد^(٢) ، عمدوا إلى ذلك لأنهم يعلمون أن أمثال هؤلاء يخافون
السلطان ويخشون العقابة ويترددون طويلا قبل أن يقدموا على التلاعب في هذه
الجبایات أو يفرطوا في أداء الواجب .

وكان المرابطون بدورهم يراقبون عمال الخراج مراقبة دقيقة، ويشددون
النكير عليهم ويحاسبونهم حسابا عسيرا، ويعاقبون المقصر عقابا صارما، فكانوا
يحاسبون العمال إذا اعتزلوا الخدمة، ويعرضونهم لمصادرة الأموال والسجن^(٣) ،
إذا رأوا منهم تفريطا أو تقصيرا . وكانوا يحاسبون ورثة العامل إذا مات، ويثقلون
عليهم ويصادرون تركته المتوفى إذا لزم الأمر، ولعل هذا الخوف من هذا الحساب
العسير هو الذى دفع مؤمل عامل الخراج بقرطبة حين حضرته الوفاة إلى أن يحضر
ماكان عنده من مال المستخلص، وأشهد الحاضرين على دفعه، ثم أبرأ جميع عماله
وكتابه، لأنه خشى أن يصيب ورثته مكروه إذا مات دون أن يبرئ ذمته^(٤) .

كما يجب ألا ننسى أن الدعوة الدينية التى اضطلعت بها الدولة قد أشاعت
فى الناس روح الأمانة والثقة، وكان الأمراء والملوك قدوة للرعية والعمال، إذا
صلحوا واتقوا الله اهتدى الناس بهديهم، والناس على دين ملوكهم، ولعل إقدام
مؤمل عامل الخراج على الإثقال على نفسه، وهو على فراش الموت، وحرصه
على أن يبرئ ذمته قبل أن يقضى نجب «ورغبته فى ستر أهله وولده وحرصه على
أن يرسل لأمير المسلمين بالمال الذى اكتسبه فى دولته»^(٥) يعبر عن هذه الروح
الجديدة التى تفشت بين الولاة والعمال فى أول العهد بالدولة .

وقد ترد زيادة الدخل إلى عوامل أخرى، مثل قلة النفقات مثلا، ذلك أن
الدولة لم تكن تنفق على الجيش نفقات طائلة، إذ كان الجند يؤجرون على

(١) أشباح جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) الحميرى : روض المعطار ص ١٩٧ .

(٤) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ١٢٩ . (Appendice, II)

(٥) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ١٢٩ .

خدمتهم بإقطاعهم إقطاعات زراعية يستثمرونها، ويتصرفون فى غلتها^(١). وكان نصيب الفارس لايزيد على خمسة دنائير فى الشهر بما فى ذلك نفقته وعلف فرسه^(٢)، وكان الجند يعتمدون على نصيبهم من الغنائم اعتمادا عظيما، فقد كانت الحرب مستعرة الأوار، وكان الجهاد فى سبيل الله لا ينقطع، وكانت الغنائم كثيرة، ولا بد أن سهم الفرد منها كان كبيرا. وقد عمد المرابطون فى الأندلس إلى ترك الثغور المواجهة للعدو « فى حكم المسلمين الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها وأدرى ببقاء العدو وشن الغارات ولم يمكننا من ولايتها أحدا سواهم »^(٣)، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تخفيف عبء الدفاع عن الثغور عن كاهل المرابطين.

زد على ذلك أن روحا من التقشف والزهد قد شاعت بين الأمراء ورجال الدولة - فى عهد يوسف على الأقل - وكان أمير المسلمين نفسه « زاهدا فى زينة الدنيا متورعا متقشفا على ما فتح الله عليه »^(٤). ذلك أن الانغماس فى الترف والانكباب على الملذات والإغراق فيها، واصطناع مجالس اللهو والسمر والشراب والمنادمة يدعو إلى كثرة البذل والإنفاق، واتخاذ البلاط الزاخر بالجوارى والإماء والصفالبة والحجاب يكلف الدولة مبالغ طائلة.

٦ - أثر قيام دولة المرابطين فى الحياة الاجتماعية:

وقد تمخض قيام الدولة عن نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية فى المغرب والأندلس، فقد ظهرت طبقة جديدة من المثلثين، وطائفة سيدة حاكمة ذات حول وطول وسلطان، انتشرت فى مدن المغرب وأقاليمه وفى مدن الأندلس وأقاليمه، يتولون الأعمال، أو يزاولون التجارة أو الزراعة أو الصناعة، وقد ظهر صدى ذلك التطور الاجتماعى الخطير فى الأندلس بصورة واضحة، فبعد أن كان البربر أقلية متغطرة لا ينظر إليها أهل البلاد نظرة الرضا والإرتياح ازداد عددهم وتوافدوا على بلاد الأندلس زرافات ووحدانا، وأصبحوا أصحاب الدولة والسلطان، وانتشرت

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٣ . الحلل الموشية ص ٦٧ .

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) التادلى : التشوف ص ١٤٩ . روض القرطاس ٨٧ .

هذه الجاليات المثلثة فى المدن والقرى يستعلى أفرادها على أهل البلاد^(١)، ويحيون حياة تكاد أن تكون فى معزل عن طبقات المجتمع الأخرى. بل إنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد القضاة قائلاً «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تقضيه ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه»^(٢). لذلك طالب ابن عبدون بأن يتخذ القاضى أعوانا من البربر ممن لهم كلمة مسموعة لدى هذه الجاليات المتغترسة المتعالية^(٣). كان المثلثون يسىرون فى الطرقات مرتدين اللثم متمنطقين بالسلاح^(٤)، فيدخلون الرعب والفزع فى قلوب السكان الأمنين، مما جعل ابن عبدون يشترط ألا يسير مثل هؤلاء فى الطرقات بسلاحهم، مخافة أن يعتدوا على أرواح الأمنين، لأن «البربر قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا»^(٥) وكان أهل الأندلس فى الواقع يكرهون المغاربة أشد الكره، ويعتبرونهم دخلاء^(٦)، وينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الجفاة الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة ولا مدينة، كما كان أهل العدو بدورهم يكرهون أهل الأندلس^(٧)، ويسمونهم بميسم الضعف والتخاذل والجشع. ويبدو أن طائفة الحشم والأتباع كانوا يتشبهون بالمرابطين فيتلثمون ويموهون على الشعب، ويرتكبون الشرور والآثام، مما أثار امتعاض الكاتب ابن عبدون فقال «يجب ألا يلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فلن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيئونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثم»^(٨).

وقد تمخض قيام الدولة أيضا عن ظهور طبقة جديدة أصبحت ذات حول وطول ونفوذ، ونعنى بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين، وليس من شك فى أن الفقهاء والقضاة موجودون فى كل عصر، وفى كل زمان، ولكنهم فى عهد

(١) التادلى : التشوف ص ١٢٣.

(٢) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص ١٠٦.

(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٨. القرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ٨٩.

(٥) المرجع السابق ص ٢١٨.

E.Levi-Provencal : Le Traite d'ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, (٦) P.183

Dozy: Abbadidarum vol. II. p.234. (٧)

(٨) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ٢١٨.

حكومة المرابطين ظفروا بنفوذ وسلطان لم يكن لهم من قبل، وقد رأينا كيف احترم أمراء المسلمين القضاة والفقهاء، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة رفيعة أشركوهم في مجالس الشورى، واتخذوا بعضهم وزراء، وشاوروهم في كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد، قربوهم وأغدقوا عليهم، ولم يكن يوسف بن تاشفين أو ولده على مجلسان إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم، ويسرون في ركايبهم.

وقد سما قدر القضاة وتمتعوا بسلطان عظيم^(١)، حين أعطاهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة، وأصبح حكم القاضى نافذا لا يرد^(٢)، وإذا كان ولى الأمر قد عامل القضاة على هذا النحو، فلا عجب إذا رأيناهم يتمتعون فى الحياة الاجتماعية فى المغرب والأندلس بمكان مرموق، قصدهم الناس، ولجثوا إليهم متقربين مستشفعين، بل قصدهم الشعراء مادحين مشيدين بفضلهم، ينتظرون رفدهم وصلاتهم، تكدست فى أيديهم الأموال، وأخذوا يعيشون عيشة البذخ والترف^(٣).

وقد بلغ من نفوذ القضاة أن حاول أحدهم وهو ابن حمدى أن يستقل بملك قرطبة فى أواخر العهد بالمرابطين، كما حاول فقيه آخر أن يتسنى مقعد عبدالله بن ياسين، وأن يكون له الإشراف الفعلى على شئون الدولة، يعمل الأمراء بإرشاده وبوحي منه^(٤). أصبح المثلثون من ناحية، والقضاة من ناحية أخرى الطبقة البارزة فى المجتمع التى جمعت بين المال والسؤدد والنفوذ.

وقد صحب قيام الدولة ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة فى المغرب والأندلس من قبل، ونعنى بها ظهور المرأة الصنهاجية فى المجتمع، ومشاركتها فى الحياة العامة، وتمتعها بنوع من الحرية والمساواة لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت، وقد سبق أن بينا فى الباب الأول كيف أن النظم الاجتماعية لشعب المثلثين تجعل للمرأة مكانة عالية فى المجتمع، تتمتع بالمساواة التامة، وتشارك فى مجالس

(١) مشيخة عياض ورقة ٤٩ (ب).

(٢) الذخيرة : (م . بغدا) قسم ٢ ص ١٠٦.

(٣) المراكشى : المعجب ص ١١ . الروض المطار : ١٩٧ . انظر أيضا مشيخة عياض ورقة ٥٠ أو ٦٧ أنيل

الابتهاج ص ١٦٢

(٤) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص ١٢٥

القبيلة، تقتنى الثروات، وتطلب العلم، وتمتع في عشيرتها وقبيلتها بسلطة عظيمة^(١).

فلما نزع المرابطون إلى المغرب والأندلس، واستقروا في المدن والقرى، وصحبوا نساءهم وأولادهم بدأت المرأة الصنهاجية تتمتع في المجتمع الجديد بمثل ماكانت تتمتع به في المجتمع القديم. وقد رأينا كيف أن زينب زوج أمير المسلمين يوسف كان تتمتع بمكانة عظيمة، وكان زوجها يشركها في مختلف شئون الدولة ويستمع لنصحتها وإرشادها.

ويبدو أن نساء الأمراء والنبلاء والقواد والعمال وغيرهم من المثلثين كن يتمتعن بسلطة واسعة ونفوذ كبير، فقد روى أن ثيمة بنت يوسف بن تاشفين كانت تطلب العلم، وتحفظ الشعر، وتتخذ الموكلين والكتاب، وتبرز إليهم في غير ماحياء أو خجل، وتحاسبهم دون أن تجحد في ذلك غرابة^(٢)، ويظهر أن سفوز المرأة أو بروزها لمقابلة الناس لم يكن شيئا مألوفا في المجتمع المغربي - على ما نعتقد - فقد روى أن الكاتب الذي لقيته ابنة أمير المسلمين قد بهت فلما نظرت إليه الأميرة ظنت أنه بهت من حسنها الفائق وجمالها، وظنت أنه يتطلع إليها ويرغب فيها^(٣) فأنشدته:

هى الشمس مسكنها فى السما فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود دولن تستطيع إليك النزولا^(٤)

وقد بلغ من نفوذ بعض الأميرات المرابطيات أن قصدهن الشعراء يمدحون ويتقربون، وجاءهن أصحاب الحاجات يلتمسون الشفاعات، فقد كتب الشاعر ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت إبراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف^(٥)، ويبدو أن الحجاب الذى كان مألوفا في أغلب البيئات الإسلامية في

(١) Rodd: people of the viol, p. 168.

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٠٦.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٥) ديوان ابن خفاجة ص ١١٤.

ذلك الوقت لم يكن مألوفاً في هذه البيئة الجديدة التي سيطر عليها المرابطون، فقد روى المؤرخون أن أميراً من المثلثين يدعى أبا بكر بن إبراهيم دخل على ابن عمه في خبائه، وكانت زوجته تمشط شعرها، فلم تنسحب من المجلس إثر قدومه، بل بقيت في مكانها لا تبرحه^(١)، ومن أسف أن النصوص التي كان من الممكن أن نستعين بها في إعطاء صورة أوفر حظاً لهذه المكانة الفريدة التي تمتعت بها المرأة الصنهاجية قليلة جداً، لانتمكتنا من أن نوفى هذا الموضوع الطريف حقه من البحث والدراسة.

مهما يكن من شيء فقد نظر المعاصرون إلى هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة المنكر^(٢)، واعتبرها بعض المتزمتين من أهل الأندلس والمغرب خروجاً على التقاليد الدينية والاجتماعية، وكانت من الأمور التي نقمها الموحدون على المرابطين، واستغلوا في النيل منهم والطعن فيهم وتشويه سمعتهم، فقد قيل إن ابن تومرت المهدي لقي أخت على بن يوسف بمدينة من مدن المغرب، وقد خرجت إلى السوق تمشى سافرة غير محجبة، فما زال بها حتى ردها على أعقابها مندداً بمسلكها^(٣).

وهناك طبقة أخرى من طبقات المجتمع تأثرت بالأوضاع التي تمخضت عن قيام الدولة، ونعنى بها طبقة أهل الذمة في الأندلس والمغرب، من النصارى المعاهدين واليهود، ذلك أن النصارى المعاهدين كان قد ارتفع شأنهم في بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف، ونبه ذكهم، وأصبحوا يتمتعون بحرية قلما ظفر بها أجدادهم من قبل، وذلك بسبب الضعف والتخاذل والانقسام الذي أصاب المجتمع الأندلسي في ذلك العهد، وما كان من ظهور قوة قشتالة وليون في عهد ألفونسو السادس، الذي عمل على النيل من المسلمين في الأندلس، والتنكيل بملوك الطوائف وإذلالهم، وكان النصارى المعاهدون المثبون في المدن والقرى في بلاد الأندلس عيون قشتالة، يكشفون للعدو عن عورات المسلمين، ويمدون للقوات النصرانية الزاحفة يد المساعدة. وكانت ببلاد الأندلس جاليات يهودية تخدم

(١) ابن الخطيب : الاطحة ج١ ص ٢٤٣ .

Dozy : Recherches, vol. p. 278. (٢)

Idem (٣)

النصارى والمسلمين على سواء، لايعنيها إلا الإثراء بأية وسيلة، كانوا يشغلون بأعمال الجباية للمسلمين أو للنصارى، فقد خدموا بنى زيرى ملوك غرناطة، وكان رسول ألفونسو إلى المعتمد واحدا منهم. وكان التهود قد انتشر فى ربوع المغرب الأقصى منذ القدم^(١)، وقد رأينا كيف أن دين موسى قد انتشر بين ربوع صنهاجة قبل اعتناقها الإسلام، وبقيت جاليات يهودية كبيرة العدد، تنزل بمدن المغرب مثل فاس وأغمات إيلان^(٢).

ولكن قيام دولة المرابطين وبسط لوائها على المغرب والأندلس قلب هذه الأوضاع رأسا على عقب، فقد أوقف المرابطون قشتالة وليون عند حدهما، ووقفوا للقتوات الصليبية فى البحر والبر بالمرصاد، وخلعوا ملوك الطوائف، وبسطوا لواءهم على مايبد المسلمين من بلاد الأندلس، فتغيرت أوضاع أهل الذمة تغيرا كبيرا.

ولم يكن من المعقول أن يحتفظ النصارى المعاهدون بهذه المكانة الرفيعة التى كانوا قد وصلوا إليها، ومادامت الدولة قد رفعت لواء السنة وأعلت كلمتها كان طبيعيا أن يلتزم المرابطون أحكام السنة فى معاملة النصارى واليهود على حد سواء^(٣).

ويبدو أن حال النصارى المعاهدين فى الأندلس قد ساء كثيرا فى ظل الدولة الجديدة، إذ يبدو أن المرابطين خيروهم بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية، فمن دخل فى الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه وماعليهم، ومن اختار الجزية «دفعها عن يد وهو صاغر»، ويبدو أن كثيرين من هؤلاء المعاهدين قد ارتضوا دفع الجزية عن طيب خاطر، هذا الجزية التى أصبحت فى الواقع من أهم موارد بيت المال فى ذلك العهد^(٤).

ولم يقتصر أمر النصارى على مجرد دفع الجزية، إذ يروى أن الفقهاء أفتوا

(١) De la Chapelle: Esquisse d'une histoire de Shara, Occid. Année 1930, t. xi, p. 52.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية «الطبعة الإنجليزية» مادة مراکش Pierre de Chenival

(٣) ابن أبى زرع روض القرطاس ص ٨٨.

(٤) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١

بهدم كنيسة المعاهدين بغرناطة، فأرسل يوسف من هدمها. ويدو أن المرابطين هدموا كنائس كثيرة كانت للمعاهدين في ديار المسلمين^(١)، وليس من شك في أن سيطرة فقهاء مالك على الشئون العامة في البلاد، وخضوع الأمراء لرأيهم وعملهم وفق مشورتهم، قد نشر جوا من التزمت والمغالة في معاملة أهل الكتاب الذين ظلوا دهرًا طويلًا أصحاب جأء ونفوذ، ومن الإسراف أن يفرط دوزي في لوم المرابطين ولوم الفقهاء على موقفهم هذا^(٢)، فقد نسي أن روح العصر كانت روح جهاد وحرب وعداء مستعر الأوار بين الإسلام والنصرانية. أجمعت الحروب الصليبية نار ذلك العداء، وكان نصارى الأندلس أنفسهم لا يكفون عن التنكيل بمن يقع في قبضتهم من المسلمين، فقد استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وجعل مسجدًا الجامع كنيسة برغم تعهده بالألا يمس عقائد المسلمين أو يتعرض لمساجدهم، وكانت أعمال السيد القمبياطور في بلنسية شاهدة على صدق مانقول، فقد أحرق الفقهاء وانتهك حرمة المساجد.

ولم يكن من المعقول أن يترقب المرابطون باليهود الذين شربوا من نفس الكأس التي شرب منها النصارى، وطولبوا باعتناق الإسلام أو دفع الجزية، وقد روى دوزي أن أحد الفقهاء عشر في مخلفات ابن مسرة على حديث منسوب للرسول ﷺ يقول بأن اليهود كانوا قد تعهدوا بأن يعتنقوا الإسلام إذا مرت خمسة قرون دون أن يظهر مسيحهم المنتظر^(٣)، فطالب الفقهاء اليهود بالوفاء بالوعد الذى وعد به أجدادهم من قبل. وينحى دوزي باللائمة على المرابطين لأنهم وقفوا من اليهود هذا الموقف^(٤)، ولكنه يعود فيذكر أن المرابطين ارتضوا أخذ الجزية من اليهود الذين صدوا عن اعتناق الإسلام^(٥). ولم يكن من المعقول أن يكره المرابطون اليهود على الدخول فى الإسلام إكراهًا، فيخرجوا عن تعاليم السنة القويمة والعقيدة السمحة التى تقول بأن لا إكراه فى الدين، ولكن دوزي يسرف

Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266. (١)

Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266. (٢)

Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266. (٣)

idem (٤)

Idem (٥)

فى لوم المرابطين لقبولهم الجزية، وكأئما أراد أن يبقى المرابطون أهل الذمة على حالهم لا يطالبون بإسلام أو بجزية، إذ يعتقد أن المثلثين قبلوا الجزية طمعا فى المال ليس إلا^(١). ويبدو أن يهود المغرب الأقصى كانوا يقيمون فى مدن معينة، فلم يكن يسمح لهم بدخول مراكز إلا نهارا، وحرّم عليهم المبيت فيها وإلا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر^(٢).

وقد أدى اتساع رقعة الدولة وبسط نفوذها على بلاد الأندلس إلى ظهور عوامل جديدة تركت فى الحياة الاجتماعية فى الأندلس والمغرب آثارا واضحة، بل لانكون مغالين إذا قلنا إنها كادت تغيرها تغيرا تاما، ذلك أن الأموال بدأت تتدفق إلى بيت المال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها^(٣)، وبدأ الأمراء ينفقون عن سعة، وأخذ الولاة يثرون النصار على الناس ثرا، فقد روى أن عامل دكالة رغب فى أن ينقطع أحد الفقهاء إلى صحبته، فلما أبى الفقيه «ضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهب مرابطة»^(٤).

وقد صحب تكدس الأموال على هذه الصورة اندماج هؤلاء الأمراء والسادة فى الحياة الاجتماعية فى الأندلس، هذه الحياة التى كانت قد بلغت شأنا عظيما من الرقى والأبهة فى أواخر أيام ملوك الطوائف، وتآلق نجم الحضارة فى الأندلس بصورة لم تكن معهودة من قبل، وقد تفوق أهل الأندلس فى الأدب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والرفيعة. فلما فتحت بلاد الأندلس التقت حضارتان أو لوانان من ألوان الحياة الاجتماعية: لون أندلسى رفيع ولون مغربى صحراوى أقل رقى وتفوقا. وكان منطق الأشياء يقضى بأن تتغلب الحياة الأكثر رقىا فتصرع الحياة الأكثر ضعفا، وهذا هو ما حدث بالضبط، فقد صارعت الحياة الأندلسية الرفيعة هذه الحياة الاجتماعية المغربية فتغلبت عليها وأثرت فيها.

غير أن التعاليم التى بثها الإمام عبدالله بن ياسين وسار عليها خلفاؤه من

Idem (١)

(٢) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ص ٦٩.

(٣) Dozy: (op. cit.) vol. iv, p. 261

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩. السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣.

الأمراء خلقت جيلا من الولاة حديثى عهد بحياة الصحراء البسيطة الخشنة غير المتكلفة، وحديثى عهد بحركة الزهد والتقشف التى بثها ابن ياسين وخلفاؤه من بعده^(١)، وقد استطاع هذا الجيل الصالح أن يقاوم مؤثرات المال الوفير والحياة الأندلسية الراقية، وظلوا فى عهد يوسف بن تاشفين قدوة صالحة للأمراء المتزهدين العزوفين عن متع الحياة، مثل سير بن أبى بكر وأبى عبدالله ابن عائشة «الذى لم يكن من قواد يوسف مثله بأسا وجدا فى نصرة الدين واستبصارا فى أداء الطاعة»^(٢).

ولكن هذه المؤثرات لم تستطع أن تصمد طويلا بعد وفاة يوسف، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعتها وبهجتها ومسراتها، ولم يكن من الممكن أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلا، فقد عاشوا فى ظلها وانغمسوا فى لجنها، واضطروا أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون فى الأندلس. ظهرت هذه المؤثرات الجديدة فى أوائل عهد على بن يوسف، فلم يكن هذا الأمير الذى ولد فى بحبوحة العز والترف متقشفا كأبيه، ولم يكن من الممكن أن يكون كذلك، وهو الذى ولد فى حجر العز والسلطان؛ كان إذا رحل إلى الأندلس نزل بأشبيلية فى معرش غاية فى الحسن والجمال، وصفه الفتح بن خاقان بأبلغ وصف، فقال: «خرجت بأشبيلية مشيعا لأحد الزعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين، أدام الله تأييده - الذى ينزل به عند حلول أشبيلية، وهو موضع مستبعد كأن الحسن فيه مودع ماشئت من نهر ينساب انسياب الأراقم وروض كما وشت البرود يد راقم وزهر يحسد الماء رياه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه»^(٣).

فى هذا القصر الجميل الوارف الظل كان ينزل أمير المسلمين كلما حل بالأندلس، فيستمتع بمطاييب هذه الحياة الأندلسية الرفيعة، فلم يكن بدعا أن ينسج الأمراء والقواد على منواله، وأن يعيشوا فى مقاطعاتهم عيشة رفيعة مترفة، فيها رخاء وفيها متعة، فتأنقوا فى المأكول والملبس، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين

(١) Dozy: (op. cit.) vol. iv, p.261

(٢) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٥٥ .

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١١ .

والندماء، وبدعوا يحيون حياة لاتكاد تختلف عن الحياة التي كان ملوك الطوائف يحيونها^(١)، فروى المقرئ أن أبا بكر بن الروح الأشبيلي مدح الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وكان يدل عليه ويناديه بقصيدة مطلعها:

أنا شاعر الدنيا وأنت أميرها فمالى لايسرى إلى سرورها^(٢)

وكانوا أيضا يستمعون إلى المغنين ويجالسونهم ويطربون لشعرهم وغنائهم، فقد جالس أبو بكر بن باجة ابن تيفوليت صاحب سرقسطة، فألقى على بعض قيانة موشحة أولها:

جرر الذيل أيما جر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفوليت صاح: واطرباه، وشق ثيابه. وقال ما أحسن ما بدأت وماختمت^(٣)، وهذه الرواية تصور لنا تصويرا صادقا لونا من هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة التي كان يحيها الأمراء في الأندلس، والتي وضحت فيها المؤثرات الأندلسية أتم وضوح.

ويبدو أن الحياة الاجتماعية في المغرب قد أصابت من هذه المؤثرات الشيء الكثير، فقد كان الأدباء والشعراء والمغنون يعبرون البحر إلى العدو، ويلمون بفاس أو تلمسان أو مراكش وغيرها، يمدحون الأمراء، ويجالسونهم، ويتغنون بحامدهم، وليس ببعيد أن أمراء المغرب كانوا يحيون مثل هذه الحياة المترفة، وخصوصا أن الدولة كانت تنقل أمراء الأندلس إلى المغرب، وأمراء المغرب إلى الأندلس، وكان الأمير المنقول إلى المغرب يصحب بطانته ووزرائه وكتابه، وقد اتخذ الأمراء القصور الحسان^(٤)، وتفنن فنانون الأندلس في بنائها وزخرفتها، وبدت مراكش في أواخر العهد بالمراطين زاخرة بهذه الحياة المترفة الرفيعة، وانتشرت بها

(١) Dozy: Hist des Musul. d'Espace, vol. iv, p. 2611

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦. المقرئ: نقح الطيب ج ٢ ص ٢٧٠.

(٣) المقرئ: أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩

(٤) التادلي: الشوف ص ١٢٣.

قصور الأمراء والقواد وخدام الدولة^(١)، وكلما أمعنت الدولة في الترف كلما تناست رسالتها، واطرحت المثل التي وضعها عبدالله بن ياسين، فذكر البيدق «أن الحوانيت كانت مملوءة دفوفاً وقراراً ومزامير وعيدانا وأربية وكيثارات وجميع اللهو»^(٢).

V - أثر قيام دولة المرابطين في حضارة المغرب والأندلس:

أما الآثار التي خلفها قيام الدولة في حضارة المغرب والأندلس فقد كانت عظيمة حقاً، إذ تركت أثاراً واضحة في الحياة الثقافية في المغرب والأندلس، وفي الفن الأندلسي المغربي، وقبل أن نعرض لهذه النتائج، ونلمس صدى هذه التأثيرات في الميدان الحضاري، يجب علينا أن نعرض للاتجاهات التي خلفها قيام الدولة، هذه الاتجاهات التي كانت بمثابة حجر الزاوية في هذا الصرح الحضاري المنيف، الذي شيده المرابطون، سواء في المغرب أو في الأندلس.

فقد تمخض قيام الدولة عن توحيد المغربين الأوسط والاقصى وظهورهما في عالم شمال إفريقية بمظهر القوى المتماسك، وكان نمو قوة المرابطين وظهورهم بهذا المظهر القوى الرائع عاملاً عظيماً في وقف توسع عرب بنى هلال، والحيلولة بينهم وبين التدفق إلى المغرب الأقصى، فقد عرفنا كيف استطاع عرب بنى هلال أن ينالوا من دولة بنى زيري، ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس^(٣)، وأن يدكوا صرح القيروان، وأن يعيشوا في إفريقية فساداً، يغيرون على المدن الزاهرة، ويحملون علم الدمار والخراب في طول البلاد وعرضها^(٤).

فلما استقر هؤلاء العرب في إفريقية يتابعون هذه السياسة الحمقاء، تفرق علماء إفريقية أيدي سباً، وانتهت القيروان كجامعة ذات شأن في الحياة الثقافية في المغرب والأندلس^(٥)، هذه الجامعة التي شد إليها المغاربة والمشاركة الرحال، ونهلوا

(١) الإدريسي: المغرب وأرض السودان والأندلس ص ٦٨.

(٢) أبو بكر الصنهاجي، البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت ص ٦٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٤٥.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٤٨.

من علمها ما طاب لهم، وظلت تغذى الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى طيلة أربعة قرون. وقد أقفرت مدارس القيروان بعد غارات عرب بنى هلال، ونجا العلماء من مدن إفريقية بعلمهم وفنهم، وتركوا إفريقية نهباً للعرب يعيشون فيها كيف شاءوا^(١). وكان طبيعياً أن يؤدوا رسالتهم، ويتابعوا نشاطهم الثقافى، فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الأقصى، إلى فاس وسبتة وطنجة وأغمات وتلمسان، فكان نكبة القيروان، وكارثة الحضارة فى إفريقية قد عملت على تفوق مدارس المغرب الأقصى، وبروزها فى ميدان الحضارة، وتآلق نجمها فى عالم الثقافة.

وفى هذه الأونة بالذات أسدى المرابطون للحضارة يدًا طولى، ومكنوا لمدارس المغرب الأقصى وعلمائها من متابعة الرسالة المقدسة بعيدين عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم الموفقة، فقد وقف المرابطون للعرب بالمرصاد، وحموا المغرب الأوسط والأقصى من شرهم، وحينما راح بنو حماد الذين تنكروا لتراث قبيلتهم وخانوا بنى عمومته يجمعون الأعراب ويؤلبونهم، ويجندونهم للإغارة على المغرب الأوسط، وطعن المرابطين من الخلف، وهم فى معركة الجهاد، وقف لهم يوسف بن تاشفين بالمرصاد، وشحن المغرب الأوسط والأقصى بالمقاتلة والسلاح، وفوت على بنى حماد غرضهم^(٢)، وحال بين الأعراب وبين العبث بالمغرب الأقصى، كما عبثوا بإفريقية من قبل، وبذلك صان المرابطون تراث الحضارة، وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء، وأخذت مدارس المغرب الأقصى فى كنفهم يزداد تفوقها، ويتآلق نجمها حتى لقد قيل إن جامعة فاس، ورثت تقاليد القيروان، وخلفتها فى مضمار الثقافة الإسلامية.

إلى جانب ذلك كله عمل المرابطون على إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وأوجدوا نوعاً من التعاون بين طبقات السكان، ووجهوا المجتمع كله صوب معركة الجهاد، فنامت الفتنة، وشاع الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد^(٣)، وانصرف الناس إلى الإنتاج المادى، وتقدمت الزراعة والصناعة، وراجت

(١) الديباج : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان جـ ٣ ص ٢٥٢.

(٢) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١٠٦.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠.

سوق التجارة، وارتفع مستوى الدخل بين جمهرة أهل البلاد. وليس من شك في أن الاستقرار إذا اقترن بالرخاء كان من أهم الأسباب التي تمكن للحضارة من أن يزكو نبتها وتنضج ثمارها، إذ ينصرف العلماء إلى أداء رسالتهم السامية في هدوء وطمأنينة وأناة، نعم صان المرابطون تراث الحضارة في المغرب بسبب هذه السياسة الإصلاحية العظيمة التي وضع أساسها يوسف بن تاشفين حين أوصى ولده «ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة»^(١).

أما تدفق المرابطين إلى الأندلس فقد أنقذها مما كانت تعانيه من فوضى واضطراب وعدم استقرار، فقد كان المجتمع الأندلسي في ظل ملوك الطوائف مجتمعا عزت فيه الطمأنينة، وعُدم الاستقرار، وأصبحت هذه الفتن المتأججة التي كانت تتزايد باستمرار لانطمئن العلماء على أنفسهم، فتقضى مضاجعهم، وتورقهم، وتدفعهم إلى الهجرة بأنفسهم وعلمهم فرارا من هذا الاضطراب والفساد.

وهناك أمر آخر كان له شأن وأى شأن في تشجيع الحياة الثقافية والفنية في ذلك العصر، هو أن القبائل التي أقامت الدولة لم تكن قبائل هدم إنما كانت قبائل بناء، كانوا بدوا ما في ذلك شك، ولكنهم كانوا من ذلك الصنف من البدو الذي يغير لا ليخرب ويدمر، ولكن ليقوم ويصلح، وقد سبق أن أشرنا في الباب الأول إلى أن هذه القبائل كانت قبائل - قبل تدفقها صوب المغرب - ذات تراث حضارى قديم، وأن البيئة هيأتها لتلعب في تاريخ الحضارة دورا عظيما، وعقدنا مقارنة بين صنهاجة وبين زناتة، أو بين صنهاجة وبين عرب بنى هلال، ولسنا في حاجة إلى أن نوضح الفرق بين عهدين متباينين: عهد سادت فيه زناتة فعائت وأفسدت ونهبت، وعهد استظل بظل صنهاجة فاستقر واطمان وهذا وتلقى نجم ثقافته وفنه، وهذا أمر بعيد الأثر في تاريخ الحضارة في ذلك العهد يجب أن لا ننقل من أثره أو نخض من شأنه، فالفرق واضح بين البدو الذين يهدمون ويخربون وبين البدو الذين يصلحون ويبنون كالفرق بين المغول والعرب مثلا.

وهناك عامل آخر أبرزه تدفق المرابطين صوب الأندلس، فقد وحدوا بين

(١) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٦٧.

العدوتين، وبسطوا ظلهم على القطرين، وكان هذا التوحيد ذا أثر عظيم فى تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية، إذ إن معناه اختلاط المؤثرات المغربية بالمؤثرات الأندلسية، واختلاط حضارة راقية بحضارة أقل رقىا وازدهارا^(١)، وسوف يتمخض هذا المزج بين الحضارتين عن تألق نجم الثقافة والفن فى المغرب^(٢).

لأنستطيع أن ننكر أن المغاربة وردوا موارد الأندلس قبل عهد المرابطين، ولأنستطيع أن ننكر أيضا أن المؤثرات الأندلسية تدفقت إلى المغرب فى عهد سيادة الأمويين، وبعد سقوط الخلافة، ولكن الحقيقة التى يجب أن نظل ماثلة فى الأذهان هى أن المؤثرات الأندلسية قد انتشرت فى إقليم الساحل، هذا الإقليم الزراعى الذى انتشرت فيه المدن ذات الماضى المجيد فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس، ولكن هذه التأثيرات ظلت فى عصور الاضطراب والفتن لاتكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب^(٣). فقد اشتد الصراع بين المستقرين والبدو، وعدم التعاون بين إقليم السهول وإقليم المراعى، وأصبح هذا التباين بين قسمى المغرب الأقصى عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية، وبين أن تعم المغرب الأقصى كله، فلما بسط المرابطون لواءهم على المغرب كله، وأضافوا إليه الأندلس انطلقت المؤثرات الأندلسية تعم البلاد دون أن تعترضها عقبة، أو يقف فى طريقها عائق، بل استطاعت هذه المؤثرات المغربية الأندلسية أن تتخطى نطاق جبل درن فى الجنوب موغلة فى إقليم الصحراء. كان المرابطون إذن حلقة اتصال فى تاريخ الحضارة بين عهدين: عهد ملوك الطوائف، وعهد الموحدين، فمهدوا السبيل أمام عصر الموحدين الزاخر بعلمه وفنه وحضارته^(٤). وأقام الموحدون صرح مدارسهم وثقافتهم على الأسس التى بثها المرابطون، وأفادوا من العوامل التى شجعها المرابطون وشدوا أزرها.

وقد وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية من يشجعها ويشد من أزرها، فقد عمل ملوك المرابطين وأماؤهم على تشجيع هذه المؤثرات، وشد أزرها العلماء

(١) Terrasse : Histire du Maroc, P. 251-252.

Idem (٢)

Terrasse : Histire du Maroc, P. 251-252. (٣)

Marcais: Manuel d' Art Musul. vol. L.p. 300-301 (٤)

بكل سبيل، فقد استقدم على بن يوسف منهم طائفة ممتازة جاءوا إلى مراكش فاستكتبهم أو استوزرهم، ومهد لهم السبيل ليشيعوا في البلاد هذه الألوان الأندلسية في الفن والأدب^(١). وكان الفنانون والصناع من أهل الأندلس يلقون من ملوك المرابطين وأمرائهم الشيء الكثير من الحماية والتشجيع والتعزيد^(٢)، وكان الملوك يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنهم^(٣)، وحضور مجالس مشورتهم، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم، «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمرته يستدعى أعيان الكتاب من جزير الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك»، كما كان المرابطون يشجعون الأطباء والفلاسفة^(٤)، وكان كل أمير أو قائد يقلد أمير المسلمين في تشجيعه للعلم والعلماء، اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا الفقهاء والعلماء والفلاسفة^(٥) وأغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة، وعملوا على استقدام جلة العلماء من أهل الأندلس^(٦)، وقد صور ابن خلدون ذلك كله أصدق تصوير حين قال: «وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم، وما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومقاما إلى سلطانهم وملكهم^(٧)».

وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التي نشأت بين المغرب والأندلس، والتي توثقت في عهد المرابطين فتحدث في إسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥١٢. المقرئ : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦٠، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٥٩.

(٢) Marcis: Manuel d'Art Musul., vol. I, P. 301

(٣) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١ ص ٤١ جذوة الاقتباس ص ٦٩.

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٥ وج ٢ ص ٩٢٥.

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٦.

(٦) ابن بشكوال : ص ٥٤٨، السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣.

(٧) ابن خلدون ٦ ص ١٠٥.

على الأندلس، وألّو بمدارسه، وجلسوا إلى فقائه وعلمائه، وأدبائه وشعرائه وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس. وتحدث كتب الطبقات أيضا^(١) عن أعلام الفكر من أهل الأندلس، ورحيلهم إلى المغرب، وإمامهم بمدنه وإحاطة الطلاب بهم يروون عنهم، ويأخذون منهم، ويتعلمون على أيديهم، يمهّد لهم الأمراء السبيل، ويحوطنهم بالرعاية والتكريم^(٢). أنعجب بعد هذا كله إذا كانت مدارس الثقافة في المغرب والأندلس قد تألّق نجمها في البلاد، وطار ذكرها في الآفاق.

وإذا أردنا أن نعطي صورة واضحة للحياة الثقافية في عهد المرابطين فلا بد من الرجوع إلى كتب الطبقات، فهي المراجع التي تؤرخ للنهضة الثقافية وتحدث عن المدارس المنبثّة في البلاد، وتتناول العلماء، وترجم لهم، وتكشف عن آثارهم العلمية وتعرف بهم، وتفصل أمر شيوخهم، وتعرض لمذاهبهم، ولن ورد مناهلهم، وتتلّمذ عليهم، ومن حسن الحظ أن أغلب هذه المراجع قد ألّفت بعد سقوط دولة المرابطين^(٣). فلم يتأثر أصحابها بما يتأثر به المعاصرون عادة من تملق القائمين بالأمر، أو تعمد المبالغة طمعا في التقرب من السلطان، أو إخفاء الحقائق خوفا من بطش ولى الأمر ونقمته، نستطيع إذن أن نعتمد على ما كتبه المؤرخون المتأخرون لأنهم كتبوا مجردين عن الهوى، ملتزمين جادة الحق فهم يبينون ما للدولة وما عليها.

ومن الغريب أن ترسم كتب الطبقات لعصر المرابطين صورة زاهية وتبرزه للناس عصرا حافلا بالحركة والحياة، يفيض بالعلماء الثقات المستفرغين لدراسة كل لون من ألوان الحياة العقلية، وتكاد تحس من ثنايا مايكتبون مقدار ما أسدته هذه الدولة للثقافة الإسلامية في المغرب من خدمات جليلة، حتى بدأ علماء المغرب والأندلس ينافسون علماء المشرق في هذا المضمار، ويتفوقون عليهم في كثير من

(١) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٥٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٩٦ و ٢٥٠ و ٢٩٠ و ٢٨٣ و ٣٨٤ و ج٢ ص ٥٣٠. ابن بشكوال ص ٣٩٢. المطرب لابن دحية ورقة ٣٤ (١) المراقبة العليا ص ١٠١ صلة الصلة لابن الزبير ص ٥٣.
(٢) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص ١٢٥. التشوف ص ١١٧. ابن الأبار ج١ ص ٥٠.
(٣) التكملة لابن الأبار والصلة لابن بشكوال والمراقبة العليا للنباهي وغيرهم.

النواحي^(١). فقد تلمذ المغرب على المشرق دهرا طويلا، وظلت أمهات الكتب التي ألفها المشاركة تدرس في مدارس الأندلس والمغرب، يفسرها الأساتذة ويروونها الطلاب، حتى إذا تمكن المغرب من نفسه، وزخرت مدارسه بالحياة واطمأن إلى مقدرته بدأ يخرج ألوانا أندلسية مغربية تفوق ما عرف من الألوان المشرقية. بدا التفوق في الشعر وفي النثر وفي الفلسفة والطب وعلوم الحديث والقرآن واضحا جليا.

وأول ما تكشف كتب الطبقات النقاب عنه هذه المدارس الثقافية المتعددة التي انتشرت في بلاد المغرب والأندلس في عهد المرابطين، وبعض هذه المدارس قديم النشأة، وبعضها حديث أسس في ذلك العصر بالذات، ولكن المؤرخين أجمعوا على أن المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت في هذا العصر تفوقا ظاهرا.

ومن أهم المدارس مدرسة فاس التي بلغت في عهد المرابطين والموحدين من بعدهم «من الغبطة والرفاهية والدعة والأمن ما لم تألفه مدينة من مدن المغرب»^(٢). قصدها العلماء من الأندلس وإفريقية. ومن مدارس المغرب الأقصى أيضا مدرسة سبتة^(٣)، التي تقع على مضيق جبل طارق، فتتلقى المؤثرات الأندلسية والمغربية على سواء وقد أنجبت عالما فذا من أعلام عصر المرابطين هو القاضي عياض اليحصبي، وانتشرت المدارس أيضا بطنجة^(٤)، وأغمات^(٥)، وسجلماسة^(٦) وتلمسان^(٧)، ويبدو أن مدرسة مراكش^(٨)، وهي حديثة النشأة قد تفوقت تفوقا ظاهرا، فقد كانت حاضرة الدولة، ومقر السلطان، وكعبة القصاد، وفد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء، فينالوا رفاهم وعطاءهم.

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٣.

(٢) الجزنائي: زهرة الآس ص ٣٣.

(٣) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ٧٣.

(٤) ابن الأبار: ج ١ ص ٣٨٣.

(٥) أزهار الرياض: ج ٣ ص ٦١.

(٦) ابن الأبار: ج ٣ ص ٣٨٣.

(٧) ابن الأبار ج ١ ص ٣٢١.

(٨) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٤٩.

ويبدو أن مدارس الأندلس قد نهضت نهضة موفقة في عهد المرابطين، بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا، واستقرت أحوالهم. ومن أهم مدارس الأندلس مدرسة قرطبة^(١)، ومن أعلامها في عصر الموحدين الفيلسوف ابن رشد، كما ازدهرت مدارس مرسية^(٢) وألمرية^(٣)، ودانية^(٤)، وأشبيلية^(٥)، وبلنسية^(٦) وطرطوشة^(٧)، وغرناطة^(٨)، وبطليوس^(٩)، وشاطبة^(١٠)، وسرقسطة^(١١)، وشلب^(١٢).

ولم تتحدث كتب الطبقات عن المدارس فحسب، بل عرضت للعلماء من كل فن فعددت مناقبهم، وبينت مكانتهم من العلم، فذكرت مشايخهم ومن أخذ عنهم من الطلاب، وكشفت النقاب عن تفوق علم الفقه والرواية والحديث في ذلك العصر تفوقا عظيما، وقد برع من العلماء في هذه الناحية علمان من أعلام مدارس الأندلس: هما أبو علي الصدي^(١٣)، وأبو علي الغساني^(١٤). كان الصدي يروى السنن لأبي دواد، والدارقطني، وجامع الترمذي، وتاريخ البخاري، ورياض المتعلمين لأبي نعيم، كما كان «دينا فاضلا معنيا بالعلم وسماعه وكتب بخطه على وقته علما كثيرا»^(١٥). أما الغساني فقد انفرد بالإمامة بعد وفاة الصدي «فكان آخر المسندين بقرطبة، وأضبط الناس وكثر الراحلون إليه»^(١٦). وبرز في هذا الميدان أيضا أبو العباس الخزري، وأبو الوليد الباجي، وأبو جعفر بن حجر وأبو عامر بن

(١) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٨٨.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) ابن خير: الفهرسة ص ٩١.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ١٢١.

(٥) ابن خير: الفهرسة ص ١٢١.

(٦) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٩٣.

(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٨) المرجع السابق ج١ ص ٢٦٩.

(٩) المرجع السابق ج٢ ص ٣٢٤.

(١٠) المرجع السابق ج٢ ص ٦٩٧.

(١١) ابن الزبير: صلة الصلة ص ٨٢.

(١٢) المرجع السابق ص ٩٩.

(١٣) ابن الأبار ج١ ص ٨٩.

(١٤) المرجع السابق ج١ ص ٧٨.

(١٥) المرجع السابق ج١ ص ٨٩.

(١٦) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٧٨.

حبيب، وأبو عمران بن أبي تليد، وأبو بحر الأسدي، وأبو العباس بن ذروة^(١)، أما القاضي عياض فقد تألق نجمه في أوائل القرن السادس الهجري، وأصبح من أعلام مدرسة سبته وجلة فقهاؤها، تعلم بالأندلس وتلمذ على شيوخها الثقات حتى أصبح «من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم»^(٢). وإذا تحدثنا عن الفقه فيجب ألا يفوتنا ذكر أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فقد كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره، وكان من أقطاب مذهب مالك بالأندلس، وقد برع في علم الفرائض والأصول، وألف كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، واختصار المبسوطة، واختصار مشكل الآثار للطحاوي^(٣)، وكان محمد بن حيدرة المعافري خاتم الحفاظ بالأندلس، وأعرفهم بعلله، وأكثر المبرزين في صناعته، ومعرفته معانيه وحفظ أسمائه^(٤)، ومن تألق نجمه في الفقه والحديث كما تألق في الأدب والبلاغة الوزير أبو عبدالله محمد بن مسعود بن فرج بن خلصة أبي الخصال الغافقي، فقد ألف كتاب المنهج في معارضة المبهج، وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة في مناقب من خصه رسول الله ﷺ من صحابته بالكرامة، وكان الناس يروون جميع كتبه وكلامه من متثور ومنظوم وخطب^(٥).

أما علوم العربية فقد نفقت سوقها، وراجت بضاعتها، وظهرت في بلاد الأندلس في ذلك العهد طائفة من الكتاب المجيدين برعوا في الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة، فتهافت عليهم الملوك والرؤساء، يستخدمونهم في دواوين الإنشاء «يجمعون إلى براعة الفقهاء براعة الشعراء النبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون بالسنة المجيدين»^(٦). ومن أئمة هؤلاء الكتاب الأعلام والأدباء الثقات عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافري، ومحمد بن سليمان الكلاعي

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٦٩.

(٢) النباهي: الرقة العياض ١٠١.

(٣) المرجع السابق ٩٨-٩٩.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ٩٤.

(٥) ابن خير: الفهرسة ص ٣٨٦ و ٤٥٠.

(٦) الذخيرة: قسم ٤ «مخطوط» ص ١٢٥.

المعروف بابن القصيرة «رأس أهل البلاغة في وقته من أهل الأدب البارع والتفنن في أنواع العلم»^(١) ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن الساقط^(٢)، وعبد الملك بن أبي الخصال^(٣)، وعبد العزيز بن سعيد بن القبطورنة^(٤)، ومحمد بن عيسى بن محمد اللخمي المعروف بابن اللبانة «كان من جلة الأدباء وفحول الشعراء واسع الذرع غزير الأدب قوى العارضة متصرفا في البلاغة»^(٥)، ألف كتابا تناقلها الناس مثل كتاب مناقل الفتنة، وكتاب نظم السلوك في وعظ الملوك وكتاب سقيط الدرر ولقيط الزهر^(٦) ومن هؤلاء أيضا إبراهيم بن يحيى بن محمد بن ينق^(٧)، وجعفر ابن إبراهيم المعافري المعروف بالفتح بن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان^(٨)، ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري بن الصيرفي المؤرخ^(٩).

وقد برع في علوم اللغة طائفة من الأساتذة الأعلام مثل أحمد بن عبد الجليل ابن عبد الله التدميري^(١٠)، ومحمد بن أغلب بن أبي الدوس^(١١)، ومحمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصاري^(١٢)، وعبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري^(١٣)، أما علوم النحو فقد برع فيها محمد بن حكيم بن محمد بن باقى الجزامى^(١٤)، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خاطب بن زاهر الباجي الأندلسي^(١٥).

أما في ميدان الشعر فقد تحدثت كتب الطبقات عن طائفة من الشعراء

-
- (١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥١٢.
 - (٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٥٩.
 - (٣) جذوة الاقتباس ص ٢٧٢.
 - (٤) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٦٢٤.
 - (٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٥.
 - (٦) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٧.
 - (٧) المرجع السابق ص ٦٧.
 - (٨) المرجع السابق ج ١ ص ٦٩.
 - (٩) ابن الزبير : صلة الصلة ص ١٨٣.
 - (١٠) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٨.
 - (١١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٥٦.
 - (١٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٦.
 - (١٣) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٤، مشيخة عياض ورقة ٥٧ (ل).
 - (١٤) ابن دحية : المطرب ورقة ٣٤ (ل). بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٩.
 - (١٥) السيوطي : بغية الوعاة ص ١٦١.

الفحول الذين تألقوا فى سماء ذلك العصر؛ مثل إبراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوارى الشاعر ^(١)، صاحب الديوان المعروف الذى مجد أمراء المرابطين ومدحهم وتغنى بشمائهم ونال عطاءهم. وقد تفوق فن الموشحات فى عصر المرابطين تفوقا عظيما على يد الشاعر أحمد بن عبد الله القيسى أبى العباس الملقب بالأعمى التطيلي، ويحيى بن بقى وأبى بكر بن الأبيض ^(٢)، كما تفوق فن الزجل على يد الزجال المعروف ابن قزمان.

وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر، تألق نجم علوم الفلسفة والطب، وكان من أئمة فلاسفة ذلك الوقت مالك بن وهيب وزير على بن يوسف وأقرب المقرين إليه، أخذ من كل فن بطرف وبرع فى علوم اللغة، وتفوق فيها، وألف كتابا سماه قراضة الذهب فى ذكر أيام العرب فى الجاهلية والإسلام ^(٣)، وضم إلى ذلك مايتعلق به من الآداب، فجاء الكتاب فريدا فى فنه. وكما ألف ابن وهيب فى اللغة كذلك ألف فى الفلسفة، إذ درس كتاب الثمرة فى الأحكام لبطليموس وكتاب المجسطى فى علم الهيئة ^(٤). أما الفيلسوف أبو بكر بن باجة فحدث عنه ولا حرج، فقد ذاع صيته فى الأندلس وأوروبا فى العصور الوسطى حيث عرفه الناس باسم «Avenpace»، وهو صاحب مدرسة الشك، وتأثر بالفلسفة اليونانية وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر الذين فشا فى شعر بعضهم لون من ألوان التحرر من قيود الدين ^(٥)، وقد برع ابن باجة فى الموسيقى كما برع فى الفلسفة. أما الطب فمن أعلامه أبو العلا زهر بن عبد الملك، «كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيم» ^(٦)، برع فى الأدوية المفردة والمركبة وشاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد ^(٧)، وقد ألف كتاب

(١) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٥٩.

(٢) المقرئ : أزهار الرياض ج٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) أعز ما يطلب ص ٧. المقرئ : نفع الطيب ج٢ ص ٩٢٥.

(٤) أعز ما يطلب ص ٧.

(٥) المقرئ : أزهار الرياض ج٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ p. 289 Marçais.Manuel D'Art. Vol. i.

(٦) المقرئ : نفع الطيب ج١ ص ٤٤٥.

(٧) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٦.

الاقتضاء فى إصلاح الأجساد للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين^(١)، وقد قربه المرابطون وأجلوه وأغدقوا عليه من النعم والأموال الشيء الكثير^(٢)، وبلغ من اهتمام المرابطين بفن ابن زهر ومؤلفاته أن عليا بن يوسف أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته «فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدو والأندلس ونسخت»^(٣)، نعم قرب المرابطون مالك بن وهيب وأبا بكر بن باجة، وأبا العلاء بن زهر، أفيقال بعد ذلك إن المرابطين حاربوا العلم، وكانوا أعداء حرية الرأي؟، وهل يعتبر عدوا لحرية الرأي من يقرب ذلك الفيلسوف المتحرر ابن باجة؟. ويكفى فى إثبات تشجيع المرابطين للعلم والعلماء أن نورد مقاله المراكشى فى هذا الصدد: «انقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له بولايته من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار»^(٤).

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة أثرا بعيدا فى شعب المثلثين فأقبلوا على الثقافة يردون مواردها وينهلون منها ما طاب لهم، وكان المثلثون على استعداد لتقبل هذه الثقافة الجديدة والإفادة منها، فقد كانت القبيلة ذات حضارة قديمة، أفادت فى تاريخها القديم من الحضارات الوافدة على المغرب، وأصبحت عقول بنينا أكثر استعدادا لحياة علمية رفيعة لو أحسن توجيههم، وكان عبدالله بن ياسين قد فتح عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث العربى، وتركت تعاليمه فى نفوسهم أبلغ الأثر، وبدأ منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب يقبلون على المدارس فى شغف، لم يتخلفوا عن الركب ليتابعوا حياة الإغارة والعدوان شأنهم شأن القبائل البدوية الأخرى، بل انكبوا على الثقافة والعلم وأخذوا منها بنصيب موفور.

ولما فتحوا الأندلس تفتحت أمامهم آفاق جديدة فى ميدان العلم، واحتكوا

(١) ابن الأبار : التكملة ج٢ ص ٦٩٦.

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٦.

(٣) المرجع السابق ج٢ ص ٦٤.

(٤) المراكشى : المعجب ص ١٠٤.

بحضارة الأندلس الرفيعة وثافتها المزدهرة، فأفادوا منها فائدة جلى، فاختلّفوا إلى شيوخها وصحبوا علماءها، وسمعوا من رواّتها ومحدثيها، حتى شاع العلم بين أفراد القبيلة من عامة ونبلاء، وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية، حتى إذا انقضى على تدفقهم إلى المغرب والأندلس نصف قرن بدأت نتائج الثقافة الجديدة تظهر آثارها فيهم. أخذنا نسمع بجيل من هؤلاء المثلثين تمكنوا من العلم، وبرعوا فيه، واحتلّوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا يحدثون الناس ويفقهونهم، وأخذ التلاميذ يختلفون إلى مجالسهم، ويروون عنهم.

ونحن إذ نقول ذلك لانسِل القول إرسالا، ولكن نعتد على كتب الطبقات التي تكشف لنا عن هذا البعث العلمي الذي فشا في صفوف القبيلة صاحبة الدولة، وتذكر طائفة من هؤلاء المثلثين الذين ذاع صيتهم في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يشهد بصدق ما نقول، ويدل في وضوح وجلاء على أن هذا الشعب المثلث لم يكن عدوا للعلم يقف في سبيله، بل كان ينصره ويأخذ منه بنصيب ويشارك فيه، وقد اشتهر من هؤلاء المثلثين في ذلك الوقت زاوي بن مناد ابن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط، الذي كان من أعلام مدرسة دانية وجلة شيوخها^(١)، وأحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، الذي استوطن المريّة وذاع صيته^(٢)، وخلوف بن خلف الله الصنهاجي الذي سمع بقرطبة، وولى قضاء غرناطة^(٣)، وموسى بن حماد الصنهاجي^(٤)، بل عكف كثير منهم على الزهد والتقشف، وعرفوا بالتقى والورع، وذكر صاحب كتاب الشوف في عداد الأولياء أبا عبد الملك مروان اللمتوني^(٥)، وأبا محمد عبد الجليل بن ويجلان^(٦)، وأبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي^(٧).

(١) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٨٩.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ص ٨٥. ابن الأبار ج١ ص ١٩. الشوف ص ١١٧.

(٣) ابن القاضي: الجذوة ص ٩١٥.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٤.

(٥) ابن المؤقت المراكشي: السعادة الأبدية ج١ ص ١٥٠.

(٦) التادلي: الشوف ص ١٩٨.

(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.

أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة كما أقبل عليها عامة المثلثين، وظهر فيهم فريق عرف بالتقوى والعلم الغزير، وقد تحدثت عنهم كتب الطبقات وسجلت أعمالهم في تقدير وإكبار، مثل عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجي أمير ألمرية الذي تتلمذ على الشيخ أبي علي الصدفي، وبلغ من علمه أن سمي بالفقيه القائد^(١)، والمنصور بن محمد بن عتاب وأبي بحر الأسدي، وبمروسة من أبي علي الصدفي، وبرغم أنه كان من رؤساء لمتونة وأمرائها إلا أنه برع في معرفة الأخبار والسنن والآثار وصحب العلماء للسمع، بل «نافس في الدواوين والأصول العتيقة وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه وهو فخر صنهاجة ليس لهم مثله^(٢)» ومن هؤلاء الأمراء أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، الذي قدم إلى ألمرية ورحل إلى مكة وحدث بالأندلس وسمع الناس منه بأشبيلية^(٣)، وأبو بكر سير الصنهاجي، الذي برع في العلم، وتبحر فيه، فلما توفي كتب على شاهد قبره «هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبي بكر الصنهاجي»^(٤).

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى العلماء يرسلون في طلب العلماء إلى قصورهم فيجلسون إليهم، ويأخذون عنهم ويتعلمون منهم، ونمايروي في هذا الصدد أن علي بن إسماعيل ابن محمد بن عبدالله بن حرزهم جاء مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للأخذ عنه والقراءة عليه، فدخل أبو الحسن عليه وهو على سريرته «فجلس أبو الحسن تحته فقال له هكذا تفعل مع من كنت تتعلم منه فقال نعم فقال له أبو الحسن انزل أنت إلى مكاني وأكون أنا مكانك. فأجابه الأمير إلى ذلك ولازمه»^(٥). وكان إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل في طلب الفقيه الجليل الشيخ أبي علي الصدفي ليسمع عليه الحديث ويتفنع بعلمه وفضله^(٦). وكان

(١) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٢٦٩.

(٢) المرجع السابق ج١ ص ١٩٣.

(٣) المرجع السابق ج١ ص ٣٩٦.

(٤) Leve-Provençal : Inscriptions Arabes d' Espagne, p. 123.

مقاطعة ألمرية رقم ١٣٧.

(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٩٤.

(٦) ابن الأبار : التكملة ص ٥٥.

إبراهيم هذا مثال الأمير المثقف المتواضع يشجع العلماء ويأخذ بناصرهم، وقد بسط ظل حمايته على الفيلسوف عبد الملك بن زهر الذى ألف له كتابا فى الطب أهده إليه اعترافاً وتخليداً لذكوره^(١).

وقد ضرب كثيرون من هؤلاء الأمراء المتفقهين مثلاً فى التواضع والزهد، فقد روى عن مزدلى أمير تلمسان أنه أنزل عن فرسه فبسط له غلامه برنسا قعد عليه، فقال له الشيخ عبدالله التونسى الزاهد، ماهذه الأخلاق يامزدلى أين تجد غداً برنسا تقعد عليه فاستحيا من قوله وقام^(٢). بل إن أميراً منهم قد ارتضى تواضعاً منه لله وإمعاناً فى إذلال نفسه أن يذهب إلى الجبل ويحتطب ويدخل رحبة القصر، وحزمة الحطب على ظهره^(٣)، ومالنا نذهب بعيداً وهذا ولى الأمر نفسه على بن يوسف أمير المسلمين بلغ من علمه وصدق روايته «أن استجاز الراوية أبا عبيد الله أحمد بن محمد الخولانى جميع روايته لعلو إسناده فأجاز له^(٤)».

ولعل هذه الإشارة التى سقناها تؤيد صدق مانذهب إليه من إخلاص المثلثين للعلم والعلماء. نعم كان الأمراء يقدرّون رسالتهم حق قدرها، ويعرفون أنهم ممسكون بزمام أمة ضربت فى الثقافة العربية بسهم وأفر، فحرصوا على إعداد جيل من بينهم يلم بالثقافة الجديدة، ويرد منهلها، فكانوا يستقدمون خيرة العلماء والفقهاء لتأديب بنهم^(٥)، اختير أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميرى ليؤدب أبناء السلطان^(٦)، فلم يكن غريباً أن نرى جيلاً جديداً من شباب المثلثين يعرفون العربية ويفهمون أسرارها، ويلمون بمكنوناتها، ولعل مارواه صاحب الجذوة^(٧) من أن قيمة بنت يوسف كانت تفهم الشعر وتقرضه ليس مبالغاً فيه.

لأنكر أن الرعيل الأول من قادة المثلثين وأمرائهم لم يكونوا فى الغالب

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ٦١٦.

(٢) التادلى : التشوف ص ١٠٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٣.

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٥٦.

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١. ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٩ و ١٤٦.

(٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٩.

(٧) المرجع السابق ص ١٠٦.

ملمين بالثقافة العربية إلماما دقيقا، وعهدهم واشتغالهم بأعمال القيادة والإدارة صرفهم بعض الشيء عن التجويد والإتقان، ولكن مما لا شك فيه أن أبناء الجيل التالي كانوا يتقنون الثقافة العربية إتقاناً تاماً، وكان أبناء الجيل الثاني يسمعون الشعر والغناء فيسيغونه ويفهمونه ويطربون له، مصداقاً لذلك ما رواه المقبرى من أمر الفيلسوف أبى بكر بن باجة الذى لحن موشحاً غنى فى حضرة الأمير ابن تيفلويت فما كاد ذلك التلحين يطرُق سمع الأمير حتى صاح «واطرباه وشق ثيابه»^(١).

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد من عيون الشعر، فكانوا يستجيدون ما يقولون ويصلونهم ويغدقون عليهم، فقد مدح ابن سارة الشترينى أبى بكر بن إبراهيم اللمتونى^(٢)، كما لزم ابن خفاجة الشاعر أبى إسحق ابن أمير المسلمين ومدحه فى غرر قصائده^(٣)، كما مدحه الشاعر أبى بكر محمد بن الروح الشلبى فى قصيدة عصماء^(٤)، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه كان يسمع الغناء ويطرب له برغم ما يرويه دوزى من جهله بلسان العرب، فقد روى المقبرى أن يوسف أهدى المعتمد جارية حسنة الصورة جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها^(٥).

وكان طبعياً أن يبلغ على بن يوسف الذى نشأ كما نشأ الجيل الثانى من أبناء المرابطين من الثقافة العربية شأواً عظيماً، فقد روى أنه كان يسمع الشعر الجيد، ويطرب له، مدحه القاضى أبو الحسن بن أضحى بشعر جيد فأمر بتربيته فى المجلس^(٦)، كما مدحه الوشاح المعروف بالأعمى التتيللى^(٧)، بل كان يقبل على الغزل رغم اشتغاله بالتقوى والورع ويطرب به، أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيراً يقول له «إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتحه بالغزل»^(٨)، فكتب ابن خفاجة فى هذا الفن قصيدة رفعها إليه. ومهما يكن من شيء فقد كان القرن

(١) المقبرى: ازهار الرياض ج٢ ص ٢٠٩.

(٢) الفتح: قلائد العقيان ص ٢٦٤.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠.

(٤) المقبرى: نفع الطيب ج٢ ص ١٠٢٧.

(٥) المقبرى نقلاً عن Dozy: Abbadidarum, vol. II, p. 234.

(٦) ابن الأبار: الحلة السيرة ص ٢١٠.

(٧) الضمى: بنية الملتمس ص ١٧٥.

(٨) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦.

الخامس الهجرى، وأوائل السادس عصر نهضة شاملة فى الحياة الثقافية عمت المغرب والأندلس على سواء، فقد ظهر فى ذلك العصر أبو على الحسن بن رشيق القيروانى فى إفريقية وابن حمدىس الصقلى «وتدفقت بالبلاد بحور الأدب وطلعت فيها لنجوم الكتب فعمت أقاصى البلاد^(١)»، وقال ابن الأبار وهو قائل صدق فى دولة على بن يوسف: «نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصا الكتاب^(٢)».

ومع هذه الصور الواضحة التى رسمناها للحياة الثقافية فى المغرب والأندلس فى عهد الرابطين وما سقناه من أدلة على مساهمة الدولة بنصيب وافر فى حماية العلوم، وعمل الأمراء على شد أزr العلم والعلماء، فإن المؤرخ دوزى يرسم للثقافة فى الأندلس فى عهد الرابطين، صورة غير براقة، ويظهر المرابطون بمظهر البدو الجفافة الغلاظ الذين أشاعوا فى البلاد جوا من التعصب والرجعية حتى أقفرت سوق الأدب، وكسدت بضاعته، فقد تحكم الفقهاء فى رقاب العباد، وأحاطوا بأمر المسلمين ينفثون فى صدره سموم الرجعية فيحاربون أهل الفكر الحر، وينكرون بكل من يتصل بالفلسفة بسبب بعيد أو قريب، فهذا مالك بن وهيب وزير على بن يوسف يشتغل بالفلسفة، فلما خشى أن يصيبه مكروه طرح الفلسفة جانبا وأكب على الفقه، وعكف على كتب المذهب، وقد تجاوز الفقهاء - كما يروى دوزى - الحدود فى تعصبهم لمذهبهم، إذ يرون أن مذهب مالك هو المذهب الذى لا يعلى عليه، بل تمادوا فى تعصبهم فأفتوا بإحراق كتب الغزالى، ويمضى دوزى فى حملته على المرابطون فيقول إن أعلام الكتاب الذين استخدمهم المرابطون فى ديوان الإنشاء دخلوا فى خدمتهم طلبا للعيش، وأنهم مالبثوا أن اكتشفوا أنهم أصبحوا ألعبوة فى أيدى طائفة من الفقهاء المتعصبين والقواد الجفافة الغلاظ، فلم يخفوا تبرمهم بالدولة، أما أهل الأدب فقد عز من يشد أزرهم بعد دوال ملك الرؤساء، وراحوا ينعون انحطاط الذوق الأدبى، ويلعنون الظروف التى

(١) الذخيرة (القسم الرابع مخطوط) ص ١٧٢.

(٢) المطرب لابن دحية ورق (١)، الخريدة للعماد الأصبهاني ج ١١ ص ٧٠-٧٢.

جاءت بهذه العصابة من البربر للتحكم فى رقاب أهل الأندلس، أما الشعراء فقد ساء حالهم واضطر بعضهم إلى أن يهيم على وجهه منتقلا من مدينة إلى أخرى طلبا للعيش، واضطر بعضهم الآخر إلى مدح الفقهاء التماسا للكسب^(١). وقد جاوزت حملة دوزى على المرابطين كل حد، فرماهم فى كتابه Recherches بكل نقیصة، حتى لقد قال: «كان مجيء المرابطين إلى بلاد الأندلس نذیرا بانقلاب بعيد المدى فقد دالت دولة الحضارة، وقامت الهمجية على أنقاضها. أما حسن الإدراك فقد حلت محله الخرافات، وذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نیر الفقهاء والقواد، وبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء فى دور العلم ومناقشاتهم فى الفلسفة ونشید الشعراء وغناء أهل الموسيقى، بدأنا لانسمع إلا أصوات الفقهاء وصلیل السیوف^(٢)».

لأنكر أن مجيء المرابطين إلى شبه الجزيرة قد صحبه كساد فى سوق الشعر إلى حد كبير، فقد كان عهد يوسف فى الأندلس عهد جهاد وكفاح وحرب، وليس بعهد ترف ورفاهية، وإقبال على الملذات، وانغماس فى الشهوات، وصور ذلك كله صاحب الذخيرة أبلغ تصوير، إذ قال: « فلما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس طوى الشعر على عزه وبرئ من حلوه ومره إلا نفثة مصدور والتفاته مذعور، وهو اليوم ببلد يابرة يرتشف فضل ثماره ويأكل من بقية زاده^(٣)».

ولكن عزوف أمراء الرعیل الأول من المجاهدين المرابطين عن الانغماس فى الحياة الاجتماعية فى بلاد الأندلس، واتخاذ الندماء والقیان وإحاطة أنفسهم بهالة من الشعراء ليس معناه كساد سوق الأدب، وليس من شك فى أن تشجيع الأمراء والولاة يحفز همم الشعراء ويدفعهم إلى الإجادة فى القول، ولكن من ينشد الفن للفن والجمال للجمال، ويتغنى بالشعر «تحبيا لاتكسبا ويعمر المجالس وفاء لا استجداء» يجد أبواب الإنتاج مفتوحة أمامه على مصاريعها أما من يتكسب بالشعر ويرتزق منه فقد كسدت سوقه وبارت تجارتة.

Dozy: Histoire des Musul. d' Espagne, vol. iv, p. 2480252 (١)

Dozy : Recherches, vol. I. p. 348 (٢)

(٣) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٤، وقسم ٣ ص ٢٩٤.

على أن هذا الكساد - إن صحت الرواية - لا يصدق إلا على عهد يوسف بن تاشفين، فما كاد على ابنه يتولى الأمر حتى بدت الحياة الاجتماعية في الأندلس في صورة زاهية براقّة، وعادت مجالس الأمراء حافلة بالشعراء الذين عادوا سيرتهم الأولى من التكسب بالشعر، وأقبلوا على الأمراء يمدحون ويتملقون، ملتصقين الرغد والعطاء، ومن الغريب أن دوزي يعترف بإقبال المرابطين في عهد علي بن يوسف على هذه الحياة الأدبية الرفيعة، ويعترف بأن الأمراء عملوا على تقليد ملوك الطوائف، واتخذوا السمار والندماء، واستمعوا إلى الشعر والموسيقا، وبسطوا ظل حمايتهم على أهل الفلسفة، ولكنه يرى أنهم لم يعمدوا إلى ذلك إلا حبا في التقليد ليس غير، وأنهم لم يقبلوا على ذلك بقلوب راضية وعقول راعية، ولم يأخذوا من الحضارة الأندلسية إلا أسوأ ما فيها^(١).

مهما يكن من شيء فإن أحكام دوزي لاتصدق إلا على الفترة الأولى من حكم المرابطين، كما لاتصدق على بلاد المغرب، إذ أن دوزي لم يعرض لبلاد المغرب على الإطلاق. أما قول دوزي بتحكم المالكية في الحياة في الأندلس فقول لا يصدق على عصر المرابطين وحدهم، فالمالكية يتحكمون في الحياة في الأندلس والمغرب منذ عهد بعيد، وقد لقي الفيلسوف ابن مسرة من اضطهاد الفقهاء الشيء الكثير، كما حارب المالكيون في المغرب أهل الرأي محاربة لا هوادة فيها، ولكن هذه الحرب لم تقض على الحياة العقلية، ولم تكبح جماح أهل الفلسفة وأصحاب الفكر الحر.

وقد حورب المعتزلة وأهل الرأي في المشرق، ولكنهم ظلوا يتابعون نشر آرائهم، وينادون بتعاليمهم غير مباليين بتعذيب أو اضطهاد، ولم يكن ينتظر من الفقهاء وهم قوم من أهل الجادة أن يتسامحوا في أمور دينهم.

أما تهمة إحراق كتاب الإحياء للغزالي، فلا نستطيع أن نبرئ علي بن يوسف منها فقد خضع لرأي الفقهاء، وانساق وراءهم، لأنهم اعتبروا الغزالي من أهل الرأي، كما نقموا عليه حملته على الفقهاء الذين عكفوا على الفروع دون

الأصول، فآلبوا أمير المسلمين، فأمر بإحراق هذا الكتاب^(١) برغم معارضة بعض فقهاء المالكية في المغرب^(٢)، مع أن الغزالي كان معجبا بيوسف بن تاشفين، وكان يريد أن يحضر إلى المغرب، لولا أن عاجلته المنية، فحالت بينه وبين ما يريد.

ويخيل إلينا أن إسراف دوزي في هذا الرأي يرجع إلى أنه اعتمد على طائفة من الكتاب الأندلسيين، الذين كانوا يكرهون المغاربة أشد الكره، وينددون بتعصبهم وجهلهم، ولا يرون فيهم إلا دخلاء مغتصبين، كما أنه اعتمد على كتاب من عصر الموحدين، والموحدون كما نعلم كانوا يكرهون المرابطين كرها شديدا، ويعملون على تشويه سمعتهم، ورميهم بكل داهية، كما لانسى أن دوزي كان يعطف على ملوك الطوائف أشد العطف، ويكاد يتعصب لبني عباد، أصحاب أشبيلية، فمن الطبيعي أن يسخط على المرابطين، الذين أدالوا دولة بني عباد، ونفوهم إلى المغرب. وليس يبعد أن يكون دوزي قد اعتمد اعتمادا كبيرا على رسالة الشقندي، وهي الرسالة التي تعصب فيها صاحبها للضقلب، وراح يتقص من العرب، ومن البربر على سواء، وقد رمى الشقندي المرابطين بالجهل والتعصب^(٣).

هذه المؤثرات المختلفة التي وجهت الثقافة الإسلامية في عصر المرابطين وجهت الفن الأندلسي المغربي، وتركت فيه آثارا ظاهرة، ولكن قبل أن نوضح الدور الذي اضطلع به المرابطون في تاريخ الفن يجب أن نبين أنه بعد أن تم

(١) التادلي : التشوف ص ٩٠.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) رسالة الشقندي عن المقرئ : انظر Abbadidarum, vol. II, p, 221 وبالله أما سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهديّة أبقت الحجاب أم بصلح البرغواطى أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشمرء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا، ولأرفعوا للملكة قدرا وبعد ما ذكره بواسطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له وقد أئشده: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخير، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بسم وينا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم إيامنا غدت سودا وكانت بكم ييضا ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للمقرئ يطلب منا جوارى سودا وييضا فقال له : يامولانا لا ما أراد إلا أن ليله كان يقرب أمير المسلمين نهارة لأن ليالى السرور ييضى فعاد نهارة يبعده ليلا لأن أيام الحزن ليالى سود، فقال والله جيد اكتب فى جوابه أن دموعنا تجري عليه ورءوسنا توجعنا من بعده.

للعرب فتح المغرب والأندلس ظهرت في الحياة الفنية مدرستان تختلفان في منهجهما، وفي اتجاهاتهما، وفي إنتاجهما: المدرسة الأندلسية التي أخذت توائم بين المؤثرات الفنية الوافدة من المشرق، وبين المؤثرات المحلية القائمة مثل القوطية والمسيحية الهلينية. بدأت هذه العوامل الثلاثة تتفاعل في مدرسة الأندلس، وبدأت تتمخض بالتدريج عن نشأة فن أندلسي يشتد كلما اشتد ساعد الدولة الأموية، وخلت من متاعبها السياسية، وركنت إلى حياة من الاستقرار تتيح لها أن ترعاه وتشد أزره، وتأخذ بيد رجاله. وقد بلغ إنتاج هذه المدرسة الأندلسية الأوج في عهد عبدالرحمن الناصر^(١).

أما المدرسة الأخرى فقد نشأت في القيروان، وبدأت تتلقى المؤثرات الشرقية، وتتأثر بها إلى حد كبير. وفدت إليها أنماط الرقة وبغداد، وسامراء، وجاء الفن الأغلب متأثراً بهذه الاتجاهات جميعها، حتى لاتكاد تميزه عن الفن الشرقي، ولم يكن من الممكن أن ينفرد الأغلبية بطابع خاص في الفن، وهم عمال بنى العباس، يفد إليهم الفنانون من أقطار الشرق، من مصر، والشام، والعراق^(٢).

وقد بدأ المغرب الأقصى بعد أن ذاق ألوانا من الاستقرار في ظل الإدارة يتجه نحو الفن، يأخذ منه بنصيب موفور، ووقفت بلاد المغرب الأقصى حيرى بين مدرستين راقيتين: مدرسة القيروان، ومدرسة الأندلس، فلم تستطع أن تخلص من آثار مدرسة القيروان، ولا من آثار مدرسة قرطبة^(٣). ولكن مؤثرات القيروان كانت هي الغالبة، وكان الإدارة أنفسهم يتجهون وجهة شرقية، يستخدمون العرب، ويشدون أزرهم، ويكثر من استخدام العناصر الشرقية^(٤)، فقد كانوا برغم معيشتهم في بيئة مغربية شديدة الإحساس بأصلهم الشرقي، يعتزون به، ويتطلعون إلى المشرق دائماً. فلما قامت الدولة الفاطمية بإفريقية وبدأت تتطلع إلى المغرب، تنبه الأمويون إلى الخطر الداهم الذي يحيق بهم، فاهتموا بالمغرب

(١) Terrasse : L'Art Hispano Mauresque, p. 44

(٢) Terrasse : L'Art Hispano Mauresque, p. 163

Ibid, p. 205

Ibid, p. 163

الأقصى، وبدءوا يظهرون أمراء زناتة، ويمدونهم بالعون والمساعدة للوقوف في وجه صنهاجة صديقة الفاطميين، وبدأت الصلة بين المغرب والأندلس يشتد ساعدها ويتضح أثرها، وبدأ زعماء البربر يفدون على قرطبة، ويعجبون بآيات الفن الأندلسي وروائعه، فلما قامت إمارات زناتة التي تدين بالولاء لبني أمية بدأت المؤثرات الأندلسية تفد على المغرب بصورة أوضح^(١)، ولو كان المجتمع المغربي في ظل زناتة قد أصاب لونا من ألوان الاستقرار لظهرت آثار هذا الاتصال الفني واضحة! ولكن زناتة كانت عدو الاستقرار، وظلت الخلافات الناشئة بين بطونها تنال من استقرار البلاد وطمأنيتها، وتصرف الناس عن الإنتاج الفني، ولا يتيح لبدور هذا الفن الأندلسي أن تزدهر.

ولم يبذل العامريون جهدا واضحا في بث دعائم الفن الأندلسي بالمغرب الأقصى، إذ كانوا يعنون بالمشاكل السياسية، ولم يكونوا منصرفين للشئون المغربية انصرافا تاما، ولولا خوفهم من بنى زيري، وإشفاقهم من أن يهدد الزيريون بلاد الأندلس لما احتلوا المغرب، أو ظاهروا زناتة، فقد كانت معركة الأندلس في حاجة إلى عنايتهم، وإذا كانت المؤثرات الأندلسية بدأت تظهر بجلاء في المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة، وفي مدن إقليم الريف مثل فاس^(٢)، فإن غالبية مدن المغرب الأقصى ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات الراقية المزدهرة، حتى تدفق المرابطون إلى المغرب، ونجحوا في إقامة دولة توحد بين العدوتين، فاشتد ساعد المؤثرات الأندلسية أكثر من ذي قبل، ولم تعد قاصرة على مدن الساحل، وإقليم الريف، بل لقد نفذت حتى إقليم الصحراء إلى أغمات، ومراكش، وبدأ الفن المغربي الأندلسي يتألق نجمه، لأن هؤلاء البدو عمدوا إلى حمايته والإفادة منه بقدر الطاقة^(٣). فطن يوسف بن تاشفين إلى هذه الحياة الفنية الزاهرة، وأفاد منها، واستقدم صناع الأندلس، وخيرة فنانيتها إلى بلاد المغرب للإفادة من خبرتهم ومهارتهم في بناء المساجد والحصون وغيرها من المؤسسات^(٤). وقد اشتد ساعد

Marcais : Manuel d' Art Musul. vol. L. P. 301 (١)

Marcais : Manuel d' Art Musul. vol. L. P. 307 (٢)

(٣) الجزنائي زهرة الأس ص ٣٢.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

هذه المؤثرات الأندلسية فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، فقد تتلمذ على الحضارة الجديدة، وأعجب بها، وفهمها أصدق الفهم، وأمعن فى استقدام الفنانين الأندلسيين، فانتشروا فى طول البلاد وعرضها^(١)، وبدأت مدن المغرب وأقاليمه وقراه تحفل بمؤسسات بلغت من الروعة والفخامة حدا بعيدا، وأصبحت مؤسسات فاس ومراكش وتلمسان تكاد تضارع مؤسسات قرطبة وأشبيلية، وكان الفن فى عهد المرابطين هو فن أندلسى فى أرض مغربية^(٢).

وهناك ناحية أخرى أثرت فى الفن فى العهد المرابطى تأثيرا كبيرا هى هذا الاستقرار الذى أشاعه المرابطون فى البلاد، وهذا الأمن وهذه الطمأنينة التى أظلت البلاد فى عهدهم؛ لأن الفوضى والاضطراب من أعدى أعداء الفن، لاتستطيع النهضة الفنية أن تثمر وتؤتى أكلها فى بيئة مضطربة غير مستقرة، ومايقال من أن تاريخ الفن مرتبط بالتاريخ السياسى يصدق فى المغرب الأقصى أكثر من صدقه فى أية بيئة أخرى، لأن الدولة إذا بسطت رواقها وأفلحت فى قهر أعدائها، استقرت الأحوال، وانصرف الناس إلى الإنتاج، أما إذا انطلقت القبائل من عقالها تدمر وتخرّب وتشيع الفتنة لم يستطع الفن أن يقف على قدميه^(٣).

وقد شهدت بلاد المغرب فى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد على أمنا وطمأنينة واستقرارا ربما لم تشهده فى أى عصر سابق، وانتشرت الآثار الفنية فى مدن المغرب الأقصى، ولكن الحاضرة كانت أشد تألقا فى سماء الفن بسبب بلاط السلطان، وأبهته وفخامته، وبسبب تنافس الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة^(٤)، فحفلت بالعمائر المدنية والدينية، كما أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن فى المغرب فى عهد المرابطين.

وثمة ناحية أخرى لاتقل عن الاستقرار أثرا، ونعنى بها الرخاء ذلك أن الاستقرار يؤدى إلى زيادة الإنتاج، وإلى رواج التجارة والصناعة فتتوافر المادة الخام، ويستطيع الفن أن يجد حاجته منها فى يسر وسهولة، كما يؤدى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة، ويقدر ثراء الملوك والسلاطين تعظم آثارهم، وقد ازداد ثراء

(١) الإدريسي وأرض السودان ص ٦٩.

(٢) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 243

(٣) Terrasse et Hainaut : Las Arts Decoratifs au Maroc, P. 45

Idem (٤)

المرابطين، وعظم جاههم بعد أن جمعوا بين أموال الأندلس والمغرب، وأصبح من الميسور أن ينفقوا أموالا ضخمة فى إقامة الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد الجامعة، روى أن على بن يوسف أنفق فى بناء مراكش ٧٠ ألف دينار^(١)، كما أنفق فى إصلاح جامع القرويين بفاس ما يقرب من ثمانين ألف دينار^(٢)، كما كان يصل أهل الفن والصناعة بصلات سخية تدفعهم إلى الإتقان والتجويد، لذلك تجلت فى مبانيهم ضخامة الثروة وروعة الفن.

وهناك ناحية أخرى كانت لها نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الفن فى العهد المرابطى تتمثل فيما قامت به الدولة من إحياء تقاليد الإسلام، ورفع لواء السنة، واتسام الأمراء والولاة بالتقوى والصلاح، والإقبال على العبادة والانقطاع لذكر الله، فقلت العمارات المدنية فى عهدهم قلة أثارت دهشة مؤرخى الفن^(٣)، إذ لم يكتثروا من القصور المنيفة، إنما أقبلوا على المساجد يعمرونها ويكثرون منها، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد فى مدينة فاس، وكان يلوم أهلها على تقصيرهم فى هذا الشأن^(٤)، كما بنى مسجدا جامعاً فى مراكش^(٥)، ويخيل إلينا أن التقاليد التى وضعها عبدالله بن ياسين من معاقبة تارك الصلاة كانت ماتزال سارية فى عهد يوسف على الأقل، وإذا كانت الدولة تعاقب على ترك الصلاة فلا بد أن الناس قد أقبلوا على المساجد إقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الإكثار منها، نعم أقبل ملوك الطوائف على بناء القصور وتأنقوا فى زخرفتها وبنائها بينما وجه المرابطون عنايتهم إلى المساجد يتأنقون فى بنائها ويعلمون من صرحها.

وقد تجلت روائع الفن المغربى الأندلسى فى جامع القرويين بفاس الذى تم إصلاحه فى عهد على بن يوسف، وأنفق فى ذلك نحو من ثمانين ألف دينار^(٦) واستجلب خيرة الصناع المهرة والمهندسين حتى جاء آية فى روعة الفن وبهائه، يتضح ذلك من قول صاحب كتاب زهرة الآس «أخذ فى عمل الطبقة التى بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما فعلى ذلك بالجص المقريس

(١) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤.

(٢) الجزائى : زهرة الآس ص ٥٧.

(٣) Marçais: Manuel de L'Art Musul. vol. p. 307

(٤) الجزائى : زهرة الآس ص ٣٢.

(٥) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١.

(٦) الجزائى زهرة الآس ص ٣٢ و ٤٢. جذوة الاقتباس ص ٤١.

الصنعة والنقش على المحراب ودوائر القبلة التي عليه ورقش ذلك كله بورق الذهب واللازورد وأضاف الأصبغة، وركب في الشماسات التي بجوانب القبة أشكالا متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد، ثم أخذ في تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن^(١). ويتجلى ذلك الفن أيضا في جامع تلمسان الذي بنى سنة ٥٢٠ هجرية في عهد علي بن يوسف، وظهرت فيه آثار الفن الأندلسي واضحة حتى لقد شبه بجامع قرطبة في الروعة والأبهة^(٢). ومن الآثار المنسوبة للمرابطين أيضا جامع الجزائر وهو يشبه جامع تلمسان في روعة الفن وأبهة البناء^(٣)، ولو كان في مقدور الموحدين أن يهدموا هذه الآثار لفعلوا، لأنهم هدموا قصور المرابطين في المغرب ومحووا آثارهم، فلم يجد العلماء من الآثار المنسوبة إليهم ما يتفق وروعة فنهم وضخامة ملكهم وعظم ثرائهم.

وقد حرص المرابطون على تثبيت سيادتهم في المغرب الأقصى وإخضاع القبائل المغلوبة على أمرها حتى تستكين لحكمهم، فلا تحدتهم أنفسهم بالخروج عن الطاعة، وقد نجحوا في هذه السياسة نجاحا بعيد المدى، فأكثروا من القلاع وأقاموا صفا من الحصون حول جبال أطلس لإخضاع المصامدة والسيطرة عليهم، وكانت هذه القلاع تتألف من جدران سميكة غليظة تنهض سامقة في الجو تتخللها أبراج على هيئة نصف دائرة وتحيط بها الخنادق الواسعة^(٤)، وقد تأثر المرابطون بالفن الأندلسي في بنائها كما تأثروا بالفن الإفريقي، وقد حصن المرابطون المدن كما حصنها أهل الأندلس، واضطر علي بن يوسف إلى أن يقيم سورا حول مراكش استخدم في بنائه صناعا من أهل الأندلس^(٥). ولم يهمل المرابطون القناطر والجسور، وقد أقاموا بمراكش قنطرة على نهر تانسيفت، وجلبوا المياه من جبال أطلس^(٦).

(١) الجزنائي : زهرة الأس ص٥٧. ابن القاضي : جلدوة الاقتباس ص٤٢.

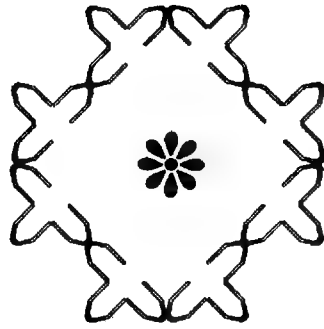
(٢) Marçais: Manuel de L'Art Musul. vol. p. 305

(٣) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 227

(٤) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 225

(٥) مفاخر البربر ص٥٣ . السعادة الأبدية ج١ ص١٤.

(٦) الادريسي : المغرب وأرض السودان ص٦٩.



ملاحق

الملاحق

- ١ - ملوك المرابطين
- ٢ - عمال المرابطين بالأندلس.
- ٣ - عمال المرابطين بميورقة.
- ٤ - عمال المرابطين بالمغرب.
- ٥ - الكتاب والوزراء.
- ٦ - قواد الجيش.
- ٧ - أمراء البحر.
- ٨ - مواضع القلاع والحصون.
- ٩ - القضاء.
- أ - قضاة الأندلس.
- ب - قضاة المغرب.

١ ملوك المرابطين

يحيى بن إبراهيم الجدالى قبل سنة ٤٤٧ = ١٠٥٥

يحيى بن عمر اللمتونى

١ - أبو بكر بن عمر اللمتونى (توفى سنة ٤٨٠) = ٤٤٨ = ١٠٥٦

٢ - يوسف بن تاشفين = ٤٨٠ = ١٠٧٨

٣ - على بن يوسف = ٥٠٠ = ١١٠٦

٤ - تاشفين بن على (توفى سنة ٥٤٠) = ٥٣٧ = ١١٤٢

٥ - إبراهيم بن تاشفين بن على = ٥٤٠ = ١١٤٥

٦ - إسحق بن على بن يوسف (توفى سنة ٥٤١) = ٥٤٠ = ١١٤٥

يحيى بن غانية (آخر ولاة المرابطين بالأندلس توفى سنة ٥٤٣).

٢ - عمال المراتبين بالأندلس

قرطبة	أشبيلية	غرناطة
أبو محمد تاشفين بن سليمان	إبراهيم بن يوسف بن تاشفين	أبو بكر بن إبراهيم
الزبير بن عمر المثلث	أبو بكر بن علي بن يوسف	أبو بكر بن أبي محمد
أبو محمد عبدالله بن جنون	أبو بكر بن مزدلي	أبو بكر بن علي بن يوسف
أبو عبدالله المعروف بابن عواد	الأمير باسنجور	تاشفين بن علي
أبو محمد عبدالله بن مزدلي	تميم بن يوسف بن تاشفين	تميم بن يوسف بن تاشفين
أبو عبدالله بن نوتان	أبو جعفر عمر	الزبير بن عمر
أبو عبدالله محمد بن أبي زنفى	سير بن أبي بكر	سير بن الحاج
أبو عبدالله محمد بن الحاج داود	طلحة بن العنبر	أبو محمد عبدالعزيز بن سليمان
أبو عمد مزدلي بن سلنكان	عبدالله بن أبي بكر بن جنونة	عبدالله بن مزدلي
المنصور بن محمد بن الحاج	أبو محمد عبدالله بن فاطمة	عثمان بن بدر اللمتوني
أبو زكريا يحيى بن تاشفين	عثمان بن عمر	علي بن الحاج بن محيون
	المنصور بن محمد بن الحاج	علي بن يوسف بن تاشفين
	أبو زكريا يحيى بن علي بن	موسى بن الحاج
	مجون	مزدلي بن سلنكان
	أبو زكريا يحيى بن إسحق	يحيى بن واسينو
	أنجمار	
	يحيى بن سير	
	أبو يعقوب بن علي	

تابع عمال الموابطين بالأنڊلس

مرسية	بلنسية	سرقسطة
إبراهيم بن تاغياشت	إبراهيم بن تاغياشت	أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت
أبو بكر بن تيفلويت	أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت	أبو عبدالله محمد بن الحاج
أبو عبدالله محمد بن تاشفين	أبو الطاهر تميم بن يوسف	
أبو زكريا يحيى بن غانية	عبدالله بن فاطمة	
أبو عبدالله بدر بن ورقاء	على بن محيون	
أبو عبدالله بيتان بن على	أبو عبدالله محمد بن الحاج	
	مزدلى بن سلنكان	
	أبو زكريا يحيى بن تاسورة	
	أبو زكريا يحيى بن على	
	بدر بن ورقاء	
	أبو يعقوب بن بيتان بن على	

٣ - عمال الموابطين بميورقة

١ - محمد بن على بن إسحق بن غانية

٢ - وانود بن أبى بكر اللمتونى

٣- يحيى بن على بن إسحق بن غانية

٤ - عمال الموابطين بالمغرب

فاس وسبته	تلمسان	بلاد السوس
أبو بكر بن إبراهيم	تاشفين بن تينامر	أبو بكر بن محمد اللمتونى
أبو عبدالله محمد	مزدلى بن سلنكان	
ابن الحاج		

إقليم الصحراء	سجلماسة
أبو بكر بن إبراهيم	إبراهيم بن أبى بكر بن عمر
	أبو عبدالله بن أبى زنفى

٥ - الكتاب الوزراء

- ١ - أبو بكر بن الصائغ .
- ٢ - أبو بكر محمد بن المعروف بابن القبطرنة .
- ٣ - أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي .
- ٤ - أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي .
- ٥ - ابن باجة (أبو بكر) .
- ٦ - جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافري .
- ٧ - أبو جعفر بن البنى .
- ٨ - أبو الحسن غلام البكرى .
- ٩ - طلحة بن عبدالعزيز بن سعيد البطليوس .
- ١٠ - عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم .
- ١١ - عبدالرحمن بن أسبط .
- ١٢ - عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافري .
- ١٣ - أبو عبدالله بن أبي الخصال .
- ١٤ - أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون الفهرى اليابرى .
- ١٥ - عبدالملك بن أبي الخصال مسعود بن فرح بن خلصة الغافقى .
- ١٦ - أبو القاسم بن الجدد المعروف بالأحدب .
- ١٧ - مالك بن وهيب .
- ١٨ - محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن السقاط .
- ١٩ - ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بابن القصيرة .
- ٢٠ - محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز .
- ٢١ - يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، أبو بكر بن الصيرفى .
- ٢٢ - يحيى بن همام السرقسطى .

٦- قواد الجيش

- ١ - ابن تافلويت .
- ٢ - أبو الطاهر تميم بن يوسف .
- ٣ - جرور الحشمى .
- ٤ - داود بن عائشة .
- ٥ - أبو سليمان بن تارشنا .
- ٦ - سير بن أبى بكر .
- ٧ - سير بن واربيل .
- ٨ - أبو عبدالله بن الحجاج .
- ٩ - عبدالله بن فاطمة .
- ١٠ - عثمان بن يحيى بن إبراهيم .
- ١١ - على بن الحاج .
- ١٢ - أبو عمران بن تارشنا .
- ١٣ - أبو محمد مزدلى .
- ١٤ - مسعود بن ورنىخ .
- ١٥ - أبو يحيى بن إبراهيم .
- ١٦ - يحيى بن سير .
- ١٧ - يحيى بن كالفجان .
- ١٨ - أبو زكريا يحيى بن واسنيوا .

٧- أمراء البحر

- ١ - على بن عمر، الموسوم برقم الأوز .
- ٢ - على بن عيسى ميمون .
- ٣ - عيسى بن ميمون اللمتوني .

٨ - مواضع القلاع والحصون

- ١ - تاسعيموت .
- ٢ - آنسا .
- ٣ - نافر ككوت .
- ٤ - آسكابو .
- ٥ - تارودانت .
- ٦ - آيكيليز .
- ٧ - تاسنولت .
- ٨ - آصكا آن كمات .
- ٩ - تارولوت أن يكدميون .
- ١٠ - لجاغة .
- ١١ - نفيس .
- ١٢ - هيلانة .
- ١٣ - هسكورة .
- ١٤ - تادلا .
- ١٥ - تاكروروت .
- ١٦ - داي .
- ١٧ - تاكرارت .
- ١٨ - آجرو .
- ٢٠ - تاسغمارت .
- ٢١ - تونكطيان .
- ٢٢ - الولجة .
- ٢٣ - تارغدرا .

٩ - القضاء

(١) قضاة الأندلس

أشبيلية	قرطبة	غرناطة
أبو بكر بن العريى	أبو بكر بن منظور	أحمد بن عبدالرحمن بن محمد
أحمد بن محمد بن عمر	عبدالمك بن مسرة بن خلف	ابن الصقر
التميمي بن شبرين	عيسى أبو الإصبع بن سهل	أحمد بن محمد بن عمر التميمي
شريح بن محمد بن شريح	عيسى بن الملجوم	خلوف بن خلف أبو سعيد
عبدالله بن خليفة	أبو عبدالله محمد ابن أحمد	عبدالعظيم بن زيد بن يحيى
أبو عبدالله محمد بن داود بن عطية	ابن خلف التجيبي	أبو عبدالله بن حسون الكلبي
أبو القاسم بن داود	أبو الوليد محمد بن رشد	عبدالله بن على بن عبدالمك ابن
أبو القاسم بن منظور	محمد بن عبدالرحمن ابن	سمجون اللواتي
محمد بن إسماعيل بن عبدالمك	إبراهيم بن الوزان	عبدالمنعم بن مروان بن عبدالمك
محمد بن داود بن عطية بن سعيد		على بن عبدالرحمن بن سيدياية
		على بن عذرة بن هاني
		عياض اليحصي
		عيسى أبو الإصبع بن سهل
		أبو بكر محمد بن أحمد القليعي
		محمد بن عبدالله بن حسين بن
		حسنونة
		محمد بن على الأزدي
		محمد بن هشام بن أحمد بن
		موسى بن محمد
		هشام بن أحمد بن هشام اللالاي

تابع قضاة الأندلس

أشبيلية	الجزيرة الخضراء	شرق الأندلس
إسماعيل بن مهلهل	أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد المعافري عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الكتامي عبدالله بن علي بن عبدالمملك ابن سمجون	محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغساني

مالقة	إشتيرية الشر	مرسية
الحسين بن عبيد الله بن حسين الكلبي	لب بن عبد الجبار بن عبدالرحمن	أبو الحسن بن محمد بن سكره عاشر بن محمد بن عاصر أبو علي الصدفى

البونت	ألمرية	جيان
محمد بن عبدالعزيز بن سعيد ابن عقال	أبو الحسن بن أضحي عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن عبدالمنعم بن مروان بن عبدالمملك	عبدالعظيم بن يزيد الخولاني

استجة	لاردة	حصن مرجيق
أحمد بن محمد بن هذيل الأنصاري	أحمد بن هذيل الأنصاري	ابن شبرين

شاطبة	شلب	مالقة
عاشر بن محمد بن عاشر أبو بكر بن خلف	ابن شبرين	عبدالرحمن بن الشعبي

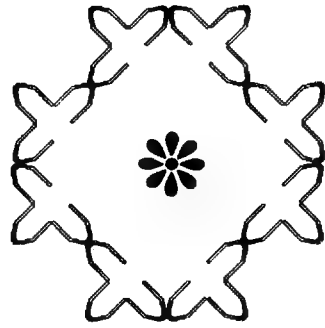
ب - قضاة المغرب

فاس	مراكش	سبتة
<p>خلوف بن خلف الله الصنهاجي عبدالحق بن معيشة الغرناطي عبدالله بن أحمد بن وشون عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي عبدالمالك بن يفضاء القيسي عيسى بن الملجوم محمد بن حكم السرقسطي محمد بن داود بن عطية الجزولي محمد بن عبدالرحمن الكتامي محمد بن عيسى بن حسين التميمي محمد بن عيسى أبو عبدالله</p>	<p>خلوف بن خلف الصنهاجي عبدالرحمن بن محمد الكتامي عبدالله بن إسماعيل الإشيلي أبو عبدالله بن حسنون عبدالله بن محمد بن اللخمي موسى بن حماد الصنهاجي عبدالمالك المصمودي يوسف بن عيسى بن الملجوم</p>	<p>إبراهيم بن أحمد البصري عبدالله بن حمو عبدالله بن محمد بن إبراهيم رياض اليحصي محمد بن داود بن عطية محمد بن عيسى بن حسين التميمي مروان بن عبد الملك اللواتي محمد بن محمد الأموي مروان بن عبدالمالك اللواتي</p>

طنجة	اغامت	تلمسان
<p>مروان بن عبدالمالك بن سمجون عيسى بن سهل الاسدي</p>	<p>خلف بن عمر بن خلف التجيبي عبدالله بن إسماعيل الإشيلي عبدالله بن علي بن أحمد اللخمي</p>	<p>علي بن عبدالرحمن بن سمجون حمد بن داود بن عطية</p>

مكناسة	سلا	وجدة
<p>عيسى بن سهل بن عبدالله الاسدي، أبو موسى بن الملجوم</p>	<p>عبدالرحمن بن محمد الكتامي</p>	<p>عبدالله بن سعيد الوجدي</p>

أركي	دكالة	سجلماسة
<p>محمد بن الحسن الحضرمي</p>	<p>عبدالعظيم بن يزيد بن هشام</p>	<p>عبدالعظيم بن يزيد بن هشام</p>



مراجع الكتاب

المراجع أولا : المراجع العربية

- ١ - ابن الأبار - أبو عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى (ت ٦٥٩هـ)
ابن الأبار كتاب التكملة لكتاب الصلة، جزءان، (مدريد ١٨٨٦هـ).
- ٢ - ابن الأبار : الحلة السيرة.
- ٣ - ابن الأبار: المعجم فى أصحاب القاضى أبى علي الصدفى، (مدريد ١٨٨٥هـ).
- ٤ - أبو بكر الصنهاجى : اليبداق.
- كتاب أخبار ابن تورمرت وابتداء دولة الموحدين، (باريس ١٩٢٨)
- ٥ - ابن الأثير - أبو الحسن على بن أبى الكرم (٣٦٠هـ).
الكامل فى التاريخ - عشرة أجزاء - (بولاق).
- ٦ - أحمد بابا التمبكتى - أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر (من علماء أول القرن
الحادى عشر): نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة ١٢٣٩هـ).
- ٧ - الإدريسى - محمد بن عبدالعزيز الشريف الفاوى (٦٤٩هـ).
- ٨ - إسماعيل رافت.
- التيان فى تخطيط البلدان - جزء واحد، (القاهرة ١٩١٥هـ).
- ٩ - أشباخ - يوسف.
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - جزءان - (القاهرة ١٩٤٠هـ).
- ١٠ - الأصبهاني - أبو عبد الله محمد بن حامد بن عبدالله (ت ٥٩٧هـ).
خريدة القصر وجريدة العصر - الجزء الحادى عشر - مخطوط بمكتبة الجامعة
- ١١ - ابن أبى صبيعة - موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٧٧هـ).
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - جزءان - نشره مولر (القاهرة ١٨٨٢هـ).
- ١٢ - الأعمى التطلى.
- الديوان - مخطوط بدار الكتب المصرية.
- ١٣ - أعز ما يطلب، مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تورمرت مما أملاه
أمير المؤمنين عبدالمؤمن بن على - نسخة ليس بها مايدل على ستة الطبع أو
مكانه.

١٤ - أمارى .

مكتبة ضقلية العربية - جزآن - (لييزج سنة ١٨٨٧).

١٥ - ابن بسام - أبو الحسن على الششتري - (ت ٥٤٢هـ).

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة :

القسم الأول المجلد الأول والثانى - القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ .

القسم الثانى والثالث - مخطوط بغداد - مكتبة الجامعة .

القسم الرابع المجلد الأول - القاهرة ١٩٤٥ .

القسم المجلد الثانى - مخطوط بقلم مغربى - مكتبة الجامعة .

١٦ - ابن بشكوال - أبو القاسم خلف بن عبدالمك (ت ٥٨٧هـ).

كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم

وأدبائهم (مدريد ١٨٨٢هـ).

١٧ - ابن بطوطة - أبو عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن إبراهيم

اللواتى (٧٧٩هـ)

تحفه النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

١٨ - البغدادى - أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد (٤٢٩هـ).

الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم (القاهرة ١٩١٠م).

١٩ - البكرى أو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز - (ت ٤٨٧هـ).

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب - دى سلان - (الجزائر ١٨٥٧هـ).

٢٠ - التادلى - أبو يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى (حول ٩١٧هـ)

التشوف إلى رجال التصوف - مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢١ - التيجانى - من أعيان القرن الثامن الهجرى .

الرحلة التيجانية - مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢٢ - جامع تواريخ فاس - طبع بمدينة بالرم سنة ١٨٧٨ .

٢٣ - ابن جبير - أبو الحسين محمد بن أحمد (٦٢٤هـ)

الرحلة - ليدن سنة (١٩٠٧م).

٢٤ - الجزنائى - أبو الحسن على .

زهرة الآس فى بناء مدينة فاس - (تلمسان ١٩٢٢).

٢٥ - جلد تسهير-

العقيدة والشرعية - (القاهرة).

٢٦ - حسن إبراهيم - الدكتور.

النظم الإسلامية - (القاهرة ١٩٣٩).

٢٧ - ابن حزم - أبو محمد على بن أحمد - (ت ٤٥٦هـ).

كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل - ٤ أجزاء - (القاهرة ١٣١٧هـ).

٢٨ - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . لمؤلف مجهول الاسم - نشره أحمد علوش رباط ١٩٣٦ .

٢٩ - ابن حمديس - عبد الجبار أبي بكر محمد السرقوسي (ت ٥٢٧هـ).

الديوان - (روما ١٨٩٧).

٣٠ - الحميدى - أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله (ت ٤٨٨هـ).

جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر - (القاهرة ١٩٥٢).

٣١ - الحميرى - أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ).

صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار - (القاهرة ١٩٣٧).

٣٢ - ابن حوقل - أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (أواخر القرن الرابع).

المسالك والممالك - (لندن ١٨٧٣).

٣٣ - ابن خاقان - أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسى (ت ٥٣٥هـ).

قلائد العقيان - (القاهرة ١٢٧٣هـ).

ابن خاقان : مطمح الأنفس ، القاهرة ١٣٢٥هـ.

٣٥ - الخشنى - محمد بن الحارث بن أسد.

كتاب طبقات علماء إفريقية - (الجزائر ١٩١٤).

٣٦ - ابن الخطيب - الوزير محمد لسان الدين (ت ٧٧٦هـ).

الإحاطة فى أخبار غرناطة - جزآن - (القاهرة - ١٣١٩هـ).

٣٧ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام - (رباط الفتح - ١٩٣٤).

٣٨ - ابن الخطيب : رقم الحلل فى نظم الدول - (تونس ١٣١٦هـ).

- ٣٩ - ابن خفاجة - أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح الأندلسي (ت ٥٣٨هـ).
- الديوان - القاهرة (١٢٨٦هـ).
- ٤٠ - ابن خلدون - عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر - الجزء السادس - (بولاق ١٢٨٤هـ) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر - الجزء السادس - (بولاق ١٢٨٤هـ).
- ٤١ - ابن خلكان - وفيات الأعيان وأبناء الزمان.
- ٤٢ - ابن خير - أبو بكر محمد بن عمر.
- فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفه في ضروب العلم - (سرقسطة ١٨٨٤).
- ٤٣ - الدباغ - عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصاري (٦٩٦هـ).
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان - ٤ أجزاء - (تونس ١٣٢٠).
- ٤٤ - ابن دحية - أبو الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي (٦٢٣هـ).
- كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس - بغداد ١٩٤٦.
- ٤٥ - ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب - مخطوط بدار الكتب (طبع الآن).
- ٤٦ - الدمشقي - شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب (ت ٥٢٧هـ).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - (بطرسبورج ١٨٢٠).
- ٤٧ - رينو - بول .
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، ترجمه وعلق عليه شكيب أرسلان - (القاهرة ١٣٥٢هـ).
- ٤٨ - ابن الزبير - أبو جعفر أحمد (ت ٧٥٨هـ).
- كتاب صلة الصلة - (الرباط ١٩٣٧).
- ٤٩ - ابن أبي زرع - أبو الحسن علي بن عبدالله (ت ٧٢٦هـ).
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - (أويسالة ١٨٤٣).
- ٥٠ - الزركشي - أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - (تونس ١٢٨٩هـ).

- ٥١ - ابن زيدان - عبدالرحمن .
- إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس - ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩)
- ٥٢ - السقطى - أبو عبدالله محمد بن أبى محمد المالقى الأندلسى .
- آداب الحسبة .
- ٥٣ - السيوطى - أبو بكر محمد المغربى كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين - مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٥٤ - السيوطى - جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر الشافعى (٩١١هـ) .
- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة - (القاهرة ١٣٢٦) .
- ٥٥ - الشريف العلمى - أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب .
- الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب - مطبوع بالحجر بقلم مغربى .
- ٥٦ - الشهرستانى - أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ) .
- كتاب الملل والنحل - (ليزج ١٩٢٣) .
- ٥٧ - الضبى - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ) .
- بغية الملتبس فى تاريخ رجال الأندلس - (مدريد ١٨٨٤) .
- ٥٨ - الطرطوشى - أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى (ت ٥٢٠هـ) .
- سراج الملوك - (القاهرة ١٢٨٩هـ) .
- ٥٩ - عبد الله بن بلكين (كان حيا فى القرن الخامس الهجرى) .
- التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة - نشره بروفنسال .
- انظر Revue al- Andalus, 1935, 1941.
- ٦٠ - ابن عبدون - محمد بن أحمد التجيبى (من رجال القرن الخامس) .
- رسالة فى الحسبة - نشرها بروفنسال وعلق عليها .
- ٦١ - ابن عذارى المراكشى .
- البيان المغرب - الجزء الأول والثانى والثالث ، ليدن (١٨٤٨ - ١٨٥٠
- وباريس ١٩٣٠) .
- ٦٢ - أبو العرب - محمد بن أحمد بن تميم التميمى .
- طبقات علماء تونس - (الجزائر ١٩١٤) .

- ٦٣ - ابن العماد الحنبلى - أبو الفلاح عبدالحى بن العماد (ت ١٨٠٩هـ).
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - الجزء الثالث - (القاهرة ١٣٥٠هـ).
- ٦٤ - عياض اليعصبى (٥٤٤هـ).
ترتيب المدارك وتقريب المسالك . مخطوط بدار الكتب فى أربعة أجزاء .
- ٦٥ - مشيخة القاضى عياض - مخطوط بقلم مغربى بدار الكتب المصرية .
- ٦٦ - الغرناطى - محمد بن عبدالرحيم المعروف بأبى حامد الأندلسى (ت ٥٦٠هـ).
تحفة الألباب ونخبة الأعجاب .
- ٦٧ - الغزالى - محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥هـ).
إحياء علوم الدين .
- ٦٨ - أبو الفدا - الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة (ت ٧٣١هـ).
المختصر فى أخبار البشر - ٤ أجزاء - (القسطنطينية ١٢٨٦هـ).
- ٦٩ - ابن فرحون - برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى (ت ٧٩٩هـ).
الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب .
- ٧٠ - ابن القاضى - أحمد بن محمد بن أبى العافية .
جذوة الاقتباس فىمن حل من الأعلام مدينة فاس ، بقلم مغربى طبع الحجر .
- ٧١ - ابن القلانسى - أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ).
ذيل تاريخ دمشق - (بيروت ١٩٠٨).
- ٧٢ - القلقشندى - الشيخ أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ).
صبح الأعشى - الجزء الخامس - (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧).
- ٧٣ - الكتانى - أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الحسنى .
الأزهار العاطرة الأنفاس - بقلم مغربى طبع الحجر .
- ٧٤ - المالكى - أبو بكر عبدالله بن أبى عبدالله .
رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم
ونساكهم وسير من أخبارهم .
- نشره وعلق عليه وقدم له الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥١ .
- ٧٥ - مالك بن أنس .
الموطأ (دلهى ١٣٠٢هـ).

- ٧٦ - أبو المحاسن - جمال الدين يوسف تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ).
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٤هـ).
- ٧٧ - المراكشى - محبى الدين أبو محمد عبدالواحد بن على التميمى (ت ٦٦٩هـ).
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٢).
- ٧٨ - ابن مريم - أبو عبدالله محمد بن محمد المديونى.
- البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر ١٩٠٨).
- ٧٩ - نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم، ألفه سنة ٧١٢هـ. نشرها بروفنسال، (رباط ١٩٣٤).
- ٨٠ - المقرئ - شهاب الدين محمد بن التلمسانى (ت ١٠٤٠).
- أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض - ٣ أجزاء - (القاهرة ١٩٤٠).
- ٨١ - المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب - (القاهرة).
- ٨٢ - المقرئ - تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ).
- جنى الأزهار من الروض المعطار - مخطوط بدار الكتب المصرية.
- ٨٣ - المقرئ : شذرات العقود فى ذكر النقود.
- ٨٤ - ابن المؤقت - محمد بن محمد بن عبدالله المراكشى.
- السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية - مجلدان قلم مغربى طبع الحجر.
- ٨٥ - مؤنس - حسين الدكتور.
- الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين - مجلة كلية الآداب م ١١٠ - ج ٢ - ١٩٤٩.
- ٨٦ - مؤنس - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين - مجلة كلية الآداب - العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠.
- ٨٧ - النباهى - أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن المالكى (٧٧٦هـ).
- المرقة العليا فىمن يستحق القضاء والفتيا - (القاهرة ١٩٤٨).
- ٨٨ - نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى - نشرها بروفنسال - باريس ١٩٤٨.
- ٨٩ - النويرى - شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم.
- نهاية الأرب - الجزء ٢٢ - (غرناطة ١٩١٩).

ثانياً - المراجع الأوروبية

1- Altamera:

" " Spain (1031 - 1248)

" " Cambridge Medieval History, vol. Chapter xll.

2 - Nnnales de L, Institut d, etudes Orientales (Faculte des Lettres de L, universite d,Alger) tome L, Annee 1934- 1935, Tome LL.

3 - Basset (R.):

" " Melaeges Africains et Orientaux, paris, 1915.

4 - " " Mission au Senegal L, pares 1918.

5 - Barth (H.):

Travels and disccveries in North and Central Central Afral Africa in the years 1909 - 1955, London 1858, 5 vols.

6 - Bel (A.):

Almoravide :Encycl. of Islam.

7 - " " Ali Ben Youssof :Encycl. of Islam.

8 - " " Les Benou Ghanya. Paris 1903.

9 - " " La Religion musumane en Berberie, etablissement et developpe- ment de I, islam en Berberie du vll au xx Siecle, Tome I, paris 1938.

10- Ben Cheneb (M.):

etude sur les Personnages mentionnes dans L,Idiaza du Cheikh Abd El Qadir El Fasy, Paris 1907.

11 - Bjorkmann(W.):

Litham :Enccl. of Islam.

12 - De Cenival (P.):

Marrakoch :Encycl. of Islam.

13 - Cedera (F.) Y Zaidin:

Tratado de Numismaticaa Arabigo - Espanols, 1879.

14 - Colin (G.S.):

" " Lamta : Encycl. of Islam.

- " " Lamtouna : Encycl. of Islam.
- 16 - Cooley (W.D):
the Negroland of the Arabs, London 1841.
- 17 - Delafosse (M.):
" " Chroniques du Fouta Senegalais, Revue du Monde Musulman'
Tome 25, 1913.
- 18 - " " Senegal : Encycl. of Islam.
- 19 - Demombynes (G.):
Masalik El Absar Fi Mamalik el Amsar, L'Afrique moins l'Egypte,
traduit et annote avec une introduction et Cartes, paris 1927.
- 20 - Doutte (E.):
" " Notes sur L'Islam Maghribin "Les Maraboutes", paris 1901.
- 21 - " " Abdallah Ibn Yassin: Encycl. of Islam.
- 22 - " " Encycl. of Islam.
- 23 - Dozy (R.):
" " Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde 1861.
- 24 - " " Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1846.
- 25 - " " Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne pendant le
moyen age, Leyde 1881, 2 vols.
- 26 - Duruy (V.):
Histoire du Moyen age depuis la chute de l' empire d'Occident jus-
qu'au milieu du xv Siecle, Paris 1884.
- 27 - Duveyrier (H.):
Exploration du Sahara: Les Touareg du Nord, paris 1864.
- 28 - Fournel (H.):
Les Berberes, Tome I, paris, 1875.
- 29 - Gautier (E.F):
" " La conquete du Sahara, paris 1915.
- 30 - " " Gayangos (P.):
The History of the Mohammedan dynasties in Spain, exxtracted from

the Nafhu -t-tib, 2 vols London MDCCCXL.

32 - Goldziher (1):

Mohammed Ibn Toumart et la theologie de l'islam dans le Nord de l'Afrique au Xi Siecle, Alger 1903.

33 - Hamet (1.):

La civilisation Arabes en Afrique Centrale, Revue du Monde Musul. Avril, 1911, Tome Xiv.

34 - Hoogoliet (M.) m:

specimen elitteris orientalibus diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia de Ibn Abdune poeta (ex. MSS. codicibus) bibliotheca Leidensis.

35 - Juan de dios de la Rada:

Catalogo de Monedas Arabigos - Espanlas que se conservan en el museo arqueologica National, Madrid 1892.

36 - Julien (A.)

Histoire de L'Afrique du Nord, paris 1931.

37 - Katalog der Orientalischen Munzen (Konigliche Museum zu Berli) 2 vols., Berlin 1898.

38 - De la chapelle (F.):

" " Essquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hesperis, annee 1930, Tome XI.

39 - " " Note presente au congres le Colontal, Hesperis, annee 1930. t.xl.

40 - Lane - poole (S.):

Catalogue of the collection of Arabic coins in the K hedivial Libary at Cairo, London 1897.

41 - Lavoix(H):

Cotalogue des Monnaies Musulmanes de laa Bibliotheque Nationales Paris DCCCXI.

42 - Lavust (E.):

L'Habitation chez les transhmants du Maroc Centrale, Hes peris, Tome

XVIII, 1934.

43 - Lemann (A.):

L'Origine de l' Idee de la Croisade, Hesperis, 1937. T. XXIV.

44 - Levi - Provençal:

" " Un manuel Hispanique de Hisba sur la surveillance des corporation
et la repression des fraudes en Espagne, Musulmane, Paris
DCCCXXXI.

45 - " " Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.

46 - Levi-Provençal

" " Seville Musulmane au debut du XII Siecle: Le Traite d'Ibo Abdun,
Paris 1947.

47 - " " La Mora Zaida, femme d'Alphonse VI, Hesperis, 1934, t.xii.

48 - " " Le Cid : Encycl. of Islam.

49 - " " Sous: Encycl. of Islam.

50 - Marcais (G.):

Les Arabes en Berberie du XII au XIV Siecle, Paris 1913.

51 - " " Manuel d'Art Musulmane: L' Architecture, Tome I.Paris 1926.

52 - " " sanbaja : Encyl. of Islam.

53 - " " Ribat : Encycl. of Islam.

54 -Macdonald (D.B.):

Djihad :Encycl. of Islam.

55 - Du Mas Latrie (M.L.):

Traites des paix et de commerce et documents divers Concernant les
relations des chretiens avec les Arabes de L'Afrique sep. paris, 1866.

56 - Muller (M.J.):

Geschichte der westlichen Araber herausgegeben, Muchen, 1866.

57 - Peres (H.):

La poesie a Fes sous les Almoravides et les Almohades, Hesperis
1934, Tome XVIII.

58 - Pidal (M.):

The Cid and his Spain, London, 1939.

59 - Pirenne (H):

Mahomet et Charlemagne, London, Paris 1937.

60 - Prieto Y Vives (A):

Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

61 - Redd (F. R):

People of the Viel, London 1926.

62 - De La Ronclere:

LA decouverte de L'Afrique au Moyen age.

63 - Scott (S.P.):

History of the Moorish Empire in Europe, vol. II, London. 1904.

64 - De Slane (M0:

Histoire des Berberes et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale: Introduction, Alger 1852.

65 - Stevnson (W.B.):

The First Crusade : Cambridge Medieval History, vol, v, Chapter VII.

66 - Strothmann (R.):

Tachbih :Encycl. of Ialam.

67 - Terrasse (H.):

" " L'Art Hispano - Mauresque des origines qu XII Siecle, paris MCXXXII.

68 - " " Les Arts decoratifss au Maroc, Paris 1946.

69 - " " Histoire du Maroc, des origines a L' etablissement du protectorat Frncais, Casablanca, 1946.

70 - Van Berchem (M.):

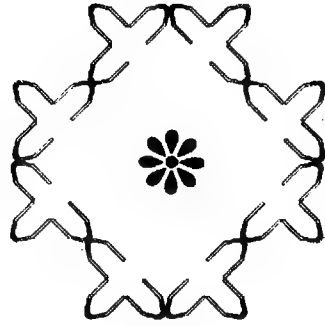
Titres Califien d'Occident. J.A.S., X serie, Tome ix, 1907.

71 - Vives (A.):

Monedas de las dinastias arabigo - Espanola, Madrid 1893.

72 - Yver (G.) :

Adrar: Encycl. of Islam.



کشاف

فهرس الأعلام

(١)

١٣٣، ١٣٥، ١٤٧، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١،
١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٩،
٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٠، ٢٩٢،
٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١٤،
٣١٨.

أبو بكر بن القصيرة: ٢٣٧، ٣١٤.

أبو بكر بن محمد اللمتوني: ٣٠٥.

أبو بكر بن مزدلي: ٣٠٦.

أبو بكر بن يوسف بن تاشفين: ٢٤٨.

أحمد بن حنبل، الإمام: ٨٦، ١٥٨.

أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري:

٣٧٩، ٣٨٤.

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري

الجزرجي: ٣٢٤.

أحمد بن عبد الرحمن الهواري، أبو العباس:

٩٦.

أحمد بن عبد الله القيسي، الأعمى التطيلي:

٣٧٩، ٣٨٥.

أحمد بن عمر، القائد المعروف برقم الأوز:

٣٤٤.

أحمد بن محمد، أبو جعفر، المعروف بابن

البنى: ٣٢٦.

أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خاطب

الباجي: ٣٧٩.

أحمد بن محمد بن الصلت القرشي، أبو

الحسن: ١٠٠.

أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله

إبراهيم بن أبي بكر بن ———:

١٩٥، ٢٤٩، ٣٥١، ٣٠٥، ٣١١.

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن

خفاجة الهواري: ٣٨٠.

إبراهيم بن اللمتوني: ٢٦٥.

إبراهيم بن تاشفين بن يوسف: ٣٥٤.

إبراهيم بن تاعياشت: ٣٠٦.

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عصام بن

أمية: ٣٢١.

إبراهيم بن يحيى بن محمد بن ينق: ٣٧٩.

إبراهيم بن يوسف بن تاشفين: ٣٠٦،

٣٦٩، ٣٨٣.

أبو بكر بن إبراهيم اللمتوني: ٢٧٣، ٢٧٤.

أبو بكر بن الأبيض: ٣٨٠.

أبو بكر بن باجة: ٣٥٦، ٣٦٩، ٣٨٠،

٣٨٥.

أبو بكر بن تفلويت: ٣٠٦.

أبو بكر بن الروح الأشيلي: ٣٦٩، ٣٨٥.

أبو بكر بن سير الصنهاجي: ٣٨٣.

أبو بكر بن الصائغ: ٣١٠.

أبو بكر الطرطوشي، الفقيه: ٢٨٠، ٣١٧،

٣٢٠، ٣١٩.

أبو بكر بن الطيب: ١٠٠.

أبو بكر بن علي بن يوسف: ٣٠٦.

أبو بكر بن عمر، أمير المرابطين: ١١٤،

الصنهاجى: ٩٧، ٣٨٢.

أحمد المستظهر بالله، أبو العباس، الخليفة
العباسى: ٢٩٢، ٢٩٣.

أحمد بن موسى بن عطاء الصنهاجى:
٩٧.

أخيل بن إدريس الرندى: ٣٢٤.

إدريس بن عبدالله الحسينى: ٢١، ٣٦،
٦٧.

أدولف الثالث: ٢١٥.

الأزهر بن عبدالله: ١١٧.

أسد بن القرات: ٨٣.

إسكندر الثانى، البابا: ٢١٧، ٢٥١.

إسماعيل بن عبيدالله بن أبى المهاجر:
٨٣، ٦٢.

ألفونسو السادس: ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩،
٢٢٢، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩،

٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥١،

٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٥،

٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦.

أيوب بن سعيد الصنهاجى، أبو شعيب:
٣٨٢.

(ب)

باديس بن المنصور: ٧٧.

بدر بن ورقاء، أبو عبدالله: ٣٠٦،
البرهانى: ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٧٦،

٢٧٧.

بشير المستيرى: ١١٨.

بقية بن الوليد: ١١٧.

بلكين بن زيرى بن مناد: ٣٦، ٧٤، ٧٥،

٧٦، ١٧٤، ١٨٣.

البهلول بن راشد: ٨٣.

(ت)

تاشفين بن على: ٣٠٦، ٣١٠، ٣٣٣.

تاشفين بن يوسف: ٣٠٤.

ثميم بن معنصر بن المعز بن زيرى: ٧٠،
١٧٧.

ثميم بن يوسف بن تاشفين، أبو الطاهر:
١٩٨، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٦٣.

ثميمة بنت يوسف بن تاشفين: ٣٦٣،
٣٨٤.

ابن تيفلويت: ٣٠٦، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٨٥.

تيولوتان بن تيكلان: ٦٨، ٧٠.

(ج)

جبله بن حمود بن عبدالرحمن بن مسلمة،
أبو يوسف: ١١٨.

جرور الحشمى، القائد: ٣٣١.

أبو جعفر بن البنى: ٣١٠.

جعفر بن حجاج القاضى: ٢٦٩، ٢٧٢،
٢٧٣، ٢٧٤.

أبو جعفر بن حجر: ٣٧٧.

جعفر بن شرف، أبو الفضل: ٢٧٦.

جعفر بن على الأندلسى: ٧٤.

(ح)

حبيب بن أبى عبيد: ٦٤.

حسان بن النعمان: ٦٠، ٨٢.

أبو الحسن بن أضحى: ٣٨٥.

أبو على الحسن بن رشيق القيروانى: ٣٨٦.

الحسن بن كنون الإدريسى: ٧٥.

أبو الحسن اللواتى: ١١٧.

الحصري القيرواني: ٢١٠.

ابن حفصون: ٧٣.

الحكم المستنصر: ٧٥.

ابن حمديس الصقلي: ٢٣٦، ٢٥٤، ٣٢٣،

٣٢٧، ٣٢٤.

(خ)

خالد بن حامد الفهمي: ٦٤.

خالد بن حميد الزناتي: ٨٢.

ابن خفاجة: ٢٦٧، ٣٨٥.

خلوف بن خلف الله الصنهاجي: ٣٨٢.

(د)

داود الأصفهاني: ١٥٨.

داود بن عائشة، أبو سليمان: ١٩٧، ٢٣٣،

٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤١.

(ر)

الراشد بن المعتمد بن عباد: ٢٣٠.

رامون برنجار، الكونت: ٢٦٩.

ابن رشيق: ٢٥٥، ٢٥٦.

روجر: ٢٨٩، ٣٤٥.

(ز)

زاوي بن مناد بن عطية: ٩٧، ٣٨٢.

الزبير بن عمر الملتوني: ٣٠٦، ٣١٠.

زهير بن قيس البلوي: ٦٠، ١١٥.

زينب، زوج يوسف بن ناشفين: ٥٢،

٣٦٣.

زيري بن عطية: ٧٦.

زيري بن مناد الصنهاجي: ٧٤.

(س)

ابن سارة الشتريني: ٣٨٥.

سالم بن راشد: ٢٠٨.

سحنون بن سعيد: ٨٥، ١٠٧، ١١٧،

١٢٤، ١٤٢.

سعيد أبو إسحق الفقيه: ١١٧.

أبو سعيد بن إسحق الكلبي: ١١٨.

أبو سعيد بن محمد الحداد: ٨٦.

سليمان بن هود: ٢٧٢.

سير بن أبي بكر الملتوني: ١٩٣، ١٩٨،

٢٥١، ٢٦٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٤٢،

٣٦٨.

سير بن يوسف: ٣٠٤.

(ش)

شارل مارتل: ٢١٤.

شائجة بن غرسية، الكبير:

٢١٣، ٢١٦، ٢١٩، ٢٦٦، ٢٦٨.

ابن شبرين القاضي: ٣٠٨.

شرل مان: ٢٠٩، ٢١٤.

(ص)

صالح بن طريف: ٦٥.

(ط)

طارق بن زياد: ٢٠.

الطرطوشي = أبو بكر الطرطوشي.

طلحة بن العنبر: ٣٠٦.

(ع)

أبو عامر بن حبيب: ٣٧٧.

أبو العباس الخزري: ٣٧٧.

أبو العباس بن ذروة: ٣٧٨.

عبد الأعلى بن جريح: ٢١.

عبد الجليل بن وهبون: ٢٣٦، ٢٩٧.

عبد الجليل بن ويجلان، أبو محمد: ٣٨٢.

عبد الرحمن بن أبي عامر: ٧٧.

١٩٨، ٢٠٣، ٢٣٠، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٨١،
 ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٣،
 ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٦٢، ٣٦٧،
 ٣٧٠، ٣٨١، ٣٩٣.
 عبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى:
 ٣٧٩.
 عبد الملك بن أبى الخصال الغافقى: ٣٧٩.
 عبد الملك بن زهر: ٣٨٤.
 عبد الملك بن سكرديد: ٦٤.
 عبد الملك بن مروان: ٢٩٤.
 عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر: ٢١٢،
 ٢١٣.
 عبد المؤمن بن المستنير الجزرى العابدى:
 ١١٧.
 عبد الوارث بن سفيان: ١٠٠.
 عبدالله بن الحبحاب: ٦٣.
 عبيد الله المهدي: ٧٣.
 عثمان بن أبى بكر بن محمد بن عبدالعزيز،
 أبو عمرو: ٢٦٦.
 عثمان بن بدر اللمتوني: ٣٠٦.
 أبو عثمان الخولاني: ١١٧.
 عقبة بن عامر الفهرى: ٢٠، ٥٥، ٥٧، ٥٩،
 ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٧، ١١٥، ١٦٨.
 أبو العلا زهر بن عبد الملك: ٣٧٩، ٣٨٠.
 ابن علقمة: ٢٦٧، ٢٧٣.
 على بن أبى طالب: ٨٦.
 على بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن
 حزمهم: ٣٨٣.
 أبو الحسن على بن الحاج: ٣٠٦.
 على بن زياد التونسي: ٨٢.

عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم: ٣١٠.
 عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم المعافى:
 ٣٧٩.
 عبدالرحمن بن حبيب: ٦٥، ٨٢، ٢٠٦.
 عبدالرحمن بن محمد الحضرمى،
 أبو القاسم: ١١٦.
 عبدالرحمن الناصر: ٧٣، ٢٠٨، ٢٨٤،
 ٣٩١.
 عبدالرحمن بن عبد ربه الربعى: ١١٦،
 ١١٨.
 عبدالعزيز بن سعيد بن القبطورة: ٣٧٩.
 عبدالكريم بن عبدالرحيم الصنهاجى: ٩٧.
 عبدالله بن أبى بكر بن جثونة: ٣٠٦.
 أبو عبدالله بن أبى الخصال: ٣١٠.
 أبو عبد الله بن زنفى: ٣٠٥.
 عبدالله بن إدريس: ٦٧.
 عبدالله بن بلكين: ٤٣، ٢٣٠، ٢٣٢،
 ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧،
 ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣.
 عبدالله التونسي: ٣٨٤.
 عبدالله بن سعد بن أبى السرح: ٢٠٥.
 عبدالله بن تيفاوت: ٩٣.
 أبو عبدالله الشيعى: ١٨٣.
 أبو عبدالله بن عائشة: ٣٦٨.
 أبو عبدالله بن نارشت اللمتوني: ٩٣.
 عبدالله بن ياسين: ٤٥، ٥٥، ٩٣، ٩٥،
 ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤،
 ١٢١، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧،
 ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٣،
 ١٨٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥.

على بن عبدالعزيز الأنصاري : ٣١٠.

على بن عبدالله البجلي : ١٨٣.

على بن عيسى بن ميمون : ٣٤٤، ٢٤٥.

على بن القاسم : ٨٣.

على بن مجنون، الأمير : ٣٠٦.

على بن ميمون : ٣٤٤.

على بن يوسف بن تاشفين : ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧،

٢٧٩، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٨،

٣١١، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥،

٣٤٦، ٣٤٨، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٠،

٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣،

٣٩٤.

أبو علي الفسائي : ٣٧٧.

أبو علي الصدفى : ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٣.

عمر بن إدريس : ٦٧.

عمر بن إمام بن معتز الصنهاجى : ٣٠٦، ٣٨٣.

عمر بن سليمان المسوفى : ١٩٣، ١٩٨.

عمر بن عبدالعزيز : ٦٢.

عمر بن عبدالله المرادى : ٦٣.

أبو عمران بن أبى تليد : ٣٧٨.

أبو عمران الفاسى : ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠١،

١٠٢، ١٠٥.

عمرو بن عبدالله : ٢١.

عياض اليحصبى : ٣٧٦، ٣٧٨.

عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدى : ٣٢٤.

عيسى بن ميمون : ٣٤٤.

(غ)

ابن الغرديس : ٩٧.

الغزالى : ١٥١، ١٦٠، ٢٦٢، ٢٨٠، ٣٨٦،

٣٨٨.

(ف)

فروخ بن سعدون : ١٢٠.

(ق)

القادر بن ذى النون : ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٢.

القاسم بن أبى العافية : ١١٣.

القاسم المكناسى : ١٧٦.

القائم بن عبيد الله : ٧٣.

القائم بن القادر. أبو جعفر عبدالله : ٢٩٤.

أبو قرّة اليفرنى : ٨٢.

القمبياطور : ٢٥١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩،

٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،

٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٤٢، ٣٦٦.

(ك)

كـ سـيلة بن لمزة الأوروبى : ٢٠، ٥٥،

٦٠، ٦١.

كلثوم بن عياض اليحصبى : ٦٤.

كونستانس : ٢١٩.

(ل)

لقوط بن يوسف بن على المغراوى : ١٧٢.

لنّاد بن نصير اللمتونى : ١٣٩.

(م)

مادغيس، جد البتر : ٣٥.

مازيغ بن كتعان : ٣٥.

مالك بن أنس : ٤١، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩٦،

١٠٤، ١٠٨، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٥٤،

١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٦٦،

٣٧٨، ٣٨٦.

مالك بن وهيب : ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٦.

المامون بن المعتمد : ٢٦٤، ٢٩٤.

الموكل بن الأفطس : ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٨،

٢٦٥، ٢٦٤.

مجاهد العامري: ٢٠٦، ٢٠٩.

محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود
الغساني: ٣٢١.

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن السقاط:
٣٧٩.

محمد بن أحمد بن خلف، ابن الحاج:
٣٢٢.

محمد بن أغلب بن أبي الدوس: ٣٧٩.

محمد بن تاشفين، أبو عبدالله: ٣٠٦.

محمد بن تميم الجدالي: ١٩٢.

محمد بن تومرت المصمودي: ٢٤، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠.

محمد بن الحاج، أبو عبدالله: ٢٦٤، ٢٧٦،
٣٠٦، ٣٠٩.

محمد بن حسين بن محمد بن غريب
الأنصاري: ٣٧٩.

محمد بن حكم بن محمد، ابن باقى
الحزامي: ٣٧٩.

أبو محمد بن حكيمون: ١١٧.

محمد بن حيدرة المعافري: ٣٧٨.

محمد بن خزر الزناني: ٧٢، ٧٣، ٧٤،
٧٦.

محمد بن سحنون: ١٢٩.

محمد بن سليمان الكلاعي: ٣٧٩.

محمد بن سوار الأشبوني، أبو بكر: ٣٩٧.

محمد بن عائشة. أبو عبد الله: ٣٠٧.

محمد بن عبد الملك بن عبدالعزيز: ٣٠٩.

أبو محمد بن عتاب: ٣٨٣.

محمد المتعبد، أبو عبدالله: ١١٩.

محمد بن مزدلي: ٢٧٦.

محمد بن مسعود التميمي، أبو بكر: ١١٧.

مخلد بن كيداد، أبو يزيد: ٧٣، ٨٨.

مدرك التلكاتي: ١٩٣.

مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سحنون
اللواتي: ٣٢٢.

مروان بن محمد، الخليفة: ١٨٣.

مريم بنت إبراهيم: ٣٦٣.

مزدلي بن سلنكمان، القائد: ٢٨٧، ٣٠٥،

٣٠٦، ٣١١، ٣٣٧، ٣٨٤.

المستعين بن هود: ٣٦٦، ٢٧٧، ٣٩٧.

ابن مسرة: ٣٦٦، ٣٨٧.

مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي:
١٦٨، ١٦٩.

معاوية بن حديج الكندي: ٢٠٦.

المعتصم بن صمادح: ٥١، ٢٥٤، ٢٦٠،
٢٩٥، ٢٩٧.

المعتمد بن عباد: ١٨٩، ٢١٠، ٢٢٥، ٢٢٧،

٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٤،

٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤،

٢٥٥، ٣٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٥.

المعز بن باديس الصنهاجي: ٨٨، ٩٩، ٣٧٠.

المعز بن زيري بن عطية المغراوي: ٧٦.

المعز بن سقوت: ١٨٩.

المقتدى بأمر الله، الخليفة: ٢٨٠.

مناد بن منقوش: ٧٣.

المنذر بن هود: ٢٦٩.

المنصور بن أبي عامر: ٣٧، ٧٦، ٧٨،

١٨٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٤،

٢٣٤، ٢٤٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٥٣.

مهدي بن يوسف : ١٧٧.

موسى بن أبى العافية: ٧٣، ٧٤، ١٧٧.

موسى بن الحاج: ٣٠٦.

موسى بن حماد الصنهاجى: ٣٨٢.

موسى بن نصير: ٢٠، ٢٥، ٤٤، ٦١، ٦٢،

٦٧، ١٦٨، ١٨٩، ٢٠٥، ٢١١، ٢٨١،

٣٦٥.

ميسرة المطغرى: ٢١، ٦٤، ٨٣.

أبو ميسرة البرغواطى: ٨٢.

ميسور الفتى: ٧٣.

ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى: ٩٧،

١٣٩، ٣٨٣.

(هـ)

هارون الرشيد : ٨٦.

أبو هارون الهوارى: ٧٢.

هشام المؤيد، الخليفة: ٧٦، ٢٢٢، ٢٨٧.

(و)

واصل بن عبدالله اللخمى، أبو السرى:

١٢٠.

واضح الفتى: ١٨٤.

وانور بن أبى بكر: ٣٤٤.

وجاج بن زللو اللمطى: ٩٣، ١٠١، ١٠٢،

١٢١، ١٣٧، ١٤١.

أبو الوليد الباجى: ٢٣١، ٣٧٧.

أبو الوليد بن رشيد: ٣٢٣.

(ى)

يحيى بن إبراهيم الجدالى : ٩٥، ٩٦، ٩٧،

٩٨، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١،

١١٣، ١١٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣،

١٣٤.

يحيى بن أبى بكر بن إبراهيم: ٣٠٦، ٣١٣.

يحيى بن إسحق: ٣٠٦.

يحيى بن بقى: ٣٨٠.

يحيى بن تاسورة، أبو زكريا القائد: ٣٠٦.

يحيى بن سير بن أبى بكر: ٣٠٦.

يحيى بن على بن منصور: ٣٠٦.

يحيى بن عمر اللمتونى: ١١٤، ١٢٤،

١٣٠، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٩٥، ٢٩٤،

٣٠٠، ٣٠١.

يحيى بن غانية، أبو زكريا: ٣٠٦.

يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى، ابن

الصيرفى: ٣٧٩.

أبو يعقوب بن بيتان بن على: ٣٠٦.

يوسف بن تاشفين: ٢٥، ٤٣، ٥٣، ٥٧،

١٦٠، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤،

١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢١١،

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،

٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١،

٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٣،

٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠،

٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،

٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١،

٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٣،

٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦،

٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢،

٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٤،

٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢،

٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣.

يوسف بن مسرور العابد، أبو الفضل:

١١٧.

يوسف بن موسى الكلبي: ٩٦.

يوسف بن نصر، أبو الفضل: ١١٧، ١١٨.

بيتان بن على، أبو عبدالله: ٣٠٦.

فهرس الأمم والقبائل

(خ)

بنو خزرون: ٧٢، ٧٥.

(د)

دكالة قبيلة: ٤٢.

(ز)

زغاوة، قبيلة: ٤٢.

زناتة، قبيلة: ٢٧، ٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨،
٣٧، ٥٨، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٥٧،
٧٦، ٨١، ٨٢، ٩٣، ١٠٤، ١٣٥، ١٣٦،
١٤٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،
١٧٢، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٥،
١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧، ٢٤٠، ٣٤٩،
٣٥٣، ٣٥٦، ٣٧١، ٣٩١.
زواغة، قبيلة: ٣٦، ١٧٦.
زواوة، قبيلة: ٣٦.
زويلة: ٢١٠.

(س)

سدزاتة، قبيلة: ١٧٦.

سرتة، قبيلة: ٤٢.

سمطة، قبيلة: ٤٢.

(ص)

صدينة، قبيلة: ٣٧، ١٧٦.

صنغانة، قبيلة: ٤٧.

صنهاجة: ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١،
٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠،
٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٣،
٧٤، ٧٥، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٣٤، ١٦٦،
١٦٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٥،
١٩١، ١٩٦، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٣١.

(١)

ازداجة، قبيلة: ٣٩.

أوربة، قبيلة: ٣٩.

أويغة، قبيلة: ٣٩.

إيتواري، قبيلة: ٤٢.

(ب)

البر، من شعوب المغرب: ٣١، ٣٣، ٣٤،
٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٥٧، ٧١، ٧٣، ١٦٥،
١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٩،
١٨٤، ٢٨٦.
البرانس، من شعوب المغرب: ٣٣، ٣٤،
٣٥، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٤،
٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٦٥،
١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧،
١٧٩، ١٨٤، ٢١١، ٢١٤، ٢١٦، ٢٨٠.
برغواطة، قبيلة: ٣٧، ٦٥، ١٤٦، ١٧٢،
١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨،
١٩٠، ١٩٢، ١٩٣.
يشكنس، شعب: ٢١٦.

(ت)

ترغة، قبيلة: ٤٢، ٤٦، ٤٨، ٥٣، ٥٩، ٦٧.

تازكاغت، قبيلة: ٤٢.

(ج)

جدالة، قبيلة: ٤٢، ٤٧، ٥٦، ٨١، ٩٣،
٩٤، ٩٥، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١١٢،
١١٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣،
١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ٣٥١.
جزولة، قبيلة: ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٩، ٩٥،
١٠٤، ١٣٤، ١٧٠.

٣٤٩، ٣٦٥، ٣٧٠، ٣٧٢.

(ع)

بنو عزون: ٢٣٤.

(غ)

غمارة، قبيلة: ٣٧، ١٧٦، ١٨٤، ١٩٦، ٣٤٨.

(ق)

قريش: ٢٩١.

(ك)

آل كاييه: ٢٢٠.

كاكدم، قبيلة: ٤٢.

كتامة، قبيلة: ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٧٢، ٢٨٥.

(ل)

لثونة، قبيلة: ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٥٦،

٥٨، ٥٩، ٦٢، ٦٨، ٧١، ٨١، ٩٣، ٩٤،

١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١٣٠، ١٣٤، ١٨١،

١٩١، ١٩٤، ٢٤١، ٢٤٧، ٣٠٠، ٣٠٢،

٣٠٥، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٦،

٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٨١.

لطة، قبيلة: ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٦٧، ٨١،

١٣٤.

لواتة، قبيلة: ٣٦، ١٧٣.

(م)

مديونة، قبيلة: ٣٦، ١٧٦.

المرابطون: ٢٢، ٢٤، ٢٨، ٣٦، ٣٩، ٤١،

٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٧، ٩٠،

١٠٤، ١١٤، ١١٨، ١٢٠، ١٢٥، ٢٠٣،

٢٠٤، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩،

٢٣٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠،

٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٢٥، ٢٩٦، ٢٩٩،

٣٠٢، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٦، ٣١٩،

٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣١،

٣٣٢، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢،

٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩،

٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٨٨،

٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٤.

مزانة، قبيلة: ٣٦.

مسوفة، قبيلة: ٤٢، ٤٧، ٥٦، ٥٩، ٦١،

٩٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٨٦.

مصمودة، المصاملة: ٢٤، ٣١، ٣٧، ٣٨،

٥٨، ٦٦، ٦٨، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٥،

١٨١، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ٣٣٣،

٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٣، ٣٩٤.

مطقرة، قبيلة: ٣٦.

مطماطة، قبيلة: ٣٦.

مغيلة، قبيلة: ٣٦.

الملثمون: ٣١، ٣٤، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧،

٤٩، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٨١،

٨٢، ٩٤، ٩٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٧،

١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،

١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠١،

٢٠٢، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٩٠،

٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٥،

٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩،

٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٦،

٣٦٢، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٥.

ملوك الطوائف: ١٠٥، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٠،

٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٤،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٨،

٢٩٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٩، ٣٣٢،

٣٣٩، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧،

٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٣،
٣٨٨، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٣.

الموحدون: ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٩٠، ١٠٤،
١٤٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥،
١٥٩، ١٩٧، ٢٢٨، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٤٦،
٣٤٨، ٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٨٩، ٣٩٤.

(ن)

النرمان: ٢٠٩، ٢١١، ٢٩٧، ٢٥٠.

نفذة، قبيلة: ٣٦.

نفوسة، قبيلة: ٣٦.

(هـ)

هرغة، قبيلة: ١٢١، ١٥٣.

هزمير، قبيلة: ١٧٢.

هكورة، قبيلة: ٣٩، ٤٢.

بنو هلال: ٢٤، ٣٩، ٥٧، ٧٩، ٨٠، ١٦٦،

١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٥٠، ٢٨٨،

٣٣١، ٣٣٤، ٣٥١، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢.

هواره: ٦٤.

(و)

واشان، قبيلة: ٤٢.

بنو واسول: ٩٤.

بنو ورتنطق: ٤٣، ٣٠٠.

ورلجومة، قبيلة: ٨٢.

(ي)

بنو يفرن: ٧١، ٧٤، ١٠٧، ١٧٨، ١٩١.

فهرس البلدان والمواضع

(١)

٣٩٠.

أقرسيف: ١٧٨.

إقريطش، أوكريت: ٢٠٧.

أقليشن، من مدن أسبانيا: ٢٥٠، ٣٢١.

ألبرسين، من مدن أسبانيا: ٢٦٩.

البونت: ٢٦٩.

ألمانيا: ٢١٤.

بلاد الأندلس: ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٣٦،

٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٥٢، ٦٢، ٦٤، ٧٠،

٧٢، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٨٦،

٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥،

١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٩،

١٤٤، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٣، ١٦٦،

١٦٧، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٦،

١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١،

٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩،

٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧،

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤،

٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١،

٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٥،

٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٤،

٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠،

٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٧٥.

أودغشت: ٤٧، ٦٠، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧١،

٨٠، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١٣١،

١٣٢، ١٣٣، ١٨٠، ٣٤٧، ٣٥٠.

أوراس، جبال: ٣٧، ٣٨، ٥٧، ٧١.

أريونة: ٢١١.

أوغونة: ٢١٦، ٢١٩، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٥،

٢٧٧.

أركى، مدينة بالمغرب الأقصى: ٤٦، ٦٩.

أزقى، مدينة بصحراء المغرب: ٦٠.

أزواد، صحراء تيسر: ٤٧.

الإسكندرية: ٢٨٠، ٢٥٠.

بلاد أشتوريش: ٢١٤، ٢١٥.

أشبيلية: ٩٩، ١٠٠، ١٨٩، ٢٠٨، ٢١٠،

٢١٨، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٤،

٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٥٩،

٢٦٤، ٢٩٦، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٢١،

٣٥٨، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٢،

٣٩٣.

أشير، مدينة بالمغرب الأوسط: ٧٤.

أصيلا، من مدن المغرب: ٩٦.

أغمات: ٢٤، ٦٢، ٦٧، ٩٦، ٩٩، ١٥٥،

١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٩١، ١٩٨،

٣٠٩، ٣١١، ٣٤٧، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٦،

٣٩١.

إفريقية: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥،

٣٠، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٤، ٤٨، ٥٥، ٥٨،

٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٧٢، ٧٣، ٨٠، ٩٧،

١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٩،

١٥٩، ١٦٦، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٤،

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣١، ٢٤٦، ٢٨٦، ٣٤٥،

٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٨٦.

أوروبا: ٨١، ١٢١، ١٢٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٣٦٦، ٣٧٧.	٢١٥، ٢١٧، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٤٩، ٣٥٢.
البليار، جزر: ٢٠٨، ٣٤٤.	٣٨٠.
بنيلونة: ٢١١، ٢١٥.	أوليل، مدينة بالمغرب الأقصى: ٤٧، ٥٦.
البندقية: ٢٠٩.	٨١، ١١٢.
بونة: ٢٠٩.	الإيسرو، نهر: ٢١٥، ٢١٦، ٢٥١، ٢٦٦.
بياسة: ٢٦٥.	٢٧٧.
بييار: ٢٦٥.	أيدة، من مدن الأندلس: ٢٦٥.
بيت المقدس: ٢٧٠، ٢٨١، ٢٩٠.	إيطاليا: ١١٥، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧.
بيرين: ٢٧٥.	٢٨٨، ٣٤٥، ٣٥٠.
بيزة: ٢٠٩، ٢٦٦.	

(ت)

(ب)

تاجة، نهر: ٢١٩، ٢٣٧.	باريس: ٥٠.
تادلة: ٦٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٨.	بجاية: ٩٩.
تادمكة: ٤٦، ٤٧.	البحر الأبيض المتوسط: ٢٨، ٣٠، ٤٢، ٥٦.
تادر ودانت: ٥٩، ١١٢، ٢٨٢.	١٢١، ١٦٣، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٣، ٢٠٤.
تازة، أوتازا: ٢٦، ٣٦، ٣٩، ١١١، ١٢١.	٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٨٨.
تافللت: ٥٦، ١٦٨، ٢٥٢.	٢٨٩، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩.
تاكراوت: ٣٢١.	بريشتر: ٢١٢، ٢١٧.
تامسنا: ٦٦، ١٩٨.	برجندية: ٢٧٨.
تانسيف، نهر: ٣٩٤.	برجونية: ٢١٩.
تبليلا: ١٧٠، ١٨٦، ١٩٧.	برشلونة: ٢١٥، ٢١٦، ٢٦٨، ٢٤٤.
تتري: ٣٩.	برغش: ٢٦٨.
تول: ١٧٧.	برقة: ١٩، ٨٧، ١١٥، ٢٠٥.
التكرور: ٤٠، ٥٩، ١٣٢.	بطلبوس: ٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩.
تلمسان: ٤٤، ٥٨، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٧٤.	٢٥٤، ٢٦٤، ٣٧٧.
٨٢، ٩٧، ١٧٨، ١٩٧، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١.	بغداد: ١٥٣، ١٥٦، ٢٩١، ٢٩٢.
٣٤٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٤.	بلنسية: ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٥١، ٢٥٢.
تمارون: ٢١٦.	٢٥٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩.
تنس: ١٧٨.	٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧.
تهودة: ٦٠.	٢٧٨، ٢٧٥، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩.

توان: ٥٦، ١٨٣.

تور: ٢١١.

تونس: ٣٧، ٧١.

تيجنان: ٦٧.

تيطنقطر، رباط: ١٢١.

تيما ماناوت، قرية: ١٠٣.

التيسر، نهر: ٢٠٧.

تيهرت: ٧٢، ٧٤.

(ج)

جبال أطلس: ١٨٧، ٣٤٧، ٣٩٤.

جبل طارق: ٢٥، ٢٣٠، ٣٧٦.

جدومية: ١٧١.

بلاد الجريد: ٣٦.

الجزائر: ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٥٨، ١٧٢.

الجزيرة الخضراء: ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٥، ٢٥٠.

٢٥٣، ٢٦٠.

جزيرة شقر: ٢٧٦.

جزيرة طريف: ٢٦٢.

جليقية: ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.

جنوة: ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٦٦.

جيان: ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٧٨.

(ح)

الحجاز: ١٠٠.

(د)

دار الحجر: ١٩٧.

دانية: ٢٥١.

جبال درن: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٤٦.

٥٩، ٦٧، ٦٨، ٧١، ١٠٣، ١١٢، ١٢٥.

١٣٤، ١٣٥، ١٦٣، ١٦٨، ١٧١.

دلاشيا: ٢٠٧.

دوكالة: ٩٦، ٣٠٥.

دويرة: ٢١٥، ٢١٦.

(ر)

الركة: ٣٩٠.

الرحلة، وادي: ٢١٦، ٢١٨.

رنلة: ٢٦٤.

رودس: ٢٠٥.

روما: ٢٠٧، ٢١٩.

(ز)

الزاب: ٢٣٣.

الزلاقة: ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٣٤٢، ٢٤٤.

٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦.

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٦.

٢٧٧، ٢٩٢، ٣٣٠، ٣٤١.

(س)

سامراء: ٣٩٠.

سبنة: ٢٤، ٦١، ٧٦، ٨٠، ٩٦، ١٠٤.

١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٠، ٢٢٩.

٢٣١، ٢٦٢، ٢٨٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٣.

٣٢٢، ٣٤٣، ٣٧١، ٣٧٦.

سبوا، وادي: ٢٧.

سجلماصة: ٤٧، ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٧، ٧٠.

٧١، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٩٦، ٩٧، ١٠٨.

١١٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٦٧، ١٦٩، ١٨٠.

١٨٢، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨.

٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٤٧.

سردانية: ٦٥، ١١٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

٢٠٩.

سرقسطة: ٩٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥١.

٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٧٩، ٣٠٦.

٣٠٩، ٣٦٩، ٣٧٧.

سرقوسة: ٢٠٦.

سلا: ٧١، ١٢١، ١٩٠، ٢٠٩، ٣١١، ٣٢٦.

سلمية: ٣٣٦.

السفال: ٢٥، ٣٠، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٩٤.

١٠٣، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢١، ١٢٤.

١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٤٧.

١٦٣، ٢٠٣، ٢٤٣، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٠١.

٣٢٨، ٣٣١.

سنلوكة: ٣١٧.

السهلة: ٢٦٥، ٢٧٦.

السودان الغربي: ٢٤، ٢٥، ٤١، ٤٥، ٤٧.

٥٩، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ٨١، ٩٤، ٩٥.

١٠٣، ١٠٤، ١٢١، ١٣٥، ١٦٣، ١٦٥.

١٨٦، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣٣١.

٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥.

بلاد السوس: ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

١٠١، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٨.

٣٤٧.

سوسة: ١٢١.

(ش)

شاطبة: ٢٥١، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٩١.

بلاد الشام: ٥٧، ٦٦، ١٢٢، ١٢٣، ٢٠٥.

٣٢٠، ٣٤٥، ٣٩٠.

سنت ياقب: ٢١٥.

شقشاقوة من مدن المغرب الأقصى: ١٧١.

شقورة: ٢٥٤، ٢٦٥.

شلب: ٢٦٥، ٣٧٧.

شتارين: ٢٦٥، ٣٤٢.

شتمرية الشرقي: ٢٦٥.

(ص)

صقليسة: ٦٥، ٩٩، ١١٥، ١٢٩، ٢٠٦.

٢٠٧، ٢٠٩، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٤٥.

صيفرو، قلعة بالمغرب: ١٧٦.

(ط)

طارنت: ٢٠٧.

طينة: ٧٤.

طرابلس: ١٩، ٣٧، ٤٥، ٥٧، ٦٤، ٧٢.

طرطوشة: ٢٠٨، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٧٧.

طرقونة: ٢٠٨.

طليطلة: ٢١٨، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٥١.

٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩، ٣٦٦.

طنجة: ٤٠، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٩٦، ١٨٣.

١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣.

١٩٨، ٢١٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٨٨، ٣٢٢.

٣٣٧، ٣٤٢.

طولون، ميناء: ٢٥١.

(ع)

عجيسة: ٣٩.

العراق: ١٠٠، ٣٢٠، ٣٩٠.

(غ)

غالبسيا: ٢١٩.

غانة: ٤٦، ٤٧، ٥٩، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨١.

٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤.

غدامس: ٣٧، ٣٥.

غرناطة: ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧.

٢٥٣، ٣٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤.

٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٢١، ٣٦٥.

٣٦٦، ٣٧٧، ٣٨٢.

(ف)

فازان: ١٩٨، ١٧٣.

قورية: ٢٣٩.

فاس: ٢٤، ٢٦، ٦٢، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٣،

قوصرة: ٢٠٧.

٧٤، ٧٧، ٧٩، ٩٨، ٩٩، ١٧٠، ١٧٢،

قونقة: ٢٥٠، ٣٠٩.

١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٧،

القيروان: ٢٠، ٢١، ٢٤، ٥٧، ٦٠، ٦٤،

١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ٣٠٥،

٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠١،

٣١١، ٣٥٥، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٣،

٢٠٢، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٥،

٣٧٦، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣.

١١٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠،

فرنسا: ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٩، ٢٥١، ٢٧٧،

١٥١، ٢٨٥، ٣٤٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٩٠.

(ك)

٣٤٥.

كانم: ٨٠.

فزان ٤٨، ٨٠.

كوكو: ٤٧.

فلورنسا: ٣٥٢.

(ل)

(ق)

لاردة: ٢٥١، ٢٦٩.

قابس: ٦٤.

لانجدوك: ٢٥١.

القادسية: ٢٤٦.

لماية: ١٧٦.

قادش: ٣٤٤.

لبون: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٧٧،

قبرص: ٢٠٥.

٢٨٨، ٣٦٤، ٣٦٥.

قرسقة: ٢٠٦.

ليط، حصن: ٢٢١.

قرطاجنة: ٥٧، ٢٠٨.

(م)

قرطبة: ٧٣، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ٢١٩، ٢٣١،

ماسة: ٥٩، ٦١، ١٧٠.

٢٣٤، ٢٥٠، ٢٦٤، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦،

ملقة: ٢٠٦، ٢٥٣، ٢٦٣، ٣٠٩.

٣٠٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٥٢،

مراكش: ٢٤، ٢٨، ٣٨، ٥٦، ١٥٥، ١٥٦،

٣٦٢، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٤.

١٥٧، ١٧١، ١٧٥، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٨،

قرمونة: ٢٦٤.

٢٣٠، ٢٧٩، ٢٨٧، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٩،

القسطنطينية: ٢٠٤، ٣٥٢.

٣١٠، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٤٦،

قششالة: ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩،

٣٤٧، ٣٥٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٠٤، ٣٨٣،

٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠،

٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤.

٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٦٤.

مريطر: ٢٧٥، ٢٧٦.

قطالونية: ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٧٨.

مرسيليا: ٢٠٨.

قلمرية: ٢١٥، ٢١٨.

مرسية: ٢٢١، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،

قمونية: ١١٩.

هذا الكتاب



الدكتور/ حسن أحمد محمود

* من مواليد المنيا عام ١٩١٦م، تلقى تعليمه الثانوي بمدارس القاهرة، ثم حصل على درجة الليسانس في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٤٤م، وفي عام ١٩٤٨م، نال درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي مع مرتبة الشرف الأولى، تدرج في سلك العمل الجامعي فعين معيدا بكلية الآداب حتى حصل على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي عام ١٩٥٣م، فعين مدرسا للتاريخ الإسلامي ثم أستاذا مساعدا بقسم التاريخ حتى وصل إلى درجة أستاذ في التاريخ الإسلامي.

* وخلال ذلك أشرف على العديد من الرسائل العلمية. وقد أعير للعمل في جامعات الخرطوم، والكويت، وجامعة الملك سعود، وجامعة البصرة، والمؤلف أثرى المكتبة التاريخية الإسلامية بالعديد من المؤلفات التي كان لها أبلغ الأثر في توجيه دراسات التاريخ الإسلامي في مصر وسائر المنطقة العربية.

دولة المرابطين، رغم ما لها من أهمية، وخطر في تاريخ الحضارة الإسلامية، لم ينفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين، ببحث تاريخها في كتاب واحد، بل جاءت أخبارها مبعثرة في ثنايا الكتب، كالمات عابرة، لاترعى غلة، ولا تنفع صدى، ولا تكشف عن الدور الخطير الذي قامت به هذه الدولة.

لذلك كانت المكتبة العربية في حاجة ماسة إلى كتاب يبين ما بذلته هذه الدولة من جهود، وما نهضت به من نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي، وبث الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية، وكيف توسعت صوب الشمال فاقترحت ميدان المغرب والأندلس بقيادة أميرها «يوسف بن تاشفين»، وشاركت في معركة الجهاد فأثقلت الإسلام بما كان يوشك أن يتردى فيه من مخاطر، فقد جاهدت دولة المرابطين في البر والبحر، وراحت أساطيلها تشق العباب، وتقف لسنن القرعجة بالمرصاد، وتقف في وجه ملوك النصارى والبابوية الناهضة، وتنازعهم السيادة. وماكانت معركة «الزلاقة» إلا أبغ دليل على جهادهم.

وهذه كلها أعمال تستوجب من المؤرخين أن يشحذوا همهم في البحث، والتنقيب عما خلفه المرابطون من تراث مجيد تليد، يستحق العناية في نقى أخبارهم، وتدوين تاريخهم بطريقة علمية حديثة، مبنية على النقد والتحليل، وتلقى ضوءا براقا على ما تركوه من آثار لا تزال في حاجة إلى العناية والتسجيل.

وهذا الكتاب يؤدي الواجب تجاه هذه الدولة، إذ مضى به المؤلف في طرين البحث قدما، ويجهد مخلص دهب استطاع أن يحصل على المادة التاريخية المبعثرة في بطون عشرات المصادر، وبصير المحقق وأثاته جمع متفرقها، وضم شتاتها، ونسج من خيوطها الموزعة هذا العمل المتكامل المتناسك، فأسهم بنصيب لا ينكر في تدوين تاريخ قيام هذه الدولة، وكشف النقاب عن الدور الخطير الذي أدته في تاريخ الحضارة الإسلامية. فجاء الكتاب بذلك عملا غير مسبوق، وقطرة نرجو أن يتبعها المؤرخون بالغيث الوفير.

الناشر

تطلب جميع نشراتنا من وكيلنا الوحيد بدولة الكويت

دار الكتاب الحديث